الطبعة 10

@ketab_n
Follow Me
17.9.2015

عبدالمجيد الفياض

رواية

ثمانون عاماً في انتظار الموت!

مدارك

عبدالمجيد الفياض

رواية

ثمانون عاماً في انتظار الموت!

Twitter: @ketab_n

رواية

ثمانون عاماً في انتظار الموت!

عبدالمجيد الفياض

Twitter: @ketab_n

الكتاب: ثمانون عاماً في انتظار الموت!

المؤلف: عبدالمجيد الفياض

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: نوفمبر (تشرين الثاني) 2012
الطبعة العاشرة: يونيو (حزيران) 2014

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-425-28-1

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة ورقات
www.warqat.com

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ مدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.

Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أزف الفراق فهل أودعُ صامتاً

أم أنتَ مُصغٍ للعتابِ فأعتبُ!

«المتنبي»

Twitter: @ketab_n

فتحتُ عينيّ بتثاقل شديد وسط الظلام الذي تتخلله أضواء خافتة من أشعة الشمس المتسربة من بين الستائر. حانت التفاتة مني نحو الساعة وفوجئتُ حين رأيتُ الوقت؛ فقد تأخرت على موعدي الذي انتظرته منذ فترة ليست بالقصيرة. نهضت بسرعة بالغة وغسلت وجهي وأخذت أجمع أوراقي والمستندات والوثائق التي أحتاجها على عجل. أين الطاقية والشماغ؟ أين هما يا تُرى؟ أوه نعم، لقد تذكرت، لقد تركتهما في السيارة. أخذت أرتدي الثوب وأنا أنزل من على الدرج لكي أستفيد من هذه الثواني التي كانت ستضيع في ارتداء الثوب. وحينما نفكر في الأمر نجد بأنه من العجيب قدرتنا نحن البشر على أداء العديد من المهمات في وقت واحد وعلى إنجاز العديد من الواجبات والأهداف في وقت قصير متى ما حتّم الوقت علينا ذلك وبات لزامًا علينا إنجازها ضمن وقت محدد وقصير. ودع عنك ما يقوله الباحثون من أن الرجل لا يستطيع التركيز على أكثر من مهمة واحدة في الوقت نفسه على العكس من المرأة التي بإمكانها -مثلاً- أن تُرضع طفلها وتطبخ الغداء وفي ذات الوقت تُكلم صديقتها بهاتفها الجوال!

- ولكن هذا مُثبتٌ علمياً يا أحمد.

قالها أبو فهد بشيء من البرود المعتاد منه؛ فقد اعتاد أن يقطع كل فكرة ويُنهي كل نظرية إبداعية من بنات أفكاري بمثل هذا النوع من العبارات القاتلة.

- لا تدعهم يخدعونك يا أبا فهد بإحصائياتهم ودراساتهم ومراكز البحوث التي يتشدقون بها. هم لا يختلفون عنا بشيء! وفي

Twitter: @ketab_n

المثل الشهير يقولون أعطِ حاجتك لشخص مشغول، وقصدهم أنّ هذا الشخص المشغول سينجز ما تريده برغم انشغاله، في حين أنَّ من يكون جل وقته فراغاً ودَعةً فإنه على الأغلب لن يقوم بأداء أي مهمة على الأقل في الوقت المناسب؛ لأنه سيبدأ في التسويف والتأجيل اعتقادًا منه بأنّه يملك كل الوقت المتاح في العالم حتى إذا دنت لحظة الصفر وحان وقت الحسم بدأ يضرب أخماساً بأسداس ويَحُثُّ الخُطى كيفما اتفق وبعد فوات الأوان.

- إلى الآن لم تقنعني، ومن ثم فإنك تخالف الآية: «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»!

كان يتحدث بصوتٍ أقرب إلى الهمس وهو يعبث بهاتفه «الآيفون».

- المعذرة يا أبا فهد، ولكنني لن أتناقش معك وأنت منشغل بالطيور الغاضبة! لأنك ببساطة تناقض نفسك وتدعي بأنك قادر على أداء عملين في آن واحد بطريقتك؛ اللعب والنقاش!

ارتفعت عيناه بدهشة، ثم أخذ يضحك وهو يغلق هاتفه ويضعه على الطاولة وهو يتمتم قائلاً: إنها «أنجري بيردز» وليست الطيور الغاضبة يا سيبويه!

في تلك الأثناء دخل قاعة الانتظار شابٌ عشريني متأنق ويحمل في يديه ورقة صفراء وتحدّث للمتواجدين:

Twitter: @ketab_n

- أين الأستاذ أحمد عبد الرحمن؟

فنهضت على الفور وقلت بزهوٍ أكاد أخفيه:

- هذا أنا، هذا أنا!

فأشار إليّ بأن أتبعه بعد أن نظر إلي بشيء من الاحتقار، وسرنا في دهليز ضيق حتى وصلنا إلى قاعة فسيحة في وسطها كان يوجد باب عليه لافتة تقول (مكتب المدير العام) فطرق الباب قبل أن يؤذن له بالدخول، حيث طلب مني أن أدخل، وعاد من جديد من حيث أتى. حين دخلت أبهرني مكتب المدير، إذ كان واسعاً حتى ليُخيَّلُ إليك بأنه من الممكن أن تُقام مباريات كرة القدم للمنتخب السعودي فيه حينما تجري الإصلاحات السنوية في استاد الملك فهد الدولي، ليس هذا فحسب بل وكانت اللوحات الزيتية الرائعة تنتشر في المكان تماماً كما لو كنت في متحف اللوفر، ناهيك عن الشجيرات والورود الصناعية والطبيعية التي تفوح منها رائحة جذابة يُخيّل إليك معها بأنك قد دخلت للتو في حديقة غنَّاء.

كان يقف خلف المكتب رجل أربعيني شديد السمنة وأبيض البشرة وحليق الوجه، تذكرت حينها الممثل المحلي فهد الحيان وابتسمت تلقائياً على صدى هذه الفكرة ولأتدارك أمر الابتسامة المفاجئة بادرته بالسلام، حيث وقف وردّ التحية بالمقابل وطلب مني الجلوس عنده وهو يطيل النظر إليّ.

Twitter: @ketab_n

أخذ يقلب أوراقي في صمت دام عدة دقائق قبل أن يضع النظارة جانبًا ويكسر حاجز الصمت:

- بصراحة لا أخفي إعجابي بسيرتك الذاتية، ومن الغريب أن نجد شخصًا في مثل سنك قد استطاعٍ أن ينجز جميع هذه المهام وينال هذه الشهادات والخبرات، لكن أولاً أود أن أسألك سؤالاً، كيف استطعت الحصول على درجة 99 في اختبار القدرات؟

تظاهرت بالخجل، وأطرقت قليلاً، ومن ثم أجبته:

- حسناً، لقد اعتدت منذ نعومة أظفاري على أن أقرأ كثيرا في شتى المجالات، وأظن بأنّ ثقافتي العالية وإجادتي للرياضيات ساعداني بعد توفيق الله في الحصول على هذه الدرجة.

ضحك ضحكة صاخبة وقال:

- يبدو بأنني سأطلب منك أن تعطي ابني دورة قبل اختباره فلقد حصل في أول اختبار له على درجة سيئة، خصوصاً وأنك تبدو قريباً منه في السن.

ابتسمتُ بإيماءةٍ مني قبل أن يُواصل حديثه بجدية رأيتها للمرة الأولى منذ دخولي عليه:

- والآن أريد منك أن تخبرني بصراحة، لماذا تريد العمل في شركتنا هذه بالذات، مع أن مؤهلاتك تتيح لكَ العمل في أماكن أخرى أرقى بكثير، هل أنت جادّ فعلاً أم أنك تقدم لغرض التقديم ليس إلا؟

Twitter: @ketab_n

- تنحنحتُ قليلاً ثم أجبته:

في الحقيقة جذبني لشركتكم عدة أمور، فهي وإن كانت ليست بمستوى الشركات والمؤسسات الكبرى إلا أنها تتيح لي عدداً من المزايا التي قد لا أجدها إلاّ هنا، ومن أهمها القدرة على الاستقالة في أي وقت دون تحمل أي تبعات أخرى و ...

قاطعني بتجهّم: أفهم من هذا أنك لا تخطط للبقاء طويلاً؟!

- كلا، ليس هذا ما قصدته، ولكنّي في الوقت الحالي قدمت أوراقي من أجل أن أكمل دراساتي العليا في الجامعة ومتى ما جاءت الموافقة وتيسر الأمر فوقتها من المحتمل أن أقدم استقالتي.

- آها، فهمت.

*****

Twitter: @ketab_n

- اتصلتُ على مازن (أبي فهد) عندما خرجتُ ولم أجده في قاعة الانتظار حيث أبلغني عن مكانه، فتوجهت مباشرة إلى المواقف الخارجية حيث كان ينتظرني في سيارته «المرسيديس». فتحت الباب وركبت معه وسلمت عليه وقلت بعد أن تنهدت تنهيدة عميقة:

- أخيراً حصلتُ على وظيفة.

أقبل إليّ أبو فهد بوجهه وقال بقلق:

- ألا تخشى أن يكتشف حقيقة أمرك؟

- لا أظنّ ذلك، بدا عليه الارتياح بشكل كامل.

- ألم يسألك عن عمرك؟

- كلا، وعلى أية حال فقد تعجب من اختياري لشركتهم بالذات مع قدرتي على الحصول على وظائف أفضل في أماكن أخرى.

- لقد حذرتك من ذلك، لم يكن هناك داعٍ لجعل أوراقك وشهاداتك تظهرك على أنك آينشتاين أو إديسون، كان عليك أن لا تجعل سيرتك الذاتية ملفتة للأنظار بهذا الشكل، كل المطلوب أن تحصل على الوظيفة لا أن تنتزع الإعجاب ومن ثم تجلب الشكوك حولك!

التفتَ إليّ أبو فهد. كان الشيب قد غزا لحيته الخفيفة والتجاعيد قد تناثرت على وجهه وآثار كبر السن قد برزت بوضوح عليه. وضعتُ يدي على كتفه وقلت له وأنا أنظر في عينيه:

Twitter: @ketab_n

- لا داعي للقلق، أنا واثق هذه المرة، ولا أريدك أن تشغل بالك بي، فلقد أتعبتُك معي لأكثر من خمسين سنة، وقد جاء الوقت الذي يجب أن تزيل عبئي من على كاهلك.

هز أبو فهد رأسه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة قائلاً: تعلم علم اليقين أنني لا أستطيع ذلك.

ولم يكد يُكمل جملته حتى رنّ هاتفه الجوال: نعم؟ الحمد لله بخير. كلا لا تنتظروني، سأتناول الغداء مع أحد الأصدقاء. حسناً. مع السلامة.

حانت منه التفاتة سريعة نحوي فرأى علامات الدهشة بادية على محياي وأجاب سريعاً:

- لا أعتقد بأنك سترفض تناول وجبة غداء مع صديق عمرك في أرقى مطاعم الرياض.

- بالتأكيد لن أمانع مادمتَ ستدفع ثمن الغداء!

ضحكنا سوياً. وقصد حي العليا باتجاه المطعم المنشود.

كانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وكانت الساعة هي الثانية بعد الظهر، وبالتالي لم يكن غريباً أن تشهد المدينة وحي العليا بالذات هذا الازدحام الشديد نظرًا لخروج الموظفين والموظفات من دواماتهم.

Twitter: @ketab_n

كان الجميع منهمكاً في عمله. كلٌّ يسير لهدف وغاية منشودة. كلٌّ غارق في عمله ومنغمس في حياته ويبحث عن هدف واحد؛ هو المال. هذا السعي المحموم نحو المال، الذي هو عصب الحياة وأساس المعيشة، لو كان متوفرًا بيد كل أحد لاستغنى كل شخص عن الآخر ولتوقف العالم عن الحركة تماماً وأصبح من المستحيل العيش فيه...

قطع تفكيري أبو فهد بابتسامته المعهودة قائلاً:

- لماذا أنت صامت؟! إلى أين وصلت؟!

- لا شيء يا مازن، كنتُ فقط أفكر في هذا الزحام والسعي الحثيث من أجل لقمة العيش التي يوفرها المال، وكيف لو أنّ كل أحد استغنى بنفسه لانسد شريان الحياة وكان العيش ضرباً من ضروب المستحيل حينها.

- نعم، أعتقد بأنّ هذا مصداق للآية «..ليتَّخِذَ بعضُهُم بعضًا سُخريا.»

ابتسمتُ ابتسامة ساخرة وقلت:

- ماشاء الله، أصبحتَ مؤخراً تستشهد بآيةٍ في كل موضع، رفقاً بنا يا مُفتي عام المملكة!

وصلنا إلى المكان. كان مبنىً كبيراً بُني على الطراز الأمريكي، وقد اكتظت السيارات في مواقفه الخارجية. ولحسن الحظ وجدنا رجلاً وزوجته كانا يهمان بالخروج، فصحت بحماسة وأنا أقفز فرحاً

Twitter: @ketab_n

خارج السيارة:

- هذا يوم سعدنا!

- علّق حينها أبو فهد بنبرة استفزازية قائلاً:

- يبدو أنك الآن تمثل عمرك الخارجي حقًّا.

- هل تظن بأنّ كل الناس هرِمون مثلك!

- المُضحك في الموضوع هو بأنك تكبرني بأربعة أشهر، ولو بدر هذا التصرف الذي قمتَ به مني لنظر الكل إليّ نظرة لومٍ وتأنيب ولحمدوا الله كثيراً على نعمة العقل!

دخلنا إلى المطعم، حيث طلب منا أحد العاملين فيه بأن ننتظر قليلاً لحين توفر طاولة حيث أن جميع الطاولات كانت مشغولة. جلسنا في حجرة صغيرة يوجد فيها مرتبة إسفنجية في جميع جهاتها الأربع. وقد كان أمامنا شابان في مقتبل العمر وكان أحدهما ينظر إلى ساعته بقلق وقد انفجر في وجه أحد العاملين الأجانب في المطعم قائلاً: «إنّ لنا هنا ما يزيد على ربع ساعة ونحن ننتظر، وقد قلتَ لنا منذ البداية بأنه يتوجب علينا الانتظار بضع دقائق فحسب!» كان يصرخ بحنق، وصاحبه عبثاً يحاول تهدئته، قبل أن يجيء مدير المطعم ويحلّ الموضوع بطريقة دبلوماسية حيث وفرّ لهم طاولة بلمح البصر ووعد بتقديم المقبلات مجاناً لهما.

Twitter: @ketab_n

التفتُّ إلي أبي فهد وقلتُ له:

- رفيقنا صرخ قليلاً فحصل على المقبلات مجاناً، أتفكر فيما أفكرُ فيه؟

صداقتي الروحية التي امتدت مع أبي فهد لأكثر من خمسين سنة جعلت من السهل للغاية أن يفهم أحدنا الآخر بمجرد نظرات العيون. ضحك أبو فهد وقال: لنصرخ كثيراً ونحصل على وجبة كاملة مجاناً!

لم تكد تمر دقيقتان حتى جاءنا النادل وقادنا نحو طاولة في منتصف المطعم، وهو للأسف المكان الأسوأ بالنسبة لي؛ ففي أي مكان عام لا أحبذ الجلوس في المنتصف حيث تكون محط أنظار الغادي والرائح وربما تندرهم أيضًا.

جلسنا على الطاولة وطلبنا بعض المقبلات لتأتي في البداية قبل الطبق الرئيسي الذي طلبناه. وفي غمرة استمتاعي بتجميع حبات الذرة المتناثرة على السلطة نهرني أبو فهد قائلاً:

- لا أدري إلى متى ستستمر في طريقتك الرجعية هذه! نحن الآن في مكان راقٍ، ومن العيب أن تأكل بهذه الطريقة المتخلفة!

- أخبرني متى تمدنتَ أنت أصلاً؟! منذ أن عرفتك وأنا من ينصحك بالتحضر والرقي.

- غير صحيح!

Twitter: @ketab_n

- نعم غير صحيح، منذ أن اشتريتَ جهاز (الآيفون) وأنت مُتغير جذريا، أصبحت تلعب في الجهاز كثيراً، وتنتهج أسلوباً لا يليق بك، يبدو بأنها المراهقة المتأخرة!

قلتها وأنا أضحك، ووضع أبوفهد بدوره إصبعه على فمه في إشارةٍ منه لي بأن أصمت وهو يرمقني بنظراتٍ غاضبة نظراً لمجيء النادل وهو يحمل بيديه الدجاج المشوي والأرز المسلوق الذي كنا طلبناه.

في أثناء انهماكنا بتناول الطعام تفاجأت بصوتٍ قادم من خلفي: «أبا عبدالله، السلام عليكم!»

التفتّ وإذا بشابٍّ في العشرين من عمره وما إن وقعت عيناي على عينيه إلا ولمحت نظرة دهشة وتعجب تبوح بهما عيناه.

قبّل رأس أبي فهد ومن ثم صافحني. وبارتباك لم يستطع أبوفهد إخفاءه قام بتعريف أحدنا على الآخر قائلاً:

- أحمد، هذا صديق ابني عبدالله...

وتلكأ أبوفهد وبدا وكأنه يُحاول جاهداً تذكر الاسم، فتدارك الشاب الموقف وقال مُتمماً الجملة:

- منصور.

- أوه آسف، بالفعل منصور! اعذرني يابُني فذاكرتي ليست على ما يرام هذه الأيام. ويا منصور هذا أحمد..

Twitter: @ketab_n

نظرت إليه بحرج وتلعثمتُ وأنا أبحث عن تعريف مناسب لنوع العلاقة التي تربطني بوالد صديقه فقلت بسرعة وبلا تفكير:

- أهلا بك، إنّ أبا فهد زميلي سابقاً في العمل.

- أهلاً بك.

قالها وهو ينظر إليّ نظرة ملؤها الارتياب والشك، ومن ثم ودعنا ورحل. كانت عيناي تتبعانه وهو في طريقه نحو الباب، وقبل أن يخرج دنت منه التفاتة سريعة نحوي ونظر نظرةً لم تختلف عن سابقتها كثيراً، غير أني أحسستُ بأنّ فيها هذه المرة شيئًا من الاحتقار والاشمئزاز!

لم يكد يخرج حتى صبّ أبو فهد جام غضبه عليّ:

- زميلٌ سابق لك؟! هل أنت جادّ؟! ألم تجد إجابة أفضل من هذه؟!

قلتُ بنبرة اعتذار:

- صدقني لم يتبادر إلى ذهني سوى هذه. وأدرك الآن بأنها لم تكن إجابة مثالية..

- لم تكن مثالية؟! فقط؟! أهذا ما قدرتَ عليه؟! بل قل إجابة غبية، إجابة سقيمة، إجابة لا تخرج إلا من فم شخص ساذج، من فم شخص أحمق...!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. صدقني لم أجد سوى هذه الإجابة.

Twitter: @ketab_n

وأكملتُ بنبرةٍ منفعلة:

- ومن ثم ما أدراني بأنّ أصدقاء أبنائك الذين مافتئت «تُفَرّخهم» هنا وهناك سيداهمونني من خلفي! لقد تفاجأت بوجوده، ومن ثم تحدثتُ بأوّل أمرٍ خطر ببالي لأنني لم أرغب في أن أتلكأ أو أتأخر في توضيح نوع العلاقة حتى لا يظنني أكذب عليه..

- في الواقع، لم يكن هناك داعٍ لتوضيح نوع العلاقة. لو صمتّ وتركت عنك التحذلق لكان أفضل.

- كيف لم يكن هناك داعٍ لتوضيحها؟! ألن تعتقد بأنّ صديق ابنك الفضولي هذا سيجد أن جلوسَ رجل في الخامسة والستين من عمره برفقة فتى وسيم لم يتجاوز الثامنة عشرة أمراً مثيراً للاستغراب؟!

- حسناً، أنت أكبرُ مني سناً.

- قل له ذلك إذاً..

قلتها بغضب، ومن العجيب بأنّ أبا فهد بدأ في تهدئتي وأخذ يقلل من حجم الأمر بعد أن كان غاضباً في البداية، حيث انقلبت الأدوار بلمح البصر:

- لا داعي لأن تغضب، دعنا نكمل غداءنا، ولا أظن أنّ الموقف يستحق أن نكدر صفو هذه الجلسة الرائعة من أجله يا أحمد.

تناولت الملعقة من على الطاولة من دون أن أجيب عليه حيث تظاهرت بالتبرم والامتعاض في الوقت الذي ظللتُ أصارع فيه رغبة

Twitter: @ketab_n

داخلية عارمة بالضحك!

أنزلني أبو فهد عند سيارتي وودعني وهو يؤكد بأنّه سيزورني في وظيفتي الجديدة بعد أيام. توجهتُ إلى شقتي وكل ما أرغب به هو الاستلقاء وسط حوض الحمام البارد، وأن أنام فيما تبقى من اليوم.

استيقظتُ فزعا من النوم على صوت رنين الجرس المتواصل. من هذا القادم الذي جاء في هذا الوقت! إنّ الساعة الآن الثانية صباحاً، ولم يسبق لأي أحد أن زارني في هذا الوقت ومن ثم لا يوجد أحدٌ أصلاً يزورني أو على علاقة بي، ولا يعرف أي أحد بأمر هذه الشقة سوى أبي فهد. هل يكونون من الشرطة؟! أم من الاستخبارات العامة؟! أم هل يكون أبو فهد؟! ولكنّه أخبرني بأنّه لن يزورني إلا بعد أيام في الشركة. هل يُعقل أن يكون هو؟

كان الرنين ما يزال متواصلاً فصرخت من بعيد:

- أنا قادم، أنا قادم..

نظرتُ من عين الباب السحرية فإذا بأبي فهد في الخارج، ففتحتُ له الباب فوراً.

دخل أبا فهد بسرعة وألقى بنفسه على الأريكة، وهو يردد بغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

Twitter: @ketab_n

لم يسبق لي أن شاهدتُ أبافهد طوال حياتي على هذه الحال المتوترة والقلقة والغاضبة. كان وجهه شاحباً ويبدو عليه التعب والإرهاق. رثيتُ لحاله ولم أشأ أن أسأله عما حصل لكي لا أزيد من سوء حاله، فاستأذنت منه وذهبتُ إلى المطبخ وعدتُ بكأسٍ من عصير الليمون وقدمته له وجلستُ أمامه.

شرب الكأس كله مرة واحدة! وقال غاضباً:

- اللوم ليس عليهم بل عليّ أنا، كان يتوجب عليّ أن أفعل مثل الأجانب وأن أطردهم من البيت بمجرد أن يصلوا لسن الثامنة عشرة!

قلت بصوت هادئ محاولاً أن أستفهم منه سبب غضبه:

- ما المشكلة يا أبا فهد؟ أرجو أن تخبرني ما الذي حدث؟

زفر زفرة عميقة تنضح بالأسى والحزن وقال:

- جاءني ابني عبدالله اليوم وقال لي بكل بَجاحة «إذا كنت تريد الزواج من أخرى زوجناك وأرحناك، لكن رجاءً لا تنكس رؤوسنا في الأرض وتبحث عن ما يشبع شذوذك وأنت في هذا العمر، لما باتت قدمٌ في الدنيا وأخرى في القبر انتكستَ علينا؟!...»

- لا حول ولا قوة إلا بالله! وكيف كان ردك؟

- صفعته على وجهه وخرجتُ من البيت ولم أدرِ إلى أين أذهب، فجلست في أحد المقاهي إلى أن أغلقوا ولم أكن أريد الرجوع إلى البيت

Twitter: @ketab_n

فقررتُ المجيء عندك..

- البيت بيتك.

قلتها وأنا أتظاهر بالابتسامة. لقد وقع ما كنا نخشاه. لطالما كنا نلتقي في الخفاء بعيداً عن الأنظار. لم يسبق لي أن جئت إلى بيته أو جاء إليّ. ولم يكن يعرفني أي من أقاربه أو أصدقائه. في الواقع لم يكن يعرفني سوى أبويه الراحلين وكان هذا منذ ما يزيد على الأربعين سنة.

خيّمَ الصمتُ على المكان لبضع دقائق، ومن ثم استجمعتُ قواي ونطقتُ بآخر ما كنت أتمنى أن أنطق به يوماً:

- أعتقد بأنّه يجب أن نتوقف تماماً عن رؤية أحدنا الآخر.

نظر إلي أبو فهد بغضب وهو لا يكاد يُصدق ما أقول:

- أبعد خمسين سنةً تطلبُ مني أن أتخلى عنك؟!

- لا أعتقد بأنّ هناك حلاً آخر، صدقني إني أقولها وقلبي يتقطع ألماً وحسرة.

- كلا، كلا، لن أتركك أبداً، ولن أتخلى عنك مهما حصل، حتى ولو كان سيترتب على ذلك دمار بيتي وأسرتي.

- لا تقل هذا يا أبا فهد، إنّ فضلك عليّ كبير، وجمائلك عليّ كثيرة، لكن...

Twitter: @ketab_n

قاطعني أبو فهد بحزمٍ قائلاً:

- من غير لكن، لن أفكر ولو مجرد التفكير في أن أتركك لمجرد سفاهة من ابن عاقّ لا يشرفني أنّه يحمل اسمي..

سكتُّ قليلاً ثم قلت: أتريد الصراحة يا أبا فهد؟ إنني لا ألومه كثيراً على ما قاله، ولو كنتُ مكانه لعملتُ مثلما عمل!

كان وقْعُ كلماتي عليه كالصاعقة. لم يكن يخطر بباله أبداً أن يخذله رفيق عمره بعد تلك السنين.

وقف ونظرَ إليّ بخيبة أمل، ثم توجه إلى الباب وقال حتى من دون أن ينظر إليّ: «يبدو أنك محق، وأنّ من الأفضل أن لا نلتقي أبداً» وخرج.

ألقيتُ بنفسي على السرير وبكيتُ حينها كالأطفال.

****

Twitter: @ketab_n

الزمان: 1978م

كنتُ أفكّر في ما قاله صديقي أبو فهد. بدا لي كلامه مُقنعاً تماماً على الرغم من أنه لم يكن كذلك حين قاله لي في لحظته. نعم، لابدّ لي من أن أعرض نفسي على طبيب متمكن يستطيع تحديد حالتي الغريبة هذه وربما إيجاد علاج لها. أنا متأكد من وجود خللٍ ما برغم محاولتي طوال السنين الماضيةً إنكار هذه الحقيقة. تذكرتُ حديث أبي فهد لي الذي بقدر ما كان جارحاً ومؤلماً إلا أنه أصاب كبد الحقيقة تماماَ:

«أحمد، إلى متى ستستمر هكذا؟! لقد أخذنا نضحك ونتندر طوال السنين الماضية، عن كونك بارد الدم، وبطيء النمو، وشديد التعلق بمرحلة المراهقة.. كنا نضحك وكنتَ تستمتع بذلك، لكنني الآن أرى أن الوضع أصبح خطيراً جداً ولا بدَّ لنا من أن نجلس جلسة جادة ونبحث المشكلة. لا تكرر حديثك المعتاد لي بأنها ليست مشكلة وبأنّه من الرائع أن لا يبدو على الشخص الكبر وعلامات التقدم في السن.. إنّكَ يا أحمد الآن قد تجاوزت الثلاثين من عمرك، ولكنك مازلت تبدو شاباً صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره بل وربما أصغر من ذلك. لم ينمُ شعرُك ولم تتغير ملامحك، ولم يختلف صوتك، ولم يتبدل أي شيء، أي شيء، منذ أكثر من اثنتي عشر سنة. حتى زواجك لم ينجح ولم يدم سوى بضع سنين معدودة قبل أن تطلب منك زوجتك الطلاق لأن شكلك الخارجي ومظهرك كان محل تندر من قبل المحيطين بها،

Twitter: @ketab_n

وأرجو أن لا تنكر أن هذا كان هو سبب المشكلة الحقيقية حتى وإن كانت هناك مشكلات أخرى إلا أنها جميعاً كانت بسبب مظهرك الطفولي وهو ما أدى بكما إلى الانفصال. يا أحمد، إنك تعلم حبي الشديد لك وبأنك أقرب الناس إلي، وبأنني أعُدّك أخي الذي لم تلده أمي.

أقول لك الآن بأننا يجب أن نتعامل مع الأمر على أنه مشكلة حقيقية وأن نسعى إلى أن إيجاد حلٍ لها. وإن لم تكن تدرك خطورة الأمر فتخيل لو أنّك استمريت على هيئتك الحالية في السنوات القادمة! تخيل لو وصلت إلى سن الأربعين أو الخمسين وأنت تبدو في سن الثامنة عشرة! تخيل لو أن أبناءك يبدون أكبر منك، أو أنّ أحفادك هم في سنك ويريدون اللعب معك! لا تضحك يا أحمد، صدقني إن الأمر خطير، خطير جداً...»

في غمرة انهماكي بالتفكير والتأمل، والهموم والتخيلات السوداء تكاد تقتلني، أيقظني وانتشلني من وحل أفكاري صوت المذيع حسين نجار في القناة الأولى وهو يتحدث عن ضيفه:

- ضيفي في هذه الحلقة الدكتور معتز العالي، الحاصل على درجة الدكتوراه في علم الجينات والأمراض الوراثية من جامعة كاليفورنيا، سان فرانسيسكو، في الولايات المتحدة الأمريكية، والاستشاري المختص في مستشفى الشميسي بالرياض، والذي سُجلت له العديد من الأبحاث والاكتشافات الحديثة حول مجال الجينات والنمو وتطور الأمراض وكيفية استخراج المضادات والأمصال المتنوعة.. مرحباً بك معنا يا دكتور معتز.

Twitter: @ketab_n

- أهلا وسهلاً.

أخذتُ أستمع باهتمام شديد للنقاش. ولم أكن قبلها ممن يلقي بالاً للنقاشات والندوات الطِّبية غير أنّ هذه المرة كان الأمرُ مختلفاً تماماً. كان يبدو الدكتور معتز رجلاً مُلماً غاية الإلمام بتخصصه الطبي وبمجاله العلمي؛ حيث كان يتحدث بثقة وبعمق. وقد كان يرتدي معطفه الطبي الأبيض وشعر رأسه كان أبيضَ تماماً بالرغم من أنني كنتُ أجزم بأنه لم يصل بعد إلى سن الخمسين من عمره..

لم تنتهِ الحلقة إلا وقد توصلت إلى قناعة تامة. نعم، لا بُدَّ لي من أن أقابل الدكتور معتز شخصياً في أسرع وقت ممكن..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من أجـل

من أجل صباح !

نشقى أياماً و ليالي

نحمل أحزان الأجيالِ

و نُكوكِبُ هذا الليل جراح !

من أجل رغيف !

نحمل صخرتنا في أشواك خريف

نعرى.. نحفى.. و نجوع

ننسى أنّا ما عشنا فصل ربيع

ننسى أنّا..

خطواتٌ ليس لهنّ رجوع !!

«سميح قاسم»

Twitter: @ketab_n

أخذتُ سماعة الهاتف في يدي واتصلتُ على منزل صديقي أبي فهد. وبعد برهة من الانتظار أجابني من الطرف الآخر صوت زوجته، حيث قمتُ بتضخيم صوتي وقلت:

- السلام عليكم، أنا أحمد زميل أبي فهد في العمل، هل من الممكن أن أكلمه شخصياً؟

- حسناً، انتظر قليلاً على الخط لو سمحت..

«ماااازن .. ماااازن»

كان صوتها أقرب للصراخ وهي تنادي زوجها. لم أستطع أن أكتم ضحكتي بالرغم من الهموم والغموم التي تعتريني.

- ألو، أحمد، أحمد، أمازلتَ على الخط؟

قالها بصوتٍ لاهث متقطع.

- نعم، مازلتُ على الخط. أبا فهد، لقد فكرت بكلامك وأعترف لك الآن بأنني قد اقتنعتُ به، ومن محاسن الصدف أنني في الوقت الذي فكرت فيه بالبحث عن حلٍ لمشكلتي كان يوجد برنامج تلفزيوني ضيفه طبيبٌ متميز في مجال الجينات والأمراض الوراثية وأعتقد أنّه هو أفضل من يستطيع تشخيص حالتي المرضية وربما علاجها إن شاء الله.

- رائع، رائع! أخيراً اقتنعت يا أحمد.. حسناً، وكيف سنصل إلى

Twitter: @ketab_n

هذا الطبيب؟

- يتوجب علينا أن نذهب إلى المستشفى الذي يعمل فيه وهو مستشفى الشميسي. وسأحتاج إلى وجودك معي.

- بالتأكيد سآتي معك. متى تريد أن نذهب؟

- غداً صباحاً، أيناسبك؟

- اممم، لا مانع لدي. سأستأذن من مدير العمل وسأوافيك في منزلك عند الساعة الثامنة صباحاً.

- ممتاز! سأكون بانتظارك، وداعاً.

أغلقتُ سماعة الهاتف. وسرحتُ من جديد في خيالاتي. ما الذي سأقوله للطبيب؟ وكيف سأستطيع أن أشرح له مشكلتي الغريبة بسهولة؟ وكيف ستكون ردة فعله؟ وهل سيعرف سبب المشكلة؟ وهل سيجد حلاً لها؟

ذهبتُ إلى المطبخ وصنعتُ لي كوباً من الشاي. وبدأت في احتسائه وأنا أفكر بعمق. إلى متى سأظل هكذا؟ إنني أشعر بالوحدة القاتلة! لم يعد هناك أي أحد في هذه الدنيا يكترث لأمري سوى صديقي مازن. ولن يدوم لي إلى الأبد لاسيما وأنه منشغل بأسرته وبأبنائه.

استلقيتُ على الفراش وأنا أشعر بأن رأسي يوشك على الانفجار. تقلبتُ كثيراً، وحاولتُ النوم دون جدوى، ولم يغمض لي جفن إلا بعد

Twitter: @ketab_n

ساعتين وقبل أذان الفجر بسويعات قليلة.

صحوتُ على رنين الجرس. ونظرتُ بسرعة إلى الساعة وكانت تشير إلى الثامنة والنصف. يا إلهي لقد تأخرت على مازن. نهضتُ على عجل وفتحتُ الباب لأجد أبا فهد ورائحة العطر تفوح منه وهو في أبهى أناقته بثوبه الأبيض الناصع المناسب، وبشماغه الذي كُوي بعناية.

ارتفع حاجبا أبي فهد بدهشة وهو يقول:

- إلى الآن نائم؟!

- المعذرة، لا أدري ماذا أقول فعلاَ... أنا آسف، لقد عانيتُ من أرقٍ فظيع بالأمس.

- حسناً، سأنتظرك في السيارة. لا تتأخر عليّ!

- أعطني خمس دقائق فقط لا أكثر..

سابقتُ الزمن، ونزلتُ ركضاً من على الدرج وصولاً إلى سيارة أبي فهد. فتحت الباب وألقيتُ السلام وأنا ألهث. وقد أخذ أبو فهد يضحك وهو يرد علي السلام ويقول:

- حتى وأنت متأخر لم تتنازل عن جلب كوب الشاي معك.

نظرتُ إليه نظرة تأنيب وقلت:

Twitter: @ketab_n

- لو لم أكن متأخراً لأعددت لنفسي فطوراً كاملاً، ولم أكتفِ بكوب من الشاي فقط. رجاءً قُل ماشاء الله؛ فآخر ما ينقصني الآن هو أنْ تُصيبني بعينك الحارقة!

قلتها بنبرة ساخرة، حيث ضحك أبو فهد وهو يقول:

- لو رأيتَ الفطور الذي تناولتُه في البيت قبل قليل لكنت أنت من سيصيبني بالعين!

ابتسمتُ وأنا أرتشف الشاي الساخن قبل أن أقول بجدية:

- هل تظن بأن زيارتنا هذه إلى الطبيب ستكون مفيدة لنا؟

- بصراحة لا أدري، ولكن حتى وإن لم تكن كذلك، فمجرد الزيارة تُعدّ خطوة إيجابية.

لم أقل شيئاً، واكتفيت بالتحديق بصمت في السيارات التي تسير أمامنا في الطريق نحو المستشفى، والقلق يبدو جلياً على ملامحي.

لم نجد موقفاً قريباً من المستشفى مما اضطرنا إلى الوقوف بعيداً والمشي على أقدامنا كل تلك المسافة. وبمجرد أن دخلنا من الباب الرئيس شعرتُ فوراً بأعراض المرض؛ فبكاء الأطفال وأنين المرضى ورائحة المعقمات كانت تنتشر في المكان. وهمست حينها إلى أبي فهد:

- كم أنا أكره المستشفيات!

Twitter: @ketab_n

رمقني بتأنيب في الوقت الذي كنا نتجه فيه نحو مكتب الاستقبال. وحين وصلنا استقبلنا موظف مصري وأخبرنا بأن الدكتور معتز العالي غير موجود وبأنه سيأتي بعد ساعة.

- ولكن هل بمجرد مجيئه سندخل عنده؟

سأله أبو فهد بنبرة تملؤها خيبة الأمل.

- نعم، أعطني اسمك وبياناتك كي نفتح لك ملفاً طبياً، وما إن يأتي الدكتور ستنادي الممرضة باسمك في غرفة الانتظار.

مكثنا نقرأ الجرائد والمجلات الطبية المملة ما يزيد على الساعة في غرفة الانتظار، وقد وصلتُ إلى درجة قاربت فيها على الاختناق، فأنا ومنذ نعومة أظفاري (ومازالت أظفاري كذلك إلى الآن!) أحب الحركة والحيوية وأكره الجلوس والانتظار وأملُّ بسرعة، وكان هذا سبباً رئيسياً في طردي مرات كثيرة من الفصل حينما كنت في المرحلة الابتدائية والمتوسطة قبل أن أتمكن من السيطرة على أعصابي ونزواتي في المراحل الدراسية التي تلت ذلك، وإن كانت هذه المشكلة قد عادت لي بعد ذلك في العمل؛ إذْ نادراً ما أستمر في نفس الوظيفة لأكثر من عامين.

جاء أخيراً الفرج حينما قدمت الممرضة الفلبينية ونادت باسمي بلغة ركيكة، ومن ثم قادتنا نحو مكتب الدكتور وأنا أقدم قدماً وأؤخر أخرى، وربما لو لم يكن أبو فهد معي لتراجعت وعدتُ من حيث أتيت!

Twitter: @ketab_n

دخل أبو فهد أولاً بعد الممرضة التي سبقتنا، وكنتُ وراءه وحاولتُ اختلاس النظر من خلفه لرؤية الدكتور. ألقى أبو فهد السلام وصافح الدكتور وابتعد قليلاً كي يمكنني من مصافحته أنا الآخر.

طلب منا الجلوس واستفسر أي منا أحمد، فأجبته بأنني أنا الشخص المعني، ومن ثم نظر الدكتور إلى أبي فهد وكأنه يستفسر عن صلة القرابة.. فتلعثم أبو فهد وقال:

- أنا صديقه.

هزّ الدكتور رأسه باهتمام وهو ينظر إلى الملف الموضوع أمامه. كان يبدو مختلفاً عن المرة التي رأيته فيها على التلفاز؛ بدا بأنه أطول وأكثر ضخامة على الطبيعة، كما بدا أكبر عمراً حيث قدرت بأنه فوق الخمسين. وبعد فترة صمتٍ قصيرة، نظر إليّ وقال بصوت ودود:

- والآن ما المشكلة يا بُنيّ؟

نظرتُ إلى أبي فهد، فهزّ رأسه مشجعاً لي على الكلام. فأخذتُ نفساً عميقاً وقلت:

- دكتور معتز، أنا وهذا الشخص (وأشرت إلى أبي فهد) صديقا طفولة. لقد نشأنا وترعرعنا سوياً، ونحن في عمرٍ واحد، بل ولكي أكون أكثر دقة فأنا أكبر منه بعدة أشهر..

- مهلاً، مهلاً، أتعني بأنّ عمرك الآن ليس ستة عشر عاماً؟!

Twitter: @ketab_n

قالها بجدية بالغة وبصوت يوحي بعدم التصديق.

- نعم، عمري الآن اثنان وثلاثون سنة، وقد توقف نموي بشكل كامل في سن الثامنة عشرة. ولم يتغير شكلي ومظهري الخارجي منذ ذلك الوقت. في بداية الأمر كنتُ أعتقد أنّ هذا الأمر إيجابي وأنّ ملامح الكبر لا تبدو عليّ، وكان يُطلق علي من حولي لقب «صاحب الوجه الطفولي»، ولم أكن أدرك خطورة الأمر وأنه مشكلة ومرض إلا قبل فترة قصيرة وبعد إقناع من صديقي مازن. ولقد فشل زواجي بسبب السن وطلبت زوجتي الطلاق وتخلت عني ورفضت كل الوسائل التي حاولت عملها من أجل العودة إليها، وقد تزوَجتْ الآن من رجلٍ آخر، والغريب أنه في الخمسين من عمره، ولكن تلك قصة أخرى...

- نعم، أرجو منك التركيز على مشكلتك.

- لا عليك، لا عليك، سأخبرك بكل ما تريد معرفته. لقد وجدتُ وظيفة بعد تخرجي من المرحلة الثانوية فوراً، أي حينما كان عمري ثمانية عشر عاماً، وتلك كانت هي السنة التي توقف عندها نموي...

- في الواقع، يبدو لي بأنّ نموك قد توقف في سن السادسة عشر!

قالها بطريقة غريبة وهو يبتسم.

- كلا، لا أظن ذلك، فأنا لم يتوقف طولي إلا في هذه السن، وكان هذا يبدو جلياً مع ثيابي التي كنت أرتديها وأصبحت قصيرة عليّ.. وعموماً فأنا يا دكتور لم أتغير خارجياً منذ ذلك الوقت، ولم ينبت شعري، ولم يختلف صوتي، من رآني قبل اثني عشر سنة ورآني الآن

Twitter: @ketab_n

فلن يلحظ أي فرق! ولكن بصراحة يا دكتور أنا أكبر وأتقدم في السن من الداخل؛ وأشعر بأنّ كثيراً من الأمور التي كانت تستهويني آنذاك لم تعد تعني لي أي شيء الآن.. ما أريده يا دكتور هو حياة طبيعية، حياة أتمكن من خلالها من أن أكوّن أسرة ويكون لي زوجة أحن عليها وتحن عليّ وأبناء أعطف عليهم وأربيهم ويكونون جزءًا مني وأكون جزءًا منهم، لقد سئمت من العيش بمفردي، ومن تمثيلي دور الفتى المراهق كل هذا الوقت، أريد أن أعيش عمري وأمثل سني الحقيقي، أريد الاستقرار والهدوء... أريد أن أكون فعلاً في سن الثلاثين هذا كل ما أريده يا دكتور.

تغيّر صوتي حين قلت كلماتي الأخيرة. في الحقيقة، لم أكن من أولئك الأشخاص العاطفيين ولم أكن ممن يظهرون مشاعرهم أمام الآخرين. ولكن في تلك اللحظة كنت على وشك البكاء وكانت الدموع تتزاحم في عينيّ. ولعل صمت الدكتور هو ما ساعدني على السيطرة على نفسي.

خيّم الصمت على المكان، قبل أن ينفجر الدكتور ضاحكاً ويقول:

- بصراحة هذا أقوى مقلب عملتموه إلى حد الآن! كيف استطاع طلابي إيجاد شخص يجيد التمثيل إلى هذه الدرجة من الإتقان! فعلاً لقد كنت على وشك التصديق...

تحجرت دموعي في عينيّ، وتحول الألم والحزن إلى غضب جامح وحنق متدفق. نظرتُ إلى أبي فهد الذي كانت الصدمة قد شلت لسانه.

Twitter: @ketab_n

- قلتُ لك يا مازن، لن نستفيد شيئاً من هذه الزيارة. لقد أضعنا وقتنا، دعنا نذهب!

وقبل أن أخرج نظرتُ إلى الدكتور، الذي كان قد صمتَ بحيرة، نظرات لومٍ وشفقة وخرجت..

في السيارة، وإلى أن وصلنا إلى شقتي، لم نتحدث على الإطلاق. كنتُ مستاءً مما حدث، ومن الوقت والجهد الذي بذلناه وخيبة الأمل والسخرية التي تلقيناها. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أبوح فيها بمشكلتي إلى أحد، وكانت تلك هي اللحظة الأولى التي أوشكت فيها على البكاء أمام شخصٍ غريب، شخص كنت أظنه مهتمّا ومُقدِّرا لمصائب ومشاعر غيره. ولكن كان ظني خاطئاً، فهو مثل الآخرين تماماً؛ لا يهمهم سوى مصالحهم الشخصية. ويبدو بأنّه قد كُتب عليّ أن أعاني وأتجرع غصص الألم والحزن طول حياتي. آه، كم أشتاق إليكما يا أبي ويا أمي الحبيبين. إنني في أشد الحاجة إليكما الآن، لماذا تخليتما عني وتركتماني... لماذا؟!

قبل أن أنزل، تحدث أخيراً أبو فهد وقال مُودّعاً لي:

- لا عليك يا أحمد، إن ذلك الدكتور الأحمق لا يمثل إلا نفسه، وبالرغم من أنك رأيته في التلفاز فأنا مستعد أن أجزم لك بأن شهادة الدكتوراه التي حصل عليها لا تخرج من أمرين؛ فإما أنها مُزوّرة! وهو الخيار الذي أميل إليه بطبيعة الحال، أو أنه حصل عليها من جامعةٍ تعيسة تُصنف ضمن فئة المتردية والنطيحة!

Twitter: @ketab_n

ضحك أبو فهد مواسياً لي، ولكنني لم أضحك، ولم أكن في مزاج يساعدني على الضحك. لقد كنت في وادٍ وكان أبو فهد في وادٍ آخر.

دخلتُ شقتي.. وقد نويتُ أن لا أخرج منها إلا محمولاً على الأكتاف!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المقابرُ مُوحشةٌ، ظلُّها أسودُ،

وطريقُكَ نحوَ السّكونِ مُعَبّدةٌ بالأَسى،

لا شيءَ يبعثُ رائحةَ الحُزْنِ في مُقلتيْكَ سوى الموت.

يتنهدُ حين تنامُ... ليخطُفَ سُنبلةً غصنُها أخضرُ.

«أحمد اللهيب»

Twitter: @ketab_n

لقد سئمتُ العيش، ومللتُ الحياة، لم أعد أهتم ولم أعد أحفل بأي شيء. لقد عشت ما يزيد على الثلاثين عاماً مرّت عليّ كمرور الدهر، وتجرعت فيها الغصات والآهات مرة تلو المرة. وهاهي الآن اللحظة الحاسمة قد أتت. وحانت لحظة الصفر؛ تلك اللحظة التي سأودع فيها العالم وسأرحل منه بهدوء ومن دون أن أثير أي ضجة. لا أعتقد بأن جنازتي سيحضرها كثيرون! ربما مازن فقط وحارس العمارة وإمام المسجد الذي أصلي فيه ليس أكثر. وأما من سيبكي عليّ منهم فلا أظنه سوى صديقي مازن. وفي الحقيقة، لا يهمني أمر أي أحد في هذه الدنيا غيرك أنت يا مازن. ولن أنسى وقفاتك الوفية معي طول عمري، أو في القليل الذي تبقى منه؛ فلقد قررت أن أضع حداً لحياتي خلال الساعات القادمة..

كنتُ قد قرأتُ مُسبقاً أن تناول عدد كبير من حبات (البنادول) كفيلٌ بأن يُصيبك بالإغماء ومن ثم الوفاة خلال وقت قصير. ولستُ أعلم بصراحة ما إذا كان تناولها سيضمن لي موتاً هادئاً ومُريحاً أم لا، ولكن كلا الأمرين سيّان لدي. والنتيجة هي ما يهمني، وهي أنني سأفارق هذه الدنيا التي صفعتني مراراً وتكراراً..

كنتُ أريد أن أموت في أبهى حلة. اغتسلت وارتديتُ أجمل ثيابي وتعطرت بأجود أنواع دهن العود. وكتبتُ رسالة بخط أنيق وجذاب دوّنت فيها أجمل ذكرياتي وأسوأ آلامي التي دفعتني للإقدام على الانتحار! وضعت الرسالة على الطاولة وأخذتُ كأس الماء وبجانبه علبة (البنادول). وبعد برهة من التفكير الذي يحثني تارة ويمنعني

Twitter: @ketab_n

تارة، قررتُ أن أتناول الحبوب واحدة تلو الأخرى.. وكان مجموع ما أدخلته إلى جوفي ثلاثة عشر حبة من حبات الدواء المُصنّع ليقضي على الصداع مؤقتاً والذي قررتُ أن أجعله يقضي على الصداع نهائياً!

شعوري كان غريباً حينها. فمع كل حبة تناولتها كنتُ أشعر بمزيج من الانتصار وخيبة الأمل! كنت أشعر بسعادة وفرحة لأنني سأرحل من الدنيا وسألحق بأبي وبأمي. وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالأسى والحزن لأنني لم أرغب بأن تنتهي حياتي بهذه الطريقة. وبعد أن ابتلعتُ الحبة الأخيرة، لم أعد أشعر بأي شيء! أي شيء على الإطلاق! وكأنني وصلت إلى مرحلة اللاعودة، ولم يعد للأفكار والمشاعر حينها أي قيمة أو أهمية.

حسناً، ما الذي يحدث؟! لابد من أنّ هناك خطأ ما! لقد تناولتُ ثمانية عشر حبّة ومازلتُ حتى الآن لا أشعر بشيء! لقد ظننتُ بأنني سأشعر بدوار، وربما غثيان! وبعد ذلك سأغيب عن الوعي.. ومن ثم أفارق الحياة. ولكن الآن مضى عشر دقائق دون أن أشعر بشيء! أرجو أن لا يكون لجيناتي الحمقاء علاقة في ذلك أيضاً! وفي غمرة ترقبي هذه بدأتُ أشعر بالقليل من الدوار. ها قد أتيت أخيراً أيها الدوار المشئوم! لم أظنني سأشعر في حياتي بالفرح بإصابتي بك إلا في هذه اللحظة...

في تلك الأثناء رنّ جرس الهاتف. من هذا يا تُرى؟ أيكون مازن؟ حسناً لا يوجد أحد آخر من الممكن أن يخطر على بالي سواه الآن؟ هذا ما كان ينقصني! لا أريد أن أتحدث مع أي أحدٍ في هذا العالم الآن. ألا

Twitter: @ketab_n

يحق لي أن أنعم ببضع لحظات من الهدوء والسكينة حتى عند رحيلي من هذه الدنيا؟! لابُدّ لي من أن أرد على أية حال؛ إذْ أنني أخشى من أن يساوره القلق فيما لو لم أرد عليه ومن ثم يأتي لزيارتي ويرى حالي ويسارع في إنقاذي غير آبهٍ لرغباتي وقراراتي. وهذا حقاً هو آخر ما أتمنى حدوثه في الوقت الراهن.

نهضت بتثاقل ومشيتُ وأنا أترنح نحو الهاتف. ورفعتُ السماعة وأجبت بصوت أقرب إلى الهمس:

- ألو.. أحمد يتكلم.

أجابني صوتٌ لم أتوقع مطلقاً أن يكون هو المتصل.

- مرحباً أحمد، أنا الدكتور معتز العالي. في البداية أعتذر منك أشد الاعتذار على ما بدر مني صباح هذا اليوم.

لا أريد منك أي اعتذار.. أريد أن أموت بهدوء.. ولو كنتُ أعلم أنك أنت المتصل لما رفعت السماعة.. هذا ما كنتُ أفكر فيه، ولكن كان الدوار والصداع قد بلغ مني مبلغاً منعني حتى من أن أشبع رغبتي في الصياح عليه وتفريغ غضبي عليه.. قلتُ وصبري يكاد ينفذ:

- حسناً، وماذا تريد الآن؟

- أريدُ أن أخبرك بأنني راجعت الأوراق التي وضعها صديقك مازن على طاولتي بعد أن خرجتَ أنت، والتي كانت صوراً لهويتيكما الوطنية. وبدوري وعن طريق زملاء لي بحثتُ عن شهادة ميلادك حتى

Twitter: @ketab_n

وجدتها وراجعت أيضاً سجلك الطبي وتحققتُ فعلاً من صحة كلامك، ومن أنّ عمرك الحقيقي هو ما ذكرته لي.. وأرجو منك أن تتقبل اعتذاري مرة أخرى، وأن تزورني غداً صباحاً من أجل أن أقوم بعمل الفحوصات وأخذ العينات والتحليلات... و أرجو منك أن لا تلومني كثيراً على ما بدر مني هذا الصباح، فأنا لم يسبق لي طول حياتي المهنيّة أن مرت بي مثل هذه الحالة و... أحمد هل تسمعني؟!

كان حديثه أشبه بحلم يمر بي.. لم أستطع أن أمنع نفسي من التبسم أثناء الاستماع إليه. ً كانت ابتسامتي سببها سخرية الموقف، فحتى عند رحيلي سأرحل بغصة أخرى جديدة؛ وهي غصة الأمل الذي جاء متأخراً.. كان عقلي ووعيي يأتيان تارة ويغيبان أخرى.. كنت أحاول جاهداً الإمساك بسماعة الهاتف. لم أعد قادراً على تمييز ما يقول. أشعر بأنني سأسقط في أي لحظة..

- أحمد؟ أحمد؟ هل مازلتَ معي؟

استجمعتُ ما تبقى من قواي الخائرة، وما ظل صامداً من جسدي المنهك.. وتفوهت بكلماتي الأخيرة:

- لقد تأخرت كثيراً يا دكتور...

وسقطت سماعة الهاتف. وسقطتُ بعدها.

****

Twitter: @ketab_n

كنتُ أسير عاري القدمين. في مكان حالك الظلمة. وكانت الأشواك تدمي قدميّ. ظللت أمشي وأمشي وأنا لا أرى شيئاً. ولم يكن يوجد أي أثرٍ لأي أحد. لا وجود لأشخاص ولا مبانٍ ولا حتى سيارات! وفجأة، لاحَ لي من بعيد ضوء خافت فقصدته على الفور. وكنتُ كلما اقتربتُ منه يزداد وميضه إشعاعاً ونوراً. ولما وصلته هالني ما رأيت؛ إذْ كان الضوء مصدره نور نابع من الأعلى -ولم يكن شبيها بنور الشمس ولا بنور الكهرباء- وكان يسطع على حديقة ناضرة، ويمر بها نهرٌ عذب رقراق. أخذتُ أتجول في المكان، بحثاً عن أشخاص بإمكانهم أن يخبروني أين أنا. و وجدت في أقصى اليمين جسراً فوق النهر فعبرته نحو الضفة الأخرى. وما إن قطعتُ الجسر حتى رأيتُ شخصين من بعيد يجلسان بالقرب من إحدى الشجيرات. أخذتُ أمشي باتجاههما، أخذتُ أمشي باتجاههما، ومع اقترابي منهما بدأتُ في تمييز هيئتهما. أرجو أن يكون ما أظنه صحيحاً. نعم، إنه صحيح، إنه صحيح.. أخذت في الجري نحوهما حيث كانا يجلسان على بساط أحمر ومعهما إبريق من الشاي وحولهما أنواعٌ مختلفة من الأطعمة، وكانا يتضاحكان ويتسامران.. وصرختُ من بعيد وأنا أجري صوبهما، «أمي، أبي» وكررتها مراراً ولكنهما لم يلتفتا إلي. ظننتُ أن هدير الماء وصوت زقزقة العصافير قد حجبا صوتي عنهما. واصلتُ الجري حتى وصلتهما وأنا ألهث وقلتُ بصوتٍ متقطع وأنا أحاولُ أن ألتقط أنفاسي: «أمي، أبي، لقد أتيتُ إليكما.. لن تتصوروا حجم العناء الذي كابدته من أجل لقائكما..» ولكنهما لم يلتفتا إلي وواصلا حديثهما وضحكهما سوياً. ألم يسمعاني ياتُرى؟! أم أنهما يتجاهلانني؟! ولكنّ والديّ من

Twitter: @ketab_n

المُحال أن يفعلا هذا بي! صرختُ بأعلى صوتي باسميهما، ولم يطرف لهما جفن ولم يُعيراني أي اهتمام! صرخت مرة أخرى ولم يتغير شيء. وفي الثالثة حانت من أمي التفاتة نحوي وابتسمت في وجهي ابتسامة هي أجمل ما رأيت في حياتي، وقالت بصوت رخيم: «ولدي، لم يحن وقتك بعد!»

- أحمد، أحمد؟ هل تستطيع رؤيتنا؟

بدأتُ أفتح عينيَّ ببطء، لم أستطع أن أفتحهما بسرعة. ولم تكن الرؤية واضحة. كنتُ أرى أمامي ظلاًّ لعدد من الأشخاص.. لم أستوعب المكان الذي أنا فيه.. ولم أدرِ من هم هؤلاء..

- دكتور، دكتور، لقد استعاد وعيه.

جاء رجلٌ من الخلف يرتدي وشاحاً أبيضاً ووضع سماعة على صدري. ومن ثم التفت إلى من حوله:

- حسناً، يبدو أن نبضاته قد عادت إلى معدلها الطبيعي..

وبعدها التفت إليّ ونادى:

- أحمد، هل تسمعني؟ هل تستطيع أن تتكلم؟

بدأت الرؤية تتضح من حولي؛ كنت مستلقياً على سريرٍ مرتفع. وقد وُضع عليّ العديد من الأجهزة والمغذيات، بعضها موصولٌ بيدي

Twitter: @ketab_n

وبعضها بصدري وبعضها بأنفي! وعن يميني كان يوجد مازن وبجانبه رجلٌ آخر لا أعرفه وأظن أنه أحد الأطباء، وأمامي توجد ممرضة قصيرة وسمينة من الجنسية الفلبينية، وعن يساري كان الطبيب الذي يفحصني، وكان رجلاً سوريًّا سميناً هو الآخر يرتدي نظارة طبية تماماً كمعظم الأطباء.

كرّر الطبيب عليّ المحاولة وهو يداعب بيده شعر رأسي:

- أحمد، حبيبي، كيف حالك اليوم؟

هاه؟ حبيبي؟ أرجوك ليس الآن! نعم إنه يظنني صغيراً هو الآخر.. في الواقع كنتُ أفكر بأن أحاول التحدث، فحتى أنا متشوّق لمعرفة ما إذا كنتُ قادراً على الكلام أم لا، لاسيما مع كل هذه الأجهزة التي أوصلوها بيّ. ولكن بعد أن خاطبني ونظر إليّ بتلك الطريقة صرفتُ الفكرة تماماً عن بالي!

ولمّا لم أجب التفتَ إلى من حوله وقال في محاولة لحفظ ماء وجهه:

- يبدو أنّه لازال متأثراً بالغيبوبة، ولم يصحُ بشكل كامل. نعم قد يرانا، ولكنّه لا يدرك طبيعة الوضع، ولا الحال التي هو فيها..

قاطعه مازن:

- أتقصد يادكتور بأنّه غائب عن عقله الآن؟

Twitter: @ketab_n

- بالضبط، كالأسماك تماماً، فهي تنام وهي مفتوحة العينين.

أسماك؟! شر البلية ما يضحك. ما أشد حُبكم للفلسفة! لقد عادت عندي الرغبة في التحدث مجدداً فقط لكي أكشف حقيقة «ابن سينا» زمانه!

التفتُ إلى مازن، واستجمعت قواي وقلت بأقصى ما أستطيع:

- مازن، أين أنا؟!

وبالرغم من أنني بذلت جهداً كبيراً لكي أجعل صوتي مسموعاً إلا أنه خرج كصوت أقرب إلى الهمس، وقد قلتها مباشرة بعد أن ذكر الطبيب موضوع الأسماك.. فالتفت إليّ مازن فوراً ووجهه يتهلل فرحاً، وصاح:

- الحمدلله، لقد استعدتَ وعيك بشكل كامل. أنت في المستشفى يا أحمد..

تدارك الطبيب الموقف:

- بالمناسبة، هو من الممكن أن يتكلم أيضاً، لكن لا تنسوا بأنه غير مستوعب لما يحدث له. ويجب عليكم أن لا ترهقوه بكثرة الأسئلة، إنه في حالة اللاواعي كما نسميها طبياً. لا يوجد داعي بأن أذكركم بموضوع الأسماك مجدداً...

نظرتُ إليه، وقد تملكتني رغبة عارمة في صفعه على وجهه.

Twitter: @ketab_n

ولكن لم أكن حتى أستطيع أن أغضب، كنتُ أشعر بالتعب والإعياء، كما لو كنت قد خرجت للتو من سباق ماراثون. وقلتُ مخاطباً أبا فهد:

- مازن، يبدو أنكم وضعتم أجهزة المستشفى كلها عليّ؟!

- صدقني يادكتور إنه أكثر وعيا مني ومنك! أنا أعرفه مثلما أعرف نفسي.

قالها وهو يضحك، وبدوره قال الطبيب في محاولة يائسة لتغيير مجرى الحديث:

- «إتس ذا أن كونشس مايند» إنه العقل اللاواعي، لا تستهن بقوته وإبداعه. من الممكن أن يخترع الشخص ويبتكر ويكتشف وهو في هذه المرحلة!

خرج بعدها الطبيب بعد أن أوصى الممرضة بعدد من التوصيات الطبية المتعلقة بحالتي. كنت قد دخلت في غيبوبة دامت أسبوعاً كاملاً، وقد أجريت لي عملية غسيل معدة وأعطيت العديد من المضادات والحقن. كنت بين الحياة والموت. وقد قال الأطباء بأنني لو تأخرت عن الوصول خمس دقائق لفارقتُ الحياة.

- مازن، أنت تعلم جيداً بأنّ هذه العبارة هي مقولة الأطباء المفضلة. حتى لو أتيت لهم وأنت مصاب بصداع خفيف لقالوها لك!

- كلا يا أحمد، لقد كنتَ فعلاً في حالة حرجة، ولولا فضل الله ثم فطنة الدكتور معتز العالي الذي قاد سيارته لعنوان شقتك الذي كنا قد سجلناه في الملف الطبي بعد أن اتصل بك لأصبحتَ...

Twitter: @ketab_n

- من؟ معتز العالي؟!

- نعم، معتز العالي بشحمه ولحمه.

- لقد ظننتُ بأنّك أنت من أنقذني.

- كنت أتمنى ذلك، ولكن لم يخطر ببالي بأنك متهورٍ إلى هذا الحد!

- بالمناسبة، كيف استطاع الدكتور معتز الدخول إلى الشقة وأنا غائبٌ عن الوعي؟!

- حسناً، لقد طرق الباب عدة مرات، وعندما لم يجد أي استجابة ذهب مباشرة إلى حارس العمارة الذي كان يحتفظ بمفتاح احتياطي.

- ومازلت تُصر على موضوع الخمس دقائق إذاً! بعد كل هذا الوقت الذي استغرقه في القدوم والبحث عن الشقة ومن ثم طرق الباب وبعد ذلك بحث عن الحارس ومن ثم أخذني إلى المستشفى ومازالوا يؤكدون بأنني لو تأخرت خمس دقائق لكنتُ قد فارقت الحياة!

وضحك مازن وقال:

- حقـًا لا تُجدي حيلةٌ معك! حتى وأنت مريض، تأبى أن تتخلى عن سخريتك اللاذعة!

****

Twitter: @ketab_n

مكثتُ في العناية المركزة عشرة أيام. سبعة منها أثناء الغيبوبة وثلاثة بعد أن استعدتُ الوعي. وبعد ذلك نُقلت إلى غرفة أخرى صغيرة. ولم يتحدث مازن مطلقاً عن موضوع الانتحار خلال تلك الأيام، فقد كان يفهمني تماماً ويعلم أنني لم أكن في وضع ملائم للحديث عما أقدمتُ عليه. ولكن بعد أن نُقلت إلى الغرفة الأخرى تمهيداً للسماح لي بمغادرة المستشفى انقض مازن عليّ انقضاض الأسد الجائع على فريسته:

- أحمد، لماذا قمتَ بفعل ذلك؟!

كنتُ أتناول طعام الغداء الذي أحضرته الممرضة قبل دقائق. وقد غصصتُ في لقمتي بعد سؤاله، وتناولت على الفور علبة الماء وبدأتُ في شربها، وأنا أتنفس بعمق، والتفتُّ إلى مازن وقلت له بنبرة تأنيب:

- ألم تجد أفضل من هذا الوقت للحديث عن هذا الموضوع؟!

كان مازن يجلس على الكرسي المجاور للسرير، وكان يقرأ جريدة محلية. وكان يرتدي ثوباً وقد وضع شماغه على الطاولة التي بجانبه. كانت وسامته طاغية، بملامحه النجدية التقليدية وبأنفه الدقيق البارز، وبسمرته الخفيفة. وقد وضع الجريدة جانباً، ونظر إلي بجدية بالغة:

- لقد ظللتُ أفكر بالموضوع لأكثر من عشرة أيام، وكنت أدافع الرغبة الملحة لديّ في الحديث معك عنه لأنك لم تكن في حالة صحية مناسبة، ولم أشأ أن أثقل عليك، ولكن الآن لابد لنا من أن نتحدث.

Twitter: @ketab_n

قلتُ بكل برود وأنا أرتشف رشفات من علبة اللبن:

- لا يوجد أي شيء يستحق الحديث عنه وكل ما سأقوله أنت تعرفه سلفاً.

- كيف تقول ذلك؟! ألا تدرك حجم الخطأ والكارثة التي كدت أن ترتكبها؟! ألا تعلم عقوبة الانتحار؟! ألا تعي بأنك أوشكت أن تكون في عداد الأموات؟!

أخذتُ المنديل، ومسحتُ به يدي وفمي، ووضعت الصحن جانباً، والتفتُّ إلى مازن وقلت بصوتٍ هادئ:

- أنا أعلم كل ذلك، وأدرك بأنها كانت غلطة فادحة، وقد أقدمتُ عليها بعد أن تراكمت عليّ المشكلات والمصائب، التي كان آخرها ما حدث مع الدكتور معتز والذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير...

- وكيف سأضمن أنك لن تقدم على هذا الفعل الأحمق مرة أخرى؟!

- حسناً، لأنني لا أظن بأنه من الممكن أن أتعرض إلى مصائب أكبر وأشد مما تعرضتُ إليه! فأبي وأمي قد توفيا، وزواجي قد فشل، ولم يبق لي أي شيء في الحياة يمكن أن يؤثر فيّ ضياعه حالياً. بالطبع ماعداك.

قلتها بابتسامة حزينة.

Twitter: @ketab_n

- أتمنى ذلك يا أحمد، ولكن بصراحة كنتُ أظنك أعقل من أن تفعل ما فعلت!

- لقد كانت حماقة وأنا أعترف بذلك... وأرجو منك أن تُقفل الموضوع نهائياً، فليس لديّ أي رغبة في الحديث عنه.

- حسناً، ولكن أريد منك أن تعدني بأنّه متى ما واجهتك أي مشكلة أو شعرت بالحزن أو الكآبة بأن تخبرني وأن لا تكتم عني أي شيء.

- أعدك بذلك.

- ولو حاولت أن تنتحر مجدداً فسأذبحك أنا بنفسي!

ضحكتُ وضحك أبو فهد بدوره. وبعد دقائق استأذن مني للذهاب إلى منزله، وقد أعدتُ التأكيد عليه بأن يذهب إلى عمله في الغد خصوصاً وأنّه تغيب طوال فترة وجودي في المستشفى.

- مازن، لقد عملتَ أكثر مما يتوجب عليك.. وصدقني بأنّه لن يرضيني غيابك عن العمل غداً، فلقد تغيبت بما فيه الكفاية. ومن ثم فإنّ لزوجتك وابنيك حقًا عليك، وليس من اللائق أن تهملهم كل هذه الفترة.

- حسناً، سأرى ما يمكنني فعله.

- أنا جادٌّ هذه المرة! لا أريد أن أراك غداً إلا في فترة المغرب

Twitter: @ketab_n

فقط، ليس أكثر!

ولكن في الغد، زارني شخص آخر، شخصٌ كنت أترقب زيارته منذ أول يوم استعدتُ فيه وعيي..

زارني معتز العالي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي

فإنّي رأيت الليل أكتم للسرٌ

وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح

وبالبدر لم يطلع وَبالنجم لم يسرِ

«ولادة بنت المستكفي»

Twitter: @ketab_n

كنتُ أشعر بملل قاتل، لقد مكثتُ اثنيّ عشر يوماً في المستشفى، ولم أعد أطيق الصبر أكثر. أريد أن أعود إلى شقتي، وأريد أن أبدأ في البحث عن وظيفة؛ فقد أمضيتُ أربع سنوات بلا عمل. ولا بُدّ لي من أن أبحث عن مصدر دخل لي، لاسيما وأن المبلغ الذي تركه لي والدي لن يبقى لي إلى الأبد. كنتُ مستلقياً على السرير وما يزال لباس المستشفى ذو اللون السماوي عليّ. وأعتقد بأنّه من غير المنطقي أن أظل ممنوعاً من أن أرتدي ملابسي الشخصية طول فترة تواجدي هنا، خصوصًا بعد أن خرجت من غرفة العناية المركزة منذ يومين، وبالتالي فلم يعد هنالك معنى من ارتدائي له. وفي الحقيقة، فأنا أظن بأنّهم لم يسمحوا لي بعد بأن أرتدي ملابسي لأنهم يخشون أن أغادر المستشفى بدون علمهم وأن أحاول الانتحار مرة أخرى.

كنتُ أشعر بالاختناق، فقررت النهوض من السرير. كانت الغرفة صغيرة، بالكاد تتسع لخمسة أشخاص. وكان فيها سرير وبجواره مغسلة صغيرة، وكانت توجد طاولة زجاجية على اليمين أمامها كرسي، وفي الخلف كان يوجد حمام صغير. وكان الباب المؤدي إلى ممر المستشفى الخارجي يقع أمام السرير مباشرة في منتصف الغرفة، ولم أكن مرتاحاً من قبل لموقع الباب إذ أنه كلما يُفتح مع دخول الطبيب أو الممرضة يختلس المارة في الخلف من الفضوليين النظر إلى الغرفة.

غسلتُ وجهي عدة مرات في المغسلة، وأخذتُ أرتب شعري بيدي، وتمنيتُ حينها لو كنتُ قد وضعت في جيبي مشطاً حينما حاولت

Twitter: @ketab_n

الانتحار. تبسمت على صدى هذه الفكرة، وتساءلت مباشرة عن مصير ملابسي التي كنت أرتديها. هل مزقوها أثناء إلباسي لباس العمليات؟! لا أستبعد ذلك لا سيما مع موضوع الخمس دقائق، فلو أنهم خلعوا ملابسي بشكل هادئ وسلس لتطلب منهم الأمر خمس دقائق كاملة على أقل تقدير، إذاً سأكون قد لقيتُ حتفي حينها!

حسناً، في ظل هذا الملل والرتابة القاتلة، وفي ظل رغبتي في أن أخرج من غرفتي وأن أتجول في ممرات المستشفى، بات لديّ الآن مبرر وعذر جيد فيما لو رآني الطبيب أو سألني أحد من المسئولين في المستشفى عن سبب تجولي في المستشفى، حيث سأقول على الفور بأنني أرغب في الحصول على ملابسي التي كنتُ أرتديها.

فتحتُ الباب، وبدأتُ أتجول في المكان. كانت الغرفة في الدور الثالث، وكان المكان هادئاً إلى حدٍ ما. ولم يكن هناك سوى بعض الممرضات اللاتي يمشين هنا وهناك وبأيديهن ملفات طبية أحياناً، وأحياناً بعض الحقن والأدوية، وفي أحيانٍ أخرى بعض المناشف والمعقمات. كانت الساعة العاشرة صباحاً، وفكرت بالنزول إلى الدور الأول والتأمل في من يأتي ومن يذهب من الناس.

توجهتُ نحو المصعد، وضغطتُ على الزر، وكانت الإشارة في الأعلى توضح بأنّ المصعد قادم من الأسفل. 1 – 2 – 3 ومن ثم رنّ جرس المصعد معلناً وصوله، وفُتح الباب وكانت المفاجأة.

- أحمد؟ ماذا تفعل هنا؟

Twitter: @ketab_n

كان الدكتور معتز العالي في المصعد، ويحمل في يده اليمنى باقة ورد، وفي الأخرى علبة من الشكولاتة الفاخرة. وتساءلت كيف استطاع أن يضغط على زر المصعد وهو على هذه الحال وخطر ببالي أنه قد يكون ضغط الزر بفمه! وابتسمتُ وأنا أتخيل المشهد.

- لا شيء، شعرتُ بالملل وأردتُ أن أتجَوَّل قليلاً.

نظر إليّ بارتياب، وخرج من المصعد، ووضع الباقة على الأرض وصافحني بيده اليمنى.

- حمداً لله على سلامتك.

وقدم إليّ باقة الورد وعلبة الشكولاته، وقال هو يبتسم:

- هذه هدية بسيطة بمناسبة شفائك.

- شكراً لك، لم يكن هناك داعٍ لكل هذا!

نظر إليّ بعتاب:

- هذا أقل شيء أقدمه، والآن دعنا نتوجه إلى الغرفة، أريد أن أتحدث إليك.

مضينا سوياً نحو الغرفة، وقد انقلبت الأدوار، حيث أصبحت أنا من يحمل باقة الورد وعلبة الشكولاته بكلتا يديه!

Twitter: @ketab_n

وصلنا إلى غرفتي وفتح الدكتَور معتز لي الباب، ودخلت ومن ثم لحقني. و وضعت العلبة والباقة على الطاولة الزجاجية، وعرضت عليه الجلوس على الكرسي. ومن ثم جلستُ على السرير، و ضغطت على زر استدعاء الممرضة الذي كان بجانبه.

- كيف حالك الآن يا أحمد؟

- الحمدلله، أنا أفضل بكثير الآن، وسوف أخرج من المستشفى هذه الليلة.

- خبرٌ رائع، وهل يوجد لديك أي خطط تنوي عملها في الغد؟

كان الدكتور معتز يرتدي ثوباً وغترة بيضاء، ويضع نظارة شمسية سوداء على جيبه الأمامي ولم يكن حليقاً هذه المرة، وكانت لحيته البيضاء قد غطت ذقنه بالكامل، وقدّرتُ بأنّه لم يُحلق منذ أكثر من أسبوعين. هل يكون ما حصل معي هو السبب في ذلك؟!

- مبدئيا ليست لدي أي خطط، ولكني أفكر في الجلوس والراحة في شقتي غداً، ومن ثم سأبدأ في البحث عن عمل بعد يومين أو ثلاثة.

- أريد منك أن تزورني في المستشفى غداً، إن كان هذا يناسبك.

في تلك الأثناء فُتح الباب ودخلت منه الممرضة، وقالت بالإنجليزية وهي تنظر إلي باستفهام:

- ماذا تريد؟

Twitter: @ketab_n

- كوبين من القهوة.

خرجت بفظاظة من دون أن تجيب. ونظرتُ إلى الدكتور معتز باستغراب من تصرفها ووجدته قد دخل في نوبة ضحك.

- أنت في مستشفى يا أحمد، ولست في مطعم أو مقهى.

- بطبيعة الحال لو كان هذا مطعماً لأعلن إفلاسه بعد أول أسبوع له.

وضحكت وضحك الدكتور، قبل أن يضع يده على ركبتي ويقترب مني ويقول بصوت منخفض نسبياً:

- كم هم عدد الناس الذين يعلمون بأمر حالتك هذه؟

تفاجأت من سؤاله، ومن تغير حاله السريع، ومن جديته المباغتة.

- فقط اثنان، أنت ومازن. ولا أدري، ربما زوجتي السابقة أسماء، لست أدري حقاً هل هي تعرف أم لا، لأنني لم أرها منذ أكثر من خمس سنوات.

- ولا أحد في العمل، أو في الحي الذي تسكن فيه يعلم بأمرك؟

- كلا، فأنا في السنوات الماضية لم تكن لدي أي رغبة في العمل لاسيما بعد وفاة والديّ وبعد طلاقي. وقبل ذلك كنتُ لا أمكث في الوظيفة الواحدة أكثر من سنتين؛ لأنني سريع الملل.

Twitter: @ketab_n

- وماذا عن الحي والجيران؟

- لم يمضِ على سكني في شقتي الحالية أكثر من سنتين.

- وهل يعلم مالكها عمرك الحقيقي؟

- كلا، لأنها ليست باسمي ولكنها مسجلة باسم مازن؛ لأنّ مالك العمارة يشترط أن تكون الشقة مُسجلة باسم شخص يعمل في وظيفة. وبالتالي، فأنا على ثقةٍ بعدم معرفة أي أحد بعمري الحقيقي ماعدا الذين ذكرتهم.

- حسناً، يجب أن يظل الأمر كذلك، وفي الوقت الراهن أريد منك أن تؤجل البحث عن وظيفة لحين الانتهاء من أخذ الفحوص والعينات والبدء في العلاج.

- حسناً، لا مشكلة.

- ولكن يجب أن لا تخبر أيّ أحد عن المشكلة، لا تنسى ذلك. وبالمناسبة فلقد أخبرتُ الطبيب الذي قام بعلاجك هنا بأنّ عمرك 16 سنة.

قلت وأنا أضحك:

- هذا يفسر تصرفاته معي، وبالمناسبة لا أعلم سبب إصرارك على هذا العمر بالذات مع أن نموي توقف في سن الثامنة عشرة.

- من باب الاحتياط فقط؛ فشكلك لا يوحي بأنك وصلت إلى تلك

Twitter: @ketab_n

السن.

فُتح الباب مرة أخرى، ودخل عاملٌ هندي يرتدي بذلة زرقاء، وهو يحمل إناء فيه كوبان من القهوة وحلقات مُغلفة صغيرة الحجم من السكر بجانبهما. وأشرت إليه بأن يضع الإناء على الطاولة. وحين خرج سألت الدكتور:

- ولكن لماذا كل هذه السرية؟

قال وهو يحرك بالملعقة البلاستيكية السكر في كوب القهوة:

- لأنّ الأمر خطير للغاية، ولا أظن بأنك تدرك خطورته فعلاً.

- خطير؟

كان يحتسي ببطء القهوة الساخنة، ومن ثم وضع الكوب:

- نعم، لا أستطيع أن أفصح لك أكثر من هذا في الوقت الراهن. ولكن سأخبرك بكل شيء غداً.

- متى تريدني أن أزورك بالضبط؟

- في الساعة الثامنة صباحاً، وليس هناك داع للمرور على موظف الاستقبال في المستشفى، توجه إلى غرفتي مباشرةً.

بعد دقائق خرج الدكتور معتز العالي، وقبل أن يغلق الباب ويغادر

Twitter: @ketab_n

التفتَ إلي وقال بجدية كبيرة:

- لا تُخبر أي أحد، أي أحد.

وغادر. ولكنّ كلماته لم تفارقني.

في مساء ذلك اليوم، أنهيتُ مع مازن كافة الإجراءات المطلوبة، وأخذتُ ملابسي التي كانت عليّ، ولم تكن كما توقعت ممزقة أو مهترئة، ولكن كانت في حالة ممتازة وقد غُسلت وكويت ووضعت في كيسٍ بلاستيكي. وكان مازن قد أحضر لي ثوباً وملابس داخلية من شقتي، وقد لبستها حين مغادرتي.

وفي السيارة وأثناء توجهنا إلى الشقة كسر أبوفهد حاجز الصمت:

- أحمد، ماذا بك؟ تبدو سارح البال هذا اليوم؟

- لقد جاءني الدكتور معتز هذا اليوم.

- جاءك؟ متى؟

- في الصباح، وطلب مني زيارته غداً في المستشفى.

- رائع. ولكن لماذا يبدو عليك القلق؟!

- لا أدري، ولكنني أفكر في كلامه لي، لقد طلب مني أن لا أخبر

Twitter: @ketab_n

أي أحدٍ عن حالتي هذه.

- لماذا؟

- لم يخبرني، ولكنه قال لي بأنّ الأمر أخطر بكثير مما أتصور.

وصلنا إلى الشقة وفتحتُ باب السيارة وأغلقته وبدأتُ في الحديث مع مازن الذي كان بداخل السيارة من خلال النافذة:

- هل تريدني أن أذهب معك في الغد؟

- كلا، لا يوجد داعٍ لذلك. ومن ثم فإن الدكتور طلب مني أن آتيه لوحدي.

- حسناً، بالتوفيق، أوه كدت أن أنسى...

ونزل مازن من سيارته وفتح الباب الخلفي وأخذ منه حافظة طعام فضية اللون، وأعطاني إياها:

- هذه حافظة (جريش) عملتها زوجتي عشاءً لك.

أخذتها بعد أن شكرته ومن ثم دخلتُ إلى الشقة التي بدت مرتبة تماماً ولم تكن على الحال التي أذكرها عليه، لابد من أنّ مازن قد رتبها من أجلي. حمداً لك يارب أن رزقتني بأخٍ لم تلده أمي. شكراً، شكراً يا مازن.

Twitter: @ketab_n

كان (الجريش) لذيذاً بالرغم من أنه كان بارداً بعض الشيء. وأعدتُ ماتبقى منه إلى الحافظة وأدخلته الثلاجة. ومن ثم أخذتُ حماماً بارداً، كعادتي قبل النوم، فلطالما أحببتُ الاغتسال والاستلقاء في حوض الحمام وهو مملوء بالماء البارد؛ فقد كنت أكره المياه الساخنة أو حتى الدافئة منذ صغري. وبعدها استلقيتُ على الفراش وأنا أفكر بما سيحدث في الغد، حتى نمت.

استيقظت عند الفجر. وبعد أن صليت، قمت بإعداد الفطور، وحين فرغت من تناوله نظرتُ إلى الساعة وكانت السابعة، حيث لم يتبقَّ سوى ساعة واحدة على الموعد. ارتديت ثوبي وتعطرت، وانطلقتُ إلى المستشفى.

وصلتُ عند الساعة الثامنة تماماً، وصعدت فوراً نحو غرفة الدكتور. كان المستشفى مليئاً بالمراجعين والمرضى، وقد اكتظ معظمهم عند مكتب الاستقبال. وشعرت بالسعادة وأنا أتوجه مباشرة نحو الدكتور من دون الحاجة إلى الانتظار والدخول في هذه الدوامة والتي اضطررنا للمرور فيها في المرة الماضية.

طرقتُ الباب وفتحته، وكان الدكتور معتز في الداخل وهو يرتدي ملابسه الطبية. ونهض وسلم عليّ وهو يبتسم ويقول: «لقد جئت في الموعد تماماً».

وأخذني معه على الفور خارج الغرفة نحو مختبر التحاليل. وهناك طلب من المرضة أن تأخذ عينة من دمي.

Twitter: @ketab_n

قضيتُ الساعتين المقبلتين في أخذ الفحوصات والأشعة والعينات بمختلف أنواعها. ولم يشرح لي ما فائدة كل فحص أو أشعة، وأنا بدوري اكتفيت بتنفيذ ما يُطلب مني من دون أن أسأل. وقد شعرت بالإرهاق بعد كل هذه الفحوصات والعيّنات.

وأخيراً عدتُ إلى غرفة الدكتور حيث طلب مني الجلوس، وجلس أمامي من خلف الطاولة وسألته:

- هل تبقى شيء؟

- في الوقت الراهن كلا، ولكن نتائج هذه العيّنات والتحاليل والأشعة تحتاج إلى وقت للظهور.

- وهل بمجرد ظهورها ستكون قادراً على تشخيص مشكلتي؟

- الحق أني لا أعلم، ولا أستطيع أن أضمن لك ذلك. ففي حياتي العلمية لم تمر عليّ مثل حالتك هذه على الإطلاق.

- أتقصد بأنه لا يوجد في الكتب والأبحاث والعلوم الطبية أي ذكر لها؟

- من الناحية النظرية تبدو الفكرة غير مستحيلة الحدوث، ولكن تطبيقياً نعم. وكنت قد سمعت إبان دراستي عن ظهور حالةٍ شبيهة لحالتك هذه في دولة أوروبية، ولكن لم أصدق ذلك.

- وماذا حصل له؟

Twitter: @ketab_n

- تقصد ماذا حصل لها؛ لقد كانت فتاة. لقد توفيت بعد أن أخضعت للعديد من الفحوصات والأشعة التي لم تستطع أن تطيقها، وبعد موتها خضعت لتشريح لجثتها من أجل الوصول إلى سبب حالتها هذه التي تمثلت بعدم تقدمها في السن، ولكنهم لم يتوصلوا إلى معرفة السبب بدقة.

- وما الداعي لعمل الفحوصات والأشعة إن لم تكن قادرة على احتمالها؟!

- حسنا هنا مربط الفرس. كانوا يريدون أن يتوصلوا إلى السر الذي جعلها كذلك. ولم يكن الأمر عائدا لها ولكن عائد إلى الجهات العليا في الاتحاد السوفييتي. لقد أراد ستالين التوصل إلى السر حتى لو كلف الأمر حياتها. وعلى أية حال لم أصدق القصة آنذاك.

- أتعني بأنك تصدقها الآن؟

- أعتقد بأنها الآن باتت أقرب إلى الصحة، نعم.

- وهذا بعد أن رأيتني.

صمت قليلاً، ثم أجاب بعد أن تنهد بعمق:

- نعم.

- وهل تظن بأنّك قادر على علاجي؟

- كل شيء بمشيئة الله. سأبذل ما بوسعي. وأنا أظن بأنّ هناك

Twitter: @ketab_n

خللا جينيا لديك يتسبب بعدم ظهور أعراض الشيخوخة والتقدم في السن عليك من الخارج. وما أريد أن أتأكد منه الآن هو فيما إذا كانت أعضاؤك الداخلية تكبر في السن أم أنها تمثل عمرك الخارجي تماماً. وعموماً يوجد مرض آخر شبيه بمرضك ولكنه معاكس له، وقد قرأتُ عنه حينما كنت في الخارج، كما أني وقفتُ على عددٍ من تلك الحالات بنفسي ويُطلق على هذه الحالة اسم (لايبوديستروفي Lipodystrophy)، ويتسبب هذا المرض في جعل الطفل أوالمراهق يبدو كما لو كان في الخمسين أو الستين من عمره.

- يا للهول!

- نعم حالتك تبدو أفضل بكثير. ولكنكما جميعاً تعانيان من نفس الخلل الجيني نادر الحدوث. لا أظنه يحدث سوى بنسبة واحد في المليار في حالتك أنت. وهي الحالة المعاكسة؛ تكبر في السن ولا يوحي شكلك بذلك.

- وما هو التفسير العلمي لذلك؟

- في حالتك أنت لا أعلم! وسأنتظر نتائج فحص الهرمونات لديك تحديداً والفحوصات الأخرى. ولكن بالنسبة للحالة الأخرى والتي تكلمتُ عنها وتتسبب في ظهور علامات الشيخوخة في سن صغيرة فيرجع السبب إلى أن الأنسجة الدهنية الداعمة داخل الجلد تبدأ في الانهيار والتآكل في الوقت الذي يستمر فيه الجلد بالنمو. ويرتبط حدوثه في الغالب مع الإصابة بمرض السكري والكبد الدهني بالإضافة إلى حدوث ارتفاع في مستوى الدهون الثلاثية. وقد حضرتُ مؤتمراً أقيم قبل سنتين في ستوكهولم وتم التطرق فيه إلى هذا المرض وذكروا

Twitter: @ketab_n

بأنّه لا يوجد سوى مائتي شخص يعانون منه حول العالم.

- الحمدلله، حقاً من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته.

نهض الدكتور معتز باتجاه الباب وفتحه ونظر إلى الخارج يمنة ويسرة كما لو كان يريد أن يتأكد من عدم وجود من يسترق السمع. وعاد وأغلق الباب وقال بصوتٍ منخفض وبجدية بالغة:

- في الحقيقة إن حالتك هذه لا تعد مصيبة، على الأقل بالنسبة لغيرك.

- وكيف ذلك؟!

- ألا تعلم أنّ حالتك هذه أشبه بمعجزة إنسانية؟! حالة شديدة الندرة، ولطالما تحدثت عنها الأساطير والخرافات في شتى الثقافات. ألا تعلم أن الإنسان منذ الأزل كان يلهث خلف عقاقير الشباب وأمصال الحياة؟ إنّ الملوك والرؤساء بذلوا الغالي والنفيس من أجل الحفاظ على صحتهم وإبقاء شبابهم طيلة حياتهم..

سكت الدكتور معتز قليلاً وابتلع ريقه، ومن ثم أخذ يحدق ببصره إليّ:

- أحمد، إنّ الخلل الجيني الذي تعاني منه، قد يُمكّن الإنسان من اكتشاف مصل يُطيل الشباب، ويحافظ على المظهر الشاب اليافع الجذاب. ويجعل الإنسان يتمتع طول عمره بفترة عيشه الذهبية..

Twitter: @ketab_n

- أتقصد بأنك ومن خلال فحصك وتحاليلك والعينات التي أخذتها مني قد تتوصل إلى ذلك؟

ضحك الدكتور ضحكة يائسة:

- كلا، من المستحيل فعل ذلك. نعم، نظرياً يوجد هناك احتمال ضئيل جداً في إمكانية التوصل إلى مثل هذا المصل من خلال إخضاعك للعديد من الفحوصات، ولكن من الناحية التطبيقية فهذا أشبه بالمستحيل خصوصاً وأنت على قيد الحياة...

شعرت فجأة بقشعريرة تسري في جسمي:

- ماذا تقصد يادكتور؟

- أقصد بأنّه لا يوجد أي إمكانية لاختراع مثل هذا المصل الذي يُبقي الشباب، وقد يكون هناك نسبة ضئيلة جداً في إمكانية اختراعه ولكن بشرط عمل تشريح دقيق وشامل للجثة...

أحسستُ ببرودة تسري في جسدي. تشريح على جثتي! يا إلهي!

- ولذلك يا أحمد، يجب أن لا يعرف أي أحد عن حالتك هذه. فلو شاع الأمر ستصبح عندها هدفاً ذهبياً لجميع حكّام العالم. وسيسعى خلفك كل من يمتلك الثراء والسلطة ولا يمتلك بطبيعة الحال الشباب أو القدرة على الاستمرار في مرحلة الشباب! وقد تطاردك الدول العظمى ممثلة بأجهزة مخابراتها فيما لو علموا عن حالتك هذه.

Twitter: @ketab_n

- صدقني يا دكتور بأنني لم أنظر أبداً للموضوع بمثل هذه النظرة أبداً.

قلتها وقد تغيرت نبرة صوتي.

- لهذا السبب يا أحمد كنتُ خائفاً من أن حالتك هذه يعلم بأمرها أحدٌ من حولك.. ولكن من حسن حظك بأن من يعرفها فقط أنا وصديقك مازن.

- نعم، أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

- وماذا عن زوجتك السابقة؟ أمازلت تشك بأمر معرفتها؟

- أوه كلا، أظنها أقل ذكاءً من أن يخطر ببالها مثل هذا الأمر.

أومأ الدكتور معتز برأسه باستحسان ومن دون أن ينبس ببنت شفة. ومن ثم نهض وأخذ يتجول في الغرفة جيئة وذهاباً، ومن دون أن يتحدث. وقد اكتفيت حينها بالتفكير فيما قاله لي للتو.. هل يُعقل بأن أكون صيداً ثميناً للملوك ورؤساء الدول! هل يُعقل بأن أكون الهدف الأول للموساد والإف بي آي ولأجهزة الاستخبارات السوفييتية والبريطانية وغيرها! وهل أنا مهمٌ إلى هذا الحد! يارب لطفك! كم كنت سعيداً في الماضي حينما لم أنظر للأمر هذه النظرة وحينما لم أدرك خطورة الموقف من قبل. إنّ السعادة تكمن في عدم إدراكنا لخطورة ما نحن عليه. وإن المأساة تختبئ خلف السعادة. وإن الحقيقة المؤلمة دفينة تحت رمال الوهم الكاذب.

Twitter: @ketab_n

قطع تفكيري الدكتور معتز:

- أحمد، يجب عليك أن لا تعمل أو ترتبط بوظيفة أو أن تقدم على أي أمر يتوجب معه الكشف عن عمرك الحقيقي.

- ولكن من المستحيل أن أستمر على هذه الحال. و خصوصاً أنّ هناك بعض الضروريات التي لا غنى عنها وستكشف عن عمري...

قاطعني الدكتور:

- مثل ماذا؟

- مثل بطاقة الهوية الوطنية. فهي قد قاربت على الانتهاء، ولابد لي من تجديدها..

- نعم، لقد فكرت بذلك. يجب عليك أن تنسى أمر التجديد!

ضحكت بتهكم. وهززت رأسي بإشارة توحي بعدم التصديق:

- وكيف سأعيش بلا بطاقة أحوال! أعتقد بأن موتي أفضل من عيشي على هذه الحال!

عاد الدكتور معتز إلى كرسيه وبدأ في حك رأسه، ومن ثم أخذ ينظر باتجاه النافذة التي كان يتسرب الضوء من بين ستائرها الرمادية. وبعدها نظر إلي وقال بنبرة باردة:

- سنقوم بتزوير بطاقة أحوال جديدة بعمرٍ جديد!

Twitter: @ketab_n

نزلت كلماته عليّ كالصاعقة. لم أستطع أن أتفوَّه بأي كلمة! كان الدكتور معتز هو آخر من أتوقع أن يُدخلني بنفسه إلى عالم الاحتيال والجريمة..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في أكثر من معركةٍ دامية الأرجاءْ

أشهر هذي الكلمات الحمراء

أشهرها.. سيفاً من نارِ

في صفِّ الإخوة.. في صفِّ الأعداء

في أكثر من درب وعْرِ

تمضي شامخةً.. أشعاري

و أخافُ.. أخاف من الغدرِ

من سكينٍ يُغمد في ظهري

لكني، يا أغلى صاحب.. يا طيّبُ.. يا بيتَ الشعرِ

رغم الشكّ.. و رغم الأحزانِ

أسمعُ.. أسمعُ.. وقع خطى الفجرِ!

«سميح القاسم»

Twitter: @ketab_n

- أحمد، بصراحة، ليس لديك خيارٌ آخر!

قالها مازن بصوتٍ عالٍ من وسط مطبخ شقتي الصغير وهو يغسل أطباق العشاء الذي أحضره من بيته. دخلتُ إليه وساعدته في تنشيف الأطباق ووضعتها داخل السلة التي أحضرها معه من دون أن أتحدث. ومن ثم أردف قائلاً:

- ولو فكرتَ فيها ملياً، ستجد بأنّها ليست جريمة ولا احتيالا. فأنت بالفعل تبدو في الثامنة عشرة، ومن يراك لن يساوره أي شك حول هذه الحقيقة. ولأنّ معرفة عمرك الحقيقي ستلفت الأنظار إليك وسيبدأ عندها الناس بالحديث، وأنت تعلم بأنّ الناس مولعون بتناقل الإشاعات وعاشقون للمبالغات...

قاطعته من دون أن أنظر إليه وأنا أجلس القرفصاء مستنداً على الفرن بجانبه:

- من راقب الناس مات همّاً.

أغلق صنبور الماء، وأخذ يمسح يديه في منشفة الأطباق والصحون، وجلس بجانبي على الأرض:

- القضية ليست قضية آراء الناس وانطباعاتهم، إن القضية أكبر وأكثر تعقيداً من ذلك كما قال الدكتور معتز تماماً. إن انتشار خبرك بين الناس وربما وصول القصة إلى الإعلام بعد ذلك، سيشكل خطراً كبيراً على حياتك.

Twitter: @ketab_n

- ولكن هل الحل بأن أصبح مجرماً ومزوراً؟! هل تريدني أن أعالج الخطأ بخطأ؟! كُن مستقيماً وسيحتار عدوك!

- أليس تعديل عمرك في بطاقة الأحوال لتتواكب مع مظهرك يُعد من الاستقامة؟!

- ليس تعديلا، ولكنه تزوير!

- وما هو التزوير أصلاً؟! في وضعك هذا فإن عمرك الحقيقي هو التزوير! يجب أن تدرك يا أحمد بأنّ حالتك هذه شاذة، وبأن تعديل بطاقة الأحوال هي من أجل سلامتك فقط. ولو لم يكن الإفصاح عن عمرك الحقيقي يشكل خطراً عليك لما كلف الدكتور معتز نفسه باللجوء إلى هذه الطرق المشبوهة وهو الذي أمضى حياته كلها في العلم والكفاح وسيرته الفاضلة تتناقلها الألسن...

وضعتُ وجهي بين يديّ:

- أشعر أن رأسي يكاد ينفجر! لم أعد أعرف كيف أتصرف!

وقف مازن وفتح أحد الرفوف وأخرج منه كوبين وقام بملء الغلايّة بالماء:

- في الوقت الراهن أعتقد بأنّ كوباً من الشاي كفيلٌ بتهدئة رأسك. يقولون بأنك إذا وقعت في مشكلة ما فكوب من الشاي سيتولى حلها بالنيابة عنك. ومهما حدث ومهما زادت أشغالك وأعمالك فسيكون دوماً هناك متسعٌ من الوقت لكوب شايٍ ساخن.

Twitter: @ketab_n

- يبدو بأنك تتابع بكثرة دعايات الشاي!

أخذ يضحك وهو يحرك السكر بالملعقة، وأعطاني الكوب:

- دعنا نذهب إلى غرفة المعيشة ونشاهد التلفاز بدلاً من الجلوس هنا كما لو كُنا خادمتين تعملان عند إحدى الأسر!

شعرت بأن حالي أفضل بكثير بعد أن تناولت الشاي، وبالرغم من أن التلفاز -ممثلاً بقناتيه الأولى والثانية- لم يكن فيه أي شيء مثير وجذاب؛ إذْ كانت الأخبار مستمرة منذ أكثر من نصف ساعة على القناة الأولى في حين أنّ القناة الثانية لم تكن أفضل حالاً من أختها حيث كان فيها برنامج اقتصادي باللغة الإنجليزية.

- لقد طالت الأخبار اليوم على غير المعتاد. هل تظن بأنها الحلقة الأخيرة؟!

قالها مازن وهو ينظر بملل إلى الشاشة. وتجاهلت التعليق على دعابته التي سمعتها آلاف المرات غير أنني شعرت بأنّ الأمر لم يعد يُطاق هذه المرة وقلت:

- حقاً لست أدري ما الحكمة الكامنة خلف الأخبار، أعني بأنّ هناك العديد من التفاصيل غير الهامّة والتي لا تعني أي شيء لأي شخص، وربما لا يتابعها أصلاً إلا الأشخاص الذين كانت عنهم أو أسرة المذيع وأقرباؤه... ولو كان لي من الأمر شيء لجعلت الأخبار لا تتجاوز الخمس دقائق، ولنقلت توقيتها من الساعة التاسعة والنصف

Twitter: @ketab_n

لتصبح عند الثانية عشرة في منتصف الليل...

قال مازن وهو يعبث بجهاز التحكم عن بُعد والضجر قد أخذ منه كل مأخذ:

- بل قُل عند الثالثة فجراً وعسانا نُطيق!

ضحكتُ وقلت:

- لقد فكرت بذلك، ولكن لم أشأ أن أتعب المذيع سليمان العيسى وأجعله يخرج من بيته في مثل هذا الوقت المتأخر.

- لا يوجد داع لخروجه؛ يستطيعون تسجيل الأخبار قبل هذا الوقت ومن ثم عرضها لاحقاً. وبهذه الطريقة سيتجنبون المواقف المحرجة التي لطالما تحدث معهم أثناء التصوير المباشر، والتي أجزم بأنّ معظم من يشاهد الأخبار يتابعونها أملاً في رؤية مثل هذه المواقف والأخطاء العفوية.

- في الواقع، فإنّ هذا هو سبب متابعتي لها أيضاً!

قلتها وأنا أضحك، وضحك مازن بدوره. قبل أن يقول بجدية:

- بالمناسبة، متى طلب منك الدكتور معتز أن تلاقيه؟

- بعد يومين:

- في المستشفى؟

Twitter: @ketab_n

- بل في بيته. لأنّ لقائي به لن يكون له علاقة بحالتي الصحية، ولكن لأنّه يريد مني صوراً شخصية لي ليعطيها للشخص الذي سيتكفل بعمل بطاقة أحوال لي، وكذلك الخمسة آلاف ريال التي اشترطها المزوّر.

- الجميل في الأمر أنك لن تضطر إلى القيام بهذا الأمر مجدداً إلا بعد عشر سنوات حين تنتهي صلاحية البطاقة..

- لا تنسى بأنّه سيقوم بتزوير شهادة المرحلة الثانوية أيضاً ليجعلها بتاريخ هذا العام وكذلك تزوير شهادة الميلاد.

- وكل ذلك بخمسة آلاف فقط؟

ضحكتُ بتهكم:

- يعجبني تفاؤلك، الإجمالي سيكلف عشرة آلاف ريال.

- مبلغٌ كبير، ولكنّه على الأقل سيكفل لك راحة البال في السنوات القادمة.

تنفست بعمق وأغمضتُ عينيَ وتمتمت قائلاً: «أتمنى ذلك!».

****

Twitter: @ketab_n

وضعتُ كل الوثائق والصور المطلوبة في مظروف بني اللون، و سحبتُ من البنك مبلغ عشرة آلاف ريال ووضعتها هيَ الأخرى داخل المظروف. وسلمتها للدكتور معتز في بيته الكبير والذي أسرتني فخامته كثيراً. وتساءلت عن السبب الذي يجعل الدكتور معتز يُقحم نفسه في هذه المستنقعات الإجرامية بسببي بالرغم من أنّ حياته بدت لي مثالية للغاية.

- دكتور، أتسمح لي بسؤال؟

- سل مابدا لك.

- لماذا تعمل معي كل هذا؟! معروفك وتضحيتك هذه لا يُقدم عليها إلا قلة قليلة في زمننا هذا. وفي ظل سنك الكبير وحالتك المثالية، لا أجد أي سبب يدفعك لتعريض نفسك للخطر بسبب مريض مجهول لم تلتقِ به إلا قبل أيام قليلة؟!

كنا نشرب الشاي في حديقة المنزل الخارجية والتي تُطل على مسبح دائري جميل. وكنا نجلس على طاولة بيضاء وبجوارها أربع كراسي مريحة. وكان المكان هادئاً إلا من صوت صرصار الليل الذي لم يتوقف عن الحداء ولو للحظة واحدة!

زفر الدكتور معتز زفرة عميقة، وبدا وكأنه يسترجع ذكريات ماضية.

- بصراحة يا أحمد ما أحاول أن أفعله معك هو محاولة مني

Twitter: @ketab_n

للتكفير عن خطأ فادح ارتكبته في السابق. بالإضافة إلى شعوري الشديد بالذنب بسبب تعاملي معك في بادئ الأمر والذي أدى بك إلى محاولة الانتحار.

نعم، دعوني أعترف بذلك، لقد كانت لديّ صفة سلبية وهي صفة الفضول المبالغ فيه أحياناً. وشعرت برغبة عارمة تعتريني لمعرفة الخطأ الذي فعله الدكتور. كان لساني على وشك الخروج من فمي من شدة اللهفة!

- دكتور...

- لا يوجد بيننا رسميات يابُني، نادني أبو لجين.

- هل من الممكن يا أبا لجين أن تخبرني عن هذا الخطأ الذي تريد التكفير عنه؟

سكت قليلاً، وشعرتُ بأنّه ندم على مقولته بعدم وجود رسمياتٍ بيننا.

- لم يسبق لي أن أخبرت أي أحد عن ما حصل معي...

كان ينظر إلى السماء الصافية بتأمل، كما لو كان يستحضر ذكرياتٍ مضت.

- إذا كنت ترغب بالاحتفاظ بهذا الأمر لنفسك فلا بأس.

Twitter: @ketab_n

قلتها وأنا لا أعنيها مُطلقاً، فقد كنتُ مستعداً لأن أدفع ما ورائي وما دوني من أجل معرفة سرّه.

- كلا، كلا، لقد آن الأوان لأن أزيل هذا العبء الكبير عن كاهلي.

شعرت بالانتصار، وحاولت أن أتظاهر بالتأثر والحزن بالرغم من أنني في الداخل كنت أرقص فرحاً.

- قبل عشرين سنة وحينما كنت عاكفاً علي أبحاث الدكتوراه في أمريكا، تزوجتُ بفتاة أمريكية اسمها كلير حيث أعجب كلٌّ منا بالآخر وأحبّ كلٌّ منا صاحبه وظللنا على هذه الحال لمدة سنتين. كنتُ أتنفس هواءها وأرتوي بمائها و لا أرى سواها، وكانت تعينني في دراستي وأبحاثي وتهتم بحالي كما لو كانت امرأة شرقية بالفعل؛ فهي من تشتري حاجيات المنزل وهي من تطبخ طعامي وتغسل ملابسي وتعتني بكافة شؤوني. وكان أصحابي يحسدونني عليها، ويقولون بأنني سحرتُ فتاة غربية طاغية الجمال والأنوثة وجعلتُ طباعها طباعاً شرقية ترى الرجل بمثابة السيد وليس الشريك...

كدتُ أن أسقط من على الكرسي من فرط حماسي وشدة اندماجي مع قصته. وشعرتُ بأنّ فضولي كان محقاً هذه المرة فوراء سرّه قصة مثيرة على ما يبدو.

- أكمل يا معتز...

أوه، لقد خرجت «معتز» من لساني بالخطأ، كنتُ أقصد يا أبا

Twitter: @ketab_n

لجين، فهو لم يقل نادني باسمي ولكن بكنيتي. وتيقنتُ في هذه المرة بأنه قد ندم فعلاً على سماحه لي بأن أدع الرسميات جانباً معه.

- هل قلتُ لك بأنّ والد هذه الفتاة كان يمتلك أسطولاً إعلامياً ضخماً في الولايات المتحدة ويمتلك عدداً من الصحف والمجلات والقنوات الشهيرة؟ ولكني بالطبع لم أكن أعلم بذلك آنذاك، على الرغم من أنني كنت واثقاً من أنّها تنحدر من أسرة غنية بسبب عدم اهتمامها بالمال على الإطلاق ولإصرارها الشديد على الدفع في كل مرة بالرغم من أن كرامتي ورجولتي لم تُطق ذلك، وتلك هي ردة الفعل الطبيعية للرجل الشرقي فكنتُ أرفض وبشدة مبادراتها هذه وكنتُ أنا من يدفع قيمة الطعام الذي نتناوله في المطاعم الفاخرة التي دأبنا على ارتيادها. هل أخبرتك بأنّه كان لديها سيارة؟

بدأ حماسي يقل تدريجياً. شعرتُ بأنّه أخذ يبتعد عن لب الموضوع باستطراداته.

- معتز..

قلتها عن عمد هذه المرة.

- لم تخبرني بذلك، ولكني أشعر بأنّ السيارة ليس لها علاقة بالموضوع.

- صدقت، على أية حال لابأس بشيء من الاستطراد. كانت تمتلك سيارة رياضية ومن أحدث طراز. وكنا نلفت أنظار من حولنا في كل مرة نركبها. بل إنّ مالك العمارة العجوز، ضاعف من قيمة الإيجار

Twitter: @ketab_n

ثلاث مرات حينما رأى السيارة مركونة بجوار شقتي. هل أخبرتك عن أنّ هذا المالك كان مدمناً على الكبسة؟

أوه، ليس الآن.

- نعم، لقد أخبرتني..

كانت تلك واحدة من الكذبات القلائل التي لم أشعر بتأنيب الضمير حين قولها.

- ممتاز، نعود الآن لقصة كلير. حين حصلتُ على شهادة الدكتوراة، وجدتُ بأنّ الوقت قد حان لأن نعود سوياً إلى أرض الوطن. وحينما فاتحتُ كلير بالموضوع رحبّتْ بالفكرة بيدَ أنّ والديها وقفا ضد سفرها إلى أرض نائية في أقاصي المعمورة ورفضا بشدة ابتعادها عنهما، ولاسيما وأنّهما منذ البداية لم يقتنعا بهذه الزيجة ولم يقبلا بها إلا بعد إصرار ابنتهما على ذلك.

- هل هربتما معاً؟!

بدأ حماسي يعود شيئاً فشيئاً. وقد أكمل الدكتور معتز حديثه متجاهلاً سؤالي:

- بعد أن حاولت كلير بشتى الطرق أن تقنعهما من دون جدوى رأتْ بأنّ من الأفضل أن ننتظر ملياً عدة أشهر ومن ثم نحاول مرة أخرى. وقد اقترحتُ عليها أن تعود معي من دون أن تُبلغ والديها بذلك ولكنها رفضت ذلك.. وشيئاً فشيئاً أحسستُ بأنها بدأت تبتعد عني،

Twitter: @ketab_n

وبدأت تتجاهلني. وقد ظننتُ حينها بأنها لم تعد تبادلني الحب، وبأنها تريد الانفصال عني ولكنها ترغب بأن أكون أنا من أنهي العلاقة احتراماً لكرامتي الشرقية. قررتُ بأن أتجاهلها تماماً كما تتجاهلني، وعزمت على العودة إلى السعودية عودة نهائية وأخبرتها بأنها لن تراني بعد ذلك. ولم ألحظ في تلك الفترة بأنّها قد فقدت كثيراً من وزنها، ولم ألحظ الشحوب والضعف الذي بدت عليه. زارتني في شقتي قبل رحيلي بيوم واحد ورجتني كثيراً بأن أمكث معها، بل إنها بدأت في تقبيل قدميّ من أجل أن لا أفارقها. ولكنني أبيتُ ذلك وخرجتُ وانفجرت هي باكية. وبعد وصولي بأيام جاءني نبأ وفاتها بسبب مرض السرطان. تخيّل يا أحمد بأنني لم أعلم بأنّها مصابة بالمرض إلا بعد أن ماتت؟!

سكت قليلاً، ورأيتُ الدموع توشك على الانهمار من عينيه.

- ووصلني بعد أيام طرد من البريد مرسل منها. وكان يحتوي خاتماً في علبة ورسالة أنيقَة كتبتها كلير بخط يدها. قرأتُ تلك الرسالة آلاف المرات منذ ذلك اليوم، ومازلتُ أحتفظ بالرسالة إلى يومنا هذا من دون أن تعلم زوجتي أم لجين عن أمرها شيئاً. بكيتُ كثيراً ومازلت أبكي كلما قرأتها.. لقد قالت بأنّها زارت المستشفى من أجل الحصول على الفحص الطبي الذي يخول لها الحصول على التأشيرة السعودية للقدوم معي والبقاء في بلدي من دون إذن وموافقة والديها، ولكنها اكتشفت عند الفحص بأنّها مصابة بسرطان في الدماغ. وقد كانت في السابق تعاني من صداع مستمر ولكن لم نكن نظنه أمراً خارجاً عن المألوف أو مثيراً للقلق في حينها. وقد بدأت في أخذ جلسات العلاج في الوقت الذي ظننتُ فيه بأنّها تتجاهلني وترغب في الابتعاد عني. وقد قالت في الرسالة بأنها قد أخذت عهداً على نفسها ألا تخبرني بشأن

Twitter: @ketab_n

مرضها أبداً لأنها لم تُرد أن تراني حزيناً من أجلها. وقد ساءت حالتها كثيراً بعد أن تركتها وعدتُ إلى السعودية إلى أن أبلغها الأطباء بأنّه لم يعد أمامها سوى أيام معدودة لتعيشها.. وقد ذيلتْ في أدنى الرسالة الكلمات التالية «معتز، مع الرسالة يوجد الخاتم الذي لطالما حلمت أن أرتديه معك وحدي..! أرجو منك أن تعطيه هديةً لزوجتك المستقبلية. حبيبتك الأبدية: كلير».

لم يكد يُكمل جملته الأخيرة حتى أجهش بالبكاء وشعرتُ بتعاطف كبير معه ولم أعرف ماذا أقول وقتها فلم يسبق لي أن كنتُ في موقف مشابه من قبل. بحثتُ في جيبي ولحسن الحظ وجدتُ فيه منديلاً، وقدمته مباشرة للدكتور معتز:

- خُذ، صحيحٌ بأنّ المنديل في حالة يُرثى لها لكنّه نظيف.

أخذه وبدأ يقلّبه ويتأمل فيه بتمعن..

- نظيف والله!

قلتها وأنا أتمنى لو كنتُ قد احتفظتُ بهذا المنديل لنفسي!

بدأ يمسح عينيه وأنفه. وخيم الصمت على المكان لعدة دقائق قبل أن يقول:

- المعذرة، لم أتوقع بأني سأتأثر إلى هذا الحد.

- لا عليك، البكاء مفيدٌ لنا أحياناً. ويبدو بأنّ كلير تستحق بأن

Twitter: @ketab_n

يبكي المرء من أجلها.

شهق مرة أخرى، وبدأ يبكي مجدداً، وندمتُ على إعادة تذكيره بها. ولم أجد هذه المرة أي منديل في جيبي. وقال وهو يُغالبُ بكاءه:

- منذ ذلك اليوم أخذتُ عهداً على نفسي بأن لا أدع أحداً يواجه الموت من دون أن أساعده، وبعد أن حاولتَ الانتحار يا أحمد تذكرتُ فوراً ما حدث مع كلير، وعلمتُ بأنّك إن مت بسببي فلن أسامح نفسي ما حييت، وها أنا ذا مستعدٌ لبذل كل ما أستطيع من أجل أن أعينك وأساعدك في محنتك ومشكلتك هذه...

نهضتُ لا شعورياً واتجهتُ نحوه وعانقته من دون أن أتكلم، وشعرتُ حينها بأنّ أبي مازال على قيد الحياة!

****

Twitter: @ketab_n

مضى أسبوعان على زيارتي للدكتور معتز في منزله. ومازالت إلى الآن صدى كلماته تتردد على مسامعي «سأتصل بك حالما تظهر نتائج الفحوصات، أو عندما أستلم بطاقة الأحوال الجديدة وبقية الوثائق. وحتى ذلك الحين لا تحاول الاتصال بي أو القدوم إلى المستشفى». لقد طال الأمر، ولم يتصل بي إلى الآن، لقد ظللتُ أنتظره طيلة الأيام الماضية. والآن، بدأتُ أشعر بالقلق، وبدأتُ أخشى من أنّ أمراً طارئا استجد. هل يا تُرى فشلت عملية التزوير؟! وهل تكون الشرطة قد ألقت القبض على المزوّر وهو متلبسٌ بجريمته؟! وهل سيقودهم التحقيق معه إلى الدكتور معتز ومن ثم إليّ؟! ولكن مهلاً، لماذا لا يكون الموضوع معكوساً برمّته. ما الذي يضمن لي أنّ الدكتور معتز لم يخدعني؟! وكيف أتأكد من أنّه كان صادقاً معي طول الوقت؟! وحتى قصته التي ذكرها لي في بيته، لربما كانت مُختلقة ولم تقع أحداثها أبداً إلا في مخيلته فقط!

كنتُ مكتئباً ومتوتراً، وفي كل مرة كنت أهم فيها بالاتصال عليه كنت أتذكر كلماته وتحذيراته بعدم الاتصال والانتظار حتى يتصل هو. كانت الساعة السابعة صباحاً، ومازلت حتى الآن مستلقياً على السرير والأفكار السوداوية قد سيطرت عليّ. لم أكن جائعاً ولكن شعرتُ برغبة في تناول كوب من القهوة كعادتي كل صباح. نهضتُ بتثاقل، ونظرتُ إلى المرآة في التسريحة المقابلة للسرير في غرفة النوم، بحثاً عن تغيرات جديدة طرأت على وجهي، وقد كانت تلك عادة تأصلتّ فيّ منذ أكثر من خمس سنوات، ومنذ أن أدركتُ أنّ ملامح فترة المراهقة لم تتزحزح عني. وبالرغم من يقيني في كل مرة أنظر فيها إلى المرآة من أنني لن

Twitter: @ketab_n

أرى أي نتيجة مختلفة إلا أنّني بقيتُ متشبثاً بقشة الأمل الواهن التي تتخبطها أمواج محيط الحقيقة المُرّة. وفي كل مرة أتجه فيها إلى المرآة كنت أتخيل وأستحضر مشهد اكتشافي لملامح وعلامات جديدة، وكنت أتخيل هرولتي إلى الهاتف واتصالي بمازن وأنا أخبره بفرح عارم بأنّ الشعر ظهر على وجهي أو أن أنفي كبر حجمه أو أن فكي ازداد طولاً وصلابة.

ولكن لم تكن هذه المرة مختلفة عن سابقاتها. وجهي هُوَ هُوَ، لم يزل كما عهدته منذ أكثر من عقدٍ من الزمان. عينيّ واسعتان ومستديرتان، وحاجبيّ أشبه بهلالين دقيقين، وكأنهما قد رُسمتا بقلم ومسطرة وفرجار من قبل مهندس بارع، وأنفي صغير ودقيق، وفمي أبىً إلا أن يُشارك أنفي صغره وقد أُحاطت به شفتان ورديتان مكتنزتان. كنتُ أبيض البشرة، بالرغم من أنّ أبي كانت تعلوه السمرة، غير أنّ زواجه من أمي والتي تنحدر من أسرة سوريّة تلازمهم صفة البياض كان هو السبب في اكتسابي لهذا اللون.

ولم أعلم عن مقدار إهمالي واستغراقي في القلق والخواطر الهدّامة إلا حين قصدتُ مطبخي فوجدته خاوياً على عروشه، فخرجت على إثر ذلك إلى أقرب سوقٍ غذائية لأبتاع بعض الحاجيات. وقد كنت أقطن، لسوء حظي، في الدور الثاني ولذلك واجهتُ مشقة بالغة عند عودتي وطلوعي الدرج حاملاً بكلتي يدي أكياساً ضخمة، ولم أخشى على كتفيّ أن ينخلعا بسبب هذا الحِمل الثقيل بقدر خشيتي من تمزق أحد الأكياس وتناثر المحتويات على الدرج!

Twitter: @ketab_n

تمكنتُ من الوصول بسلام أخيراً وفتحتُ شقتي و وضعت الأكياس في الداخل وأغلقتُ الباب. ولم أكد ألتفت حتى فاجأني صوتٌ من خلفي:

- صباح الخير يا أحمد.

كدتُ أن أقع على ظهري من الخوف والدهشة. كان الدكتور معتز جالساً على الأريكة في غرفة المعيشة وهو يرتدي لباسه الطبي.

أخذتُ ألتقط أنفاسي، وقلتُ بنبرة تأنيب:

- هداك الله يا أبا لجين، لقد أوشكتُ أن يُغمى عليّ من الخوف.

- أنا آسف، آسف حقاً ولكنّي كنتُ مضطراً إلى عمل ذلك.

- ولكن كيف استطعت الدخول إلى شقتي.

- بنفس الطريقة التي دخلتها حينما أنقذتك.

كان علي أن أتوقع ذلك! لقد باتت خصوصيتي مُنتهَكة! وفكرتُ بأنّه لابد لي من أحصل على هذا المفتاح من الحارس شاء أم أبى.

- لو كنتُ أعلم بقدومك لقمتُ بترتيب الشقة عندئذ وإعداد الشاي والقهوة.

قلتها وأنا أشعر بالحرج حيث أخذتُ المنشفة التي كانت مُلقاة

Twitter: @ketab_n

على الطاولة و(البجامة) التي على الأريكة والتي كان يجلس على طرفٍ منها. حيث قام على الفور لتمكيني من سحبها وهو يقول:

- المعذرة، لم أنتبه إليها.

أخذتها على مضض، وذهبتُ إلى غرفة النوم، ورميت ما كان في يدي على السرير، ومن ثم عدتُ على الفور:

- دكتور، هل تسمح لي بعشر دقائق، أقوم خلالها بصنع القهوة؟

- كلا، كلا، أنا على عجلة من أمري، ولقد ضاع ما يكفي من الوقت في انتظارك هنا...

تساءلتُ في نفسي عن كم من الوقت قد مكث في شقتي، وعن ما إذا كان قد أخذ جولة في الشقة بدافع الفضول.

وأشار الدكتور معتز بيده إلى الأريكة المقابلة لتلك التي يجلس عليها:

- اجلس يا أحمد، ليس هنالك وقت!

جلستُ أمامه وأنا أشعر باللهفة والقلق في آنٍ واحد:

- ما الذي حدث؟ هل خرجت نتائج الفحوصات؟ وماذا عن بطاقة الأحوال؟

Twitter: @ketab_n

لم يجبني على الفور، بل أخذ ينظر إليّ، ورأيتُ في عينيه نظرةً لم أشاهدها من قبل؛ نظرةٌ كانت مزيجاً من القلق والرهبة:

- هذا ما جئتُ من أجله. أحمد، أخشى بأنّ الأمور قد بدأت تخرج عن السيطرة. إنّي أشعر بأنّ هناك من يراقبني ويتبعني ويتنصت على اتصالاتي. ولهذا جئتُ إلى شقتك في هذا الوقت المبكر...

شعرت بالدهشة، وبدأتُ بحك رأسي بحركة لا شعورية:

- ولكن من الذي سيراقبك؟

- لا أدري، صدقاً لا أدري. ولكني أظن بأنّ إحدى الممرضات اللاتي أشرفن عليك عن قرب وقُمن بأخذ الفحوصات والعيّنات قد سربت الأمر إلى جهاتٍ أخرى..

- جهات أخرى؟!

- نعم، لا أعلم من تكون. ولكن الأكيد بأنّ الأمر قد انكشف، ولقد أحسستُ بأمر المراقبة منذ أسبوع تقريباً، وبين الفينة والأخرى أجد سيارة تلحقني من بعيد.

- وهل تظن بأنّ هذا له علاقة بي؟

- أظن؟! بل أجزم بذلك. لقد كانت تلك غلطتي منذ البداية. ما كان عليّ أن أدع أيًّا من الممرضات يساعدن في أخذ الأشعة والعينات. وبالرغم من أنني كنتُ شديد الحذر ولم أطلع أي أحدٍ بالأمر وقمتُ

Twitter: @ketab_n

بإخفاء ملفك الطبّي ونقله معي إلى البيت، إلاّ أنّه وكما يبدو قد علمت إحدى الممرضات بالأمر وأدركتْ بأنّك تُشكل ثروة متنقلة، وبأنّك قد تكفل لها أن تعيش بقية حياتها عيشة الملوك بالملايين التي ستتحصل عليها من ورائك فيما لو أوصلتك إلى من يهمهم أمرك!

أحسستُ بدوارٍ في رأسي، وفقدتُ رغبتي بتناول القهوة أو بتناول أي شيء آخر. واكتفيت بالنظر إلى الدكتور بقلق من دون أن أتحدث. وقد أخذ الدكتور معتز ينقر بإصبعه على الطاولة بتوتر قبل أن يكمل حديثه:

- لذلك كنتُ شديد الحذر في الأيام الماضية، وكنتُ حقيقةً أخشى من أن تقوم بالاتصال بي أو بزيارتي في المستشفى، فما أنا متأكد منه هو أنّ هؤلاء الأشخاص كائناً من كانوا لا يعرفون عن أمرك ولا عن هيئتك أي شيء، ماعدا -بطبيعة الحال- الأوصاف التي ستنقلها لهم الممرضة «الخائنة»، ولقد فكرتُ في اليومين الماضيين في الطريقة المناسبة للوصول إليك من دون أن ألفت الأنظار إليّ، ولم أجد أفضل من القدوم إليك عند الصباح الباكر وأنا أتظاهر بالذهاب إلى المستشفى لكي لا يتمكنوا من الوصول إليك أو معرفة المكان الذي تسكن فيه...

صمت الدكتور قليلاً، قبل أن يقف ويبدأ في المشي جيئة وذهاباً في غرفة المعيشة، وأدركتُ حينها بأنّ الحديث أثناء المشي هو عادة لديه حين قال:

- إنّ الممرضات هُنّ من الجنسية الفلبينية، وأستبعد أن

Twitter: @ketab_n

تقوم ممرضة من هذه الجنسية بالاتصال بالموساد أو حتى أجهزة الاستخبارات أو الدول الأجنبية.. وإذا فكرنا بالسرعة التي بدأوا فيها بالتحرك لا يخطر ببالي سوى رجال المافيا والعصابات... قد يكونون من المافيا الأمريكية والتي لن تتوانى دقيقة في البحث عنك فيما لو وصلتهم معلومة عنك من إحدى الممرضات.

لا حول ولا قوة إلا بالله! مافيا وعصابات! يالحظي العاثر!

- على أية حال مازال الوضع إلى حد الآن جيداً. وقد سعيتُ إلى أن لا أشعر الممرضات أو من حولي بأنني مرتاب أو قلق، بل مارستُ أعمالي وحياتي بشكل طبيعي.

قلتُ وأنا أوشك على البكاء:

- ومتى سأستطيع أنا أن أمارس حياتي بشكل طبيعي؟!

توقف الدكتور عن المشي، ومن ثم عاد وجلس مجدداً على الأريكة:

- ما ذكرته قبل قليل كان الجانب السيئ من الموضوع. دعنا ننتقل إلى الجانب الجيد بحوزتي الآن بطاقة الأحوال الجديدة والتي لا تتجاوز فيها سن السابعة عشرة، وكذلك شهادة الثانوية وشهادة الميلاد. وباستطاعتك أن تعمل لدى أي شركة أو مؤسسة ولكن بشرط أن لا تستمر في الوظيفة الواحدة لأكثر من ثلاث سنوات...

قاطعتُ الدكتور:

Twitter: @ketab_n

- ولكن هذا يعني بأنني سأكون بحاجة إلى تزوير هذه الوثائق كل ثلاث سنوات؟

- أخشى بأنّه لا يوجد حلّ آخر، ولا عليك، فهذا المزوّر هو صديقٌ لي وأعرفه منذ فترة طويلة وبإمكانك الوثوق به...

- هل أخبرته عن حقيقة أمري؟

- نعم، لقد أخبرته، ولكن من دون أن أوضح له عن السبب في التزوير. فكل ما قلته له بأنّ الغرض من التزوير هو عدم لفت الأنظار فقط ولكي لا تتعرض إلى العين أو الحسد بسبب عدم تقدمك في السن. ولقد تفهم الأمر خصوصاً وأنه عاش وترعرع في بيئة تؤمن بسيطرة الحسد والعين وتأثيرها وتحكمهما بشتى أمور الحياة وبأنهما من يحددان مستقبل المرء وحياته.

- ولكن يا أبا لجين هل أنت واثق أنّ مَن يلاحقك ويتجسس عليك ليس له علاقة بصديقك هذا؟

- نعم، واثق. تأكد يا أحمد بأنّ هذا الشخص هو آخر من يجب عليك القلق منه.

- ولكنه قد يكون ذكر هذا الأمر لشخص آخر، ومن ثم تسرب خبري من دون أن يشعر...

- مُحال؛ لسببٍ بسيط. وهو أنّه لا يرغب في كشف أمره لكي لا ينفضح خبره لدى السلطات. هل تعلم يا أحمد بأنّه مكث عشرين سنة

Twitter: @ketab_n

في مجال التزوير. وهل تعلم بأنّه أصبح الآن من أرباب الملايين. ومازال إلى يومنا هذا يمارس مهنة التزوير ... أن يكتشف أمره أحد. والسر في ذلك يكمن في أنّه يعمل ... لا ينقل أو يفشي خبر زبائنه إلى أي أحد. لو كنتُ أشك ولو ... طاً في أنه سيتحدث عنك لمن حوله لما فكرت أصلاً باللجوء إليه.

شعرت بقليلٍ من الارتياح، ومن ثم أعطاني الدكتور ملفاً أخضر اللون، كان بداخله بطاقة الأحوال والوثائق الأخرى. وقمت بإخراج محفظتي وبدأتُ في مقارنة بطاقة الأحوال القديمة بالجديدة، وكان من المستحيل إيجاد أي فرق بينهما وقلت بانبهار:

- يبدو عمله في غاية الإتقان!

- نعم، هو مميزٌ في عمله. ولذلك أصبح مليونيراً.

- ولكن كيف تعرفت عليه؟

- تلك قصة طويلة، لعلي أقصها عليك في وقت آخر، لا وقت لديّ الآن.. دعنا ننتقل إلى الجانب الآخر الذي أريد التحدث معك حوله؛ وهو عن نتائج الفحوصات والعيّنات. لقد اكتشفتُ نتائج مذهلة وعجيبة؛ إنّ خلاياك وأعضاءك الداخلية يا أحمد في أفضل حالٍ وكريات الدم عددها مثالي للغاية، ولأختصر عليك الحديث الطبي الذي قد يصعب عليك فهمه، أقول لك بأنّك من الداخل تبدو وكأنك قد علقت في سن الثامنة عشرة، وهي السن التي يكون فيها المرء عادة في أفضل حالاته الصحية. ولذلك أنت تشكل ثروة متحركة على الأرض. ثروةٌ لو علم

Twitter: @ketab_n

عنها ذوو السلطة والسطوة لتقاتلوا عليك أملاً في أن يستطيع الأطباء الذين عندهم والذين ماتت ضمائرهم في التوصل إلى مصل الشباب حتى وإن كلف الأمر قتلك وتشريح جثتك..

شعرتُ بالاشمئزاز، وأحسستُ بأنّ الدكتور راقَ له أمر تشريح الجثة هذا:

- أتقصد بأنّ أعضائي الداخلية هي في سن الثامنة عشرة؟

- لا تُقاس الأمور بتلك الطريقة طبياً، ولا يمكن تحديد عمر معين للأعضاء، ولكن ما أستطيع أن أقوله بأنّك داخلياً وخارجياً في أوج شبابك.

ومن ثم نهض الدكتور باتجاهي وأسند ركبتيه على الأرض و وضع يديه على كتفيّ، وقال بطريقة مسرحية:

- لكن ثق يا أحمد، بأنّ كل شيء على ما يرام، ولن يستطيعوا الوصول إليك مهما حصل، وبإمكانك الآن ممارسة حياتك الطبيعية والبحث عن وظيفة ويُفضل أن تبحث في مجال القطاع الخاص؛ فهم أقل اهتماماً بالبحث والتقصي حول تاريخ المتقدم للوظيفة.

- ألا يجب علي الحذر من وجود مَن يراقبني؟

- كلا، أنا من يجب عليّ الحذر. هم لا يعرفون أي شيء عنك. كل ما يعرفونه هو أنّ هناك شخصا في سن الثانية والثلاثين وبمظهر لا يزيد على السادسة عشرة...

Twitter: @ketab_n

قاطعته بتجهم:

- الثامنة عشرة!

وتجاهل –كالعادة– الدكتور معتز ملاحظتي هذه وأكمل:

- وفي الوقت الراهن سأواصل العمل والأبحاث الطبية أملاً في إيجاد علاج للجينات المعطوبة التي لديك..

ضحكت وقلت:

- أخشى أنّ جيناتكم أنتم هي المعطوبة.

ضحك هو الآخر وأردف قائلاً:

- هذه هي وجهة نظر من يبحث عن الشباب الدائم. أرى بأنك بدأت تستوعب الموضوع. وعلى أية حال، يجب أن لا تتصل عليّ أبداً أو حتى محاولة زيارتي في المستشفى أو البيت؛ فأنا على يقين من أنهما مراقبان الآن. وعندما يستجد أي جديد حول أمرك، سأجدُ طريقة ما لإبلاغك... لا تقلق.

تنفست الصعداء، وشكرتُ الدكتور معتز الذي قام بدوره وصافحني مصافحة الوداع وتوجه نحو الباب وأنا أتبعه، وقبل أن يخرج بادرته بالسؤال:

- فيما لو أردت إبلاغك بأي شيء طارئ، هل بإمكاني إيصاله

Twitter: @ketab_n

إليك عن طريق صديقي مازن؟

صمت الدكتور معتز قليلاً كما لو كان يُفكر بعواقب الإقدام على هذه الخطوة:

- لا أرى مشكلة في ذلك، ولكن يجب عليه أن يُقابلني وجهاً لوجه وأن لا يستخدم الهاتف مطلقاً وذلك بأن يزورني كما لو كان مريضاً يريد رؤية الطبيب، وكذلك يجب أن يتحدث بالرموز وأن لا يذكر أمرك مباشرة إليّ...

- أتقصد بأنّه قد يكون هناك أجهزة تنصت مزروعة في غرفتك في المستشفى؟

- لا أستبعد ذلك.

قالها وهو يبتسم ابتسامة غريبة، ابتسامة جامدة وبلا عواطف، كما لو كانت ابتسامة تعلو وجه رجل ميت. ومن ثم خرج، وأغلقتُ الباب بدوري، وفي هذه المرة قمتُ بقفله مرتين على غير العادة. وأخذتُ أتأمل في بطاقة الأحوال القديمة وتلك الجديدة، وجلستُ على الأرض واستندت بظهري على باب الشقة الذي خرج الدكتور منه للتو، وشعرتُ بأنّ فصلاً جديداً من حياتي قد بدأ للتو، فصلاً مجهولاً ومحفوفاً بالمخاطر والعقبات.

وبينما أنا على هذه الحال إذْ رنّ الهاتف. وأحسستُ حينها بأنّ هذا الاتصال قد يترتب عليه مصيري وقد يكلفني حياتي! هل من

Twitter: @ketab_n

الممكن أن يكون الدكتور معتز مخطئاً؟ وهل من الممكن أن يكون قد قادهم إلى شقتي من دون أن يدري؟! وهل يا تُرى قد اتصلوا ليتأكدوا من وجودي داخل الشقة لكي يقتحموها ويقوموا باختطافي؟! أم هل يكون المتصل هو الدكتور معتز نفسه بالرغم من أنّه أكد لي قبل قليل من أنه لن يتصل بي أبداً عن طريق الهاتف؟!

شعرتُ بخوفٍ بالغ، ولم أعرف ما إذا كان يجدر بي الإجابة على الهاتف من عدمها، غير أنني نهضتُ بتثاقل مع استمرار الرنين، وكنتُ أقدم قدماً وأؤخر أخرى، حتى وصلتُ إلى السماعة ومددت يدي نحوها وألصقتها بأذني من دون أن أتكلم، وظللتُ مُنصتاً ومنتظراً للطرف الآخر لكي يتحدث... مرت ثواني الصمت هذه مرور الدهر عليّ، وشعرتُ بأنّه ماكان عليّ أن أجيب على الهاتف...

- ألو، أحمد؟ أتسمعني؟

شعرت بأنّ جبلاً قد انزاح من على كاهلي؛ لقد كان صوتُ مازن.

- الحمدلله. أهلا بك يا مازن.

- الحمدلله؟! هل أنت على مايرام؟

- نعم أنا بخير.

- اسمع يا أحمد، هناك أمرٌ هام علمت عنه للتو صدفةً و... حسناً لا أدري كيف أوضح لك القضية على الهاتف..

Twitter: @ketab_n

- مهلاً، مهلاً، لم أفهم شيئًا إلى حد الآن..!

- لا أستطيع الشرح لك على الهاتف، يجب أن تلاقيني لأبين لك كل شيء...

- هل لهذا الأمر علاقة مباشرة بي؟

- نعم!

- ألا يمكن لك أن تختصر لي المشكلة الآن؟ إنني قلق فعلاً..

- آسف لا أستطيع. فقط لاقني الليلة عند الساعة التاسعة في مقهى الأضواء.

ومن ثم ودعني، وشعورٌ بالانقباض يسيطر عليّ. لم يسبق لمازن أن كلمني بهذه النبرة من قبل، ولم أعتد منه هذا الأسلوب الغامض. أحسستُ بأنّ في الأمر خطأ ما، وكان حدسي يطالبني بعدم الذهاب والاعتذار... ولكنّي ذهبت ضارباً بحدسي وبتوجسي عرض الحائط!

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنا إنْ رجعتُ غدًا إليك

إن عُدتُ ثانيةً إليك ... فلا تسلْ عما لديّ

عن غيمةٍ تجتاز هدأة مقلتي

لا ...

لا تسل

عمّا وراء الصمت من زهر وشوك..

أنا إنْ سألتَ

فسوفَ أبكي..

«بلند الحيدري»

Twitter: @ketab_n

فضّلتُ أن أستقل سيارة أجرة بدلاً من الذهاب بسيارتي (الكابريس) الشخصية. ولم أفعل ذلك إلا من باب الحيطة والحذر، ففيما لو كان المقهى مُراقباً فستصبح سيارتي عندئذ هدفاً سهلاً لهم. كنتُ قد تأخرتُ قليلاً بسبب انتظاري فترة من الوقت قبل أن تمر سيارة أجرة في الشارع المجاور لشقتي الذي كنتُ أقف عليه. وكان السائق من الجنسية الأفغانية حليق اللحية وكث الشارب، ولم يكف عن الثرثرة طوال الطريق، وكان تساؤله الأساسي هو عن السبب الذي يدفع فتىً مراهقاً مثلي في الخروج إلى هذا المقهى البعيد نسبياً وسط الأسبوع في الوقت الذي يُفترض أن يكون منهمكاً فيه في الاستذكار وتحضير دروس الغد. وكنتُ أجيب على مضض على أسئلته الفضولية المتكررة إلى أن بلغ السيل الزبى فقاطعت أحد أسئلته قائلاً: «هل من الممكن أن تركز على القيادة فقط؟». وعبثاً يبدو بأنّه لم يفهم ما أقصد حيث أجابني بأنه يستطيع التركيز على القيادة والحديث في آن واحد. فعلمتُ عندها بأنّه مكتوبٌ عليّ بأنّ أمرَّ عبر هذا الجحيم قبل أن ألاقي مازن، وندمتُ أشد الندم على عدم ذهابي بسيارتي الشخصية.

راح يتحدث في حديث مطوّل عن شجاعة الأفغان وبسالتهم الفائقة وعن مهاراتهم القتالية المتنوعة وعن أنّ أفغانستان لطالما كانت مقبرةً للغزاة المعتدين، ومن ثم أطلق تحذيراً بصوتٍ عالٍ وهو يحرك يده اليمنى ويشير بالسبابة واللعاب يتطاير من فمه: «لو تجرأ الاتحاد السوفييتي على الدخول إلى بلدي فستكون عندئذ نهايتهم وسنبيدهم عن بكرة أبيهم كما فعلنا بالإمبراطورية الإنجليزية من قبل والتي مازالت قبور جنودهم إلى يومنا الحاضر خالدة في أفغانستان...»

Twitter: @ketab_n

كنتُ أُسند رأسي على يدي اليمنى وباليسرى أخذت أمسح لعابه الذي طار في الهواء واستقر على خدي الأيسر، وأنا أدعو الله بأن يُنزل عليّ الصبر والسكينة. وحاولتُ تغيير مجرى الحديث لكي لا يستمر في هذه النبرة المنفعلة فقلتُ متسائلا:

- كم تبقى على وصولنا إلى المقهى؟

- لم يتبقَّ الكثير، ربما دقيقتان أو ثلاث. لماذا؟

شعرتُ بأنّ سؤاله هذا ينطوي على غرابة شديدة وبلاهة لا متناهية، وأجبتُ عليه بتهكم:

- لأنني مستمتعٌ جداً بوقتي معك ولا أتمنى أن نصل بسرعة لكي لا أضطر إلى فراقك!

لم أكد أكمل جملتي حتى ترك مقود السيارة واندفع بجسمه الضخم نحوي ومدَّ كلتا يديه من أجل أن يعانقني، وحاولتُ أن أتملص لكن من دون جدوى، واحتضنني بحماسة بالغة حتى أوشكتُ على الاختناق ورأيتُ الموت، ولم ينقذني منه إلا انحراف السيارة عن مسارها وطلوعها الرصيف الذي في المنتصف ولولا أن داس على المكابح بأقوى ما لديه لكنا قد اصطدمنا بعمود الإنارة. عقدتْ الدهشة لساني، وتملكني الفزع. ولما رآني على هذه الحال حاول تدارك الأمر:

- أعتذر منك، فأنا رجلٌ عاطفي قليلاً وحديثك حرّك مشاعري كثيراً، وأنت تعلم بالتأكيد بأن الرجل الأفغاني بالإضافة إلى شجاعته

Twitter: @ketab_n

وقوته يتميز بالعاطفة والمشاعر الجياشة و ...

قاطعتهُ وأنا أنزل من السيارة قائلاً:

- يا أخي أنتم أعتى وأقوى الناس وأشجعهم وأكثرهم شهامة ونخوة وفي الحب أنتم تعلون ولا يُعلى عليكم بل وأجزم بأنّ روميو و روبيرت براونينغ وشكسبير كانت أصولهم أفغانية...

- في الواقع هناك خطأ بسيط، إنّ آخر من ذكرت ليس اسمه شكسبير ولكن شكبير وهو بالمناسبة أحد أصدقاء والدي في قندهار. لقد كان حداداً متمكناً من عمله ولا يشق له غبار...

شعرتُ بأنّ الكلام معه ضائع وبأنّه لا فائدة ترجى من ورائه. وتجاهلت حديثه وبدأتُ أمشي على قدميّ. وأخذ يناديني:

- مهلاً، مهلاً، إلى أين أنت ذاهب؟ هل مازلت ترغب بالذهاب إلى مقهى الأضواء؟!

لم أرد عليه، وواصلتُ مشيي. وقام هو بدوره بركوب سيارته ومشى بها قليلاً حتى وصل إليّ وأصبح بمحاذاتي ومن ثم فتح النافذة:

- ماذا حلّ بك؟ ألن تركب معي؟ أين كلامك الذي قلته قبل قليل؟!

التفتُّ عليه وأنا أحاول بكل ما أستطيع أن أتمالك أعصابي:

Twitter: @ketab_n

- قررتُ أن أركب مع سيارة أجرة أخرى.

قاطعني بثقة كبيرة:

- لن تجد أي سيارة أجرى في هذه المنطقة البعيدة وفي هذا الوقت المتأخر.

وأجبتُ عليه بكل برود:

- صدقني، لو لم يتبقَّ سيارة في المملكة غير سيارتك هذه لما ركبتُ معك. وسأذهب إلى المقهى مشياً على الأقدام!

ومن ثم رميتُ على المقعد عشرة ريالات وقد ارتسمت على شفتي ابتسامة النصر؛ فلقد اعتدتُ في حياتي على أن أكتم مشاعري وأجعلها أسيرة في صدري وأن أغطيها بقناع المجاملة والمحاباة، ولم أكن أتصور بأنّ إطلاق العنان لمشاعرنا الحقيقية سيولّد مثل هذه الراحة النفسية.

وقد ظلّ يقود سيارته بمحاذاتي بعض الوقت وهو يحاول أن يقنعني بالركوب معه إلى أن أصابه اليأس ومن ثم التفَّ بسيارته وعاد من حيث أتى وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة. ولم تكن السيارات التي تمر على الطريق كثيرة، كان بالكاد تمر سيارتان أو ثلاث في الدقيقة الواحدة. وقد كانت المقاهي تقع خارج المدينة، وكنا في وسط الأسبوع، وبالتالي لم يكن من المُستغرب عدم وجود الكثير من المارّة.

وبعد عشر دقائق من السير لاحت لي أنوار المقهى من بعيد.

Twitter: @ketab_n

وكنتُ قد تأخرت قرابة العشرين دقيقة على موعدنا الفعلي. دخلتُ المقهى وأنا ألهث وبدأت في البحث عن مازن. وقد كان المقهى مليئاً بالناس، وأكثرهم كان منهمكاً في شرب (الشيشة)، في الوقت الذي كان فيه آخرون يتناولون الشاي ويتبادلون أطراف الحديث مع بعضهم البعض. وكان يوجد طاولات عليها أشرعة وبجوارها كراسٍ بيضاء في الخارج، بالإضافة إلى الجلسات الأرضية والطاولات التي كانت في الداخل. وفي تلك الأثناء، سمعتُ صوتاً يناديني من الداخل والتفتُّ نحوه فإذا هو مازن وقد وقف يلوّح لي بيده من إحدى زوايا المقهى بين جموع الناس. ذهبتُ إليه وألقيتُ عليه السلام وجلسنا على طاولة كانت مُعدة سلفاً لشخصين. وكان يوجد عليها إبريق نحاسي من الشاي وكوبان كان أحدهما فارغاً.

وبادرني مازن بالسؤال وهو يسكب لي الشاي:

- غريب! لماذا تلهث؟ هل خرجت للتو من سباق الماراثون؟

وأخرج لسانه بطريقة استفزازية. وقلتُ وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي:

- تقريباً، أظنني مشيتُ على الأقل ثلاث كيلومترات.

ارتفع حاجبا مازن في دهشة وسألني عن السبب. وقصصتُ عليه المحنة التي مررتُ بها مع ذلك السائق غريب الأطوار، وقد ضحك كثيراً على الذي حدث، قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- بصراحة الأفغاني لا يُلام، إذا كنتُ أنا، صديق طفولتك، لا أستطيع أن أفهم أسلوبك التهكمي إلا بصعوبة وفي بعض المرات لا أميز بين جِدك من هزلك، أتنتظر منه أن يعلم بأنك كنتَ تسخر منه؟

قلتُ وأنا أرتشف الشاي:

- العجيب هو أنّني في السابق كنتُ أظن بأنّ الحلاقين هم أكثر الناس حباً للكلام، ولكن الآن تيقنتُ بأنّ سائقي سيارات الأجرة لا يُنافسهم أحد في الثرثرة.

- أظنك تبالغ قليلاً..!

وضعتُ الكوب على الطاولة، وقد أصدر صوتاً عندما وضعته -نتيجة لحماسي- وقد لفت صوته انتباه الجالسين على الطاولات القريبة منا:

- مازن، أؤكد لك، لو كانت هناك مسابقة في الألعاب الأولومبية لأكثر الناس حديثاً؛ لفاز ذلك السائق بالميدالية الذهبية بكل سهولة.

ضحك مازن، وقبل أن يتكلم جاء أحد العاملين في المقهى وسألنا إن كنا نرغب بطلب أي شيء. نظرَ إليّ مازن كما لو كان يستشيرني فهززتُ رأسي وقلتُ للعامل بأنّه ليس لدينا رغبة في الطلب الآن، وبعد رحيله سألتُ مازن:

- لقد أقلقتني مكالمتك لي اليوم كثيراً. ما الأمر؟

Twitter: @ketab_n

- في الحقيقة لا أدري كيف سأستطيع إبلاغك بذلك ولكن تأكد بأنني لم أعلم عنه إلا عن طريق الصدفة المحضة.

- مازن، لحظة، لم أفهم شيء لحد الآن. أريدك أن تخبرني بالموضوع بالتفصيل المُمل.

صمت مازن قليلاً، ثم تنفس بعمق، وقال:

- أتعلم بأنّ خالتك، أم زوجتك، قد فارقت الحياة؟

- إنا لله وإنا إليه راجعون. رحمة الله عليها، متى توفيت؟

- قبل سنتين.

حاولتُ أن أتذكر صورتها وعجزت عن ذلك، وبدا لي بأنّ ملامحها قد بدأت بالاختفاء من ذاكرتي.

- لقد كانت امرأة طيّبة، يامازن، وكانت أقرب لي بكثير من ابنتها. بل وحتى حينما طلبت أسماء مني الطلاق وأصرّت على الانفصال، كانت هي معارضة للطلاق ووقفت بجانبي..

قاطعني مازن:

- نعم أذكر ذلك، كنتَ دائما تثني عليها. ويكفي بأنّها كافحت وحيدة في الحياة بعد وفاة زوجها و والديها قبل ذلك، حيث بقيت وحيدة مع ابنتها.

Twitter: @ketab_n

- والمؤلم في الموضوع هو أنّ أسماء لم تعد تزورها بعد ذلك حينما تزوجت من ذلك الرجل الطاعن في السن لأنها غضبت كثيراً منها بسبب موقفها الحازم الذي اتخذته برفضها لقرار الانفصال ولتأييدها لي. ونسيت جمائل وصنائع والدتها التي عانت وشقِيت كثيراً من أجلها.

سكتُّ قليلاً، وبدأتُ في استحضار ذلك الموقف الذي أثّر فيّ كثيراً.. حينما طلقتُ أسماء وبدأتُ في لملمة أغراضي وحاجياتي من أجل مغادرة المنزل الصغير الذي يجمعني مع أسماء وأمها تحت سقف واحد بلا عودة. ذلك المنزل الذي عشتُ فيه أربع سنواتٍ من الصراعات والاضطرابات والمشاكل التي لا تنتهي. كانت أسماء لا تطيعني إطلاقاً، ولا أظنها اكترثت لأمري ولو لمرة واحدة، ولم تكن تنظر إلي بصفتي زوجاً لها، بل كانت نظرة أشبه ما تكون بنظرة أخت كبيرة لأخيها الصغير! وبعد أن وقع الطلاق وكنتُ على وشك مغادرة المنزل وأنا أجرُّ بيدي حقيبةً كبيرةً وضعتُ فيها ملابسي وحاجياتي، جاءتني خالتي نورة، ولم تقوَ على قول أي كلمة. كانت الدموع تخنقها، وقد حاولتْ أن تتماسك ولكن بمجرد نطقي لكلمة «الوداع يا خالتي»، انهارت باكية وأخذتني في أحضانها وقالت لي وهي تغالب دموعها: «لطالما كنت أنت ابني الحقيقي يا أحمد وليست هي، إنها لا تستحقك... فلترافقك السلامة يا ولدي».

أخذتُ منديلاً من على الطاولة ومسحتُ دمعةً سقطت على خدي. وبعد لحظاتٍ من الصمت المُطبق بادرتُ مازن بالحديث:

Twitter: @ketab_n

- من أبلغك بالخبر؟

- كنت ماراً بالصدفة من الحي الذي كنتَ تسكن فيه معهم، وأقيمت الصلاة فأوقفتُ سيارتي وصليتُ في مسجد الحي، وهناك رآني أبوعبدالمحسن وسلّمَ عليّ وأبلغني بالخبر.

- لم أكن أظن بأنه يعرفك!

- بلى يعرفني، لقد صادفته أكثر من مرة حينما كنتُ آتي لزيارتك في بيت خالتك المرحومة.

هززتُ رأسي موافقاً. ومن ثم سألته:

- وهل هذا هو سبب اتصالك بي؟

صمت مازن قليلاً ثم قال:

- كلا، ليس هذا سبب اتصالي بك.

- لا تقف يا مازن. واصل حديثك، لم أعد أطيق هذا الأسلوب!

- لا تخف، سأخبرك وأمري إلى الله بالرغم من أنني أعي بأنّها لن تكون خطوة حكيمة لكن من حقك أن تعلم بذلك...

قلتُ بنبرة غاضبة:

- مازن، ألم أقل لك بأنني لا أحب هذا الأسلوب! ادخل مباشرة

Twitter: @ketab_n

في الموضوع..!

- حسنًا، يوجد لديك ابنٌ يا أحمد...

كدتُ أن أقع على ظهري من هول المفاجأة. كان ذلك آخر ما يُمكن أن يخطر ببالي، ولم أعرف ما إذا كان يجدر بي أن أفرح أم أحزن أم أغضب.

- ولكن، ولكن كيف؟ كيف؟ لا أفهم!

- يبدو بأنّ زوجتك حين طلقتها كانت حاملاً في الشهر الأول أو الثاني. ولم تشأ أن تخبرك بذلك لكي لا تأخذ ولدك منها.

قلتُ بغضب:

- ولكن كيف استطاعت توقيع شهادة الميلاد وتسمية الولد من دون علم أبيه ومن دون موافقته على الاسم؟ إنّ هذا مخالفٌ للقوانين؟!

- لا أعلم حقاً كيف تمكنت من إتمام كل تلك الإجراءات بغيابك. ولكن تعلم بأنّ الواسطة قادرة على تجاوز كل الأنظمة والقوانين، وأنت تدرك تماماً أن زوجها يحظى بعلاقات واسعة ولابد من أنه...

لم أسمع كلمة مما قالها مازن، كنت أتميز غضباً، ألدي ابنٌ بعد كل هذه السنين وأنا لا أعلم عنه أي شيء! لقد مضى على فراقي لزوجتي أربع سنوات وبالتأكيد فإن عمره لن يقل عن ثلاث سنوات. ألهذه الدرجة يا أسماء لم تكوني تضربين لي أي حساب؟! وكأنني

Twitter: @ketab_n

هامش في حياتك؟ أو كأنني صفرٌ على الشمال لا معنى له ولا قيمة لوجوده. ألم يكن أدنى حقوقي أن أعلم بوجود ابن لي ومن لحمي ودمي يعيش على الأرض التي أعيش فيها ويتنفس الهواء الذي أتنفسه ويرتوي بالماء الذي أرتوي منه؟! ولكن المشكلة الأساسية ليست في أسماء فلطالما عهدتها أنانية لا يهمها إلا مصلحتها، ولكن المشكلة في زوجها هذا العجوز الهرم الذي رضي بأن يسايرها ويلبي رغباتها ويخفي الأمر عن والد ابنها الحقيقي. يا لإبني المسكين! لابد من أنّهم قالوا بأنّ أباه قد مات أو ربما قالوا بأنّه قد تخلى عنه وهجره! حسنا لقد تجاوز الأمر حدود المعقول. ولابد من أن أضع نهاية لهذه المهزلة. حتى وإنّ كلَف الأمر حياتي.

نهضتُ من على الكرسي ومازن ينظر إليّ باستغراب:

- لقد طفح الكيل، و ولدي لن يعيش في أي مكانٍ آخر غير بيتي، ولن يربيه أحدٌ غيري!

- أحمد، حاول أن تهدأ قليلاً، يجب علينا أن نأخذ الأمور بتروٍّ وبتعقل!

ابتسمتُ، بغضب، ابتسامة ساخرة:

- لقد فات أوان التعقل. الآن وقت الشدة وسآخذ ولدي سواءً رضيت أمه أم لم ترضَ؛ الأمر سيان لدي.

- لا تنسَ حالتك التي أنت عليها، إن أسماء امرأة لا يمكن أن

Twitter: @ketab_n

تأتمنها على أي سر، فما بالك بالسر الذي يترتب عليه مصيرك وحياتك، هي لم تَرَك منذ أربع سنوات، ولو رأتك الآن و وجدت بأنك لم تتغير منذ أن تزوجتها حينما كنت في الثالثة والعشرين من عمرك هل تظن بأنها لن تعرف حقيقة الأمر؟! سينكشف سرك حينها يا أحمد وسيذهب مجهودنا ومجهود الدكتور معتز والمبالغ الطائلة التي دفعتها سدى!

- لا يهم! بصدق، لا يهمني كل ذلك. وأنا لن أتخلّى عن ابني مهما تطلب الأمر، حتى ولو ترتب على ذلك افتضاح أمري أو حتى وفاتي وتشريح جثتي. أنا لن أتخلّى عن ابني! هل فهمت؟!

قلتها بغضب عارم، ومن ثم خرجتُ من المقهى من دون حتى أن أودع مازن. لقد مللتُ من تقديم التنازلات، لم أعد أعيش حياة طبيعية، وباتت أوراقي وإثباتاتي مزوّرة، وأصبح لزاماً عليّ أن أغير مكان سكني ووظيفتي كل ثلاث أو أربع سنوات، والآن يريدون مني أن أتخلّى عن ابني! وكل هذا من أجل سلامتي كما يقولون، إنّ سلامتي لا تعني لي شيئاً إن كنت سأتخلى عن ضميري وروحي ومشاعري!

حين وصلتُ إلى الشارع تذكرتُ بأنّني جئتُ بسيارة الأجرة، وبأنّ سيارات الأجرة من المستحيل أن تتواجد في هذا الوقت المتأخر؛ إذْ كان الوقت يقترب من منتصف الليل. وقررتُ العودة من جديد إلى المقهى وإلى مازن.

حين عُدتُ إلى الطاولة ورآني مازن ابتسم وقال:

Twitter: @ketab_n

- كنتُ أعلم بأنّك ستعود وبأنك سترجع إلى عقلك وستفكر بالموضوع بشكل منطقي و....

قاطعته بحنق:

- عدتُ لأني لم آتِ بسيارتي، وأريدك أن توصلني إلى البيت. و إن كنت ستعيد فتح هذا الموضوع معي في السيارة فقل لي من الآن لكي أبحث لي عن شخص آخر يوصلني إلى شقتي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حسناً حسناً، لك ما أردت، ولكن رجاءً لا تصب جام غضبك عليّ؛ إنّ ناقل الكفر ليس بكافر..!

****

Twitter: @ketab_n

في الطريق لم نتكلم مطلقاً. وكنتُ منشغل البال بالتفكير بهذه المفاجأة غير المتوقعة. وفي غمرة تفكيري سألتُ مازن:

- متى علمتَ عن هذا الموضوع؟

- بالأمس.

- وهل هو أبوعبدالمحسن أيضاً؟

قلتها بنبرة ازدراء.

- نعم، هو.

صمتَ مازن قليلاً ثم قال:

- يجب أن تفكر بتمهل. وعليك أن لا تتسرع كي لا تندم لاحقاً حينما لا ينفع الندم. وأنا لا أطالبك بالتخلي عن ابنك، ولكن كل ما أريده منك أن تنتظر قليلاً وأن تدعنا نبحث عن حل مناسب ومخرج ملائم لهذه المشكلة من دون إحداث بلبلة أو ضجة ومن دون الـ...

قاطعته وصبري يكاد ينفذ:

- مازن، لو سمحت هذا موضوع شخصي. وأنا سمحت للجميع بالتدخل في أدق خصوصياتي. ولكن حينما يصل الأمر إلى ولدي وفلذة كبدي فهذا خط أحمر، ولن أدع أي أحد يُملي عليّ ما أفعل بشأنه.

- أنا لا أملي عليك أي شيء. كل ما أريده منك أن تفكر قليلاً

Twitter: @ketab_n

وأن لا تتسرع.

- أنت تعلم علم اليقين بأنّ التفكير يعني التخلي عن ابني؛ لأنّني لو أردتُ أخذه فسيكون لزاماً عليّ أن أقابل أمّه أو زوجها وربما التوجه إلى المحاكم وحينها سيعلم الجميع حقيقة أمري.. حسناً أنا لا أكترث دعهم يعلمون ودع المافيا والموساد وإبليس نفسه يعلم بحقيقة الأمر. ما يهمني هو أنني لن أتخلّى عن ابني.

- كل ما أريده منك أن تفكر ملياً.

- الموضوع لا يقبل التفكير. مازن، لو قلتُ لك بأنني سآخذ ابنك فهد منك وسأحرمك من رؤيته، هل كنتَ ستقبل بذلك؟

لم يُجب مازن واكتفى بالصمت، ولم أتحدث أنا بدوري إلى أن نزلت من السيارة بعد وصولنا إلى شقتي. حيث لم أستطع النوم في تلك الليلة وظللتُ أفكر حتى أذّن الفجر.

في الصباح، ارتديتُ ثوباً وشماغاً وقررتُ الذهاب إلى منزل زوجتي السابقة، وعزمتُ أن لا أعود إلا وابني معي. وقبل أن أخرج بقليل رنّ الهاتف، فتوجهتُ فوراً لالتقاط السماعة وكانت المفاجأة حيث كان المتصل هو الدكتور معتز، بالرغم من تأكيداته السابقة بأنّه لن يتصل على هاتفي أبداً:

- كيف حالك يا أحمد؟

- أنا بخير، ماذا عنك أنت؟ هل كل شيء على مايرام؟ ألم تقل

Twitter: @ketab_n

بأنك لن تتصل على شقتي؟!

- نعم، أعلم ذلك ولكني أتصل عليك من (كبينة) هاتفٍ عمومي. لديّ بشارة لك.

- حقاً؟ ماهي يادكتور؟

- أظن بأنني قد توصلت إلى عقارٍ من شأنه أن يعالج الخلل الجيني الذي لديك. لقد توصلت إلى تركيبة هرمون النمو الذي لديك والمعروف طبياً بالهرمون الثاني في المنطقة كيو اثنان وعشرون فاصلة أربع وعشرون من الكروموسوم السابع عشر ويبدو بأنّ الخلل عندك كان يتمثل في الوزن الجزيئي للحمض الأميني لديك، وهذا العقار من شأنه معادلة الوزن وتعويض الناقص من الأحماض...

لم أفهم شيئاً من هذه التفاصيل الطبية، ولم أشعر بالرغبة أيضاً بالفهم، كل ما كان يهمني هو النتيجة وهي أن الدكتور قد وجد علاجاً للمشكلة. لك الحمد يا الله. لم أشعر بمثل هذه السعادة منذ سنوات!

- دكتور، أتعني بأني سأعود شخصاً طبيعياً بعد تناولي لهذا العلاج؟

- هذا ما أتوقعه، نعم. ثلاث جرعاتٍ يوميا لمدة شهرٍ واحد كفيلة بحل المشكلة بشكل جذري لديك.

- الحمدلله. شكراً لك يا دكتور. أنا حقاً عاجز عن شكرك.

Twitter: @ketab_n

قلتها وأنا أوشك على البكاء من شدة الفرح.

- أحمد، أشعر بأنّ الرقابة بدأت تزداد عليّ؛ لقد بت أتلقى اتصالات مجهولة المصدر ورسائل تهديد كذلك.

- وماذا ستفعل حيال ذلك؟

- لا عليك لا تقلق بشأني، أنا عاكفٌ في الوقت الراهن على إعداد جرعة تكفي لمدة شهر كامل وسأضعها في كبسولات. وسأعطيك إياها حالما أفرغ منها في اليومين المقبلين.

- شكراً يا دكتور، سأظل أدعو لك ليلاً ونهاراً. وكل ما أرجوه منك أن تكون حذراً وأن لا تعرض نفسك للخطر من أجلي.

- شكراً لك يا أحمد. ترقب مني اتصالاً أو زيارة في الأيام القليلة القادمة.

ودعته. واستلقيتُ على الأرض بثوبي وشماغي! وأغمضتُ عيني وأنا أتخيل نفسي وقد ظهرت عليّ علامات التقدم في السن، وشاربي ولحيتي قد ظهرا، وتخيلتُ نفسي وأنا أصطحب ابني من وإلى مدرسته. كان كل ما تخيلته يُختصر في كلمة واحدة هي السعادة. كان ذلك الشعور الذي غمرني والإحساس الذي انتابني هو أروع ما ذقته خلال آخر عشر سنوات من عمري. وغفوتُ وأنا على هذه الحال، ورأيتُ في المنام بأنني شيخٌ هرم، وبأنّ لي لحية بيضاء وشعري أبيض والتجاعيد تملأ وجهي، وكنتُ جالساً على كرسي خشبي بُنّيّ اللون يتسع لشخصين

Twitter: @ketab_n

في حديقة صغيرة. وكان حولي صبية صغار يلعبون حول عدد من الأرجوحات. وبينما كنت أنتظر جاءني أحد هؤلاء الصبية وهو يجري نحوي وينادي: «جدي، جدي» وصحوت حينها من النوم وأنا أبتسم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنا لا أخشى مصيري

فأنا أحيا مصيري !

أي شيء غير إغفائي على صبارة القر

وصحوي فوق رمضاء الهجير ؟

واختبائي من خطى القاتل ما بين شهيقي وزفيري؟

وارتيابي في ثيابي

وارتيابي في إهابي

وارتيابي في ارتيابي

ومسيري حذرا من غدر حذري !

أهو الموت ؟

متى ذقت حياة في حياتي؟

كان ميلادي وفاتي !

«أحمد مطر»

Twitter: @ketab_n

استيقظتُ على صوت رنين الجرس. وتوجهتُ نحو الباب وأنا أترنح من الصداع والإعياء. ونظرتُ من العين السحرية للباب فإذا هو مازن. وكان يحمل بيده كيساً بلاستيكياً ويرتدي لباسه المعتاد الثوب والشماغ.

- أهلاً أحمد. ماشاء الله، الشَعر في حالة يرثى لها والوجه يكاد ينفجر من شدة الانتفاخ. كم نمت؟ يومًا أو يومين؟

- لا أدري، لكني مازلت أشعر بأنني لم أنل كفايتي من النوم.

كان ما يزال واقفاً عند الباب، ولم أكد أتم مقولتي تلك حتى دفعني بهدوء ودخل إلى الشقة:

- لم تنل كفايتك! كم تريد أن تنام؟ عشرين ساعة في اليوم؟! حسناً يجب أن تقلع عن هذا الروتين السيئ. لقد أحضرت غداءً شهياً معي من أحد المطاعم؛ دجاجٌ مشوي وأرز بخاري.

- وماذا عن (البيبسي)؟

قلتها وأنا أفرك عينيّ. حيث ضحك مازن وقال:

- هذا ما يُهمك. لا تخف، لا تخف، لقد أحضرته معي، وأزيدك من الشعر بيت، يكاد ينفجر من البرودة.

- أوه رائع. حسناً أعطني خمس دقائق فقط أغسل وجهي وأغير ملابسي وأعود إليك. لا تبدأ قبل أن آتي!

Twitter: @ketab_n

- سأبدأ بأكل الدجاجة فقط.

قالها بنبرة استفزازية وهو يضحك.

بعد تناول الغداء، ذهبتُ إلى المطبخ وأعددت كوبين من الشاي وعدتُ بهما. وكان مازن قد خلع شماغه، وجلس على الأريكة المقابلة للتلفاز، وقد جلستُ بجانبه وقلت له وهو يرتشف الشاي:

- لقد وجد الدكتور معتز علاجاً لي.

لم أكد أتم جملتي حتى غصَّ مازن في شرب الشاي، وقام من مكانه وهو يسعل وقال بتأنيب:

- هل أنت جاد؟ متى حصل ذلك؟ ولماذا لم تخبرني من قبل؟

- لقد اتصل عليّ البارحة وأبلغني بالخبر. وكنت أنوي إخبارك ولكن كما ترى فأنا لم أخرج من شقتي منذ أن تلقيت الخبر..وأنا مازلتُ أنتظر اتصالاً منه.

- ولماذا تنتظر اتصاله؟ ألم يكن الأجدر بك أن تذهب إليه لكي يعطيك العلاج.

- كلا، لأنه كما أخبرني يعمل الآن على صنع دواءٍ لي وجرعة تكفي لمدة شهر كامل وحالما يفرغ منها سيتصل بي لكي آخذها.

كان أحمد ما يزال واقفاً، ومن ثم جلس وهو يبتسم:

Twitter: @ketab_n

- أخيراً يا أحمد، أخيراً. مبارك عليك يا صاحبي، هذه هي اللحظة التي لطالما انتظرتها.

كنتُ ما أزال صامتاً، وقد لفت نظره ذلك، حيث سألني باستغراب:

- تبدو قلقاً! ما الأمر؟ هل هناك أمرٌ ما لم تخبرني عنه؟!

تنفستُ بعمق:

- لقد أخبرني بأنّ المراقبة قد ازدادت عليه وبأنّه بات يتلقى رسائل تهديد. لقد بدأ الأمر يأخذ منحى جِديا.

- غريب! المشكلة هي بأنّه لا يستطيع إبلاغ الشرطة بالأمر، وبالتالي يجب عليه أن يواجه الأمر وحده.

- نعم هذا ما كنتُ أفكر فيه. أخشى أن يصيبه مكروه بسببي.

- على أية حال، ما إن تأخذ العلاج والجرعة التي ستكفيك لشهرٍ كامل، أعتقد بأنّ كل شيء سينتهي حينها ولن يكون هناك جدوى من مراقبة الدكتور أو تهديده؛ لأنّك ستعود شخصاً طبيعياً.

- هذا ما أتمناه. أتعلم يا مازن بأنني لو لم أتلقَّ اتصالاً من الدكتور معتز يخبرني فيه عن هذا العلاج الذي توصل إليه لكنتُ قد ذهبتُ إلى أسماء وأخذتُ ولدي منها.

لم يُجب مازن على الفور. أخذ ينظر باتجاه النافذة التي حجبتها

Twitter: @ketab_n

الستارة. بدا بأنّه قد دخل في دوامة من التفكير العميق. ثم قال بعد فترة من الصمت:

- حسناً فعلت، فليس هناك معنى من إقحام نفسك في كل تلك المشاكل الآن بعد أن وجد الدكتور معتز علاجاً لحالتك هذه. وستستطيع بعد ذلك أن تأخذ ابنك وأن تشاهده يكبر أمامك في الوقت الذي هو يشاهدك فيه أيضاً وأنت تكبر في السن وتصل إلى أرذل العمر!

لم أعلق، واكتفيت بالتبسم وأنا أتخيل المشهد. وأضاف مازن بنبرة استفزازية:

- أتدري يا أحمد، سأفتقدك. سأفتقد هذا الفتى المراهق الذي يبدو بأنّه لم يصل إلى مرحلة البلوغ بعد..

- بمجرد أن تبلغ الخامسة عشرة فأنت تُعَد بالغاً، ومن ثم لنفرض بأنني لم أبلغ بعد وقد تمكنت من إنجاب ابن لي، فتخيل ما سيحدث لي بعد العلاج وبعد البلوغ، أظن بأنني سأتمكن من إنجاب قبيلة كاملة!

قلتها وأنا أضحك، وضحك مازن بدوره وقال:

- الغريب في الأمر هو بأنّ مسألة البلوغ تختلف وتتباين بين الثقافات والأديان والبلدان. فلدينا نحن المسلمون بمجرد أن تظهر إحدى علامات البلوغ المعروفة أو أن يصل الإنسان إلى سن الخامسة عشرة فهو يُعد بالغاً وتنطبق عليه كافة الأحكام المتعلقة بالمكلفين. وفي بعض البلدان الأوروبية كالسويد مثلاً يُعتبر الفرد بالغاً وناضجاً بعد

Twitter: @ketab_n

أن يصل إلى سن الحادية والعشرين. في حين أنّ الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الدول لا تعتبر الشخص بالغاً حتى يصل إلى سن الثامنة عشرة، وفي حالتك أنت وبالنظر إلى التاريخ الميلادي فلا أظن بأنّك ستُعد بالغاً عندهم...

وضحك وأضاف:

- وسيتوجب عليك بأن تجد ولي أمرٍ يرافقك.

- ولي أمر؟! هل أنا ذاهب إلى دولة عظمى أم إلى مجلس آباء في مدرسة لكي أحتاج إلى ولي أمر؟!

قلتها بنبرة ساخرة.

وقد استمررنا على هذه الحال بعض الوقت قبل أن يودعني ويرحل قبيل العصر، وقد طلب مني أن أبلغه فوراً بأي جديد يحصل معي ومع الدكتور معتز.

****

Twitter: @ketab_n

مضى يومان بلا أي جديد. ولم أستطع النوم جيداً خلالهما؛ إذْ كنتُ أترقب رنين الهاتف في كل لحظة. وكانت مشاعري متضاربة ومزيجاً من اللهفة والقلق والسعادة والحزن. كنتُ أفكر بالذي سأفعله بعد العودة إلى وضعي الطبيعي وبعد شفائي. سآخذ ولدي أولاً، وسأغير اسمه وأطلق عليه اسم (مازن)! كما أنني سوف أبحث عن أم له وزوجة حانية ترعاه وأعيش معها بقية عمري بهناء وسعادة. وسنسافر سوياً ونجوب المدن والأمصار. وربما سأنجب أبناءً منها أيضاً لكي يكونوا أشقاء لابني مازن يشاركوه مرحه ولعبه. كما أنني سأبحث عن وظيفة حكومية جيدة أستقر فيها وأترقى في السلم الوظيفي حتى أصل إلى أعلى المناصب والرُتب.

استمّر الحال كذلك، حتى دقت ساعة الصفر. وحطت أخيراً طائرة السعادة والراحة الأبدية. وجاءت اللحظة التي لطالما انتظرتها منذ أن وصلتُ إلى سن الثامنة عشرة. كنتُ أستحم ومستلقياً في حوض الحمام المملوء بالماء الدافئ على غير المعتاد نظراً لبرودة الأجواء. وقد كنتُ في غاية الاسترخاء والخمول، والأبخرة تتصاعد وتغطي نوافذ ومرايا الحمام. في تلك الأثناء، رنّ الهاتف. ولم يكن رنيناً معتاداً، ولم يكن صوتاً مألوفاً. بدا كأنه طلقات أعيرة نارية، أو قذائف مدفعية. وشعرتُ بأنّ تلك اللحظات كانت أشبه بساعات، أو كأنها كانت مشهداً يصوره مخرج محترف ومتمكن بالرتم والحركة البطيئة. قفزتُ مباشرة وأنا أسابق الزمن، أخذتُ المنشفة ووضعتها حول خصري على عجل ومن دون أن أنشف أو أجفف نفسي بها؛ لم يكن هناك وقت وقد تنقطع المكالمة، وتفوت الفرصة التي أفنيتُ عقداً من الزمان ألهث

Twitter: @ketab_n

خلفها. وكدتُ أن أسقط على أرضية الحمام الزلقة بسبب استعجالي وبسبب الماء المنسكب عليها. ووصلتُ إلى الهاتف مع الرنّة الرابعة، والتقطتُ السماعة وقلتُ بصوتٍ لاهث:

- نعم، أحمد يتكلم.

وجاءني من الطرف الآخر صوتُ الدكتور معتز، وقد بدا مُرتبكاً وجافاً:

- لقد انتهيتُ من دوائك، وهو معي الآن في حزمة كاملة ستكفيك لمدة تزيد على أربعين يوماً. أريدك أن تلاقيني بعد ساعة عند مبنى شركة (سيدو) لتصنيع الإسمنت.

- ولكني لا أعرف مكانها؟!

- إنها تقع في شارع الخزان خلف الأسواق الشعبية بشارعين عند شارع اسمه إدريس القانوني. وعلى أية حال سيعرف سائق الأجرة الأسواق بالتأكيد.

- سائق الأجرة؟!

- نعم، أريدك أن تستقل سيارة أجرة وفي منتصف الطريق، انزل منها وخذ سيارة أجرة أخرى وإذا وصلت قريباً من المكان فانزل على بعد شارع أو شارعين وتعال مشياً على الأقدام، ولا تلتفت يميناً أو يساراً وواصل سيرك حتى تصل إلى باب الشركة الخلفي، وقم بضرب الباب ثلاث ضربات، وسأخرج لك وسأسلمك حقيبة تحتوي على

Twitter: @ketab_n

العلاج، خذها وعُد من حيث أتيت ولا تلتفت على الإطلاق ولا ترجع إلى مبنى الشركة مهما حصل.

- وماذا عن سيارة الأجرة؟ هل أدع سائقها ينتظر؟

- كلا، كلا.. لا تدعه ينتظر لكي لا تلفت الأنظار من حولك. ستجد سيارة أجرة أخرى لا عليك.

- ولكن... ولكن الساعة الآن التاسعة، واليوم هو الثلاثاء أي أننا في وسط الأسبوع وأخشى أن لا أجد سيارة أجرة عند الساعة العاشرة..

- ستجد، ثق بي. ليس لدي وقت، إنهم يلاحقونني وأنا أسعى إلى تضليلهم. واحذر من أن تبلغ أي أحدٍ بالأمر حتى أقرب الناس إليك!

- حتى مازن؟!

- نعم لا تخبره، قد يكون هاتف منزله مُراقباً. الحرص واجب، لاسيما وأنهم علموا بأنني قد توصلت إلى علاج لك، وقد ثارت ثائرتهم وبدؤوا يبحثون عنك كالمجانين وكثفوا الرقابة عليّ وعلى جميع أفراد أسرتي والعاملين في المستشفى!

- ولكن ألا تخشى من كونهم يتنصتون على هذه المكالمة؟

- إنني أتصل من هاتفٍ عمومي. لقد اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة. لاقني بعد ساعة واتبع التعليمات التي قلتها لك بحذافيرها. أرجوك لا تُفسد الأمر.

Twitter: @ketab_n

أعدتُ السماعة إلى الهاتف ووقفتُ متصلباً في مكاني لعدة دقائق! كانت مكالمة الدكتور معتز مقلقة لي. وما زادني قلقاً هي الاحتياطات والأوامر التي طلب مني التقيد بها. ولم أفهم وأستوعب الأمر تماماً، كما أنني لم أعرف من هي الجهة التي تراقب الدكتور والتي تحاول الوصول إليّ، ومن ثم لماذا هذه السرية البالغة لدرجة إخفاء الأمر حتى عن مازن! هل لأنّ هاتف منزله مراقب أيضاً؟! ولكن إذا كانوا يعرفون عن صداقته بي وبدؤوا في التنصت على هاتفه فبالتأكيد هم يعرفون مكان سكنه، وسيراقبونه، ولأنه زارني قبل يومين فلابد من أنّهم عرفوا مكان إقامتي. ولو عرفوا مكان شقتي فلن يكونوا بحاجة إلى مراقبة الدكتور معتز!

كان الأمرُ مُحيّراً بالنسبة لي. هل يجب عليّ اتباع أوامر الدكتور بحذافيرها؟! لا أدري، ولكن سأنفذ ماقاله، فلقد ضحى بالكثير من وقته وجهده وراحته وهو لا يستحق إلا أن ألاقيه بالمثل وأن أستجيب لأوامره.

ارتديتُ ملابسي، وانتعلتُ حذاءً رياضياً تحسباً لما قد يحدث. وكانت دقاتُ قلبي تتسارع والعرق قد بدأ يتصبب من جبيني بالرغم من أننا كنا في فصل الشتاء. وقبل أن أخرج، ترددتُ قليلاً، وقررت أن أضرب بأوامر الدكتور معتز عرض الحائط وتوجهت إلى الهاتف واتصلتُ على مازن. مضت الرنة الأولى، والثانية، والثالثة،... حتى انقطع الرنين دون استجابة. وشعرتُ براحة نفسية، فأنا الآن قد قمتُ بتنفيذ ما توجب عليّ فعله، وقد طبقت الأوامر التي أُمليت عليّ حرفياً؛

Twitter: @ketab_n

إذْ أنّ مازن لم يُجب على الهاتف وبالتالي فهو لا يعلم بالأمر خصوصاً وأنه لن يعرف من الذي اتصل عليه، وهكذا فأنا لم أخرق أوامر الدكتور معتز.

فتحتُ باب الشقة وقبل أن أخرج ألقيتُ نظرة أخيرة عليها، لم تكن مرتبة كما أنها لم تكن في حالة فوضى أيضاً، بدت معقولة إلى حدٍ ما، وكان الظلام مخيماً عليها إلا من ضوء بسيط من مصباح المطبخ. وشعرتُ بأنّ شقتي هذه المرة قد بدت مختلفة، وكأنها قد أصبحت بلا روح أو أنّ روحاً أخرى قد سكنتها غير تلك الروح القديمة، وبدت موحشة وكئيبة، وأغلقتُ الباب على الفور.

لم يطل انتظاري في الشارع حتى استقللتُ سيارة أجرة وطلبتُ من سائقها أن يقصد شارع الخزان والذي عرفه السائق فوراً، ومن ثم في منتصف الطريق طلبتُ منه التوقف وترجلتُ من السيارة وأعطيته أجرته. ومشيتُ قليلاً، ومررتُ بجوار مطعم مكتظ بالناس، فدخلته وخرجتُ منه بعد دقيقتين من بابٍ آخر، ولحسن حظي مرت سيارة أجرة فور خروجي فلوحت لسائقها كي يتوقف وركبتها مباشرة وأكملتُ مسيرتي. ووصلتُ بعد عشر دقائق إلى الشارع المقصود. وتساءل السائق عن المكان الذي أريد النزول فيه، فأخبرته بأن يتوقف بجوار السوق الشعبي ومن ثم سلمته المبلغ المستحق ونزلتُ من السيارة.

كانت الساعة العاشرة ليلاً وقد بدأتْ بعض المحلات في السوق بالإغلاق، ولم يكن هناك كثير من الناس والزبائن. أخذتُ أسير عبر

Twitter: @ketab_n

ممرات السوق الداخلية من أجل الوصول إلى الشارع الخلفي. وكان الشارع مظلماً على عكس ما توقعت ولم يكن به إلا أعداد قليلة من المارّة. قطعتُ الطريق سيراً على الأقدام ومتجهاً نحو الشارع الثالث، شارع إدريس القانوني كما أخبرني الدكتور معتز.

وحين وصلتُ الشارع الثاني لم أعد ألمح أي أثر لأي أحدٍ من الناس. ولم يكن يبدو هناك أي دلائل على وجود حياة في هذا المكان، بالرغم من وجود بعض المنازل والشركات والتي كان أغلبها في مرحلة البناء. ولم يكن يوجد أية إنارة في الشارع، وكان الهدوء يُخيم على المكان ويُضفي عليه مزيداً من الخوف والوحشة. وقد تبادر إلى مسمعي صوت نباح كلبٍ من بعيد. وقد وصلت إلى الشارع الثالث وبدا لي بأن المسافة بعيدة تماماً عن السوق وكان يُفترض بالدكتور معتز أن لا يدعني أسير كل هذه المسافة الطويلة من أجل الوصول إلى هنا أو على الأقل كان يجب عليه إخباري بذلك، وعلى أية حال فمن حسن حظي أنني قد جلبتُ حذاءً رياضياً معي وتخيلتُ حالي والمعاناة التي سأتكبدها فيما لو ارتديتُ نعلي المعتادة (الزبيرية). وحين وصلتُ الشارع الثالث شاهدتُ لوحةً لم تكن واضحة وقد وُضعت على أحد الأعمدة. اقتربتُ من العمود وتمعنتُ في اللوحة ورأيت مكتوباً عليها «شارع إدريس القانوني».

كان الشارع هذا هو الأحلك ظلمة والأشد سواداً، لدرجة أنني لم أكن قادراً على رؤية أي شيء يبعد عني أكثر من مترٍ واحد. وكانت جميع البنايات الموجودة تتبع شركات ومؤسسات على ما يبدو وكان معظمها

Twitter: @ketab_n

في طور البناء. وكان الشارع ضيقاً للغاية، ولم يكن يتسع لمرور أكثر من سيارة واحدة، وتعجبتُ كيف أن مؤسسات وشركات تجارية تُبنى وتُقام على هذا المكان غير المؤهل إطلاقاً! ومن ثم تساءلت، كيف سأتمكن من إيجاد شركة تصنيع الإسمنت هذه التي ذكرها الدكتور وسط هذا الظلمة الحالكة. وأحسستُ بخوفٍ بالغ وشعرت بقشعريرة تسري في جسمي لا أدري أكان سببها الجو البارد أم أنها كانت نابعة من رهبةٍ داخلية سيطرت عليّ. وفكرت، لماذا أقحم نفسي في هذا المكان المنبوذ والموحش؟! هل الأمر يستحق مني كل هذا العناء؟! وكدتُ أن أتراجع وأن أعود من حيث أتيت لولا أنني تذكرتُ ذلك الحلم الذي رأيته في منامي قبل أيام حينما ناداني أحد الأطفال بجدي، وقررتُ بأنّ كلمة «جدي» تستحق أن يبذل المرء من أجلها كل تضحية ومعاناة. وتحولت مشاعر الخوف والتوجس التي بداخلي إلى مشاعر لهفة وشوق.

أخذت ألتفت يمنة ويسرة، بحثاً عن هذه المؤسسة التي ذكرها الدكتور معتز، ولكن عبثاً لم أعثر عليها. وتوقفت قليلاً في منتصف الشارع، وبدأتُ أفكر فيما إذا كان يتوجب عليّ أن أطرق أبواب هذه المباني واحداً تلو الآخر حتى أعثر على المبنى الموجود أو أن أعود إلى شقتي وأخبر الدكتور بأنني لم أجد الشركة. وفي تلك الأثناء سمعتُ صوتاً قادماً من خلفي والتفتُّ صوب الصوت على الفور و وجدت بأنّ باب أحد المباني قد انفتح على مصراعيه وعلمتُ مباشرة بأنّه هو المكان المقصود، وتوجهت نحوه. كان المبنى هو الخامس من اليمين وكان يوجد خارجه أكياس من الإسمنت والحديد والأعمدة ومواد البناء، وكان يبدو جلياً بأنّ هذا المبنى لم يكتمل بناؤه بعد وبأنّه من

Twitter: @ketab_n

الداخل غير صالح للسكن. وبحثتُ عن لوحة على هذا المبنى تشير إلى الاسم الذي ذكره لي الدكتور ولكن لم أجد أي لوحة أو إشارة.

كانت نبضات قلبي تتسارع، وبدأتُ أتصبب عرقاً في ظل درجة حرارة لم تتجاوز الخمس أو الست درجات على الأكثر. ولمّا وصلتُ، ترددتُ في الدخول، وحاولتُ اختلاس نظرة من الخارج أولاً ولكن لم يكن الظلام في الخارج بأقل حلكة من الظلام في داخل هذه البناية، وقررتُ بأنني لن أدخل حتى أسمع صوت الدكتور معتز وبدأت أنادي: «مرحباً، مرحباً، هل يوجد أحد هنا؟! دكتور معتز، أجبني. هل أنت هنا؟». ولم تأتني أي استجابة وبدأ القلق يتسرب جدياً إلى داخلي، هل تكون هذه خدعة يا تُرى؟! هل يكون الدكتور معتز أسيراً لديهم؟! أو ربما كان قد أصابه مكروه أو حلّ به أذى؟! ومن ثم قلت بأعلى صوتٍ لدي: «إذا لم ترد عليّ يادكتور فأنا سأعود من حيث أتيت!». ولم أكد أكمل الجملة حتى جاءني صوت من الداخل، وكان صوتُ الدكتور معتز: «ادخل، ادخل يا أحمد، المكان آمنٌ هنا».

وخطوتُ بضع خطواتٍ إلى الداخل، وظهر فجأة نور خافت في الظلام، ورأيتُ الدكتور معتز بلباسه الطبي وهو يحمل سراجاً في يده ويجلس على كرسي بجوار الدرج. وكان كل شيء حوله، مما أتاح لي نور السراج الخافت رؤيته، خالياً ولا يوجد به أي أثر لأثاث أو أدواتٍ توحي بأنّ هذا المكان مأهول بالسكان.

وبادرني الدكتور معتز بالحديث قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- أهلاً بك يا أحمد، لقد تأخرتَ قليلاً.

- في الواقع، لم أكن أظن بأن المكان بعيد إلى هذه الدرجة عن السوق الشعبي.

- من أجل مصلحتك فقط، فكلما ازداد بُعداً كلما أصبح أقل لفتاً لأنظار من يبحث عنك.

تقدمتُ إلى الدكتور وصافحته بيدي ومن ثم سألته:

- أين الحقيبة التي بها الدواء يادكتور؟

- إنها في الغرفة التي في الدور الثاني. دعنا نصعد إليها سوياً.

ونهض وبدأ يصعد الدرج، ولحقته في الصعود. وكان الدرج ضيقاً هو الآخر وبالكاد يتسع لشخص واحد، وكان ما يزال إسمنتياً ولم يوضع عليه أي مادة من مواد البناء الأخرى. وكانت رائحة الدهان تعج في المكان مما يوحي بأنّ أعمال البناء كانت تجري هنا على قدم وساق. وصلنا إلى الدور الثاني ولم يكن يختلف كثيراً عن الدور الأرضي، وتقدم الدكتور معتز وهو يحمل السراج بيده اليمنى وأنا أسير من خلفه ومن ثم تجاوز غرفتين عن يمينه وفتح باب الغرفة الثالثة ودخل فيها وهو يقول: «لقد وصلنا، إن الحقيبة على الطاولة، تعال، أريدك أن ترى كيفية تناول الدواء». ودخلتُ ووجدتُ كُرسياً بجوار الطاولة الصغيرة التي كان يوجد عليها الحقيبة وقد طلب مني الجلوس عليه. وأخذتُ أتأمل وأقلب نظري في الغرفة وما لفت نظري فيها لم يكن صغر حجمها

Twitter: @ketab_n

ولا أنها لم تصبغ ولم تؤثث ولا عدم وجود أي أجهزة تكييف أو تدفئة بها، ولكن مالفت نظري هو خلوها من أي نافذة أو فتحة تهوية. وقد بدأ الدكتور يقطع الغرفة جيئة وذهاباً وبدا عليه التوتر والقلق، وسألته:

- هل هذه هي الحقيبة التي تحتوي الدواء؟

- نعم إنها هي.

- حسناً، وكيف هي طريقة تناول الدواء التي تريد إخباري عنها؟

- لا داعي للعجلة يا أحمد، سأبلغك بعد قليل..

شعرتُ بالقلق. وأحسستُ بأنّ هناك أمرا خاطئا.

- دكتور، لا يوجد وقت، سآخذ الحقيبة الآن، وإذا لم تكن تنوي إخباري بكيفية تناول الدواء الآن فبإمكانك أن تتصل عليّ لاحقاً وتخبرني بذلك.

وقمتُ من على الكرسي، وأخذت الحقيبة التي على الطاولة بيدي اليُمنى، وتوجهت نحو الباب ولم أكد أقترب من الباب حتى تحرك الدكتور معتز بطريقة سريعة وأقفل الباب وأدخل المفتاح في جيبه وقال بنبرة لم أعهدها منه من قبل:

- إلزم مكانك ولا تتحرك! أخبرتك بأنه لا داعي للعجلة ألا تفهم؟! إنهم سيأتون في أية لحظة، انتظر فقط!

Twitter: @ketab_n

ابتلعتُ ريقي، وحاولتُ أن أتمالك أعصابي، وأن أبدو متماسكاً قدر الإمكان، ورفضت أن أصدق الإحساس الذي سرى بداخلي وقررت التشبث بأملي للحظة الأخيرة:

- دكتور، دكتور، أنا حقاً لا أفهم. ما الذي يحدث هنا؟! ومن هم الذين سيأتون؟! ألم تقل لي في المكالمة بأنّك ستعطيني الحقيبة وستدعني أذهب فوراً؛ ما الذي تغير الآن؟! هل حصلت مستجدات معينة؟ هل لهذا الأمر علاقة بمن يراقبك؟

وردّ عليّ بطريقة غاضبة وبصوتٍ مرتفع:

- ما أكثر أسئلتك، وما أقل نفعك! إلزم الصمت فقط ولا تسأل، ستعرف كل شيء لاحقاً.

كانت الحقيبة في يدي، وبحركة لا شعورية قمتُ بفتحها، وتفاجأت بخلوها من الداخل من أي أدوية أو عقاقير ماعدا بعض الأوراق والمظاريف. واكتشفتُ حقيقة الأمر بعد فوات الأوان! وبانت لي الشمس ساطعة في كبد السماء بعد انقشاع الغمامة التي حجبتها! نعم، لقد خانني من وثقت به. ومن ظننتُ بأنّه سينقذني كان هو الشخص الذي يريد أن يلف حبل المشنقة حول رقبتي. نعم، لقد طُعنتُ في ظهري الذي لم يعد يتحمل الطعنات، ولقد لدغت من أفعى سامّة بعد أن قاسيت وعانيت من عشرات اللدغات. هاهي الحقيقة المُرة تقف بمظهرها القذر أمامي بعد أن غطت نفسها وتزينت بثوب الوهم الكاذب والحلم الزائف.

Twitter: @ketab_n

سقطتُ على ركبتيّ وسقطت الحقيبة من يدي، لم أقاوم، ولم أحاول حتى أن أقاوم. لقد أصابني هذا الغدر في مقتل، ولقد قضت هذه الخيانة عليّ، وكانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. بدأتُ الدموع تنهمر من عينيّ؛ لم تكن هذه الدموع المنهالة كالسيل المدرار سببها الحزن، كلا، لقد حزنت في هذه الدنيا مراراً وتكراراً وبالكاد ذقت لذة الابتسامة وحبور السرور. نعم، لم يكن الحزن هو السبب، ولكن كان السبب هو الألم، ألم الغدر، وألم البراءة والطهر الذي اغتاله الحقد والشر. ألم الفضيلة والثقة وإحسان الظن حينما تطعنها الرذيلة والخسة والدناءة. لطالما اعتدتُ في حياتي على الصدق، ولطالما عودني والداي على أن لا أقول إلا حقاً، ولطالما رددا عليّ بأنّ حبل الكذب قصير وبأنّ الكاذب يفشل ويخفق وتظهر حقيقته سريعاً، ولكن الآن ما أراه أمامي بأن حبل الكذب كان طويلاً ومتيناً أيضاً. نعم يا أمي، لقد كنت مخطئة حينما قلتِ لي ذات مرة حينما أخفيتُ عنكِ حقيقة أنني لم أقم بأداء واجبي «إنّ من يكذب لا ينجح في حياته وتبدو أمام الناس أمارات الكذب والنفاق جلية واضحة على وجهه ومحياه» إنّ كثيراً من الكاذبين يا أمي هم من أولئك الناس الذين تظهر عليهم سمات الصدق والاستقامة!

بدأتُ أبكي. وأنا أردد بصوت مبحوح قد اختنق بالبكاء وتحشرج بالآهات والأنات:

- ولكن.. ولكن لماذا؟ لِمَ لمْ تدعني أمُت منذ المرة الأولى مادُمتَ تنوي خداعي والغدر بي.

Twitter: @ketab_n

لم يرد واكتفى بالصمت من دون أن ينظر إلي، وأكملتُ بصوتٍ متهدج:

- أم أنك أردتَ أن تقتلني مرتين؟! وأن تجعلني أتجرع سم الموت ومرارة الاحتضار مرة تلو المرة؟! لقد كذبت عليّ في كل شيء ذكرته. نعم في كل شيء، لم تصدق معي في أي أمر. فلا وجود لامرأة اسمها كلير، ولا وجود لرسالة تبكيك كل مارأيتها بل وحتى بكاؤك في ذلك اليوم كان زيفاً وادعاءً ولم يكن حقيقة، وحتى أفراد العصابة والتهديد والرقابة والعلاج الذي توصلت إليه كله كان كذباً... كذباً!

كنتُ أنتحب نحيب الطفل المكلوم على أمه المتوفاة، ونحيب الزوجة الوفية على زوجها الراحل ونحيب الأم المحبة على ابنها الميت.

- أحمد، رجاءً لا تُصعِّب الأمر عليّ! لم يكن أي شيء مما قلته لك كذباً على الإطلاق.

ابتسمتُ ابتسامة ندم وحسرة وقهر وشعرتُ بأنّ الدموع قد جفت في عيني:

- ومازلت تكذب إلى الآن! لقد وثقت بك، و وكلت أمري إليك بعد الله، وكنتُ أدعو لك ليلاً ونهاراً، ولم يساورني أي شك فيك. وكنتُ أردد في نفسي بأنك شخص نادر وبأنّ قلة قليلة في هذه الحياة من تقدم مثل هذه التضحيات التي قدمتها... ولكن.. ولكن يا للأسف، لقد كنتَ...

قاطعني بصوتٍ غاضب:

Twitter: @ketab_n

- لم أكذب، ولم أكن أفكر بأذيتك، ومازلت إلى الآن أهتم بك وبسلامتك وكان شرط تسليمك أن لا يمسوك بسوء.

بعد أن سمعتُ كلمة «تسليمك» سقطت على الأرض، ووجهي نحو الأرض وظهري نحو الدكتور، لم أكن أرغب برؤيته أبداً، لقد أصبح وجهه أبغض الوجوه إليّ، وبات اسمه مرادفاً لاسم الشيطان عندي.

وأكمل:

- أحمد، لقد كنتُ أعمل فعلاً على إيجاد علاج لك، ولكنّي تيقنت من استحالة ذلك بعد إجراء العديد من التجارب والدراسات. وفي الوقت نفسه، كانت هناك رقابة لصيقة عليّ وصلت إلى حد التهديد بالقتل و باختطاف زوجتي وأبنائي. ولم يكتفوا بذلك، بل وهددوا بفضحي وإحياء قضية سابقة وإعادتها إلى العلن؛ قضية انتهت وتم إغلاقها منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت هذه القضية هي خطأ طبي مني تسبب بوفاة رجل مسن. ولأنّ هؤلاء الأشخاص الذين يريدونك يحظون بنفوذ واسع وبعلاقات كبيرة، كان من السهل عليهم أن ينبشوا في تاريخي ويبحثوا عن أي زلة أو خطأ، ويعيدوه إلى العلن ويعمدوا إلى تضخيمه.

ومن ثم ابتلع ريقه وجلس على الكرسي، وأكمل حديثه:

- لقد كانت هذه القضية ستكتب النهاية لمشواري الطبي، ليس هذا فحسب بل وستزج بي في السجن عشرات السنين. وفي المقابل فهم قد عرضوا علي ثلاثة ملايين ريال إنْ أنا سلمتك إليهم. ولم يكن العرض مُنصفاً، ومن غير العدل أن تطلب مني أن أضحي بنفسي

Twitter: @ketab_n

وبمستقبلي وبسمعتي وبأسرتي من أجل شخص لم أعرفه إلا منذ أيام قليلة. وأنا مازلتُ مخلصاً لك يا أحمد، ولذلكً لم أوافق على تسليمك إلا بعد أن أخذت العهود والمواثيق وأيقنتُ من أنّهم لن يمسوك بأذى ولن يسيئوا معاملتك.

لم أجبه، ولم أتحرك من مكاني. لم أعد أتمنى أي شيء في هذه الدنيا. أي شيء. سوى أن يقبض الله روحي في هذه اللحظة. أرجوك يا إلهي ويا خالقي، لقد اشتدت عليّ الأمور وتكالب عليّ الأعداء، وخانني من كنت أظنهم أصدقاء، وغدر بي من كنتُ أخالهم رحماء، فيا خالقي ويارحيم الدنيا والسماوات أنزل عليّ رحماتك وخذني إليك، وألحقني بمن سبقني إليك. اللهم اقبضني إليك، رحمةً بي وشماتة بأعدائي. أرجوك، أتضرع إليك يا أرحم الراحمين، لم أعد أريد العيش، لم أعد أريده...

كنتُ أبكي بحرارة ودموعي تنهال على خدي وتختلط بأرضية الإسمنت الصلبة، حتى أحسستُ برطوبة الأرض. كنتُ أشعر برجفة تسري في جسدي، وبقشعريرة أحكمت قبضتها علي وبهلع شَلّ أطرافي. اختلط دعائي وابتهالي إلى خالقي بنحيبي وانكساري وذلي.

وحينها، أحسستُ بطمأنينة وبسكينة تغمرني، وشعرتُ بأنني على وشك أن أفقد وعيي.

يبدو بأنّ دعواتي قد استُجيبت.

وفي غمرة البكاء، ابتسمت...!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لو ماتت كل الأشياء

سيجيء زمان يشعرنا.. أنّا أحياء

وتثور قبور سئمتنا

وتصيح عليها الأشلاء

ويموت الخوف.. يموت الزيف.. يموت القهر

ويسقط كل السفهاء

لن يبقى سيف الضعفاء

«فاروق جويدة»

Twitter: @ketab_n

مضى وقتٌ طويل ونحن على هذه الحال. كان الصمتُ مُخيماً على المكان وجاثماً عليه في حين أنّ الدكتور معتز ظلّ يذرع المكان جيئة وذهاباً بقلقٍ بالغ. وقد خرج عدة مرات من الغرفة وأحكم إغلاق الباب وقفله من الخارج، وبدا لي بأنه كان يتفقد المكان ويبحث عن الأشخاص الذين اتفق معهم، ولكنه كان يعود بعد دقائق وعلامات خيبة الأمل بادية عليه. لم أبرح من مكاني ولم أتزحزح عن موضعي؛ مازلتُ مستلقياً على الأرض ووجهي يعلوه الجمود وبلا مشاعر. لقد وصلتُ إلى مرحلةٍ ماتت فيها أحاسيسي وعاطفتي، لم أعد أكترث لأي شيء، ولم تعد سلامتي تهمني. وبِتُ أرى نفسي في عداد الأموات.

وفي تلك الأثناء، تبادر إلى مسامعنا صوتَ مكابح سيارة أتى من الخارج. وتنهد الدكتور معتز وتنفس الصعداء وهو يقول: «أخيراً، لقد جاء الفرج يا أحمد.» وأحسستُ بأنّ عبارته تلك تحمل في طياتها سخرية جافة ما كانت لتخرج من شخص يُهمه أمري كمّا يدعي! وقد خرج الدكتور من الغرفة وأحكم إغلاقها. وسمعتُ بعد ذلك أصواتاً تأتي من خارج الغرفة، ومن ثم فُتح الباب ودخل منه الدكتور معتز ومعه رجلٌ آخر لم أميّز ملامحه في الظلام، ولكنه كان طويلاً جداً لدرجة أنّ الدكتور كان بالكاد يصل إلى كتفه وهما يقفان أحدهما بجوار الآخر. كما أنّه كان ضخماً أيضاً وكان يرتدي معطفاً وبنطالاً داكن اللون ويحمل بيده حقيبة.

وقد سأل هذا الرجل الدكتور معتز باللغة العربية الفصحى وبلكنة غريبة توحي بأنّه أجنبي:

Twitter: @ketab_n

- هل هذا هو الشخص المطلوب؟

- نعم، إنّه هو. ولكن لماذا لم يأتِ نيكولاس بنفسه كما كان الاتفاق؟

- لقد فضل أن ينتظر في الفندق، وكلفني بالمهمة، وعلى أية حال لا تقلق فالمبلغ الذي اتفقنا عليه سينزل في حسابك فور أن نأخذ هذا الفتى معنا ونجري بعض الفحوصات ونتأكد من صحة الأخبار والادعاءات التي بلغتنا.

كانا يقفان عند الباب وهما يتحدثان، ولم تُعجب الدكتور معتز هذه النبرة المختلفة من الحديث حيث اندفع قائلا:

- مهلاً، مهلاً.. لقد اتفقنا على أن أتسلّم المبلغ الآن في اللحظة التي أعطيكم أحمد فيها وهذا يُعتبر إخلالاً بـ...

قاطعه الرجل بنبرة غاضبة وبأسلوبٍ تهديدي:

- قلتُ لك ستتسلّم المبلغ ولكن ليس الآن. ألا تفهم؟! إنّك في موقف ضَعْف ولا يحق لك أن تعترض أو أن تتفوه بأي كلمة، لقد بدأتُ أفقد أعصابي، وأنا لا أنصحك بأن تراني حينما أكون فاقداً لأعصابي.

صمت الدكتور معتز على مضض، وتقدم الرجل الغريب نحوي وجلس على ركبتيه وأخذ يلمس ويتحسس وجهي وجسمي بكلتي يديه بطريقة وقحة وكما لو كنتُ بضاعة يتفحصها المشتري قبل أن يبتاعها. وقد كانت يداه ضخمتين خشنتي الملمس، وبعد أن ازدادت وقاحته

Twitter: @ketab_n

دفعتُه بيدي وقد بدأ يتضاحك بطريقة همجية وهو يردد:

- يبدو بأنّك قد جلبت لنا كنزاً ثمينا بالفعل يا مسيو معتز.

ومن ثم قام وفتح حقيبته وأخرج منها قميصاً وبنطالاً وقال مخاطباً الدكتور معتز بعد أن أعطاها له:

- قُم بإلباسه هذه الملابس بدلاً من هذا الثوب الذي يرتديه. نيكولاس لا يُريد إثارة أية شبهات.

- أنا لستُ أمّا له لكي أقوم بإلباسه، عليه أن يرتديَها بنفسه.

ورمى عليّ الدكتور معتز الملابس. وبدوري رميتُ بها بعيداً عني وقلت بغضب:

- لن أرتدي أي شيء.

- يبدو بأنّك تُحب أن تتم الأمور بطريقة عنيفة. حسناً لك ما أردت.

قالها الرجل الغريب وهو يأخذ الملابس ويتجه نحوي والشرر يتطاير من عينيه، وقد تدخل في طريقه الدكتور معتز وهو يقول:

- لا عليك لا عليك، سأتولى أنا أمر هذه الملابس. لا داعي للعنف.

وأخذ منه الملابس وجاء إليّ وقال وهو يهمس في أذني:

Twitter: @ketab_n

- لا تُعَقد الأمور يا أحمد. إنك لن تستطيع أن تُخالف أوامر هؤلاء أو أن تحاول إغضابهم. حتى أنا لو حاولتُ ذلك فسينقلبون عليّ وستكون أنت المتضرر الوحيد من ذلك. دعنا ننفذ ما يريده فقط.

لم أرد عليه. وبدأتُ في حل أزرار الثوب على مضض وما إن خلعته حتى سقطت من جيبه ورقة مطوية وقد لفتت انتباه الدكتور معتز، وحاولتُ أن آخذها من على الأرض، ولكنه سبقني إليها وقرّب منها السراج الذي يحمله بيده. وقد كانت رسالة مكتوبة بخط أنيق:

«هل يجب أن أقول الدكتور معتز، أم والدي معتز؟! نعم، فأنا لا أعدك فقط طبيباً و عالماً ذا مكانة عالية، بل وأعدك أيضاً شخصاً نبيلاً وعطوفاً وأباً لي. لم يخطر ببالي ولو لوهلة واحدة بأنني سأجد رجلاً يحمل هذا الإخلاص والوفاء والرحمة والحب والحنان في قلبه. لم أعرفك من قبل، وكم كنت أتمنى أنني التقيتُ بك في سنيني الماضية. أتعلم يا أبي بأنني عانيتُ كثيراً في حياتي، وبأنني قاسيت من المشقة والحرمان والمصائب ما جعلني أيأس وأفقد الرغبة في الحياة ولذة العيش. حينما بلغني نبأ وفاة أبي وأمي في حادث سيارة انهرت وبكيتُ أياماً وشهوراً. وظللتُ منعزلاً عن العالم عدة سنوات عشتُ خلالها في بحر الذكريات وفضاء الأحلام مع أمي الحبيبة و أبي الحبيب. لقد ظننتُ بأنني قد فقدتهما إلى الأبد، واعتقدتُ بأنني لن ألقاهما مرة أخرى ما حييت. وتصورتُ بأنّني قد فقدت من كان يحبني من أعماق قلبه ومن كان يُقدم مصلحته على مصلحتي ومن كان أقصى مُناه أن يراني أتقلب وسط النعيم بحبور. كان العالم أسودَ في عينيّ

Twitter: @ketab_n

وكان المستقبل مجهولاً وغامضاً أمامي، وكان الماضي محزناً ومُرّاً من خلفي. حتى جئت أنت، وأشعلت لي شمعة الأمل، وأنرت لي بارقة التفاؤل، وأضأت لي مصباحاً ملأ بنوره مستقبلي وجعل الحياة تدب فيّ مجدداً، وتنتفض في أحشائي بعد أن كانت تحتضر وتتحشرج وعلى شفير الموت... أبي.. لم تمُتْ، مازلتَ حياً، وسأظل أدعو لك وأخدمك كما لم يخدم ابنٌ بارّ أباه من قبل... أحبك يا أبي معتز.»

كان ضوء السراج ينعكس على وجهه، حيث بدت ملامحه جليّة أمامي. ولم يكد يُكمل قراءة الرسالة حتى سقطت دمعة من عينيه. وتحولت هذه الدموع إلى سيلٍ مدرار. وأجهش بالبكاء بحرارة وهو مطأطئ الرأس وجاث على ركبتيه. وقال وهو يغالب دموعه: «لقد أخطأتُ في حقك يا أحمد. نعم لقد أخطأت» ومن ثم أخذني في أحضانه وهو يردد بصوت متهدج: «سامحني يا ولدي، سامحني». ونهض ورفعني بكلتي يديه حتى أقف، ووضع يديه على خديّ وأخذ ينظر إلى عينيّ وهو يقول:

- لديّ خطة لتصحيح الأمور. لا تقلق. هم إلى الآن ليس لديهم أي صورة لك ولا يعرفون هيأتك. كما أنّ هذا الرجل قد رآك وسط الظلام وسيكون أمراً بالغ الصعوبة أن يتعرف عليك فيما بعد...

قطع حديثه صوت الرجل الحانق وهو قادم من الأسفل وبلكنته الأجنبية: «مُعتز، مُعتز، لماذا كل هذا التأخير؟!»

- نحن قادمون.

Twitter: @ketab_n

صرخ بها معتز، ونظر إليّ وقال بجدية بالغة:

- يجب أولاً أن ترتدي هذه الملابس، وأن ننزل إليه الآن، وسأجد طريقة لإلهاء الرجل وتمكينك من الهرب. وعليك أن تنطلق بأقصى سرعة لديك إلى الشارع الرئيسي وأن تركب مع أي سيارة قادمة وترجع إلى شقتك، ولا تلتفت وراءك ولا ترجع مهما حدث.

وأشاح بوجهه جانباً، وارتديتُ الملابس بسرعة، ولم أكن موقناً من مقاصد الدكتور معتز هذه المرة ولا من أهدافه؛ فبعد غدره الأول لم أعد أثق بأي شخص كائناً من كان. ولكن، لم يكن هناك ما أخسره ولذلك فقد نويت أن أنفذ ما يقوله وما يطلب مني فعله من دون أن أتفاءل أو أعلل نفسي بأملٍ قد لا يتحقق.

وبعد أن ارتديتُ الملابس وهممنا بالنزول، وضع يده على كتفي وقال:

- أحمد، أريدك أن تذهب إلى بيتي وأن تطلب من زوجتي أن تسلمك المظروف الأخضر الذي يوجد في الخزنة؛ ففيه كل البيانات التي تخصك وكذلك المعلومات التي قد تحتاجها عن المزور وعن عناوين الأشخاص والأماكن الآمنة لك. كما أنني فيما لو حلَّ بي أي مكروه أريدك أن تبلغ زوجتي وابنتي لجين بأنني لطالما أحببتهما وقدمت مصلحتهما على مصلحتي الشخصية؛ وبما أنني أعدك الآن يا أحمد ولدًا لي فها أنا ذا أقدم مصلحتك على مصلحتي وسأحميك بكل ما أملك.

Twitter: @ketab_n

ابتسمتُ ابتسامة باهتة وأومأتُ برأسي من دون أن أعلق.

بدأنا ننزل من على الدرج، وكنتُ أسير والدكتور معتز من خلفي، وبينا نحن وسط الدرج اقترب مني وهمس بأذني من الخلف:

- أعلم بأنك لم تعد تثق بي، ولا تأمنني. وأنا لا ألومك على ذلك، ولكن أرجو منك أن تستجيب لما أقوله لك هذه المرة. هذه المرة فقط!

لم نكد نصل إلى الطابق الأرضي إلا وقد انقض عليّ الرجل الضخم بشراسة وسحبني بقميصي إليه وأخرج مسدساً من جيبه و صوبه نحو الدكتور معتز وخاطبه بحنق:

- أيتطلب الأمر عشر دقائق كاملة من أجل ارتداء قميص وبنطال؟!

اقترب الدكتور معتز منه وخاطبه بصوتٍ هادئ:

- لا داعي لتضخيم الأمور. إنّ كل شيء على ما يرام؛ لقد كان سبب التأخير هو محاولتي أن أقنعه بارتداء الملابس بمحض إرادته وهذا ما حصل. كما أنني أخبرته بأنكم لا تنوون إلحاق أي أذى أو ضرر به فكل ما تريدونه هو إجراء بعض الفحوصات والتحاليل له.

- حسناً سنتأكد من صحة كلامك هذا لاحقاً.

قالها وهو يضحك واقتادني أمامه وهو يدفعني بعنف، في الوقت الذي ما يزال فيه مُصوباً مسدسه ناحية الدكتور معتز والذي قال له:

Twitter: @ketab_n

- أوه لقد نسيت أن أعطيكم الحقيبة التي تحتوي على كافة تحاليل وفحوصات أحمد والنتائج التي توصلت إليها بالإضافة إلى المستندات التي تثبت عمره الحقيقي. دعني أحضرها لك يا روبيرت.

وبدا بأنّ روبيرت كان متشككاً من نوايا الدكتور، ولم يعلم ما إذا كانت هذه المستندات مهمة أم لا ولكن لخشيته من أن يناله التوبيخ من نيكولاس فقد فضل أن يُنجز المهمة بإتقان وأن لا يدع مجالاً للخطأ. وأجاب بطريقة حذرة:

- حسناً سأنتظرك في السيارة.

وأكمل سيره وهو يدفعني إلى الأمام بعد أن أدخل مسدسه في جيبه، وقبل أن نصل إلى الباب الخارجي للمبنى، جاء صوتٌ من خلفنا ينادي «روبيرت»، ولم يكد يلتفت روبيرت ناحية الصوت إلا وقد نزل عليه الدكتور معتز بضربة قوية بأحد الكراسي الخشبية على رأسه، وقد انكسر الكرسي من شدة الضربة، وسقط روبيرت على الأرض وهو يتأوه والدماء تسيل من رأسه.

وصرخ الدكتور معتز:

- اهرب، اهرب يا أحمد. اهرب واركض بأقصى سرعة لديك..

نظرتُ إلى روبيرت الذي أخذ يحاول النهوض وهو يترنح، قبل أن يعالجه الدكتور معتز بلكمة أخرى في وجهه أسقطته أرضاً مجدداً. وقد تجمدتُ في مكاني ولم أعد مدركاً لما يجري حولي. وأحسستُ بأنني

Twitter: @ketab_n

قد فقدت القدرة على السماع ولم أعد أشاهد سوى أشباحٍ على هيئة رجال وسط هذه العتمة.

كنتُ ما أزال واقفاً في مكاني. لا أظن وقوفي، وحالة التجمد التي اعترتني هذه قد تجاوزت لحظات. ولكنني خِلتُها أياما. وقد هتف مرة أخرى الدكتور معتز: «أحمد، ماذا دهاك؟! لا وقت تضيعه. اهرب الآن!»

وخرجت فوراً من الباب على صدى آهات ذلك الرجل الضخم المسمى «روبيرت». وفي الوقت الذي كنتُ أخرج فيه قابلني رجلٌ آخر لا يقل ضخامة عن صاحبه وقد انسللتُ وسط الظلام بصعوبة من بين يديه وأطلقتُ ساقي للريح وبدأتُ بالجري بأقصى سرعة لديّ، حتى لكأنه يُخيل إليّ بأنني كنتُ ريشة تطير في الهواء وبأنّ قدميّ لم لم تكونا تلامسان الأرض. ولم أكن أظن قبل تلك الحادثة بأنني سريع الجري ورشيق الحركة -بالرغم من أنني كنتُ نحيلاً- غير أنّ الخوف الذي اعتراني قد أطلق فيّ قوة خفيّة دفعتني دفعاً لتجاوز القيود التي كبّلت فكري وحجّمت قدراتي.

ولم يقف ذلك الرجل مكتوف الأيدي، بل انطلق خلفي بسرعة بالغة، حتى اقترب مني وكاد أن يصل إليّ. وفي تلك الأثناء، دوى في المكان صوت رصاصة قادمة من المبنى، وقد التفتَ على إثرها ذلك الرجل في حين أنني واصلت ركضي بسرعة أكبر هذه المرة وكأنّ صوت الرصاصة المُفزع قد زاد من قوة الدفع التي تفجرت لديّ. لم أكن أعلم

Twitter: @ketab_n

من هو الذي أطلق الرصاصة، أهو الدكتور معتز أم «روبيرت»؟! ولكن ما كنتُ أعلمه علم اليقين هو بأنني يجب عليّ مواصلة الركض حتى لو تطلب الأمر أن أقطع الكرة الأرضية بِرُمّتها!

وعاد الرجل الذي كان يلحقني أدراجه مجدداً ناحية المبنى ومكان الرصاصة، وقد أكملتُ الجري حتى وصلتُ أعتاب السوق الذي خيّم عليه الظلام واختفت منه الحركة، وتجاوزته بسرعة قاصداً الشارع الرئيسي، وتوقفتُ وأنا ألهث في منتصف الشارع الذي أضاءته أعمدة الإنارة وهو ما مكنني من أن أرى أخيراً بعض الضوء بعد أن عشتُ في ظلمة حالكة في الساعات الماضية.

كنتُ أخشى أن لا أجد أي سيارة مارّة في هذا الطريق في هذا الوقت المتأخر، ولم أكن أعلم كم كانت الساعة بالضبط ولكني كنتُ متأكداً من أننا قد تجاوزنا منتصف الليل. وخشيتُ أن يعود إليّ رجال العصابة بسيارتهم «اللينكولن» السوداء، التي كانت مركونة عند المبنى ويجدونني واقفاً في الشارع منتظراً مرور أحد من الناس ومن ثم أقع بين أيديهم غنيمة باردة. فتحاملتُ على نفسي، وتناسيتُ تعبي، وقررتُ أن أواصل الركض على الشارع إلى أن تمر بي أي سيارة.

وبعد أن بدأتُ الجري بقليل رأيتُ في الأفق ضوء سيارة قادمة وكانت تقترب شيئاً فشيئاً. فتوقفتُ في مكاني وبدأتُ ألوّح بكلتا يديّ في منتصف الشارع إلى أن توقفت السيارة. وقد كانت من نوع «بيجو» وقد بدا بأنّ سائقها من جنسية عربية من ثيابه التي كان يرتديها. وكان

Twitter: @ketab_n

رجلاً كبيراً في السن ويرتدي نظارة طبية مثبتة بحبلين يتدليان من تحت أذنيه. وقد بدا مرعوباً أكثر مني، بعد أن توجهت ناحية نافذته التي أنزلها على الفور حيث قلتُ وأنا ألهث:

- أرجوك خذني معك هناك أفراد عصابة يطاردونني ويريدون اختطافي وقد تمكنتُ من الفرار منهم. أرجوك.

وقد ارتبك الرجل وقال لي على الفور:

- اركب إذاً معي يا بُني ولا تُضع الوقت بكثرة الكلام!

وركضتُ للمرة الأخيرة نحو الجهة الأخرى –جهة الراكب- وفتحتُ الباب وركبتُ معه. وسألني:

- أين هم؟

- مَن؟

- أفراد العصابة، أين هم؟

- إنهم خلفي بالتأكيد.

والتفّ بسيارته وعاد من الجهة الأخرى وهو يسير بسرعة جنونية. وكان ينوي في بادئ الأمر أن يتوجه بي إلى مركز الشرطة، ولكنني أصررتُ على أن يذهب بي إلى شقتي وعللت السبب لحاجتي إلى الراحة وأكدتُ له بأنني سأبلغ الشرطة بالأمر في صباح الغد.

Twitter: @ketab_n

دخلتُ شقتي، وأنا لا أصدق ما حلَّ بي. كنتُ أشعر بأنّه حلمٌ أو كابوسٌ قد استيقظتُ منه للتو. كانت دقات قلبي ما تزال سريعة، وكأنّ قلبي قد اعتاد على هذه الوتيرة لدرجة أنه لم يستطع أن يتوقف عنها حتى بعد أن أصبحتُ في أمان. أو كأنه كان يُعاتبني على هذه المخاطر والمجازفات التي أقحمته فيها من دون حذرٍ أو أخذ حيطة.

وأخذتُ أتأمل في الملابس التي عليّ؛ وكانت قميصاً أزرق اللون ومقلماً بلون أبيض، وبنطالاً واسعاً أسود اللون. وأول ما فعلته هو أنني خلعتُ هذه الملابس وألقيتها في سلة المهملات الكبيرة التي توجد في منتصف الدور الذي أسكن فيه ويتشارك فيها جميع ساكني الطابق الثاني. ومن ثم عدتُ إلى شقتي وأنا لم أستيقظ بعد من هول الصدمة التي ألّمت بي، ومن الأهوال التي مررتُ بها في هذا اليوم.

كنتُ في غاية التعب والإنهاك جسدياً ونفسياً، وكنتُ أعاني من ألم فظيع في قدميّ، وقررتُ بأن أدخل غرفتي وأستلقي على السرير وأن لا أُستيقظ إلا بعد يوم أو حتى يومين؛ بعد أن أستعيد قواي وأسترجع ما فقدته في هذه التجربةُ المرعبة.

ولم أكد أمر بجوار المرآة في غرفتي حتى أحسستُ بوجود أمرٍ غريب. توقفتُ في مكاني بين السرير وبين المرآة وسط صراع عنيف في أعماقي. وعدتُ قليلاً إلى الخلف ونظرتُ إلى المرآة. وكانَ هناك ضوء خافت يتسرب إلى غرفتي وكانت هيئتي واضحة في المرآة. ولكن لم أكتفِ بهذا الضوء الباهت، وأضأتُ الإنارة الكهربائية في الغرفة،

Twitter: @ketab_n

واقتربتُ مجدداً نحو المرآة، وأخذتُ أتمعنُ في المنظر بخوفٍ بالغ. وقد شلت الصدمة أطرافي ولم أعد أقوى على الحركة، بل وفقدتُ الرغبة في النوم.

كانت مفاجأة صاعقة، ولم أستطع تفسير الأمر. وظللتُ أتأملُ المِرآة بفزعٍ واشمئزاز وحيرة في آنٍ واحد.

لقد انقلبَ لون شعري إلى الأبيض...!

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جسمي معي غير أنّ الرُوحَ عندكمُ

فالجسم في غربةٍ والروح في وطنِ..

فليعجبِ الناسُ مني أنّ لي بدناً

لا روحَ فيه ولي روحٌ بلا بدنِ..

أمشي مع الناس، لا للأنس أصحبهم

لكنني لمْ أجد أهلي ولا وطني..

«نصر البغدادي»

Twitter: @ketab_n

مَرَّ هذان اليومان عليّ كالكابوس؛ لم أذق فيهما طعم الراحة، ولم يغمض لي جفن، ولم يهنأ لي بال. كان يدور في ذهني ألف سؤالٍ وسؤال، وكان يدور بخلدي مئات الاستفهامات. ما الذي حل بي وبشعري؟! ولماذا تغير لونه وذهبت نضارته؟! هل كبرتُ في السن فجأة؟ وهل انتقلت من الشباب إلى الشيخوخة بين عشية وضحاها؟ وهل ودعتُ مرحلة المراهقة والفتوة وانتقلتُ مباشرة نحو مرحلة الهرم والكهولة من دون مرحلة عبور قبلها ومن دون محطة فاصلة بينهما؟! ولكن إذا كنتُ حقاً قد أصبحتُ كبيراً في السن فلماذا لم يتغير أي شيء آخر فيّ؟! ولماذا لم تتغير ملامحي أو تظهر عليّ التجاعيد؟! ولماذا كان الشعر هو الشيء الوحيد الذي اختلف وشذّ عن بقية علامات التقدم في السن المعتادة؟ أم أنّه يا تُرى كان سبب الشيبِ الذي غزا شعري وقضى على الأخضر واليابس فيه هو تلك التجربة العصيبة التي مررتُ بها وتلك المحنة المخيفة التي عايشتها مع غدر الدكتور معتز ومع تلك العصابة الأجنبية قبل يومين؟! ثم ما الذي حلَّ بالدكتور معتز؟ ومن الذي أطلق تلك الرصاصة المشئومة؟ وهل نجَا الدكتور من العصابة وهل ستستمر تلك العصابة في مطاردتي ما حييت؟ ولماذا.. ولماذا...

كانت التساؤلات لا تنتهي. ولم أكن أملك الإجابة على أيٍ منها. ولم يكن بمقدوري التكهن بما ستؤول إليه الأمور. وخلال هذين اليومين، لم أشأ أن أفعل أي شيء. ولم تكن لدي رغبة في الخروج أو الحديث مع أي شخص. وفضلتُ الاستلقاء على السرير والإبحار في شاطئ الذكريات والخوض وسط هدير أمواج الحوادث الرهيبة التي خرجتُ منها للتو بشعرٍ أبيض وبجسدٍ بلا روح. وكنتُ أتجاهل رنين

Twitter: @ketab_n

الهاتف المُستمر. ولم أكن أطبخ أو أصنع أي شيء سوى ما يسد الرمق مما يوجد في الثلاجة ولا يتطلب جهداً في إعداده.

كنتُ على وشك الجنون، وعلى شفير الانهيار. فالهموم والغموم قد نالت مني نصيب الأسد. والأسئلة الحائرة قد أنهكتني وألقتْ حِملاً ثقيلاً على كاهلي. غير أنّي أفقت من أوهامي وكوابيسي على صوت رنين الجرس المتواصل. وكأنّ هذا ما كان ينقصني؛ فأنا لم أكن على استعدادٍ لمقابلة أي شخص. وقررتُ أن أتجاهل الرنين حتى يمل صاحبه ويغادر، ولكن هذا ما لم يحصل، واستمر إلحاح الطارق وقد وصل إلى مسامعي صوت مازن من الخارج: «أعلم بأنك داخل الشقة. لن أغادر حتى تفتح الباب!». حقاً، كم أكرهك يا مازن حينما تكون أنانياً ولا تلقي بالاً لرغبات الآخرين وقراراتهم. ولمعرفتي الوثيقة بمازن كنتُ أعلم أنه يعني ما يقول تماماً، وسيظل يرنّ الجرس ويعكر عليّ مزاجي المتعكر أصلاً ويزيد همي وإرهاقي مالم أنصَعْ وأنفذ ما يريد.

نهضتُ بتثاقل، وبحثت في الخزانة عن قبعة أو طاقية أغطي بها شعر رأسي، فلم أكن بحاجة إلى نظرات استعطاف أو دهشة واستفهام؛ فأنا نفسي لا أعلم ما الذي حلّ بي وأصابني. ولسوء حظي لم أجد ما يغطي كامل شعري، وكان وحده الشماغ يؤدي هذا الغرض ولكن سيكون أمراً بالغ الغرابة ارتدائي للطاقية والشماغ داخل شقتي وسيعي مازن فوراً بأنّني أخبئ أمراً ما عنه. وقررتُ أخيراً أن أرتدي قبعة تغطي معظم شعري ماعدا جزء بسيط من الخلف، وعزمتُ على أن لا يدخل مازن إلى الشقة وأن أكلمه عند الباب فقط لكي لا يراني

Twitter: @ketab_n

من الخلف ويكتشف الحقيقة.

فتحتُ الباب، وإذا بمازن يقف بثوبه وشماغه المعتادين وهو يحمل جريدة بيده اليسرى. وقد ألقى عليّ السلام قبل أن يقول باستغراب:

- تبدو منتقع اللون وشاحب الوجه. هل أصابك شيء؟!

- كلا، أنا على ما يرام، وداعاً!

قلتها وأنا أغلق الباب، غير أن مازن أمسك بالمقبض وهمَّ بالدخول، فتوسلتُ إليه قائلا:

- أرجوك يامازن، أنا مُتعب وبحاجة إلى الراحة، ولم أكن أنوي أن أفتح الباب منذ البداية لولا إصرارك المزعج.

- مُتعب؟ إنّ الساعة الآن الخامسة عصراً، ولابد من أنك قد قضيت معظم يومك في النوم. وبالتأكيد إنّ كثرة النوم هي السبب وراء هذا الشحوب والهزال الذي ألمَّ بك.

- لم أهنأ بنومٍ منذ ثلاثة أيام! والآن ماذا تريد؟

- لاشيء، ولكن أردتُ الاطمئنان عليك فحسب، لاسيما بعد أن قرأتُ في الجريدة خبر الدكتور معتز.

- الدكتور معتز؟!

- ماذا؟ ألم يصلك الخبر حتى الآن؟ يا إلهي! حقاً لا أعلم كيف

Twitter: @ketab_n

سأتمكن من إبلاغك بالخبر بطريقة لائقة و...

وقاطعته:

- مازن! لستُ في مزاجٍ يساعدني على أن ألعب معك هذه اللعبة، قل الخبر فوراً.

- لن أستطيع أن أقوله وأنا هنا في الممر. دعني أدخل أولاً.

وقد أدخلته على مضض، وحاولتُ بقدر المستطاع أن أتجنب رؤيته لي من الخلف. وبعد أن جلسنا متقابلين أعطاني الجريدة حيث كان يوجد فيها بالخط العريض «العثور على طبيب الجينات الشهير الدكتور معتز العالي مقتولاً في إحدى البنايات». كان وقعُ الخبر عليّ كالصاعقة. وقد تيقنتُ الآن من أنّ تلك الرصاصة التي سمعتها هي التي أردته قتيلاً. وقد انهالت دموعي وأنا أردد: «رحمك الله يا أبا لجين وأسكنك فسيح جناته».

وقد أكملتُ قراءة الخبر الذي لم يحتوِ على تفصيلات كثيرة، إذْ تطرق معظمه عن سيرة الدكتور معتز وإنجازاته الطبية في مجاله الذي برع فيه. وقد ألقيتُ بالجريدة جانباً ولم أنبس ببنت شفه، ولم يتحدث مازن أيضاً لبعض الوقت قبل أن يقول:

- هل تظن بأنّ لمقتله علاقة بك؟!

ابتسمتُ ابتسامة ساخرة وحزينة في الوقت نفسه:

Twitter: @ketab_n

- أظن؟! بل أنا على يقين بأنّ مقتله لم يكن له علاقة بي فقط، بل وكنتُ أنا السبب المباشر في وقوعه بعد أن جازف بحياته وفضّل أن يُخلصني من العصابة حتى وإن كان ذلك يعني النهاية بالنسبة له.

- أحمد، لم أفهم؟ ما الذي حدث؟ هل تعلمُ شيئاً عن مقتل الدكتور معتز؟ وعن أي عصابة تتكلم؟!

- أتعلم يا مازن، لقد فهمتُ الآن ما الذي عناه حينما قال لي بأنّه يعدني ولدًا له وبأنّه سيقدم مصلحتي على مصلحته، لقد كان مُدركاً لما سيتعرض له بسبب تضحيته هذه. رحمك الله يا أبي.

قلتها والدموع تترقرق من عينيّ. وتمنيتُ حينها لو أنني قبلتُ رأس الدكتور معتز وأخبرته عن مقدار الحب الذي أكنّه له في صدري وعن حجم الامتنان الذي أحمله له وعن أنني لن أنسى صنيعه ما دمتُ حيا. وكيف لي أن أنسى وقد قدم حياته وروحه فداءً وهدية لي.

- أحمد، للمرة الأخير. ما الأمر؟ ما الموضوع؟

قالها مازن بنبرة جدية وقد أوشك صبره على النفاذ، حيث قصصتُ عليه ما حدث معي، وما واجهته خلال الأيام الماضية. ولما فرغتُ من إخباره بالأمر تنهد بارتياح وهو يقول:

- حمداً لله على سلامتك. وعفا الله عن الدكتور معتز ما فعله بك.

- لا يحق لك أن تلقي باللوم عليه! أكاد أجزم بأنّه لا يوجد أحد

Twitter: @ketab_n

على هذه الكرة الأرضية على استعداد بأن يضحي بحياته من أجل شخص آخر لا يجمعه به إلا علاقة سطحية..!

- على أية حال، لا يجوز لنا في حق الميت إلا الرحمة.

ومن ثم وقف وبادرني بالسؤال:

- أتريدُ كوباً من الشاي؟

وهززتُ رأسي موافقاً. ومن ثم ذهب إلى المطبخ وعاد بعد فترة وهو يحمل بيده كوبين من الشاي وقد أعطاني أحدهما وجلس أمامي وقال:

- ما الذي تنوي فعله الآن؟

وضعتُ الكوب على الطاولة وبدأتُ في التمدد بخمول ووضعتُ قدمي على طرف الأريكة واستندتُ برأسي على الطرف الآخر وقلتُ ببطء:

- لا أدري. بصدق، لا أدري. أشعرُ بأنّ عقلي قد تجمد وبأن تفكيري قد شُلّ، كما أنني مُرهق وتعيس و أحتاج إلى العزلة لبعض الوقت. غير أنني أشعر في الوقت نفسه بأنّه لا بد لي من أن أبلغ أسرة الدكتور معتز بآخر كلماته ووصيته التي قالها لي...

وقاطعني مازن:

Twitter: @ketab_n

- ولا تنسَ الملف الذي أخبرك عنه. لو سقط في أيدي العصابة فقد يضعك في مأزق!

- في الواقع لا يهمني أمر المظروف الأخضر أو الملف كما تقول. ما يُهمني فعلاً، هو أن أخبر زوجته وابنته بحبه لهما وبأنّه قد ضحى بحياته وقدم أروع الأمثلة في الإيثار لشخصٍ غريب عدّه واحدًا من أبنائه...

ارتفعا حاجبا مازن في دهشة، وقاطعني بنبرة متعجبة:

- وما رأيك أيضاً أن تمر على الشرطة وتبلغهم بالخبر، واختصاراً للوقت يُفضل أيضاً أن تمر على العصابة وتُسلم نفسك لهم!

- لا أرى وجود علاقة بين الذهاب إلى أسرة الدكتور معتز وبين ما ذكرته أنت.

- أحمد، يبدو أنّ هذه القبعة التي ترتديها لم تغطِّ رأسك فحسب بل وغطت معه عقلك ومنعت عنك القدرة على التفكير!

وشعرتُ فجأة بحكة في رأسي، وبدأتُ أفكر فيما إذا كان مازن قد أحسَّ بما أصابِ شعري. وقد أكمل مازن حديثه:

- ألا تعتقد بأنّ العصابة بعد أن تمكنتَ من الهرب من بين أيديهم بأنّهم سيبدؤون في البحث عنك في الأماكن التي يظنون أنك من المحتمل أن تتواجد بها، كالمستشفى وبيت الدكتور معتز. إنني على أتم اليقين بأنّهم قد وضعوا رقابة مكثفة على بيت الدكتور، وبأنّهم ما إن

Twitter: @ketab_n

يروا أحداً تنطبق عليه الصفات الأولية التي يعرفونها عنك سيهجمون عليه فوراً.

- ولكن لا بد لي من إيصال رسالة الدكتور. لاسيما وأنّ هذا هو أقل ما أقدمه للرجل الذي لقيَ حتفه من أجلي!

- أولاً أنت لست ساعي بريد كي توصل رسائل الناس! وثانياً، لو كان الدكتور معتز حياً وسمِعَ حديثنا هذا فسيطلب منك أن لا تذهب إلى منزله إنْ كان سيترتب على ذلك تمكين العصابة منك، ولا تنسَ بأنه لم يضحِّ بحياته إلا من أجل سلامتك وسيكون من الحمق والأنانية أن تُعرض نفسك للخطر مجدداً بعد كل هذه التضحيات!

- بل الأنانية ستكون فيما لو ضربت بوصيته الأخيرة عرض الحائط. ما الذي حلّ بك يا مازن؟ لماذا أصبحت ناكراً للجميل وجاحداً للمعروف؟! هل هكذا يكافئ المرء شخصاً قضى نحبه من أجله!

قام مازن من مكانه وأخذ كوب الشاي الذي أعده لي من الطاولة وسكبه في كوبه وبدأ في شربه، ومن ثم قال بنبرة غاضبة:

- أنت لا تستحق كوب الشاي هذا!

وأكمل بجدية:

- كيف أكون ناكراً للجميل، حينما أطلب منك أن تُكمل جميل هذا الشخص بأنّ تجعل لتضحيته معنى. قل لي ما الفائدة التي ستجنيها حينما تسقط في يد العصابة التي قُتل الدكتور معتز من أجل

Twitter: @ketab_n

أن يخلصك منها!

- قد يكون معك حق، ولكن لا مناص من تنفيذ رغبة الدكتور معتز الأخيرة.

- إن كنت مصمماً على ذلك، فدعني أنا إذاً من يتولى القيام بهذه المهمة. وسأحرص على أن آتي لهم كما لو كنتُ مُعزياً وفي نفس الوقت سأطلب منهم المظروف الأخضر وأبلغهم عن حب الدكتور لهم.

- وكيف ستبلغهم بذلك دون أن تثير الشكوك كما تقول؟!

- لا عليك، توجدُ ألف طريقة وطريقة لذلك.

بدأتُ بحكّ رأسي والتفكير ملياً قبل أن أقول:

- من الممكن أن تقول لهم بأنّك قد لقيت الدكتور معتز صدفةً في اليوم الذي قُتل فيه وبأنكما تحدثتما سوياً وقد تطرقتما للحديث عن الأسر والأبناء وعن ما يتعلق بالشؤون العائلية وقد جر الحديث بعضه حتى أفشى لك الدكتور عن حبه العميق الذي يكنه لزوجته وابنته.

وحين لم يُجب مازن، نظرتُ إليه و وجدتهُ يحدق فيَّ بذهول وقد علمتُ حينها بأنّني حين حككتُ رأسي قد أزحت القبعة قليلاً عن مكانها من دون وعيٍ مني.

- أحمد، ما الذي حدث لشعرك؟!

Twitter: @ketab_n

تنهدتُ بعمق:

- لستُ أدري. حينما عدتُ إلى الشقة بعد أن تمكنتُ من الفرار من العصابة وجدته على هذه الحال التي تراها.

قلتها وأنا أنزع القبعة وأضعها على الطاولة بعد أن أدركتُ بأنه لم يعد من المجدي إخفاء أمر الشعر الأبيض عنه.

- غريب! وما السبب في ذلك؟! من غير المعقول أن يتحول الشعر من الأسود إلى الأبيض بين يومٍ وليلة!

- قلتُ لك لا أدري! وهل تظن أني سعيدٌ بهذا المنظر المقزز! شعرٌ أبيض على وجه فتىً مراهق! منظرٌ يصلح أن يُصوّر في برنامج (الكاميرا الخفية) أو في الرسوم الكاريكاتيرية في الصحف والمجلات!

و نهض مازن من مكانه واقترب مني وبدأ ينظر عن قرب إلى شعري وأخذ يتحسسه بأصابعه وهو يقول:

- العجيب هو أنّه مازال يحتفظ بنعومته!

وعاد إلى مكانه وأردف قائلاً:

- ألم تعرض نفسك على طبيب في اليومين الماضيين؟

- لقد أخبرتك بأنني لم أغادر شقتي. ومن ثم فإنني قد قررتُ أن لا أزور أي طبيب في حياتي!

Twitter: @ketab_n

- لقد سمعتُ من قبل عن حالات مشابهة؛ أصابها الشيب فجأة بعد أن مرت بتجربة مفزعة أو بعد أن واجهت ووقفتْ على مشاهد مروّعة، ولكنني لم أكن واثقـًا من صحة ما سمعت إلا الآن. وبالتالي فلابد من أنك قد فزعتَ بشكلٍ مبالغ فيه مما أدى إلى حدوث ذلك.

- بشكل مبالغ فيه! تقولها وكأنّ الأمر كان بيدي! صدقني لو كنتَ أنت مكاني لرأيناك الآن مُلقىً في دار العجزة!

وقام مازن وهو يضحك قبل أن يقول بطريقة مستفزة:

- أتدري يا أحمد بأنني لم أكن أظن بأنّك ستسبقني إلى أي علامة من علامات التقدم في السن إلى أنْ رأيتك بحلتك الجديدة هذه.

ولم يكد يكمل جملته حتى رميتُ عليه الوسادة التي كنت أتكئ عليها، وقد تفاداها بمهارة، وقال وهو ينظر إلى ساعته:

- على أية حال، لقد تأخرت. يجب أن أغادر الآن.

وسألته بجدية:

- هل ستذهب إلى منزل الدكتور معتز؟

- نعم سأذهبُ الليلة.

- وما هي خطتك بالضبط.

Twitter: @ketab_n

- لا توجد خطة. سأنتظر فقط إلى أن يُغادر الجميع وسأطلبُ ممن يوجد له صلة قرابة مع الدكتور أن يُبلغ زوجته بأمر المظروف لكي تحضره لي.

- وهل تظن بأنها ستعطيك المظروف بهذه السهولة؟!

- لا عليك دع الأمر لي. أؤكد لك، لو كانت مهارة الإقناع والحديث المعسول شهادة تُعطى لحصلتُ فيها على درجة الدكتوراة.

قالها مازن وهو يغمز بعينه، ومن ثم خرج من الشقة. وقد عزمتُ أنا بدوري على أن أخرج أيضاً، ولكن ليس إلى منزل الدكتور معتز، بل إلى منزل زوجتي السابقة أسماء لكي أستعيد ولدي منها!

ارتديتُ ثوبي أمام المرآة وقبل أن أمد يدي إلى الطاقية والشماغ بدأتُ أتأمل نفسي جيداً. كانت الشعرات السوداء لا يزيد عددها على أصابع اليد الواحدة! وكان من شأن الشعر الأبيض أن يبدو مقبولاً فيما لو كنتُ أكبر – ظاهرياً- بعدة سنوات. ولأني سأقابل ابني للمرة الأولى فلا بد بأنْ أظهر بأبهى حلة، وأن لا أفزعه أو أخيفه بسبب هذا الشعر الغريب. لن أدع مجالاً للحظ أو الخطأ، يجب أن أراعي الدقة والحذر في كل خطوة أخطوها وفي كل عملٍ أقوم به لكي لا أسببُ عقداً نفسية لابني الصغير يصعب تجاوزها والتخلص منها.

وقد قررتُ أن أذهبَ أولاً إلى السوق لشراء صبغة سوداء قبل أن أتوجه إلى منزل أسماء. عُدتُ إلى البيت قبيل صلاة العشاء، وحين قرأتُ التعليمات المرفقة مع الصبغة أدركتُ بأنني لن أستطيع الذهاب

Twitter: @ketab_n

في هذا اليوم لملاقاة ابني؛ فالصبغة كانت بحاجة إلى عدة ساعات لكي تؤدي مفعولها ولكي تحقق الثمار المرجوة منها. وقد وضعتها بعد أن عدتُ من المسجد قرابة الساعة الثامنة، وذلك بعد أن أخذتُ حماماً سريعاً. ومن ثم وضعت كيساً بلاستيكياً على رأسي ونِمتُ تلك الليلة بهناء.

استيقظتُ عند الفجر، وهرعتُ إلى المَروش، وغسلتُ شعري ومن ثم نظرتُ إلى المرآة وشاهدتُ نفسي وصحتُ بحماسة: «لقد عُدتُ أخيراً». وابتسمتُ برضا لهيئتي الجديدة القديمة، والتي لطالما اعتدتُ عليها بالرغم من أنّ شعري هذه المرة بدا أكثر سواداً عن ذي قبل، إلا أنّه كان أفضل بكثير مما كنتُ عليه في الأيام القليلة الماضية.

تناولتُ الإفطار ولم أستطع منع نفسي من التفكير في الدكتور معتز. كنتُ أتذكر كلماته وعباراته، واسترجعتُ مشاهد وأحداث اليوم الأخير الذي رأيته فيه واليوم الذي ضحى فيه بنفسه من أجلي. تذكرتُ كلماته حين قال لي: «سامحني يا بُني، لقد أخطأتُ بحقك». كنتُ أشرب الشاي، في الوقت الذي بدأتْ فيه عيناي تذرفان الدموع حتى سقطت واستقرت أخيراً في الكوب الذي بقي متجمداً في يدي. إنّ أروع معاني البذل وأصدق قيم العطاء وأنبل صور التضحية تتمثل في أن تفدي شخصاً آخر بروحك، وأن تجعل من حياتك جسراً له يعبرُ به من أهوال الجحيم إلى رخاء النعيم. أن تلفظ أنفاسك الأخيرة وتهبها لمن تُحب أمرٌ لا يفعله إلا قلة قليلة في هذا العالم، فكيف بمن يمنحها لشابٍ لم يعرفه إلا منذ فترة وجيزة. ومن المؤسف ومن العار أن تذهب

Twitter: @ketab_n

هذه التضحية، وأن تمر هذه الشجاعة مرور الكرام وأن لا يعرف عنها الناس وأن يجهلها المقربون من هذا الشخص العظيم. إن الدكتور معتز يستحق نظير ما قدّم أن يُكرّم ويُكتب اسمه بماء الذهب وأن يُخلده التاريخ، لا أن يرحل كما يرحل النكرات وعامة الناس. ولكن كيف سيُذكر اسمه وأنا أتخفى وأتجنب الظهور وأبتعد عن كل ما من شأنه لفت الأنظار! هل هذا ما يستحقه الدكتور معتز؟! وهل هكذا أكافئه؟! ألا يجب أن أقدم التضحيات كما قدمها لي؟! ولماذا أكون أنانياً مع من ضرب أروع الأمثلة في الكرم والجود؟! ولكن لحظة، لقد قال لي مازن بالأمس بأنّ الأنانية ستكون فيما لو عرّضت نفسي للخطر وللوقوع في أيدي العصابة مجدداً بعد أن خلصني منهم الدكتور معتز وكان ثمنُ ذلك حياته. فهل كان كلامه صحيحاً؟! ولكن لو فرضنا بأنّ...

وقطع تفكيري رنين الجرس ونظرتُ فوراً إلى الساعة وكانت التاسعة وتعجبتُ من سرعة مرور الوقت. وقمتُ بسرعة وتوجهتُ نحو الباب ونظرت من المرآة السحرية وإذا بمازن. وفتحتُ الباب، وقبل أن يدخل انفتح فمه عن آخره وارتفع حاجباه إلى الأعلى وهو يردد:

- لا لا لا. لا تقل لي بأنّ شعرك قد عاد مرة أخرى إلى اللون الأسود! ما الموضوع؟! هل بدأت هرموناتك تمارسُ لعبة ساخرة معك؟! وما التالي؟! هل سنرى في الغد لوناً مختلفاً؟! يا تُرى ما هو اللون الجديد؟ الأخضر أم الأزرق، بصراحة أنا أفضل لوناً جديداً يوحي بأصالتك وبتميزك... .اممم مارأيك بالكحلي؟! لونٌ جميل وجذاب هاه؟

Twitter: @ketab_n

واقترب من أذني وأكمل:

- هل تسمعينني ياهرمونات أحمد؟ نريدُ اللون الكحلي غداً فضلاً لا أمراً و...

دفعته وأغلقتُ الباب في وجهه وأخذ يضرب الباب من الخارج وهو يردد:

- أنا آسف، أنا آسف. لقد كنتُ أمزح معك. افتح الباب يا أحمد هناك أمرٌ هام؛ بحوزتي المظروف الذي تركه لك الدكتور معتز.

ماذا! المظروف؟. عدتُ إلى الباب وفتحته وقلتُ متوعدًا:

- لو سمعتُ كلمة «لون» منك في العشر سنوات القادمة، فسأقتلع لسانك!

ضحك مازن ودخل وهو يحمل بيده مظروفاً أخضراً، وقد بادرته بالسؤال قائلاً:

- يبدو بأنّك لم تذهب إلى عملك اليوم؟

- بل ذهبتُ وقد خرجتُ للتو؛ يوجد لدى إدارتنا العليا اجتماع سيستمر لمدة ساعتين وفكرتُ بأنّه لن يكون هناك ضرر فيما لو تسللت خلسة وجئتُ إليك.

وغمز بعينه وهو يبتسم، ومن ثم جلس على الأريكة وقال بجدية

Twitter: @ketab_n

وهو ينظرُ إليّ باستغراب:

- تبدو شاحباً وأحمر الوجه والعينين؟! هل كنتَ تبكي؟!

- كلا.

- بل كنت تبكي. ما السبب؟ هل هو الدكتور معتز؟

- لقد كنتُ أفكر فيه قليلاً. هذا كل شيء. والآن أعطني المظروف لو سمحت.

أعطاني إياه. ومن ثم نهض وقال:

- بالمناسبة، لا تأخذك الحماسة كثيراً، لا يوجد فيه شيء هام. كلها أوراق وفحوصات وبعض المعلومات التي لا تضر ولا تنفع. لربما كان عنوان الشخص المزور والمعلومات الكاملة عنه هي أهم ما يحتويه المظروف.

- ولماذا فتحته منذ البداية؟! إنّه لي، وكان يجب عليك أن تحترم خصوصيتي وتنتظرني أفتحه أنا أولاً ومن ثم أبلغك بعد ذلك إن كنتُ أسمح لك برؤيته ومعرفة محتوياته أم لا.

- لقد فتحته لدواع أمنية ليس إلا. تخيل لو كان يحتوي هذا المظروف على قنبلة موقوتة؟! كيف سنقدر على فراقك حينها؟

- دواعٍ أمنية؟! بل قل دواعٍ فضولية.

Twitter: @ketab_n

وابتسم مازن، في الوقت الذي أخذ يدور في الشقة ويتأملُ فيها كما لو كان مشتريًا حريصًا على شرائها. وقد كان محقاً فيما قال؛ فلم يكن يوجد في المظروف سوى أوراقٍ وتقارير طبية ونتائج الفحوصات والتحاليل والأشعة، بالإضافة إلى معلومات متنوعة وأرقام أخرى لم أفهمها كثيراً، غير أنّه كانت هناك معلومات مفصلة عن الشخص المزور وعن مقر إقامته وسُبل التواصل معه.

كنتُ منهمكاً في النظر وتقليب الأوراق على الطاولة وقلتُ من دون أن أرفع رأسي:

- بالمناسبة، كيف استطعتَ الحصول عليه بهذه السهولة من زوجة الدكتور معتز رحمه الله؟

ولمّا لم أتلقَ أي إجابة رفعتُ طرفي، فإذا بمازن يقف على رأسي ويحمل علبة الصبغة السوداء ويبتسم، وقلت فوراً بنبرة استنكار:

- من أينَ حصلتَ عليها؟! لماذا دخلتَ أصلاً إلى غرفة نومي من دون أذني؟

وقمتُ فوراً وأخذتُ العلبة منه وذهبتُ إلى غرفة النوم وأعدتها إليها ومن ثم عدتُ وأغلقتُ الباب وزفرتُ بعمق وأنا أردد:

- أعانني الله على فضولك و وقاحتك!

وردّ بطريقة استفزازية:

Twitter: @ketab_n

- أوه، كلا، لا تغلق الباب الآن؛ أريدُ أنْ أكملّ بحثي عن الصبغة البيضاء!

وانفجر ضاحكاً، وأحسستُ بغضبٍ عارم:

- أتعلم يا مازن، لو كان بيدي مسدس الآن ماذا كنتُ سأفعل؟

وقال وهو مايزال يقاوم ضحكاته:

- لا أدري، ربما ستصبغه باللون الأبيض!

- بل سأصبغه بلون دمك الأحمر!

- أخشى أن يكون لون دمي أبيضَ أيضاً. ماذا ستفعل حينها؟!

وازدادت حدة ضحكاته وأحسستُ بأنّه لا جدوى من استمرار هذا الحديث وآثرتُ الصمت. وبعد أن فرغ من الضحك وتمالك نفسه قال بنبرة معتذرة:

- لقد كنتُ أمزح معك يا أحمد. لا تغضب مني.

- لن أغضب، ولكن أخبرني عن الذي حدث معك بالأمس.

- لم يحدث الكثير، لقد دخلتُ إليهم معزياً ومكثتُ حتى رحل الجميع واقتربتُ من أخ الدكتور وأبلغته بأنّ أخاه قد أوصاني بأن أقصد منزله من أجل الحصول على مظروفٍ تركه لي. وذكرتُ له أوصاف المظروف كما أخبرتني والمكان الذي يوجد فيه. وقد سألتني زوجته

Twitter: @ketab_n

لاحقاً عن صلتي بزوجها وعن المرة الأخيرة التي رأيته فيها، فقلتُ لها بأنّني كنتُ أحد مرضاه وبأنه يوجد في المظروف تقارير وتفاصيل تتعلق بحالتي، وبأنني رأيته قبل وفاته بيومين...

- ولماذا لم تقل بأنّك قد رأيته في اليوم الذي مات فيه؟!

- لأنني يا ذكي سأكونُ شاهداً عندها وستطلبني الشرطة من أجل أخذ إفادتي، وربما من أجل التحقيق معي وقد يحدث مالا يُحمد عقباه!

- ألم يساور زوجة الدكتور أي شك حيالك؟ لا تنس أن زوجها قد قُتل وسيبدو مريباً أن يأتي شخص غريب في اليوم الثالث ويطلبُ الحصول على مستندات محفوظة لديه في خزنة.

- لحسن الحظ، فقد صادف أنّ كانت الزوجة موجودة حينما وضع المظروف في الخزنة وقد أخبرها حين سألته بأنّها تتعلق بحالة مريض عنده. وبالتالي لم تشك أو ترتاب ولو لِلحظة واحدة.

- هل رأيتها؟!

- كلا ولكنها كلمتني من وراء الباب.

- هل أخبرتها عن وصيته. وعن حبه لها ولابنتها؟!

تلعثم قليلاً ثم قال:

- نعم، أخبرتها بذلك.

Twitter: @ketab_n

وشعرتُ بأنه لم يقل الحقيقة، ولكن حانتْ انتباهة مني نحو الساعة وكانت العاشرة، وقد كنتُ أنوي الذهاب قبل هذا الوقت إلى منزل أسماء. وقمتُ من مكاني وقلت لمازن على عجل:

- شكراً لك على تكبدك عناء الحصول على المظروف. والآن، أنا على عجلة من أمري ويجب أن أخرج لأخذ ابني.

- ابنك؟!

قالها وهو يكاد لا يُصدق ما يسمع.

- نعم، ابني. لقد كانت فرصة سعيدة لي أن أراك اليوم.

قلتها وأنا أفتح باب الشقة أمامه وأنتظرُ منه أن يخرج. وتقدم مازن على مهل وأغلق الباب بيده من الداخل وقال بجدية:

- اسمع يا أحمد. أنا أتفهم رغبتك برؤية ابنك. وأعلم أن هذا حق من حقوقك، ولا يجدر بي أن أتدخل في شؤونك الخاصة. ولكن لا تزد الطين بلة. ولا تفتح لنفسك باباً من المشاكل يعود عليك بالويلات والثبور وأنا على ...

وقاطعته وأنا أفتح الباب أمامه:

- فرصة سعيدة. هل تسمح بالمغادرة؟

- مهلاً، دعني أكمل ما أريد قوله.

Twitter: @ketab_n

وأغلق مازن الباب مجدداً وأضاف:

- أنا لا أطلبُ منك أن تتخلى عن ابنك، ولكن أطلبُ منك أن تسمح لي بتولي الموضوع. وسأحضرُ لك ابنك سواءً رضيت بذلك أسماء أم لم ترضَ. ولكن ظهورك أمامها وبهذا المنظر سيثير الشبهات وسيُضعف موقفك كثيراً لا سيما لو اضطررت للتوجه إلى المحكمة.

وقلتُ متشككاً وبسخرية مُبطنة:

- ولكن لماذا أنت واثقٌ كل هذه الثقة من قدرتك على إحضار ابني؟ هناك فرق بين أن تجلب مظروفاً في خزنة وبين أن تنتزع طفلاً صغيراً من بين يدي والدته!

- لا عليك، سيكون الأمر أسهل من إحضار المظروف.

وابتسم. وسألته ونحن ما نزال واقفَين عند الباب:

- ولكن كيف؟!

- في الواقع إنّ موقف طليقتك في غاية الضعف، ولن تستطيع الصمود إطلاقاً؛ فقانونياً وبما أنها متزوجة من رجلٍ آخر فلا يحق لها أن تُبقي ابنك عندها إلا لو وافقتَ أنت على ذلك وهيَ تُدركُ ذلك جيداً ولهذا لم تخبرك بأمر هذا المولود. ناهيكَ عن أنّها كذبت وتلاعبت بشهادة الميلاد وأكملت الإجراءات من دون علم والد الطفل ولم تخبرك عن أنها كانت حاملا وعن أنك رُزقتَ بمولود، وهذا يُعد جريمة، ولن تمر مرور الكرام فيما لو رفعت دعوى عليها وسيكون أقل أحوالها

Twitter: @ketab_n

السجن لسنة أو سنتين. وحين أراها سأخبرها بكل ذلك وسأطلبُ منها أن تعطيني ابنك لأنك تريدُ أن تراه، كما أنني سأطمئنها بأنك لا تريد الإبقاء عليه عندك ولكن كل ما هنالك أنك تريد رؤيته والجلوسَ معه قليلاً وبأنّه سيعود إلى أمه في نفس اليوم. وهكذا لن يكون أمامها مجالٌ للرفض؛ فابنها سيعود لها وليس من مصلحتها أن تذهب القضية إلى المحكمة على الإطلاق. وهكذا سنستعيد الطفل وستحتفظ به أيضاً ولن تستطيع عندها أن تعترض لأنّها ستكون الطرف الخاسر بالتأكيد وقد ينتهي الحال بها في السجن، وستزدادُ حسرتها وألمها وستكون قد رددت حينئذٍ جزءًا من الدين الذي عليك تجاهها وجعلتها تذوق شيئاً من كأس العلقم الذي تفننتَ في تجريعك إياه.

كنتُ أستمع بانبهار ولم أستطع أن أخفي إعجابي مما سمعت وابتسمتُ وأنا أقول:

- لم يخطر هذا ببالي إطلاقاً. أتدري يا مازن، بأنك تمتلك عقلية إجرامية فذة! لقد بدأتُ أشك في وجود صلة قرابة بينك وبين نيكولاس نفسه!

وضحك مازن ورفع يديه عالياً –كما لو كان دُباً قطبياً– وقطّب جبينه وكأنه على وشك الهجوم عليّ، وقال بنبرة صوتٍ ضخمة:

- في الواقع أنا نيكولاس! ولأنك كشفت هويتي الآن فيجبُ عليّ قتلك!

وقد أجبتُ بسخرية:

Twitter: @ketab_n

- أتعلم، لقد انتابني شك في وجود علاقة بينك وبينه. ولكن بعد أن رأيتُ حركتك المسرحية هذه والتي تبدو فيها أشبه بغوريلا تائهة في الغابة أيقنتُ بأنّ معرفتك بالعصابات لا تزيد كثيراً على معرفتك بالوقت المناسب للزيارة.

وضحك مازن، ومن ثم خرج بعد أن أخبرني عن نيته الذهاب إلى منزل أسماء بعد العصر وبأنّه إنْ سار كلُ شيءٍ على ما يرام فسيكون عندي قبل المغرب. وقد ودعته بعد أن شكرته على حرصه واهتمامه. وعدتُ إلى غرفة نومي ورميتُ نفسي على السرير وأنا أفكر فيما سيحصل وفيما لو كان مازن قادراً على إقناع أسماء بأن تعطيه ابني. ولم أشأ أن أتفاءل أو أن أعوّل كثيراً عليه؛ إذْ كانت شكوكي قائمة حول جدوى الخطة. وكنتُ على استعداد بالتوجه إلى المحكمة فوراً فيما لو عاد مازن صفر اليدين!

لم يغمض لي جفن؛ كانت الهواجس والتخيلات تقلبني ذات اليمن وذات الشمال. كنتُ رغماً عني أتخيلُ ابني وهو بين أحضاني، وأتخيل الأيام والليالي التي سنُمضيها سويةً، وأتأمله وهو يكبر أمامي حتى يصبح في سنٍ يخوله الدخول إلى المدرسة. سأدخله مدرسة خاصة، ولن أكتفي فقط بالتعليم الذي يُقدم له هناك، بل وسأدرسه أنا بنفسي وسأنَمِّي مواهبه وأطوِّر قدراته ليصبح له شأن عظيم في المستقبل. وسأكون له أباً وأما في الوقت نفسه، وسأحنُّ عليه وألبي كل رغباته حتى وإن جعله ذلك ينشأ مدللاً ومترفاً، فأنا لن أقاوم الشعور بالذنب ولن أستطيع أن أرد طفلي وفلذة كبدي خائباً. سيصبح ملكاً

Twitter: @ketab_n

هنا، وسيكون الآمر الناهي.

وفجأة انتبهتُ إلى شيءٍ غاب عن بالي؛ أين سينام وماذا أعددتُ له ترحيباً بقدومه؟! ونهضتُ فوراً وارتديتُ ثوبي وتوجهتُ نحو السوق قبل أن تُغلق المحلات عند استراحة الغداء في الساعة الثانية ظهراً. وعُدتُ بعد ساعتين، وأنا أحمل عدداً من العُلب والكراتين، ومن ثم عدتُ مجدداً إلى السيارة وصعدتُ بالسرير الذي كاد أن يتسبب في انخلاع كتفي؛ نظراً لوزنه الثقيل وأنا أصعد به الدرج. وقد وصلتُ بعد عناء، ووضعتُ سريره الخشبي الصغير بجانب سريري ووضعت فيه الفراش والوسادة والملاءة السماوية التي رُسم عليها قلوب صغيرة حمراء اللون. و وضعت فوق السرير الحامل البلاستيكي، وعلقتُ عليه عدداً من الكرات الصغيرة القطنية والأجراس التي كانت على شكل الشخصية الكارتونية الشهيرة (ميكي ماوس) بالإضافة إلى مصابيح صغيرة على شكل نجماتٍ خماسية تُضيء في الظلام. وفي غرفة المعيشة، قمتُ بنفخِ عددٍ من البالونات الملونة، ونثرتها حول المكان مع الكرات البلاستيكية والقطنية المتنوعة الأشكال والأحجام والألوان. و وضعتُ فوق الطاولة الألعاب التي اشتريتها وكان من بينها ألعاب تركيب ومجسمات مختلفة على أشكال سيارات وحيوانات.

وقد مرّت علي الساعات على أحر من الجمر، ولم يتبقَ على حلول المغرب سوى دقائق معدودة. كان الضغط والتوتر والقلق يزداد مع تقدم الساعات ويقوى مع تصرم اللحظات. كنت أقطع الشقة جيئة وذهاباً، وأخرج تارة من الباب وأمشي في الممر الخارجي المشترك بين

Twitter: @ketab_n

جميع الشقق، بل وربما نزلتُ أحياناً إلى الدور الأرضي وبدأتُ في المشي في الشارع الذي تقع عليه العمارة مُحاولاً تقصي سيارة مازن من بين السيارات. كنتُ أشعر برجفة وقشعريرة تسري في جسدي، ورحت أقضم أظافر يدي بقلق.

لمَّا اقترب هبوط الظلام دخلتُ الشقة واستلقيتُ على السرير واليأس قد بدأ يتسرب إلى نفسي شيئاً فشيئاً. وقد رُفع أذانُ المغرب وصليتُ في المسجد المجاور، وعدتُ مجدداً إلى شقتي، واقترب وقت صلاة العشاء ولم يزل مازن غائباً ولا أثر له. وقد أيقنتُ حينها بأنّ المهمة قد فشلت، ولا بد من أنّ أسماء قد رفضت إعطاءه ابني، وإن كانت قد استطاعت إتمام إجراءات الولادة مرة عن طريق زوجها فلن يعجزها أن تستعين به ليطلب من معارفه أن يتدخلوا مرة أخرى وهذه المرة من أجل أن تحتفظ بولدي معها إلى الأبد!

كنت على حافة الانهيار، وقد انتقلتُ من مرحلة اللهفة والترقب إلى مرحلة الخيبة والإحباط. وفي هذه اللحظة بالذات رنّ الجرس، وقفزتُ على الفور وتوجهتُ إلى الباب وفتحته مباشرة من دون أن أنظر إلى العين السحرية فقد وصلتُ إلى حالةٍ من اليأس والتسليم بالأمر الواقع جعلني معه لا آبه بما سيحصل. وحين فتحتُ الباب وقفتُ مشدوهاً ولم أستطع أن أتحرك عن مكاني؛ لقد رأيتُ أجمل منظرٍ في حياتي، وشعرتُ بأنّ روحي حلقت بعيداً عن هذه الدنيا وحطت في السماء. كان يقف أمامي بجسمه الممتلئ الذي ينبض حيوية، وبوجهه المستدير الأبيض، وبعينيه الواسعتين اللتيْن كانتا كنهرين عريضين قد

Twitter: @ketab_n

انتصفت فيهما سفينتان سوداوان بشموخ وإباء، وبأنفه الجميل الذي كان أشبه بسارية علم رقيقة ترفرف خفاقة فوق قمة جبل ثلجية، وبخديه الورديّيّن اللذيْن اللذان كانا كزهرتي «أوركيد» حمراوين قد برزتا وسط حقلٍ مليء بزهور النرجس البيضاء. وبشعره الأسود المُمشط بعناية كخيوطٍ سوداء حريرية تخلب الأبصار. وكان يرتدي ثوباً صغيراً ناصع البياض أظهره كملاكٍ صغير نَزل إلى الأرض. كان يقف وهو يُمسك بيده الصغيرة إصبع مازنً السبّابة بجواره، وينظرُ إليّ ببراءة بالغة.

جثوتُ بركبتيّ على الأرض واحتضنته بشدة وبدأتُ في تقبيله وأنا أبكي بحرارة؛ نعم لقد علمتُ الآن بأنني كنتُ أكابر في الدقائق الماضية، فأنا لن أستطيع العيش بدونه، ومهما تظاهرتُ بعدم الاكتراث فهو لم يكن سوى خوف المُحب وتعليل العاشق وسُلوان المكلوم.

حملتُ ولدي على صدري وأدخلته الشقة وهو ينظرُ إليّ باستغراب وشعرتُ بأنّه على وشك البكاء، لربما كانت عاطفتي مبالغاً فيها بعض الشيء بالنسبة له ولعل احتضاني له كان أشد من احتضان سائق الأجرة الأفغاني لي! وابتسمتُ في وجه ابني وسألته بتطلف:

- ما اسمك ياحبيبي؟

لم تتحركِ شفتاه. وظل ينظر إليّ بحيرة. وقد أخذتُ قطعة حلوى كنتُ قد اشتريتها خصيصاً له وأغريته بها بشرطِ أن يخبرني باسمه. ولم تكن سوى لحظات قبل أن ينطق فمه الصغير بصوتٍ عذب

Twitter: @ketab_n

وبنبرة تجسد معنى الطفولة:

- حـ سّ... حسّونِي.

ولم يكد يُكملها حتى احتضنته مجدداً وأنا لا أستطيع منعَ نفسي من التبسم، وطبعتُ قبلة حارّة على خده وأعطيته الحلوى قائلاً:

- لقد استحقيتها الآن يا حبيبي بكل جدارة.

وأخذها وبدأ يقلبها بين يديه ويحاول عبثاً أن يُزيل لفافة البلاستيك التي تُغلفها، وسط تلذذي واستمتاعي برؤية مشهدِ محاولاته الدؤوبة، إلى أن نظر لي أخيراً مستجدياً مساعدتي من دون أن يتكلم غير أنّ عينيه باحتا بما يعجز أبلغ الخطباء عن التعبير عنه بمثل هذه القدرة والبيان والتأثير! ولم أقاوم هذا السحر، وفتحتها له فوراً وأعطيتها إياه وبدأ يلعقها باستمتاعٍ بالغ. وبينما هو كذلك نظرتُ إلى مازن متسائلاً:

- حسون؟

ابتسم مازن وقال وهو يبدو متأثراً بما رأى:

- عبد المحسن.

- سبحان الله! لقد كنتُ أكره هذا الاسم بسبب جارنا السابق الفضولي أبوعبدالمحسن، ولكن الآن بِت أعشق هذا الاسم إلى حد الثمالة!

Twitter: @ketab_n

قلتها وأنا أنظر إلى حسون نظرة مليئة بالحب والهيام وهو في غاية الاندماج والانهماك بقطعة الحلوى، حتى خُيّل إليّ بأن الحلوى هي من كانت تتلذذ به وليس العكس.

قضيتُ الليل بطوله معه. لعبنا سوياً، وضحكنا سوياً، ولم يبدُ عليه إطلاقاً أي نفور أو حزن أو عدم ارتياح. كان يبدو وكأنه قد وجد أخيراً منزله، وكأنه قد حط رحاله بعد أن أمضى ثلاث سنوات وأشهراً في شتات وضياع. ولم يُبقِ أي لعبة للغد، ولم يؤجل فتح أي علبة للمستقبل، بل فتح الجميع ولعب في كل الألعاب التي اشتريتها، وكأنه كان ملكاً عادلاً يوزع الهبات بين رعيته أو كأنه كان حمامةً حانية تُطعم صغارها المتحلقين حولها الواحد تلو الآخر دون تمييز. وقد أخذ يلعب بالكرات ويصوّبها تارة عليّ وتارة على مازن وفي كل مرة كنا نتبادل الضحكات ونُعيد له الكُرَات لكي يعيد الكَرّات ويكرر المحاولات. وكان يقذفُ بالبالونات الملوّنة عاليا في الهواء ويتقافز حولها ويجوب أرجاء الشقة مطارداً لها حتى إذا ناله التعب والإعياء جاء إليّ مُسرعاً وألقى بنفسه عليّ وجعل من حضني له ملاذاً ومُستراحاً يتزودُ به بالراحة والحنان قبل أن يبدأ السعي وراء لعبة أخرى وخلف مطاردة جديدة.

تلك الليلة كانت هي ليلتي الوحيدة التي شعرتُ فيها بالسعادة والانتماء. كانت الليلة التي أحسستُ فيها بالحب الصافي وبالعشق النقي الطاهر وبالحنان الأبوي المتدفق. تلك كانت الليلة الوحيدة التي أحسستُ فيها بأنّ لحياتي قيمة ولعيشي معنى، وبأنّ كل شيء بذلته، وبأن كل معاناة خُضتُ غمارها، وبأنّ كل معركة قاتلتُ فيها، وبأنّ كل

Twitter: @ketab_n

حربٍ خرجت منها جريحاً ومكلوماً، كانت تستحق مني كل ذلك في سبيل الوصول إلى هذه اللحظة الكاملة وإلى هذا الشعور العارم بالفرح والحبور وبالهناء والسرور. نسيتُ كل آلامي، وتجاوزتُ كل عثراتي وأحزاني، وخُيّل إليّ بأنّ حياتي كانت كلها أفراحًا وسعادة، وبأنني لم أذق طعم الأسى والخذلان ولو لمرة واحدة منذ أن أبصرت عيناي النور. وأدركتُ بأنّ حياتي الحقيقية قد بدأت للتو، وبأنّني لم أولد إلا الآن، وأنّ جميع السنين الماضية كانت بمثابة حُلمٍ عابر أو حتى كابوس مزعج ولم أستيقظ منه إلا في هذه الليلة.

تناولنا طعام العشاء، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة. وقد بدأت تخور قوى فلذة كبدي حسّون؛ بعد أن قضّى ليلة حافلة بالجري والقفز والحركة المستمرة. وابتسمتُ وأنا أراه يقاومُ سكرات النوم، ويصارع هجمات النعاس. وأخذنا نتبادل الابتسامة أنا ومازن ونحن ننظرُ إليه وهو على هذه الحال من السكينة الآسرة ومن السلام الأخاذ. وقد ذهبتُ إلى غرفة النوم من أجل أن أتفقد سريره الجديد ولكي ألقي نظرة على المكان من أجل أن أطمأن بأنّه قادرٌ على أن يحتضن وأن يحتوي بين جدرانه على ملاكي الصغير. وأشعلتُ الإنارة في الغرفة، وبدا بأنّ كل شيء على مايُرام. وقبل أن أخرج نظرتُ نظرة عابرة إلى المرآة، حيث توقفتُ أمامها طويلاً، ومكثتُ متصنماً قبالتها بلا حراك. وظللتُ كذلك إلى أن طرق مازن الباب متعجباً:

- أحمد، ما الذي أخرك؟! هل ينبغي أن يأخذ تجهيز الغرفة كل هذا الوقت؟

Twitter: @ketab_n

لم أجب عليه. واكتفيتُ بإيماءة من رأسي وأنا أتجه نحو الباب، قبل أن يُضيف وهو يقلب عينيه في أرجاء الغرفة:

- تبدو الغرفة مثالية، هل تريدني أن أحضر حسّون إليك؟ لقد نام على الأرض منذ عشر دقائق!

استجمعتُ قواي، وحشدتُ عزيمتي الخائرة، ورصفتُ صلابتي المتهالكة. وزفرتُ زفرة عميقة وأطلقتُ من فمي أصعب وأتعس وأشقى وأمرّ كلماتٍ قلتها منذ أن تعلمتُ النطق والكلام:

- سينام عبدالمحسن عند أمه الليلة. أريدكَ أن تعيده إليها.

وقال مازن باستغراب:

- أتقصد هذه الليلة فقط؟

أغمضتُ عينيّ:

- الليلة وكل ليلة.

عقدت الدهشة لسان مازن عن الكلام. ومن ثم بعد برهة أخذ يردد:

- ولكن، ولكن لماذا!؟ لماذا!؟ يا أحمد. أنا حقاً لا أفهم!

قلتُ بنبرةٍ جادة تنضح بالأسى ولم تكن موجهة إلى مازن فقط،

Twitter: @ketab_n

بل وكانت موجهة في المقام الأول إليّ وإلى قلبي:

- لا أريدُ أن أكون أنانياً؛ من حق عبدالمحسن أن يعيش طفولة طبيعية. ومن حقه أن ينعم بحياة اعتيادية لا يشوبها الخوف أو الشذوذ والغرابة. ومن حقه أن يعيش بجوار أم حانية يراها تكبر أمامه وتهرم كلما كبر وتقدم في السن. سيكونُ عاراً عليّ وتفكيراً بمصلحتي الشخصية فقط إذا قررتُ أن أربيه أنا أو جعلته يتعرف عليّ. ليس من العدل ولا من الإنصاف أن يتقدم ابني في السن وأن يشيخ وأنا مازلتُ أنعم بشبابي وعالقاً في فترة المراهقة. لا أريدُ لهذا الملاك أن يعاني من أي عقدٍ نفسية أو صراعات داخلية بسببِ رغبةٍ أنانية من أبيه.

صمت مازن قليلاً ثم قال:

- أحيي فيك عقلانيتك ورباطة جأشك وصلابتك. لقد قدمتَ للتو تضحية هي أعظم من تلك التضحية التي قدمها لك الدكتور معتز.

وأومأتُ برأسي من دون أن أنبس ببنت شفه. وقد حمل مازن ولدي من على الأرض وأسند رأسه الجميل على كتفه، وقبل أن يهم بالخروج نظر إلي نظرة أخيرة مستشيراً إياي:

- هل أنت واثق من أنك تريد هذا؟

وأومأتُ برأسي مجدداً.

- ألا تريدُ أن تودعه؟

Twitter: @ketab_n

وهززتُ رأسي بالنفي، وخرج من الشقة وأغلقتُ الباب من خلفه. وجريتُ سريعاً نحو غرفة النوم وأغلقتُ البابَ لكيلا يصل صوتي إلى الخارج، حيث انفجرتُ باكياً ولم أستطع من شدة البكاء أن أصل إلى السرير وأن أكمل بكائي ونحيبي عليه. لطالما كنتُ هشاً، ومتضعضعاً، ومُثخناً بالجراح حتى إذا أتت اللحظة الوحيدة التي كانت لتعلن عن عودتي قوياً وصلباً ومعافًى وجدتُ نفسي مُجبراً على تركها والسير بعيداً عنها.

بكيتُ بكاءً مريراً. بكاءً لم أبكِ مثله من قبل. وظللتُ ساقطاً بجوار السرير وقلبي يكاد أن يتقطع وحلقي قد جف ودموعي قد فرغت وصوتي قد بُحّ، غير أن بكائي لم ينقطع ولم يتوقف ولو لوهلة حتى طلع الصباح.

لم أودع ابني فقط. بل ودعتُ قطعةً مني. ولم أفارق جسمه وروحه فحسب بل وروحي معهما أيضاً. وأحسستُ بأنّ جزءًا مني قد مات للتو. وبأنّ لا شيء سيعود كما كان عليه أبداً..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خمسٌ وستُونَ.. في أجفان إعصارِ

أما سئمتَ ارتحالاً أيّها الساري؟

أما مللتَ من الأسفارِ.. ما هدأت

إلا وألقتك في وعثاءِ أسفار؟

أما تَعِبتَ من الأعداءِ.. مَا برحوا

يحاورونكَ بالكبريتِ والنارِ

والصحبُ؟ أين رفاقُ العمرِ؟ هل بقِيَتْ

سوى ثُمالةِ أيامٍ.. وتذكارِ

بلى! اكتفيتُ.. وأضناني السُّرى! وشكا

قلبي العناءَ!... ولكن تلك أقداري

«غازي القصيبي»

Twitter: @ketab_n

- أفهم من كلامك هذا بأنّه قد مضى على هذه الأحداث وعلى تخليك عن ابنك أربعة وثلاثين سنة. أليس كذلك؟

- بلى. كما قلتُ لكِ مسبقاً فقد وقعت هذه الأحداث المحورية في عام 1978 ميلادي.

- اممم قصة مثيرة.

- شُكراً لك، ولكن الأهم من ذلك هل تصدقينها أم لا؟

- وهل يُفترض بي أن لا أصدقها؟

- لا أدري. ولكنني لم أظنكِ ستستسيغينها بهذه السهولة. لاسيما وأنكم أنتم معشر الأطباء النفسيين لا تؤمنون ولا تعتقدون بوجود أمور خارقة وعوالم ما وراء الطبيعة. ودائماً تلجأون للتفسيرات والتعليلات المنطقية المستساغة، وترفضون كل ما هو غير مُعتاد أو مألوف.

- تلك نظرة نمطية وليست صحيحة دائماً.

قالتها الدكتورة أبرار بابتسامة واثقة وهي تجلس على كُرسي مُتحرك من الجلد الأسود، خلف مكتب خشبي فاخر قد صُفت فيه الملفات والأوراق بعناية وبانتظام. وكان على الطاولة تقويم موضوع على الجانب الأيمن وعلى يسار الدكتورة كان يوجد شاشة حاسب آلي. وكان المناخ العام في الغرفة مُريحاً ومُحفزاً للحديث؛ فالستائر الحمراء الداكنة، والجدران المطلية باللون السماوي، والمزخرفة من الأعلى بنقوشٍ بيضاء اللون، بالإضافة إلى الإضاءة البيضاء الهادئة،

Twitter: @ketab_n

والتكييف المعتدل قد أضفوا جميعهم على الغرفة بهاءً وتناغماً مذهلاً.

أخذتُ كأس الماء الذي كان على الطاولة الزجاجية أمامي وارتشفتُ بضع رشفاتٍ منه، ومن ثم قلت:

- أتعلمين يا دكتورة بأنّ هذه هي المرة الأولى التي أخبر فيها أي شخص عن قصتي هذه. إنّ من يعرفها فقط في هذا الكوكب شخصٌ واحد فقط وهو مازن. وكان يعرفها في الماضي الدكتور معتز رحمه الله. وربما كان يعرفها المزور، لستُ على يقين بذلك.

- ولكن لماذا تُخبرني أنا بالذات؟ هل لأنك تبحث عن علاجٍ مُعين؟! أم لأنك لا تشعر بالارتياح من الناحية النفسية؟

- لا هذا ولا ذاك. لقد أمضيتُ سنوات حياتي في وحدة وانعزال؛ حتى بالرغم من أنني كنت أعمل بل وتنقلتُ في العديد من الوظائف والشركات، وتعرفت والتقيتُ بالعديد من الأشخاص، ومع أنّ علاقاتي كانت سطحية ومؤقتة، حيث أنني كنت أقوم بتغيير أوراقي وهوياتي بشكل مستمر ولم أكن أمكث في الوظيفة الواحدة أو السكن الواحد أكثر من أربع سنين، إلا أنني كنتُ أشعر بأنّ هناك ثقلاً كبيراً على كاهلي، وبأنّ هناك حِملاً مُنهكاً يؤرقني. ولم يكن يواسيني ويسليني ويشد من أزري في السنين الماضية سوى صديقُ عمري أبي فهد. وكما تعلمين فإنّ ماحدث في الأسبوع الماضي بيني وبينه كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي، وذلك بعد أن لاقانا صديق ابنه عبدالله في المطعم ومن ثم حصلت بقية الأحداث التي أخبرتكِ عنها. ولقد مضى خمسة أيام على لحظة خروج مازن من بيتي وهو

Twitter: @ketab_n

مُغضب، ولم يتصل بي أو يزرني منذ تلك اللحظة. لقد كان كلامي جارحاً ومُحبطاً بالنسبة له. ولكن كان لابد لي من أن أقدم على هذه الخطوة حتى وإن لم أكن أرغب بها؛ فأبوفهد الآن أصبح شيخاً هرماً، ولديه أسرة وأبناء وأحفاد أيضاً ولقد تحمل عبئي ومشاكلي على مدى نصف قرنٍ من الزمان، وقد آن له أن يستريح وأن يتفرغ لشؤونه وشؤون أسرته، وهو لا يستحق بعد كل ما قدّم لي أن أكافئه وأجازيه بتشويه صورته أمام زوجته وأبنائه.

وابتلعتُ ريقي وأخذتُ نفساً عميقاً ثم واصلتُ حديثي:

- لقد شعرتُ بأنّني بحاجة ماسّة إلى الحديث. كنتُ على وشك الانفجار، وكان لابد لي من أن أبوح بما في خاطري وبما يجول في مخيلتي إلى شخص أثق به وأطمئن بالحديث إليه. وأخذتُ أفكر في من يجب عليّ أن أتوجه إليه. وقد فكرتُ كثيراً ولكن لم يهدني عقلي إلى أي شخص مناسب. وبينما كنتُ أتصفح الجريدة وقع ناظري على إعلانٍ عن إقامة دورات في مركزكم الطبي. وبعد أن قرأتُ الإعلان بتمعنٍ وجدت أنكم أيضاً تتيحون للراغبين إمكانية الخضوع لجلسات نفسية مع عدد من الأطباء. وقررتُ بالتالي بأنّه إن كان يجدر بي أن أتحدث مع أي أحد فلن يكون هناك أفضل من الحديث مع طبيب نفسي. وهكذا قررتُ التوجه إلى المركز الطبي، وبعد أن دخلت، أخذتُ أتأمل بعناية قائمة أسماء الأطباء الموجودة، وشعرتُ بارتياح بعد أن قرأت اسمك من بين الأسماء، وطلبتُ من موظف الاستقبال أن يحجز لي موعدًا معك.

كانت الدكتورة أبرار تضع وشاحاً أسود اللون يُغطي شعر رأسها

Twitter: @ketab_n

بالكامل، وكانت ترتدي معطفاً أبيض اللون. وكانت تنظر إليّ باهتمام شديد وتُدوّن الملاحظات بين الفينة والأخرى. وقد ابتسمتْ بعد سماعها لمقولتي الأخيرة وعلقت قائلة:

- أبرار الصافي. صدقني يا أحمد لستَ أنتَ أول من انجذب إليه.

- أصدُقك القول بأنّني شعرتُ بجاذبية غريبة لا تفسير لها عندما رأيتُه في القائمة.

- بل يوجد لها تفسير؛ فالأسماء تلعب دائماً دوراً هاماً في ارتياحنا وقبولنا لشخص معين أو لرفضنا ونفورنا منه. فمثلاً، حينما ترغب بالبحث عن مُربّية لأطفالك، وتجد أمامك امرأتين، الأولى اسمها نانسي وهي في غاية المهارة والكفاءة ولديها سجلٌ حافل في مجال تربية الأطفال ورعايتهم، والثانية اسمها فاطمة وهي أقل مهارة وكفاءة وسجلها ليس بجودة وتميز المربية الأولى، نجد بأنّ اختيارك سيقع على فاطمة، وهذا يحصل مع معظم الناس. وفي المقابل فلو كان هناك مدير شركة كبرى ويبحث عن سكرتيرة له فسيكون لنانسي حظٌ أوفر بكثير من فاطمة في أن تحظى بهذه الوظيفة. والسبب يرجع في ذلك إلى التصورات والمفاهيم التي علقت في أذهاننا واستقرت في عقلنا الباطن. فاسم نانسي يوحي لنا بفتاة جامحة ومثيرة، في حين أن اسم فاطمة يُشعرك بأنّ صاحبته امرأة محافظة وملتزمة، وقسّ على ذلك. وحين رأيتَ أنتَ اسمي بين القائمة، وجدتَ أن الجزء الأول منه «أبرار» مأخوذ من البر، ورجلٌ في مثل سنك.. امم.. بالمناسبة كم عمرك الآن؟

Twitter: @ketab_n

قالتها وهي تبتسم. وأجبتُ فوراً:

- خمسٌ وستون سنة.

وابتسمتْ مجدداً:

- إذاً فأنتَ في سنِّ والدي. أيجدر بي أن أناديك بأبي؟

ضحكتُ وقلت:

- لا داعي إلى ذلك، أحمد سيكون مناسباً.

- ماذا عن كُنيتك؟ أتريد أن أناديك بأبي عبدالمحسن؟

تجهمتُ وقطبت جبيني:

- قلتُ لكِ، أحمد يكفي.

وتلعثمتْ قليلاً وقد أحسّتْ بعدم ارتياحي:

- أنا آسفة لم أقصد إزعاجك. حسناً يا أحمد، لنعد إلى ماكنا نتحدث عنه، الجزء الأول من اسمي أبرار وهو من البر وكل شخص يبحث عن البر لاسيما حينما يتقدم في السن. والجزء الثاني منه «الصافي» وهو مشتق من الصفاء والعذوبة والنقاء. وبالتالي فقد انجذبتَ لا شعورياً وأسرتك المعاني التي يُوحي بها الاسم. بالإضافة إلى أنّك قد بُحت بمعلومات وقصص وأخبرتني عن شخصيات وأحداث حساسة وخطيرة لم تخبرً بها أي شخص من قبل. وكان منً الطبيعي

Twitter: @ketab_n

أن تثق بالمرأة أكثر من الرجل في هذا الأمر، لاسيما وأنّ النساء يملن إلى التصديق والاقتناع والتسليم بما يسمعنه ويرينه أكثر من الرجال.

وضحكتُ وقلت:

- ويملن إلى إفشاء الأسرار أيضاً.

وضحكتْ هي بدورها وأردفت قائلة:

- نظرة نمطية أخرى.

واستدركتُ حديثي قائلاً:

- في الواقع يا دكتورة أبرار، لا أخفيك بأنني لستُ مقتنعاً كثيراً بتلك المقولة، بل وعلى العكس تماماً فأنا أَظن بأنّ النساء أشد كتماً للسر من نظرائهنّ من الرجال. والشواهد والأمثلة كثيرة على ذلك. ولكن لأنّ المجتمع الذي نعيش فيه ينظر نظرة دونية إلى المرأة فهو لا يتردد ولا يتوانى في أن يصفها وأن يجعلها مضرب المثل في عدم القدرة على الاحتفاظ بالسر. ولا أظن بأنّ هذا التصور السقيم عن المرأة في مجتمعنا قد جاء إلا منذ فترة قريبة لاسيما وأنّ هذا التصور لم ينص عليه الشرع ولم يتعارف عليه العرب في الجاهلية، بل وحين نزل الوحي للمرة الأولى على النبي صلى الله عليه وسلم وعاد فزعاً إلى البيت وقال: «دثروني دثروني» نجد بأنّه لم يكتم السر ولم يحتفظ به لنفسه بل وأخبره فوراً زوجته خديجة رضي الله عنها، وهكذا كان دأبه في شأنه كله عليه الصلاة والسلام.

Twitter: @ketab_n

- دعني أختلفُ معك في ذلك، فمع أنني امرأة، ويسرني كثيراً ما قلته، ولكن من الناحية والمنظور النفسي، نجد بأنّ المرأة نظراً لطبيعتها وتكوينها هي أكثر ميلا لإفشاء السر من الرجل. وبالمناسبة، فقد أجريت دراسة موسعة ونُشرت في أواخر عام 2009 في العديد من الصحف البريطانية، وكانت هذه الدراسة قد شملت ثلاثة آلاف امرأة بريطانية، وقد توصلت هذه الدراسة إلى أنه مهما بلغت أهمية وحساسية المعلومة أو السر فإنّ المرأة ستفشيه وستبوح به خلال فترة لا تتجاوز 48 ساعة. وبأنّ ثلاث نساء من كل عشر يشعرن برغبة ملحّة في إزالة هذا الحمل الثقيل وفي إفشاء السر. ولذلك نلاحظ بأنّ المجلات الفنية والتي تختص بنشر الشائعات والفضائح عن المشاهير تلقى رواجاً واسعاً بين الفتيات. والعلاقة بين الأسرار وبين الفضائح هي علاقة طردية ولا وجود لأحدهما في الغالب بدون الآخر.

- على أية حال، مازلتُ أعتقد بأنّ كلا الطرفين -الرجال والنساء- يوجد فيهما من يُفشي الأسرار ومن هو قادر على الاحتفاظ بها وكتمانها.

- نعم هذا صحيح، ولكن بشكل عام، لا نستطيع أن نحصر مسألة إفشاء المرأة للسر بمجتمعنا فحسب، بل إنّ هذا التصور يكاد يكون شائعاً ومتأصلاً في معظم الثقافات والمجتمعات.

والتقطتْ أنفاسها وأخذتْ تنظر في الدفتر الذي تدون فيه الملاحظات، ومن ثم رفعتْ رأسها وبدأتْ تنظرُ إليّ وقالت:

- مهما يكن، دعنا من هذا الآن، لنتحدث عنك، يوجد أمرٌ

Twitter: @ketab_n

يُحيرني حيالك.

- ماهو؟

- ما استعصى عليّ فهمه هو السبب الذي أدى إلى عدم ظهور العصابة منذ عام 1978 وحتى يومنا هذا؟ هل اختفوا من تلقاء أنفسهم؟!

- كلا لم يختفوا. لكنّني كنتُ حذراً جداً، فبعدما عاد ابني عبدالمحسن إلى أمه شعرتُ بحزنٍ بالغ وبيأسٍ كبير، ومررتُ بحالٍ مشابهة لتلك الحال التي مررتُ بها بعد وفاةِ والديّ. لم أكن أخرجُ إلا إلى المسجد أو السوق ومن ثم أعودُ مجدداً إلى الشقة. ومكثتُ على هذه الحال عدة سنوات. ولم أكن أرى خلالها أو أتحدث مع أي شخص سوى مازن. ونظرا لحذري البالغ لم يستطيعوا التعرف إليّ أو التوصل إلى مكان إقامتي. وحذري هذا لم يكن في أول الأمر نابعاً من الحرص على مصلحتي وسلامتي، ولكن لأنّ رؤيتي لابني أحزنتني وأقضّت مضجعتي وحرمتني من النوم فترة طويلة. لقد فقدت في تلك الفترة جزءًا كبيراً من وزني، وعلاني الهزال والشحوب. حتى أقنعني مازن بعد فترة طويلة بالبحث عن وظيفة والخروج من الحال المأساوية التي كنتُ عليها.

- وهل تمكنت من الحصول على وظيفة بالأوراق والوثائق المزورة؟

- نعم، لقد كانت مُتقنة بشكل كبير. كما أنني لم أكن أتوجه إلى الوظائف الحكومية، بل كنت أقصد القطاع الخاص وأبحث عن عملٍ

Twitter: @ketab_n

في الشركات المملوكة لأفراد وليست تابعة للدولة. كما أنّ تنقلي المستمر ساهم في تقليل الشكوك وعدم انكشاف حقيقتي. ولكن الأمر الذي أنا على ثقة به هو أنّهم مازالوا يبحثون عني، أو لنقل بشكلٍ أدق بأنّهم بحثوا عني لفترة من الوقت لاسيما في السنوات الأولى التي تلت وفاة الدكتور معتز.

- وما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟ ربما كانت تلك محض أوهامٍ وتخيلات؟!

- كلا لم تكن أوهاماً. فبعد مرور أشهرٍ معدودة على وفاته تعرض منزل الدكتور معتز للسرقة. وبعدها بفترةٍ وجيزة، تعرض المستشفى الذي كان يعملُ فيه للسرقة أيضاً والغريب في الأمر أن اللصوص لم يسرقوا أشياء ثمينة، بل كان كل ماسرقوه ملفات وأرشيفات وسجلات المرضى. كما أنّهم وجدوا إحدى الممرضات اللاتي كن يعملن مع الدكتور معتز مقتولة في المستشفى، بالإضافة إلى أنني...

قطع حديثي صوت طرقٍ على الباب، حيث دخلت ممرضة «فلبينية»، وقامت الممرضة بإعطاء بعض الملفات إلى الدكتورة أبرار وأخذا يتبادلان الحديث باللغة الإنجليزية، قبل أن تخرج مجدداً. وقد أخذتْ تقلب الدكتورة الملفات وتتفحصها بعض الوقت ومن ثم رفعتْ طرفها إليّ، وبادرتني بالسؤال:

- هل مازلتَ تعمل إلى حد الآن؟

- لا لقد انقطعتُ لبعض الوقت منذ آخر وظيفة عملتُ بها. ولكن

Twitter: @ketab_n

مؤخراً كما أخبرتك في بادئ الأمر، انضممتُ إلى شركة جديدة، وتم تعييني فيها بصفة رسمية. وسأباشر العمل بها بدءًا من يوم السبت القادم.

كانت أبرار تنظر إليّ بتمعن، وكانت تُحدق النظر لفتراتٍ طويلة، وتدون في دفترٍ معها بعض الملاحظات قبل أن ترفع رأسها وتعود للتأمل مجدداً. ومن ثمّ استأذنتْ مني و نهضتْ من كرسيها وخرجتْ من الغرفة وبيدها الملفات التي كانت قد جلبتها الممرضة إليها. وقد راودتني فكرة حينها بأنّ أسترق النظر إلى الدفتر الذي كانت تكتب فيه. وكانت نفسي تحثني تارة للنظر، وتحذرني تارة أخرى من مغبّة الإقدام على هذه الخطوة. وبينما أنا كذلك، عادت أبرار للغرفة واعتذرت بلباقة، ومن ثم جلستْ وأخرجت هاتفها الجوال ووضعته أمامها على الطاولة وسألتني:

- الجزء والموضع الأكثر إبهاماً وغموضاً في قصتك يا أحمد هو قضية التزوير. هل مازلتَ تلتقي بالمزوِّر إلى يومنا هذا؟ وفيما لو كان هذا صحيحاً، فكم سيبلغ عمره الآن؟ مائة سنة؟!

قالتها وهي تبتسم. وقد أجبتُ بنبرة جدية:

- في الواقع لم ألتقِ بالمزوّر منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة. كما أنّه قد فارق الحياة منذ عشر سنوات. وبالمناسبة لو أخبرتك باسمه فستعرفينه على الفور، كما أنك لن تصدقينني؛ فهو أشهر من نارٍ على علم ويعرفه القاصي والداني.

Twitter: @ketab_n

ارتفع حاجباها وهي تومئ برأسها بتعجب واهتمام. ولمحتُ في عينيها شغفاً كبيراً لمعرفة هويّة الرجل، وشعرتُ بأنّها تصارع نفسها من أجل أن تحاول الظهور بمظهر غير المهتم. وقد سكتَتْ لبعض الوقت وكأنها كانت تنتظر مني مواصلة حديثي، ولما شعرَتْ بأنني قد قلتُ كل ما لديّ قالت وخيبة الأمل بادية على محياها بوضوح:

- إنْ كنتَ لم تلتقِ به منذ هذه الفترة الطويلة فكيف استطعت الاستمرار في التنقل من وظيفة إلى أخرى؟

- حينما ذهبتُ إليه وقابلته للمرة الأولى شخصياً برفقة مازن، بعد أن تتبعنا المعلومات التي كُتبت عنه في المظروف الذي تركه لي الدكتور معتز، طلبتُ منه أن يعطيني هوية جديدة وشهادة ميلاد وثانوية عامة. وحدث الأمر نفسه حينما انتقلتُ للوظيفة الثانية. ولكن وقبل انتقالي للوظيفة الثالثة بعد ثمان سنوات فكرتُ بالأمر ملياً، وقد حثني مازن على أن أتعلم طريقة التزوير بنفسي...

قاطعتني وهي تبتسمُ:

- بدل أن تعطيني سمكة علمني كيف أصطاد السمك.

وابتسمتُ بدوري وقلت:

- شيءٌ من هذا القبيل. وعلى أية حال فقد أبلغتُ المزوّر شخصياً بهذا الأمر وعرضتُ عليه مبلغاً كبيراً من أجل أن يعلمني فن التزوير، وكانت العلاقة قد توطدت بيننا، غير أنّه أبلغني عن صعوبة تزوير بطاقات الهوية الوطنية والجواز وفي المقابل فإنّ تزوير الشهادات

Twitter: @ketab_n

والوثائق الرسمية الأخرى يُعد أمراً أسهل نسبيا وبالإمكان تعلمه. وهذا ما حدث فعلاً، فقد أمضيتُ معه أسبوعاً كاملاً، وكنت آتي إليه بشكل يومي وأمكث معه عدة ساعات، حتى أتقنتُ فن تزوير الشهادات.

- وماذا عن الهوية الوطنية؟

- لقد طلبتُ منه أن يعمل لي عشر بطاقات هوية يبدأ تاريخ كلٍ منها بعد خمس سنوات من تاريخ بدء الأخرى. ولديّ بالمناسبة الآن أربع بطاقاتٍ أخرى لن تنتهي إلا في عام 2040 ميلادي.

وقد اكتفتْ الدكتورة أبرار بهزّ رأسها وكأنّها تحاول أن تهضم هذه المعلومة. ومن ثم قالت متسائلة:

- ولكنّ بطاقة الهوية الوطنية قد تغيّرت منذ أكثر من خمس سنوات؟!

- أعلمُ ذلك، وهذا يعني بأنّ بطاقتي التي معي الآن ستكون هي البطاقة الأخيرة التي سأستفيد منها. وقد بقي منها لحسن الحظ ثلاث سنوات قبل أن تنتهي صلاحيتها. ولا أحد يعلم ماذا سيحدث عند قدوم ذلك الوقت؛ فربما بعد ثلاث سنوات لن نكون بحاجة أصلاً إلى هوية وطنية ونكتفي ببصمة العين حينها.

قلتها وأنا أضحك، وقد ابتسمت أبرار هذه المرة قبل أن تقول:

- دعنا من المستقبل، أنت تحتاجها الآن؛ إذْ أنك لن تستطيع مثلا الحصول على رخصة قيادة أو فتح حسابٍ في البنك بدون البطاقة

Twitter: @ketab_n

الجديدة.

- معك حق، ولكنني لم أحمل رخصة قيادة منذ أكثر من عشرين عاماً، حيث كَنتُ أستقل في معظم الوقت سيارة أجرة، أو أذهب برفقة مازن. وبالنسبة للبنك فأنا كذلك أحمل نقودي معي دائماً، وأحتفظ بها في شقتي. وحتى حينما أعمل فأنا أشترط أن أستلم راتبي على هيئة شيكات شهرية وأن لا ينزل في حسابٍ مباشر في البنك.

- ولكن ألا تخشى من حدوث سرقة؟ لاسيما وأنّه في هذه الأيام قد ازدادت سرقات المنازل والشقق بشكلٍ ملحوظ.

- لقد وضعتُ هذا في الحسبان؛ ولذلك اعتدتُ على الاحتفاظ بأموالي في مكانٍ لا يُمكن أن يخطر على بال أي لص، حتى ولو قلب الشقة رأساً على عقب.

وشعرتُ مجدداً بأنّها متلهفة لمعرفة هذا المكان ولكن منعها الحياء وربما الكبرياء من أن تسألني عنه. ومن ثم قامت فجأة بتغيير مسار الحديث:

- ألم تُقابل ولدك بعد أن أعدته إلى والدته؟

في الحقيقة كنتُ أتمنى أن لا تسألني هذا السؤال، لا لشيء إلا لأنه يثير أشجاني وذكرياتي ومشاعري الدفينة والتي كافحتُ مراراً وتكراراً على إخفائها وحاولت جاهداً التغلب عليها ونسيانها. وقد زفرتُ بعمق، وأغمضتُ عينيّ، وقلت:

Twitter: @ketab_n

- كلا، لم أره مُطلقاً بعد ذلك. وقد حرصتُ على أن لا تصلني أخباره وأن أعزل نفسي عنه تماماً؛ لأنني لم أكن أطيق الصبر عنه، وكنتُ أفكر به طول الوقت، وعلمتُ بأنني لو تقصيت أخباره ولو أردتُ رؤيته ولو من بعيد ومن دون أن يدري فلن أتمالك نفسي من أنطلق نحوه وأعانقه عناقاً حاراً وأن لا تبارح قدمي قدمه وأن لا أبعد عنه ولو لخطوة واحدة بعد ذلك.

- من الناحية النفسية فإن تصرفك كان معقولاً، ولم يكن غريباً على الإطلاق. فحينما تكون متعلقاً بأمر ما وعندما تكون مولعاً بشيء من الأشياء، فابتعادك الكامل عنه سيمكنك من نسيانه وتجاوزه مع مرور الوقت، ولكن أيضاً كان من الممكن أن تراه بشكل تدريجي ومتقطع وعلى فترات متباعدة، وأن تتابع أخباره حتى يقل ولعك واهتمامك به، وفي نفس الوقت تُخفف من شدة شوقك إليه وتعلقك به. تماماً كالتدخين، فقد ثبت علمياً بأنّ الإقلاع الفوري عن التدخين لا يختلف كثيراً عن الإقلاع التدريجي عنه، وأنّ النسب والإحصائيات تُشير بوضوح إلى تقارب الرقمين في من نجح في ترك التدخين باستخدام إحدى هذين الطريقتين.

وسكتت أبرار قليلاً، ثم أكملت:

- أفترض بأنّ عمر ابنك الآن سبع وثلاثون سنة. أليس كذلك؟

- صحيح.

- لو قابلته الآن صُدفة هل ستتعرف عليه؟

Twitter: @ketab_n

- لا أظن ذلك. كانت المرة الوحيدة التي رأيته فيها وهو ابن ثلاث سنين. على أية حال أتمنى أن نغير الموضوع، فأنا لستُ مرتاحاً للحديث حوله.

خيّم الصمت والسكون التام على المكان. كانت أبرار خلال هذه اللحظات تطيل النظر إليّ، وكأنها تبحثُ عن إشارات أو دلائل معينة. وقد قطعتْ حاجز الصمتْ بابتسامتها المعهودة وهي تقول:

- لقد ظللنا نتحدث لساعتين تقريباً دون أن نشرب أي شيء. أتمانع بأن تتناول كوباً من العصير؟

- كلا ليس لديّ مانع.

- ما العصير الذي تُريد أن تتناوله؟

- عصير برتقال إذا كان متوفراً وإن لم يكن متوفراً فكوب من الشاي سيفي بالغرض.

ابتسمتْ وقالت:

- سيكون متوفراً بالتأكيد، لقد خُيّل إليّ لوهلة بأنك طلبت عصير طماطم أو لوز بدلاً من البرتقال، فحتى لو لم يكن متوفراً فسنسعى جاهدين لتلبية رغباتك يا أستاذ أحمد.

شكرتها على حفاوتها، وقامت بدورها برفع سماعة الهاتف وتحدثت قليلاً بالإنجليزية. ومن ثم أعادت السماعة، وبادرتني

Twitter: @ketab_n

بالسؤال:

- ألم تشعر بالوحدة طوال تلك السنين؟

تنهدتُ بحسرة وأجبت:

- لقد كنت ومازلت أشعر بالوحدة والعزلة في كل لحظة من كل دقيقة في كل يوم منذ أكثر من أربعين سنة. ولم أذق طعم الاستقرار ولم أهنأ بالتمام الأسرة والراحة والحياة الاجتماعية ولم أنعم بحب من حولي أبداً. ولولا الله ثم أخي مازن «أبوفهد» لربما دخلتُ في مصحة الأمراض العقلية.

وقد لفتَ انتباهي التفاتتها نحوي حينما عرجت على ذكر مصحة الأمراض العقلية. وشعرتُ بأنّ هذه العبارة قد أحدثت هزة بداخلها.

- ألم تتزوج مرة أخرى يا أحمد؟

ضحكتُ وقلتُ بنبرة استفزازية:

- لماذا؟ هل تريدين الزواج بي؟

وضحكت هي بدورها وأجابت:

- من الصعوبة بمكان أن تنجح أي زيجة حينما يكون هناك فرق كبير في السن بين الزوج والزوجة، وخصوصاً في زمننا الحالي. إذْ يُعد التوافق النفسي والفكري والجسدي من المقومات الأساسية للزواج

Twitter: @ketab_n

الناجح. ولا بد من أنك سمعت من قبل بفجوة الجيل؟

تنهدتُ بملل على الكرسي الوثير وقلتُ بنبرةٍ تهكمية:

- قولي لا من البداية، ولا يوجد داعٍ لكل هذا التنظير والفلسفة.

ضحكتْ وقالتْ:

- ليس هذا ماقصدته. على أية حال لنتحدث عنك. بما أنك كنت وحيداً فلماذا لم تتزوج؟!

- ليت الأمر كان بتلك البساطة؛ ففي وضعي الحالي وفي ظل حياتي الراهنة من الصعب جداً أن أتزوج. ومن ثم فإنني نفرتُ من الزواج وأصبحتُ أمقته بعد تجربتي الفاشلة الأولى. وحالياً لا أرغب بالزواج ولا بأي شيء آخر؛ فأنا وحتى إن بدا مظهري مظهر فتى مراهق ففي حقيقة الأمر أنا هرمٌ وطاعنٌ في السن من الداخل، ولم أعد أتلذذ بالحياة ولا أهنأ بها منذ فترة طويلة وكذلك فإن...

وقطع حديثي دخول الممرضة مرة أخرى وهي تحمل إناءً فيه كأسان من عصير البرتقال وقد أومأتْ لها الدكتورة أبرار فقامت بوضع كأسٍ من العصير أمامي على الطاولة ووضعت آخر عند أبرار، ومن ثم خرجت. وبعد أن ارتشفتُ رشفةً من العصير لم أستسغ الطعم وأحسستُ بحموضة بالغة. حيث تغيرت ملامح وجهي و وضعتُ الكأس على الفور ولاحظتني أبرار بدورها وضحكت وهي تقول:

- الطعم حامضٌ أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- حسناً لم أتوقع أن يأتيني عصير كعصائر «ماما نورة» ولكن في الوقت نفسه توقعتُ طعماً مقبولاً على الأقل.

وضحكت هذه المرة ضحكة هي الأعلى منذ بداية موعد جلستي النفسية معها. وقد أظهرت ضحكتها أسنانا صغيرة متناسقة ناصعة البياض. كانت الدكتورة أبرار تبدو في الخامسة والثلاثين من عمرها، سمراء اللون، نحيلة الجسم وذات طول متوسط يميل إلى القصر، ولم تكن ملامحها تلفت الأنظار. وبالرغم من أنها لم تكن ممن يُمكن أن يُوصفن بأنّهنّ جميلات إلا أن ابتسامتها كانت أخاذة وجميلة وتُضفي شعورًا بالألفة والارتياح. ومن ثم قالت وهي تنظر إلى الساعة السوداء الخماسية الشكل المعلقة على الحائط:

- أخشى بأنّ الوقت قد شارف على الانتهاء.

ومن ثم نهضتْ من على كرسيها وأردفت قائلة:

- لقد استمتعتُ كثيراً بالجلوس والحديث معك والاستماع إلى قصتك المدهشة والأحداث العجيبة والغريبة التي تحتويها. كما أنني أشكر لك ثقتك الكبيرة فيّ وعلى توجهك لي، وسأنظر إليك دائماً نظرة أبوية وسأتعامل معك بناءً على هذه المنطلق، فأنا لن أحكم على مظهرك ولكن على مخبرك وعلى عمرك الحقيقي. وأنا أعي تماماً بأنّك أحوج ما تكون إلى أن يتم التعامل معك طبقاً لعمرك الفعلي، وبما أنك في الخامسة.والستين من عمرك فيجب على الجميع أن يحترموك ويقدروك ويوقروك كما يوقرون ويجلون الشيوخ وكبار السن. وأتمنى أن تكون هذه الجلسة قد ساعدتك وحققت ماكنت تنتظره وتأمله وأرجو

Twitter: @ketab_n

أن لا تكون قد علقت كثيراً من الآمال على هذه الجلسة، فنحن مازلنا في البداية وسنكون بحاجة إلى عدة جلساتٍ أخرى.

- في الحقيقة، لقد حققت هذه الجلسة أكثر مما كنت أتوقعه. ولم أكن أظنكِ ستتجاوبين معي وتقتنعين بقصتي بهذه السلاسة والسهولة. ولقد ساعدني الحديث هذه الليلة في أن أزيح جزءًا كبيراً من الحمل الذي كان يُثقل كاهلي. وأنا أتطلع قدماً إلى الجلسات القادمة.

ومن ثم نهضتُ وابتسمتُ وبادلتني الابتسامة قبل أن تجلسَ مجدداً وتبدأ في الكتابة على ورقة صغيرة وباللغة الإنجليزية. وبعد بُرهة قامت وأعطتني الورقة وقالت:

- أرجو منك أن تعرج على الصيدلية الموجودة في أسفل هذا المركز الطبي، وأن تسلم هذه الورقة إلى الصيدلي الموجود هناك، وأخبره أنك قادمٌ من طرف الدكتورة أبرار الصافي، وسيتكفل هو بالباقي.

أخذتُ الورقة وعلامات التعجب بادية على محياي وتساءلت باستغراب:

- ما الفائدة من هذه الورقة؟

- لا عليك، لقد كتبتُ فيها أسماء أدوية لك، وهي مجرد أشياء روتينية، لا تشغل بالك بها.

- لا أفهم؟ أنا لستُ محتاجاً لأي أدوية!

Twitter: @ketab_n

- إنها مجرد أمور روتينية كما أخبرتك. إنها أدوية من شأنها أن تعمل على تهدئتك وأن تساعدك على الإقبال أكثر على الحياة لاسيما وأنك تعاني من العزلة والاكتئاب.

أخذتها وشكرتها مجدداً، وخرجتُ من الغرفة وتوجهت إلى الاستقبال الذي طلب مني دفع مبلغ خمس مائة ريال قيمة للساعتين ونصف الساعة التي قضيتها في العيادة. ودفعت المبلغ من دون أن أكترث بالرغم من أنّه بدا مبالغاً فيه؛ فهذه الجلسة وهذه الحفاوة والاحتواء والإنصات إلى بوحي ومشاعري كان يستحق أن أدفع مقابله آلاف الريالات لو تطلب الأمر ذلك. وقد أخبرني موظف الاستقبال بأنّ موعدي القادم سيكون بعد أسبوع.

خرجتُ من المركز واستقللت سيارة أجرة إلى شقتي. وتذكرتُ حينها بأنّني نسيتُ أمر الدواء والصيدلية، وفكرتُ بأنّه ليس هناك داعٍ للرجوع إلى صيدلية المركز الذي طلبت مني الدكتورة أبرار أن أتوجه إليه، ورأيتُ بأن أي صيدلية أخرى ستفي بالغرض. وطلبتُ منْ سائق الأجرة أن يتوقف عند إحدى الصيدليات.

دخلتُ الصيدلية التي كانت خالية من الناس –على غير العادة- إلا من الصيدلي المصري ذي اللحية الكثة الذي كان يجلس قابعاً خلف الركن الأمامي. توجهتُ إليه وأعطيته الورقة، وقد أخذ ينظر إليها باهتمام شديد، ومن ثم نظر إليّ نظرة غريبة، قبل أن يتوجه إلى أحد الرفوفً ويأخذ منه علبة بيضاء وعليها خط أزرق، ومن ثم توجه إلى جهة أخرى من الصيدلية وعاد منها بعلبة مختلفة.

Twitter: @ketab_n

وقال:

- هذا الدواء الأول المُسمى بـ«زيبركسا» تأخذ منه حبتين؛ واحدة في الصباح وأخرى في المساء. وهذا الدواء الثاني واسمه «ريسبيردال» وعليك أن تتناول حبتين منه أيضاً بما يعادل ثمانية ملي غرامات يومياً.

ووضعهما في كيس وأعطاني إياه، وهو يقول:

- تسع مائة ريال من فضلك.

- لم أفهم.

- الحساب، عليك دفع تسع مائة ريال.

وقفتُ مذهولاً لفترة، وأعدت على مسامعه ماذكره من أجل أن أتأكد من أنه لم يُخطئ:

- أتقصد بأنّ قيمة هذين الدوائين تسع مائة ريال؟!

- نعم.

ضحكت متذكراً المثل القائل «شر البلية مايُضحك». وسألته مُتعجباً:

- دواءٌ مُهدئ قيمته تسع مائة ريال؟! إنّ كوباً من الشاي لا تتجاوز قيمته ريالَين كفيل بالقيام بنفس الوظيفة.

Twitter: @ketab_n

وردّ الصيدلي بعصبية:

- ولكنّ كوب الشاي ليس كفيلا بعلاج مرض الفصام والذهان!

- وماعلاقة الفصام بالشاي؟!

- إنّ هذين الدوائين لا يُصرفان إلا لمن يعانون من مرض الفصام والاضطراب الوجداني ثنائي القطب!

نزلتْ كلماته عليّ كالصاعقة. وشعرت بأنني لم أعد قادراً على الحركة، وأحسستُ بأنّ المفاجأة قد شلت أطرافي. أخذتُ الورقة التي كانت فيها الوصفة التي كتبتها الدكتورة أبرار وأدرتُ ظهري وخرجتُ من الصيدلية حيث سألني الصيدلي إن كنتُ أريدُ شراء الدوائين فأجبتُ بالنفي من دون أن ألتفتَ إليه.

وخارج الصيدلية كانت توجد سلة مهملات صفراء اللون. توجهتُ إليها وألقيتُ الورقة بداخلها بعد أن مزقتها إلى قطعٍ صغيرة. وركبتُ مع سائق الأجرة الذي كان ينتظرني، حيث ذهب بي إلى شقتي. وفي الطريق، كنت غارقاً في تفكيري، وسابحاً في تأملاتي.

إذاً فأبرار لم تكن تصدق حرفاً واحداً مما قلته. بل وكانت تعتقد بأنني مريض بالفصام طول الوقت! يالغبائها وجهلها! لقد أصبحتَ يا أحمد وبعد هذا العمر الطويل مجنوناً ومصاباً بالفصام..!

أنا.. وبعد أن خضتُ غمار هذه المواقف المأساوية، وبعد أن

Twitter: @ketab_n

عايشتُ هذه المصائب المتتالية وبعد أن قاسيتُ معاناة الأحداث المتلاحقة، أصبحت -برأي أبرار- أعاني من الفصام والذهان!

ولكن لحظة،

هل أنا حقاً أعاني من الفصام...؟!

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شئ بريء فى دمانا..

كالطفولة..

قد قُـتل!

شئ جميل..

كالسعادة.. دافقٌ

قد مات مطعون الأمل!

«فتوح مصطفى»

Twitter: @ketab_n

لم يكن صباح اليوم التالي مختلفاً عن الأيام السابقة، ولم يكن متميزاً عنها بشيء. نمتُ إلى الساعة العاشرة صباحاً، وأخذت حماماً بارداً، وأعددت شطيرة جبن وقشطة، مع كوب من الشاي. وبعد أن فرغت من تناول الفطور توجهتُ فوراً نحو المطبخ وقمتُ بغسل الكوب والطبق الذي وضعتُ الشطيرة عليه. وبعد أن فرغتُ من غسل الأطباق، عدتُ إلى غرفة المعيشة وبدأتُ في قراءة الجريدة، التي كانت تصلني صباح كل يوم، ولم أترك فيها مقالاً ولا خبراً إلا وقرأته بشكل كامل. وبعد أن انتهيت من قراءة الجريدة، أخذتُ المكنسة الكهربائية وبدأتُ في كنس الشقة، وانهمكتُ في تنظيفها وتلميعها. كنتُ أريد أن أبقي نفسي مشغولاً؛ لكي لا أفكر بما حدث لي بالأمس مع الدكتورة أبرار. فما فعلته كان أشبه بطعنة غدر في ظهري. فبعد أن وثقتُ بها، وبعد أن بحت لها بكل شيء، وبعدما أحسستُ بأنني وجدتُ أخيراً شخصاً متعاطفاً ورحوماً، إذا بي أكتشفُ بأنها كانت تتظاهر طول الوقت بأنّها تصدقني وتكترث لأمري.

أذن الظهر، وبعد أداء الصلاة في المسجد عدتُ إلى الشقة حيث بدأتُ في إعداد طعام الغداء والذي كان يتكون من أرزٍ مسلوق ودجاجة مطبوخة، بالإضافة إلى المقبلات كالحساء والخضروات، وهي الوجبة التي لطالما اعتدتُ أن أتناولها خلال الأربعين سنة الماضية. استغرق الطبخ وتناول الغداء مني قرابة الساعتين، وشعرتُ بأنني بحاجة إلى قيلولة قبل العصر بعد أن غسلتُ الأطباق. امتدت القيلولة فترة أطول مما كنت أريد؛ إذْ لم أستيقظ إلا عند الساعة الرابعة. وبعد أن صليتُ العصر، شعرتُ برغبة مُلحة في تناول فنجان من القهوة. وبينما كنتُ

Twitter: @ketab_n

أتناول القهوة استسلمتُ أخيراً لأفكاري وتأملاتي ولم أستطع أن أقاوم المشاعر الدفينة التي كبحت جماحها منذ الصباح.

لماذا فعلت الدكتورة أبرار بي هذا؟! ولماذا لم تصدقني؟! والأهم من هذا وذاك لماذا تظاهرت بتصديقي؟! وكيف لم أستطع أن أتبين من ملامحها ومن تعابير وجهها بأنّها لم تكن مقتنعة أبداً بقصتي وبكلامي؟! هل كانت على هذا القدر الكبير من الموهبة في التمثيل لدرجة أنني لم أشك ولم أظن ولو للحظة واحدة بأنّها كانت تكذبني منذ بداية الجلسة وحتى انتهائها؟! الأمر غريب وغير مفهوم، ولكن على أية حال من يلومها على ذلك، فمن ذا الذي سيصدق قصتي ومن سيقتنع بأنّ فتىً مراهقاً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره هو في حقيقة الأمر قد تجاوز الخامسة والستين. هل كنتُ أنتظرُ منها أن تُسلم بحقيقة الأمر منذ البداية! ومن ثم فلا بد من أنّ الدكتورة أبرار قد عايشت ووقفت على العديد من الحالات المرضية التي عانت من أوهام وتخيلاتٍ مشابهة، ولم يخطر ببالها أنني سأكون مختلفاً عن تلك الحالات.

أنا حقاً لا ألومها على عدم تصديقها لي، ولم أكن أتوقع أن تقبل روايتي، ولكن ما أثار حنقي، وما سبب استيائي، وما أحبطني، هو أنّها تظاهرت بالتصديق، وأبدتْ الاهتمام، بل وطرحت الأسئلة وعلقت على الأحداث التي مررتُ بها بشكل عقلاني، وتعاطفت مع الصعوبات وأبدت حزنها على الآلام والمصائب التي مرّت بي. كانت تلك حقاً خيبة أملٍ كبيرة. وحتى وإنْ كنتُ بحاجةٍ إلى من يستمع إليّ، وبحاجةٍ إلى

Twitter: @ketab_n

من أبوح له بما يختلج في فؤادي، فلستُ بحاجة إلى الجلوس ودفع المال إلى من لا يصدقني ومن يُمثل أمامي ويرتدي قناعاً يخفي به وجهه الحقيقي عني.

نهضت من الأريكة وقد قررتُ بشكلٍ حاسم بأنّ تلك الجلسة ستكون هي الأولى والأخيرة وبأنني لن أعودَ لها ولن أحضر مستقبلاً أي جلسة نفسية، لا معها ولا مع أي طبيبٍ آخر. وأخذتُ أدلف الغرفة جيئة وذهاباً، ومن ثم دخلتُ غرفة النوم، وتوقفت أمام المرآة وأخذتُ أتأمل قسمات وجهي. كنتُ للتو قد صبغتُ شعري باللون الأسود، حيث اعتدتُ أن أصبغه كل أسبوعين منذ ذلك اليوم المشئوم الذي انقلب فيه إلى اللون الأبيض. لم يكن وجهي مختلفاً عن المرة التي رأيته فيها منذ عشر سنوات، ولا عن المرة التي رأيته فيها منذ عشرين ولا ثلاثين ولا أربعين سنة! ماعدا آثار خياطة لجرح صغير فوق حاجب عيني اليسرى، بعد أن وقعت على الدرج قبل ثماًن سنوات. كنتُ أنظر إلى وجهي باشمئزاز! فهذا ليس أنا، ولا يمثلني، ولا يمت بأي صلة لي! أنا شيخٌ هرم، وشكلي الخارجي لا يعكس هذا. إنّ روحي المسنة عالقة في الحقيقة في جسد فتى مراهق يأبى الانصياع لأوامر روحه والابتعاد، ويُصر على البقاء والتشبث بهذه الروح المتعبة وبهذه النفس المنهكة.

علاقتي مع وجهي كانت كعلاقة الضيف بمضيفه، وكعلاقة الأستاذ بتلميذه، وكعلاقة الأب بابنه. كنتُ أنظر إلى نفسي نظرة أبوية حانية -على الرغم من نفوري واشمئزازي- فأنا أشفقُ وأتحسر على هذا الفتى المراهق الذي ظل ملازماً لي منذ أن كنتُ في الثامنة عشرة

Twitter: @ketab_n

من عمري. وكنتُ أشعرُ في الوقتِ نفسه بأنّه هو الآخر يرثي لحال هذه الروح التي باتت أسيرة ورهينة لجسده. كان كلٌّ منا حزيناً على صاحبه؛ لم يهنأ هو بفتوته، ولم أنعم أنا بشيخوختي، كنا كمتناقضات متفقة، وكمتضادات متصلة، وكعداواتٍ متحدة.

وقد اعتدتُ منذ سنواتٍ على أن أقف أمام المرآة وأن أتخاطب مع ذاتي خطاب الصديق لصديقه، وأن أتحدث مع نفسي حديث الخِل لخليله. ولم يكن حديثاً اعتيادياً فحسب، بل كان حديثاً ينقلب أحياناً إلى مناظرة ونقاشٍ حاد، حيث يطرح كل منا رأياً ونظرية مختلفة عن صاحبه. كما أنني كنتُ أفصحُ له عن مشاعري، وأخبره بأهم أسراري، وأميط اللثام أمامه عن أدق تفاصيلي. كما أنني لم أكن أتوانى عن التبيين له بأنّه قد أطال البقاء، وبأنّ مكوثه قد امتد وبأنّ الضيف يجدر به أن لا يثقل كاهل مضيّفه. وقد كنتُ ألّمح له تارة وأصرّح له أخرى عن رغبتي برحيله، وعن أمنيتي بمغادرته، غير أنه لم يأبه بي، ولم ينصاع لأمري، بل وكان يتجاهلني ويرمي بمطالبي عرض الحائط.

وبصراحة، لم يعد يغضبني بقاؤه كثيراً كما كنتُ في السابق، فمهما يكن، فقد أمضينا سوياً قرابة النصف قرن، ولم يعد سهلاً عليّ أن أتقبل رحيله عني. فبعد كل تلك السنين أصبحت علاقتنا قوية جداً، وهو على الأقل لم يتخل عني ولم يبرح مكاني قيد أنملة على الرغم من إصراري وتشبثي بمطلبي المستمر له بالرحيل والابتعاد. نعم، لقد كان وفياً، وكان مخلصاً، وكان ضيفاً ثقيلاً كذلك!

Twitter: @ketab_n

ألقيتُ بنفسي على السرير. كنتُ أرتدي لباس النوم «البجامة» الرمادية والمقلمة باللون الأبيض. وقد شعرتُ برغبة ملحة بالحديث مع مازن عن الذي حصل لي بالأمس مع الدكتورة أبرار وعن اعتقادها بأنني مصاب بمرض الفصام. كنتُ أعلم ردة فعله كيف ستكون، فهو سينفجر ضاحكاً فور أن يسمع بالأمر، وسيبدأ في التندر وإلقاء النكات حول الموضوع. لقد اشتقتُ له ولم أعد أقوى على فراقه. وليس من العدل أن أكافئه بالهجران، بعد أن أفنى حياته وبعد أن ضحى كثيراً من أجلي. ومن ثم فإنّ ماحصل، و رؤية صديق ابنه عبدالله لنا في المطعم كان محض صدفة عابرة. وبإمكاننا أن نتفادى هذا الخطأ الذي وقعنا فيه بأن نحصر لقاءاتنا في شقتي فقط. ولن يعلم أي من أفراد أسرته بأنّ أبا فهد مازال يلتقي بي ومازال متواصلاً معي.

أنا من أنهى هذه العلاقة الأخوية، وأنا من سيعيدها مجدداً. وسأبذل كل ما يتطلبه الأمر من أجل أن نعود كما كنا. ولن أتخلى هذه المرة عن مازن. لقد غاب عني أياماً معدودة مرّت كسنوات علي، وعلى الرغم من أنّ مازن اعتاد في فترات معينة من السنة أن يغيب عني لأيام وربما أسابيع حينما يُسافر مع أسرته لقضاء الإجازة في أحد البلدان، إلا أنّ هذه المرة كان الأمرُ مختلفاً تماماً؛ إذْ أنّ الشوق يكون أهون بكثير وأخف وطأة عندما تفارق من تحب وأنت تعلم بأنّ الفراق حتمي ولا مجال للقاء، أمّا الآن فهو موجود هنا ولم يبتعد عني إلا لأنني أنا من طلب ذلك.

أخذتُ هاتفي الجوال، واتصلت على هاتفه وقد رنّ إلى أن انقطع

Twitter: @ketab_n

الخط من دون إجابة. واتصلت بعد نصف ساعة ولكن لم يأتني أي رد أيضاً. وفي ذلك اليوم بلغ عدد اتصالاتي سبع مكالمات، لم تختلف نتيجة أي منها عن الأخرى.

لا ألومك يامازن، ولا أعتبُ عليك. لقد جرحتك، ولقد أصبتك في مقتل بعد كل هذه السنين وبعد كل تلك الوقفات، وبعد جميع هذه التضحيات، كان جزاؤك مني الجحود والنكران! وكان نصيبك مني الخيبة والخذلان. لقد أخطأتُ في حقك، ولقد ارتكبتُ جرما فظيعاً لا يُغتفر. ولكن أرجو منك أن تسامحني هذه المرة، وأن تغفر لي هذه الزلة. وأعدك بأن لا أقارفها مرة أخرى، وبأن لا أرتكبها مجدداً ماحييت.

لم أستطع النوم في تلك الليلة. كنت قلقاً ومهموماً ومُغتماً. كنتُ أفكر في مازن، وفي فداحة الخطأ الذي وقع مني، وفي كيفية إعادة العلاقة وتحريك المياه الراكدة، وجعلها تعود إلى مجاريها. وقد قررتُ أن أعاود الكرّة وأن أتصل عليه مجدداً في الغد، ونويتُ في حال لم يرد عليّ، أن أذهب إلى بيته وأترصده في الخارج إلى أن يخرج من منزله ومن ثم ألاقيه وجهاً لوجه وسأعتذر منه وسأقبل رأسه ويديه إنْ تطلب الأمر ذلك، ولكن المهم أن لا أعود خائب الأمل وأن لا أرجع إلا بعد أن يعود كل شيء إلى ماكان عليه.

كانت أولى محاولاتي في اليوم التالي عند الساعة التاسعة صباحاً، حيث لم تجدِ تلك المحاولة نفعاً ورنّ الهاتف حتى انقطع. ومن ثم كانت المحاولة الثانية عند العاشرة، تلاها محاولة ثالثة قبيل الظهر

Twitter: @ketab_n

وأخرى بعد الظهر، إلى أن بدأ اليأس يتسرب إليّ شيئاً فشيئاً. وأيقنتُ بأنّه لابد لي من أن أذهب إليه بنفسي إلى البيت وأن ألاقيه وأطلب منه الصفح والغفران. ورأيتُ أنّ أنسب وقت لانتظاره خارج منزله سيكون عند صلاة العصر، فهو بالتأكيد سيخرج من بيته لأداء الصلاة، وستكون تلك فرصتي الذهبية لمقابلته والحديث معه.

ارتديتُ ثوبي وشماغي قبل أذان العصر بنصف ساعة. وقد نويتُ أن أذهب إليه بسيارتي المركونة في الأسفل والتي كنتُ نادراً ما أستخدمها؛ لكي لا أقع في متاهات أمنية بسبب عدم حملي للرخصة. وقبل أن أخرج من الشقة قررتُ أنّ أحاول الاتصال به للمرة الأخيرة. ولم أكن أظن بأنّ هذه المرة ستكون مختلفة عن المكالمات السابقة التي لم يرد عليها، ولكن ساورني شعور غريبٌ فور سماعي لدقات الرنين. ومع الرنة الخامسة جاءتني الإجابة من صوتٍ غريب لم يكن صوت مازن:

- نعم؟

تفاجأتُ من الرد وتلكأت وتلعثمتُ برهة من الوقت قبل أن أرد:

- هل هذا رقم مازن، أبوفهد؟

- نعم هذا هو رقمه. كيف أستطيع أن أخدمك؟

كنتُ بالكاد أسمع صوتُ المتكلم للضوضاء التي من حوله ولأنّه أصلاً كان يتحدث بشكلٍ خافت.

Twitter: @ketab_n

- أنا صديقٌ له، وأرغب بالتحدث معه من فضلك.

- للأسف ليس بمقدوره الحديث. إنّ أبي في العناية المركزة الآن وحالته خطرة.

نزلت كلماته عليّ كالصاعقة؛ فلم يكن يخطر ببالي إطلاقاً بأنّ أبافهد في المستشفى. وشعرتُ بالدوار وأحسستُ أنني على وشك أن أفقد وعيي. وقد حاولت أن أتمالك نفسي، وأن أتجلد وأبدو هادئاً قدر الإمكان:

- ولكن كيف؟! لقد كنتُ معه قبل أيام؟!

- لقد أصيبَ بنوبةٍ قلبية منذ أربعةِ أيام، أدخلناه على إثرها إلى مستشفى الملك خالد الجامعي.

وما أن سمعتُ اسم المستشفى حتى أنهيتُ المكالمة فوراً وخرجتُ من شقتي قاصداً المستشفى.

كنتُ أسيرُ بسرعةٍ جنونية، وكنتُ أتجاوز الإشارات الحمراء، وكانت تنهالُ علي أصواتٌ أبواق السيارات وزمجرة أصحابها. ولكن لم أكن أبالي، ولم أكن أحفل بهم، كان كلُّ ما يشغل تفكيري هو صحة مازن وسلامته. وكنتُ على استعداد بأنّ أهب حياتي وروحي هديةً وفداءً له إن لزم الأمر. وقد أوشكتُ أنْ أتسبّب بحادثٍ في أحد التقاطعات، وقد نزل سائق السيارة وتوجه إلى سيارتي، غيرَ أني لم أتوقف وواصلتُ سيري وأنا أراه من المرآة الأمامية وهو يشير بأصبعه السبابة ويكيل

Twitter: @ketab_n

عليّ أقذع الشتائم واللعنات. ولم أعتب عليه كثيراً، وأيقنتُ بأنّه لو علم عن سبب تهوري واندفاعي لدعا لي ورثى حالي بل وربما رافقني إلى المستشفى. إنّ أخي، ونصفي الآخر، يرقدُ على السرير الأبيض منذ أربعة أيام. إنّ رفيق عمري، وصديقي منذ ما يربو على النصف قرن، بات طريح الفراش. لقد أصابته نوبة قلبية أجزم بأنني أنا من تسبب بها. أنا من أودى به إلى المهالك بسبب أنانيتي وقسوة قلبي. وبدلاً من أن أخفف عنه وأن أهدئ من روعه بعد الموقف العصيب الذي تعرض له مع ابنه العاق، أتيتُ وزدتُ الطين بلة وأذقته كأس العلقم وعمّقتُ جراحه، وبدلاً من أن أعينه كنتُ عوناً عليه! لو أصابك مكروهٌ يامازن فلن أسامح نفسي ماحييت!

بدأت الدموعُ تنهمر من عينيّ، ولم أعدى أستطيعُ أن أرى بوضوح، غير أنني تمكنتُ من الوصول إلى المستشفى بأعجوبة. نزلتُ مباشرةً من السيارة، وأخذتُ أجري نحو البوابة، وسطَ نظراتٍ الناس ودهشتهم. وما إنْ دخلتُ حتى قصدتُ الاستقبال، وسألتُ الموظف عن غرفة مازن بعد أن أعطيته اسمه الكامل. وبعد أن أبلغني برقم الغرفة استدرك حديثه قائلاً:

- بالمناسبة، إنّ الزيارة له ممنوعة الآن منعاً باتاً.

وعلمتُ بانّ هذا هو آخر ما ينقصني الآن! كيف تُمنعُ روحٌ واحدة من أن تزور جسدها الآخر؟! وأي مبرر يرفض زيارة أخٍ لأخيه، ومن هو هذا الموظف الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره لكي يملي الأوامر على رجلٍ هو في سن والده! وأدركتُ بأنّني يجبُ أن أتصرف

Twitter: @ketab_n

فوراً لكي لا يُعيقني أو يُشكل حجر عثرةٍ أمامي:

- أنا ابنه، وليس لديكم الحق في منعي من زيارته!

- هل لك أن تعطيني بطاقة هويتك لو تكرمت.

لا حول ولا قوة إلا بالله!

- إنّ هويتي في السيارة هل يتوجب عليّ إحضارها؟

- أخشى أنّه لا مناص عن ذلك!

لم أجب عليه. وتوجهتُ نحو بوابة الخروج. وقبل أن أخرج، التفتُ على حين غرّة منه وانسللتُ باتجاه السلالم الجانبية، وصعدتُ للدور الذي توجدُ فيه الغرفة، وبدأتُ في البحث عن الغرفة حتى وصلتُ إليها.

كان يوجدُ خارجها امرأةٌ تجلسُ على كرسيّ وبجانبها فتاة صغيرة وقد ميّزتها على الفور؛ فهي سارة ابنة مازن والتي كانت في الثانية عشرة من عمرها. وكانت تُغطي جسمها بعباءة سوداء وشعرها الطويل منسدل على كتفيها. وكان يقف بجانبهما فهد بأناقته المعهودة التي ورثها من والده. وكان يبدو عليهم جميعاً القلق والترقب.

اقتربتُ منهم وألقيتُ السلام وسألتُ فهد وأنا أشيرُ بيدي إلى الغرفة:

Twitter: @ketab_n

- هل هذه غرفة مازن؟

- نعم هذه هي.

هززتُ رأسي من دون أن أتحدث، ومن ثم قلت بعد برهة:

- هل بإمكاني الدخول؟

- كلا، إنّه يخضع الآن لعملية جراحية. ونحن الآن ننتظر انتهائها منذ أكثر من ساعة! لا أظن بأنّ ذلك وقتٌ طويل بالنسبة لعملية في القلب!

كان صوته مبحوحاً وخافتاً، تماماً كما كان حينما أجاب على هاتف والده المحمول. وقد بدا جوابه أشبه بحقنٍ مهدئة ومُسكنة، حيث بدا وكأنّه كان يخاطبُ نفسه حينما قالها، أو كما لو أنه كان يفكر بصوتٍ عال.

كان الخوفُ واضحاً وجلياً على وجه فهد وأخته سارة، وكذلك زوجة مازن والتي كانت تُغطي وجهها ولكنها لم تنزل يديها ولو لحظة واحدة واستمرّت تدعو الله بأنّ يُنقذ حياة زوجها وأن يمن عليه بالشفاء. وقد انزويتُ جانباً وأخذتُ أنتظر وأدعو الله أنا الآخر. وكنتُ أحاولُ التظاهر بالجَلَد والصبر، وأن أبدو كما لو كان الأمر ليس مُقلقاً لي إلى تلك الدرجة التي كنتُ عليها في حقيقة الأمر لكي لا ألفت الأنظار وأثير التساؤلات من حولي. كنتُ على وشك الانهيار، وكنتُ بالكاد أستطيع السيطرة على نفسي وعلى مشاعري؛ فخلال عمري المنصرم

Twitter: @ketab_n

كان البكاء جزءًا لا يتجزأ من شخصيتي، وقد اعتدتُ عليه وألفته أكثر بكثير من الضحك والابتهاج. وبات من الأيسر لي أن يُطلب مني البكاء بدلاً من الضحك. والآن وفي هذا الموقف العصيب، أجدني مُطالباً أكثر من أي وقتٍ مضى بكبح عواطفي مع أكثر من يُهمني أمرهم في هذا العالم!

بعد دقائق جاءني فهد و وقف بجانبي وظهره مستندٌ على الجدار في ممر المستشفى وقد بادرني بالحديث قائلاً:

- يبدو بأنّك تعرف الوالد؟

- نعم أعرفه؛ أنا زميله في العمل.

- أنتَ من كُنت تتصل على رقمه باستمرار في اليومين الماضيين، أليس كذلك؟

شعرت بالإحراج، وأجبتُ وأنا مطأطئ الرأس:

- نعم، أنا آسف، لم أقصد إزعاجكم، ولكن لم أكن أعلم بأنّ والدك قد دخل المستشفى.

- غريب! مع أنّ زملاءه في العمل وصلهم خبرٌ بذلك!

تلعثمتُ قليلاً:

- لم يصلني الخبر للأسف.

Twitter: @ketab_n

وسكتُّ لبعض الوقت، وأكملتُ حديثي بعد برهة من التفكير:

- ربما لأنني تغيبتُ عن العمل في الأسبوع الماضي.

- آها، فهمت.

وزفرت زفرة عميقة:

- دعنا نأملُ بأن يعود كما كان وأن يتجاوز هذه الأزمة.

التفتَ إليّ ونظر في عينيّ ومن ثم أشاح بوجهه بعيداً وقال:

- أتمنى ذلك! لقد أخبرنا الطبيب بأنّ نسبة نجاح العملية خمسون بالمئة. يارب لطفك!

أي أنه بين الحياة والموت! لماذا أخبرتني بذلك يافهد لماذا! إنْ كنتُ قد استطعت أن أتجلد وأن أبدو متماسكاً وثابتاً في الدقائق الماضية فكيف سأستطيع أن أفعل ذلك الآن بعد إدراكي لجدية الأمر وخطورته البالغة. كيف؟! ولم أرُد ولم أتفوه بأي كلمة؛ لكي لا أنهار وأنفجر باكياً واكتفيتُ بالصمت وبالدعاء. وقد عاد فهد إلى والدته وأخته وجلس بجانبهما بعد أن تحدث معهما قليلاَ.

دارَ شريط حياتي مع مازن كلمح البصر. وبدأت المشاهد والأحداث تمر أمامي كما لو كنتُ في صالة (سينما) يُعرض فيها (فيلمٌ) وثائقي. لحظات الأنس، والسعادة، والبهجة، ولحظات الحزن والغضب، لحظات المزاح والضحك، ولحظات الجِد والمواساة كلها

Twitter: @ketab_n

بدت جليّة أمام ناظري. لا أصدق بأنّ رفيق دربي في حالة خطيرة. نعم أدركُ أنّ العملية صعبة، ولابد لها أن تكون صعبة لاسيما وأنها في القلب، ولكني أستبعد أن يحدث أمرٌ سيء بسببها.

سيعودُ مازن كما كان، وسيشفيه اللّهَ، نعم، أنا واثقٌ من ذلك. وسيكونُ أول شيء أخبرك به حين تسترد عافيتك هو عن القدر الذي أحببتك به. لا أذكرُ أنني أخبرتك من قبل عن مقدار حبي، وعن مشاعري التي أكنها لك، وعن علاقتنا الأخوية. أعلم أنك تدرك ذلك، ولكن كان يجب أن أبوح لك به، وأن لا أجعله رهينة وأسيراً بداخلي. كان يجب أن أُخبرك بأنني أحبك حينما كنتُ قادراً على ذلك، وحينما كانت الفرصة مواتية. ماكان عليّ الانتظار، وماكان عليّ أن أكتفي بالتسليم بحقيقة معرفتك بهذا الأمر. وبعد أن أخبرك عن حبي لك، سأعتذرُ لك فوراً عن مابدر مني، وسأطلبُ منك العفو والمسامحة على إتعابي لك وعلى إثقالي كاهلك طيلة نصف قرن. ولن أتفوه بعد ذلك بأي كلمة قد تؤذيك أو تجرح مشاعرك. وسأعتني بك وأعاملك كما لو كنت والداً لي –على الرغم من أنني أكبر منك سناً- فأنت الآن قد كبرتَ في السن، ولم تعد قادراً على تحمل زلاتي وحماقاتي كما كنت إبان فتوتك وشبابك.

في تلك الأثناء انفتح الباب وخرجت منه ممرضة وتلاها طبيبٌ يضع كمامة على أنفه وفمه وما إن خرج حتى تحلق حوله فهد وأمه وأخته، وبدوري وقفتُ أنا من خلفهم وقد سأل فهد الطبيب بلهفة وأمل:

- بشر يا دكتور، كيف حال والدي؟

Twitter: @ketab_n

نزع الطبيب الكمامة، وخلع نظارته الطبية بعد ذلك، وقد بدا متجهماً وقال:

- إنّه في أمس الحاجة الآن إلى الدعاء والرحمة، لقد عملنا مابوسعنا، ولكن حان يومه ولكل أجلٍ كتاب، والبقية في حياتكم.

ولم يكد يُكمل جملته حتى دوى في المكان صوتُ شهقةٍ تبعها بكاءٌ حار. ولكن لم يكن مصدرها زوجة مازن ولا ابنه فهد ولا ابنته سارة، بل كان مصدرها ذلك الفتى المراهق الذي يقف خلفهم والذي سقط على ركبتيه على الأرض. نعم، كان أنا من بكى؛ فأنا أكثر من عرف مازن وصاحبه، كنت أخاً له قبل أن يتزوج بعشرين سنة، كان يجدر بالطبيب أن يتحدث معي أنا لا أن يتحدث مع أفراد أسرته الافتراضيين بناءً على بطاقة العائلة، ففي الواقع أنا أقرب أفراد أسرته إليه وأنا أكثرهم صلة به.

التفت فهد إليّ ودخل بدوره في بكاء عميق، وبدأت زوجة مازن تصرخ وتولول في حين أن سارة جلست على الكرسي وغطت وجهها بكلتي يديها وأخذت تبكي في صمت. وفي تلك اللحظة، جاء عبدالله وأوقف الطبيب الذي مشى بعيداً عن غرفة العمليات وسأله بصوتٍ عالٍ تردد صداه في أرجاء الممر في المستشفى:

- ماذا فعلتم بوالدي أخبرني ماذا فعلتم؟!

وقد أجابه الطبيب بصوتٍ لم أسمعه، ولكن كان صوتُ عبدالله

Twitter: @ketab_n

مجلجلاً في المكان:

- ماذا!؟ كيف؟! أتقولها بهذه البساطة كما لو كنت تتكلم عن حيوان من الحيوانات لا عن إنسان! هل ماتت ذممكم وضمائركم؟! أين إنسانيتكم يا من تتشدقون بالإنسانية؟!

وقد تجاهله الطبيب ومضى في حال سبيله، وقد حاول عبدالله أن يوقفه بيده غير أنّ فهد تدخل سريعاً ونهره وأمره بأن يترك الطبيب. ومن ثم تقدم عبدالله ودخل إلى غرفة العمليات وخرج بعد دقائق وعلامات الصدمة والذهول جليّة على محياه. وقد وقعت عيناه عليّ عندما خرج وتحدث قليلاً مع فهد وهو يشير بإصبعه إليّ ومن ثم جاءني والشرر يتطاير من عينيه وقال بنبرة غاضبة:

- منذ متى وأنت تعرف أبي حتى تبكي عليه؟!

كنتُ أجلس القرفصاء، وقد حجبت الدموع عني الرؤية وقلتُ بصوت متهدج:

- منذ فترة طويلة.

وابتسم بتهكم:

- أنت الشاذ الذي كنت معه في المطعم قبل أيام أليس كذلك؟!

لقد بلغ السيل الزُبى، ولم أعد أحتمل هذا الأسلوب الخالي من التهذيب:

Twitter: @ketab_n

- لوسمحت أنا لستُ شاذاً، احترم المكان الذي أنت فيه، واحترم والدك الذي...

وقبل أن أتم جملتي ركلني بعنف بقدمه في ساقي وهو يقول:

- لا تأتِ بذكر أبي على لسانك القذر!

وقفتُ ونظرتُ إليه في عينيه من دون أن أتكلم، فقد كنتُ مُنهاراً ومُنهكاً، وفي حالٍ يُرثى لها.

- والآن ماذا أيها الشاذ؟ هل تريد أن تتعارك معي؟ هاه؟

ودفعني بيده اليُمنى بطريقة مُستفزة لكي أرد عليه، ولكن تجاهلته واكتفيت بالنظر إليه من دون أن أتكلم. وقد جاء فهد مُسرعاً ووقف حائلاً بيننا وقال مُخاطباً أخاه بغضب:

- ماذا دهاك يا عبدالله؟! ليس هذا وقته؟! ما نعانيه الآن يكفينا، لاتزد جراحنا أرجوك!

- وهل تظن بأنّني لا أعاني أيضاً؟! أنا حزين ومستاء بقدركم. ولكنني لا أريد رؤية هذا الشاذ بيننا.

والتفت إليّ فهد وقال بنبرة مُعتذرة:

- لوسمحت أرجو منك أن تغادر المكان فإن أخي قد فقد السيطرة على أعصابه. ونحن لا نريد التسبب بأي مشاكل هنا.

Twitter: @ketab_n

نزلت كلماته عليّ كرماح قطعت جسدي، وكسهام أدمت بدني. لقد أصبحتُ الآن أنا الملوم وأنا المخطئ؛ وخطأي هو أنّني أبكي على رفيق عمري!

أومأتُ برأسي بتفهم ومضيت بعيداً، غير أنّ عبدالله لحقني ودفعني من ظهري بقوة أسقطتني معها على الأرض وقد قال وهو ينظر باشمئزاز:

- عجيبٌ هذا الزمن! لم أكن أظن أنني سأعيش حتى أرى شاذاً بهذه الجرأة والوقاحة لكي يأتي في يوم وفاة معشوقه العجوز!

نظرتُ إليه نظرة عتاب، ولم أنبس ببنتِ شَفه، واكتفيت بالصمت. و قد نزلت دموعي، ولكن لم تكن هذه المرة دموع الحزن فقط بل وكانت دموع الحسرة والألم. هل هكذا يُعامل صديق الوالد؟! وهل هكذا يُعامل الرجل الذي كان بمثابة الأخ لأبيك! وهل هكذا يُعامل شيخٌ مُسن هو في عُمر والدك وربما جدك؟! وهل هكذا يتحدث الابن عن أبيه الذي كان أنبل وأطهر من عرفتُ من البشر؟!

نهضتُ من على الأرض ونفضتُ الغبار عن ثوبي وأدرتُ ظهري له وسرتُ ناحية الدرج، وقبل أن أبتعد صرخ بأعلى صوته:

- لو رأيتك مرة أخرى فسأقتلك بيدي هاتين!

دخلتُ شقتي وأغلقتُ الباب وأسندتُ ظهري عليه وبدأتُ أنزل تدريجياً حتى سقطتُ على الأرض وأنا غارق في بكائي. لقد توالت عليّ

Twitter: @ketab_n

المصائب، وانهالت علي المحن، ولم أعد أقوى على الصمود، ولم أعد أقدر على المقاومة. لقد رحل من كان يسندني، ومضى من كان يدعمني، وغادر من كان يشد من أزري. لقد ودعني من كان يُدخل السرور إلى قلبي، ومن كان يضحك لضحكي، ويبكي لبكائي. لقد تركني من كانت تهمه مصلحتي، ومن كان يفكر دوماً براحتي وبسلامتي. لقد فارقني من خاطر بنفسه ومن ضحى بماله وبوقته وبأسرته وبصحته من أجلي.

لقد أفنيتَ عمرك يامازن حرصًا على سلامتي إلى أن تسببتُ أنا بقتلك بحماقتي وجهلي. لقد تحمل قلبك الكبير الصدمات على مدى نصف قرن؛ كنتَ فيه حذراً من أن تصيبك سهام العدو وأنت واقفٌ تحميني وتذود عني، ولم يكن يخطر ببالك بأنّ السهم الذي سيُصيبك في مقتل سيكون من أقرب الناس إليك ومَن كنت تدافع عنهم. نعم لقد أصابك سهم غادر في مكان مأمنك. وكان هو مسك الختام لرحلة طويلة اتسمت بالطهر والنقاء وبالإخلاص والوفاء.

برحيلك يا أخي أصبحتُ نكرة على الأرض، وأصبحتُ بلا هوية، وبلا ماضٍ، وبلا ذكريات. برحيلك لم يعد هناك من يكترث لأمري أو يحفل بي. إنْ مِت فلن يبكي أحدٌ علي! وإن فارقتُ الحياة فلن يُصلي عليّ إلا من كان يبحث عن الأجر والثواب. يامازن أنت لم تمت بل أنا من مات! فأنت حيٌّ في قلبي ومشاعري وذكرياتي، وأنا ميتٌ لأنّ لا أحد في الدنيا يعنيه أمري أو يرثي لحالي. ما أسوأ أن تموت وأنت حي، وما أتعس أن تتنفس وأنت بلا رئتين، وما أقسى أن تنظر وأنت مفقوء العينين!

Twitter: @ketab_n

غفوت وأنا على هذه الحال، ورأيتُ في المنام أنني أسير في النهار في صحراء جرداء وسط حرارة الشمس اللاذعة، وأنا حافي القدمين وعاري الصدر وقد بلغ العطش مني كل مبلغ وأوشكتُ على السقوط من التعب والإعياء. وبينما كنتُ على هذه الحال، إذ لاح لي في الأفق ظل شخص، فهرعتُ إليه جرياً أملاً في أن أجد عنده بعض الماء بعد أن شارفتُ على الهلاك. وحين وصلت تفاجأت بأنّ هذا الشخص لم يكن سوى مازن! فازدادت سعادتي سعادة وازداد فرحي فرحاً، ودنوتُ منه وأخذته بالأحضان وأنا أردد وأقول: «لقد علمتُ بأنّك مازلت حياً ولم تمت، لقد علمتُ ذلك». ولم يُجبني واكتفى بالابتسام. وقد كان يرتدي ثوباً ناصع البياض وشماغاً حسنَ الكي، وكان أنيقاً وعلى هيئة حسنة، ولم يكن يبدو عليه آثار السفر، كما أن الحرّ والغبار لم يؤثرا عليه وعلى ملابسه. وفي غمرة سعادتي، تذكرتُ عطشي فبادرته بالسؤال إن كان لديه بعض الماء فأشارَ إلى بئر قريب من دون أن يتكلم. فذهبتُ إلى البئر ولم يكن يوجد عنده أي دلو أو سارية، ونظرت إلى داخله ووجدتُ بأنّ الماء لم يكن بعيداً ولكن لم أستطع الوصول إليه فأدخلتُ رأسي بشكل أعمق، وعندما اقتربتُ من الوصول إلى الماء زلت قدمي وسقطت في البئر وكانت المفاجأة؛ إذْ لم يكن هناك أي ماء واستمرَّ سقوطي وأنا أصرخ وسط الظلام الحالك إلى أن استيقظتُ وأنا على هذه الحال.

لم يزدني الحلم إلا حزنا وندماً. وقد ذهبتُ إلى الحمام وتوضأت وأخذت السجادة وصليتُ ركعتين ودعوتُ الله كثيراً بأن يرحم مازن وأن يغفر له وأن يدخله مستقر رحمته.

Twitter: @ketab_n

يارب لقد جاءك صديق عمري ضيفاً، ولقد ودعني وأخذ جزءًا من روحي، اللهم فتقبله وأجزل له العطاء وجازه عن عظيم صنعه ومعروفه على أخيه بعظيم حفاوتك وامتنانك. اللهم أكرمه وأعنّي على ألم فراقه، واجبر كسري وضعفي وألهمني الصبر وألحقني به عاجلاً غير آجل يارب العالمين.

ذرفتُ الدموع العظيمة في تلك الليلة، وفي الليلة التي تلتها. وظللتُ أذرف الدمعات في ذلك الأسبوع والأسبوع الذي تلاه. وظللتُ أبكي عمري كله، فروحي لم تعد كما كانت، فلقد رحل جزءٌ منها مع رحيل نصفي الآخر، وما ذهب مني لن يعود، وماخسرته لن يُعوّض.

لقد أصبحتُ جسداً بلا روح، وبدناً بلا قلب، وبِتُّ كسفينة تائهة بلا رُبان تتقاذفها أمواج المحيط العاتية. ولم يعد لوجودي ولحياتي أي معنى الآن؛ فلقد انطفأت الشمعة الأخيرة التي كانت تُضيء عتمة روحي..!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لِمَ لمْ تُعلمني السباحة في البحـار؟

لِمَ لمْ تُعلمني الحيـاة بغيـرِ شمسٍ أو نهار؟

«فاروق جويدة»

Twitter: @ketab_n

رحيلُ مازن كان أقسى ما مرَّ عليّ وما واجهته يوماً في حياتي. وصحيحٌ أنني فقدتُ أبي وأمي سويةً في حادث سيارة من قبل، وظللتُ أبكي عليهما شهوراً وسنوات عدة، ولكن ليس من الصعب أن تتخطى أحزانك وأن تتجاوز آلامك حينما يقف بجوارك شخصٌ عزيز وحينما يواسيك أخٌ حبيب. كما أنني في ذلك الوقت كنتُ شاباً فتياً ويسهل في تلك السن كثيرٌ من الأمور التي تُعد ضرباً من المستحيلات في سني هذا. لقد عرفت مازن وصحبته كما لم أعرف وأصحب أي أحدٍ من البشر. ولم أكن بحاجةٍ إلى الكلام والحديث؛ فنظرة واحدة في عينيّ كانت كافية لمازن لكي يعرف ما أفكر فيه وما أشعر به. لقد كان مازن هو الإنسان الوحيد الذي من شأنه أن يمضي ويتقدم حينما يتوقف ويتراجع العالمُ بأسره!

كان مازن صديقاً صدوقاً، وأخاً رحوماً، وخِلّاً وفياً. لم تشغله أعماله، ولم تُلهه أسرته ولم يستغنِ بزملائه. لقد اكتفى بي صاحباً، ولم يرضَ بغيري بديلاً، ولم يبحث عن صاحبٍ طبيعي، ولا عن صديقٍ مُعافى يُعينه بدلاً من أن يكون عبئًا عليه! لقد تقبلني مازن بكل عيوبي، وكان صدره رحباً واسعاً لكل همومي، وكانت أعماله وأفعاله تسبقُ وعوده وأقواله. كان بمثابة الصديق الذي من شأنه أن يبقى وفياً مُخلصاً مُحباً لألفِ سنة. وكان بالتأكيد رجلاً وصاحباً يغني عن ألف رجل وصاحب.

بكيتُ على مازن في الأيام القليلة الماضية، ومازلتُ أبكي عليه إلى اليوم، وسأظل أبكي عليه إلى أن ألفظ أناسي الأخيرة وإلى أن

Twitter: @ketab_n

أرحل وحيدًا فريدًا من هذه الدنيا الدنيّة!

أيامُ النحيبِ هذه ذكرتني كثيراً بأيامي التي قضيتها بعد وفاة والديّ. ففي ذلك الوقت، انطويتُ على نفسي، وانعزلت عن العالم، وهجرتُ الناس، ولم أكن ألتقي أو أقابل أحداً سوى مازن. كنتُ في دوامة معقدة، وفي ظلام دامس، وفي حالٍ يُرثى لها، ولم أستطع أن أتجاوز تلك الحال إلا بفضل الله ثم بفضل مازن. كان يغض الطرف عن تجاوزاتي، ويتجاهل المرات العديدة التي أخرج فيها عن طوري. وليس هذا فحسب، بل وكان يسعى دائماً إلى إدخال السرور إلى قلبي، ويحثني باستمرار على الخروج ورؤية الناس وتنشق هواءٍ جديد. وأجدني الآن فاقداً للرغبة في الخروج أكثر من أي وقتٍ مضى. فما في الخارج، لم يعد يعنيني، ولستُ أكترث لأي شيء في الدنيا، أقامت أم قعدت، الأمرُ سيّان لدي.

كان روتيني ينحصر في شرب القهوة، والجلوس أمام التلفاز. لم أنظف الشقة منذ أسبوع، ولم أصبغ شعري منذ ذلك اليوم الذي رحل فيه رفيق الدرب. كان كل ما أفعله ينحصر في أمورٍ ثلاثة، الصلاة والأكل والنوم! ويتخللها بكاءٌ لا ينقطع، وتفكيرٌ لا يتوقف، وذكرياتٌ لا تنتهي.

في اليومين الماضيين انهالت على هاتفي المحمول الاتصالات من كل حدب وصوب. وعلى الأخص كان هناك رقمان يتصلان باستمرار. ولم أكن أشعر برغبةٍ في الإجابة، وفي الواقع لم أكن أنوي الإجابة مُطلقاً،

Twitter: @ketab_n

فطالما أنّ المتصل من الاستحالة بمكان أن يكون مازن فإذاً الأمر لا يعنيني إطلاقاً ولن يُهمني المُتصل ولا الشيء الذي يريد إخباري به!

في مساء ذلك اليوم ملأتُ حوض الحمام بالماء الدافئ، على غير العادة، وسكبتُ بداخله كميةً كبيرة من الصابون إلى أن طفَت على سطحه الرغوة وغطته بشكل كامل. واستلقيتُ بداخله وأنا أحمل بيدي كوباً من القهوة. وبقيتُ على هذه الحال فترةً طويلة، استرجعتُ فيها ذكرياتي ولحظاتي الماضية. كانت الذكريات هي ما تبقت لي الآن، وهي ما سأظل أعيشه، وهي ما سأحيا عليه، وهي الوقود الذي سيبقيني أتحرك إلى أن يوافيني الأجل.

- أتعلم بأنّ تفريش الأسنان الأمامية بشكلٍ عنيف قد يؤدي إلى زوال طبقة المينا؟

- طبقة المينا؟ لا يبدو هذا الاسم غريباً عليّ..

- إنّها الطبقة السطحية والخارجية الصلبة في الأسنان. ألم تسمع بها من قبل يا أحمد؟!

- ربما، لكن بالتأكيد ليس قبل أقل من أربعين سنة!

وضحكتُ، وأردفتُ قائلاً:

- وبالمناسبة، منذ خمسين سنة لم أعتد على التفريش إلا بطريقة عنيفة ووحشية؛ فقد كنتُ أظن بأنّ التسوس والباكتيريا لا يُمكن مقاومتهما إلا بتلك الطريقة. وكنتُ أتصور بأنّنا في حالة حربٍ

Twitter: @ketab_n

دائمة معهما وأننا لن ننتصر إلا بالعنف والعنف فقط!

ضحك مازن وعلق قائلاً:

- إنْ كان قد تبقى شيء من طبقة المينا إذا ً، فيجدر بك أن تتبرع به إلى الجمعيات الخيرية!

- إنني أعرفك منذ أربعين سنة! لا تحاول إقناعي بأنك تفرش أسنانك بطريقة لطيفة ومثالية!

- في الواقع لم أكن ألقي لذلك بالا إلى أن سمعتُ هذه المعلومة ذات مرة من طبيب الأسنان الذي أذهبُ إليه. وعلى أية حال أن تصل متأخراً خيرٌ من أن لا تصل أبداً.

- عمري الآن خمسون سنة، وأسناني ناصعة البياض. ومع كامل احترامي وتقديري لك يامازن ولطبيب أسنانك، أرجو منك أن تُبلّغ تحياتي الحارّة له ولطبقة المينا.

قلتها وأنا أبتسم وأظهِرُ أسناني بطريقة مُستفزّة. كنا وقتها نمارس رياضة المشي ونسير على أحد الأرصفة بعد أن تناولنا وجبة العشاء. ولم يكن الرصيف مزدحماً بالمشاة، وعلى الرغم من ذلك فلم نلحظ وقتها بأنّه كان يسيرُ خلفنا شابٌّ يبدو في العشرين من عمره يرتدي ملابس رثّة، وكان يسترقُ السمع طوال الوقت لحديثنا ونقاشنا. وما إنْ التفتُّ ناحيته حتى توقف وأخذَ يُشير إليّ بطريقة غريبة وقد جحظت عيناه وارتفع حاجباه وهو يقول:

Twitter: @ketab_n

- عُمركَ أنت خمسون سنة؟! كيف؟! ولماذا تبدو صغير السن؟! هل تتناول أدوية معيّنة أم ماذا؟!

تصلبتُ في مكاني وشعرتُ بأنّ السّر الذي جاهدتُ لإخفائه سنين طويلة سيشيع وينتشر بسبب هذا الشاب الذي جاء من العدم! وقد بدأ العرق يتصبب من جبيني في الوقت الذي أخذ فيه هذا الشاب يتفحصني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدميّ ويهز رأسه باستغراب. وقد تدخل مازن فوراً وقال وهو يضحك:

- هل صدّقتَ حقاً ماقاله؟! إنّ هذا الفتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وهو يُعاني من عُقد نفسية شديدة، بل ولأكون صادقاً معك، فقد وصف الأطباء حالته بأنّها نوعٌ من أنواع الجنون، كما أنّه شديد الخطورة، وعدواني شرس، إلى درجة أنه يظل محبوساً طوال اليوم في قفص حديدي ولا يخرج إلا ويداه مكبلتان بالسلاسل!

ونظر مازن إلى يديّ وأخذ يردد بفزع:

- السلاسل؟! أين السلاسل؟!

وبدأ يتلمس جيوبه بهلع:

- تبًا، لا بد من أنّني قد نسيتُ السلاسل!

ولم يكد يكمل جملته حتى أطلق الشاب ساقيه إلى الريح، وأخذ يجري بسرعة بالغة، وهو يلتفتُ إلينا تارة ويسقط وينهض تارة أخرى،

Twitter: @ketab_n

حتى لم نعد نراه وقد انفجرنا ضاحكين، حتى كدنا أن نقع على ظهورنا من شدة الضحك، ومن ثم وكزت مازن في صدره وأنا أنظر إليه بعتب:

- سلاسل إذاً ! لقد خُيّل إليّ بأنني كلبٌ من الكلاب ولستُ إنساناً؟!

- حسنًا، ربما يكون خيالك صحيحاً إن كان هو أيضًا يعاني من خللٍ هرموني!

وأخذ يضحك.

ابتسمتُ وارتشفتُ بضع رشفاتٍ من كوب القهوة الساخنة، وأنا أتأمل رغوة الصابون التي انتشرت على يدِي اليُمنى. أعلم بأنّ مازن شخصٌ فريدٌ من نوعه. وأدركُ بأنّه يندر أن يُوجد شبيه له في زمننا هذا. لقد عانى وقاسى خلال فترات حياته من التغيرات التي مرّت عليه ففي طفولته وشبابه كان يعاملني كقرين له، وبعد أن بلغ الثلاثين بدأ ينظر إليّ كأخٍ أصغر له وحينما تجاوز الأربعين أصبحتُ ابناً له. ومع ذلك، لم يتأثر ولم يحزن ولا أذكر بأنّه قد انفعل أبداً أو فقد القدرة على التحكم بأعصابه، لقد كان دائماً حكيماً ومتروياً. ولطالما كنتُ أولوية بالنسبة له؛ يُقدمني على زوجته وأبنائه بل وحتى على نفسه وصحته أحياناً.

- ماهي حكمتك في الحياة يا مازن؟

- حكمتي في الحياة؟ اممم سؤال شيّق. بصراحة لا توجد حكمة

Twitter: @ketab_n

بعينها أسير عليها في حياتي، بل إن ما أقوم به هو مبني على خلاصة التجارب التي مررتُ بها والتي عايشتها..

- أوه كلا لا تحاول خداعي بحديث عام لا معنى له! أريدك الآن أن تُخبرني عن الحكمة التي تؤمن بها وعن خلاصة تجاربك، وخلاصة التجارب هي حِكم أليس كذلك؟

قلتها وأنا أغمز بعيني في الوقت الذي لم يُشاهد فيه مازن هذه الغمزة لأنّه كان يُحدّق بعيداً في الأفق. كنا نجلسُ على بساط صوفي أسود اللون ومُقلم باللون الأزرق، على تلة رملية في «الثمامة»، تلك المنطقة الواقعة في الرياض والمشتهرة بمساحاتها الترابية الشاسعة. كانت الأجواء في ذلك الوقت جميلة؛ فالسماء مُلبّدة بالغيوم، والهواء مُنعش عليل، وكنا نتوقع نزول المطر في أي لحظة. وقد امتلأت المنطقة القريبة منا بالخيام وبالرجال والنساء والأطفال الذين انتشروا يلعبون ويركضون في الأرجاء، وكانت أصوات الدراجات النارية، وزعيقُ مالكي الإبل والخيول وهم يرددون «الدورة بعشرة ريالات» يُدوّي في المكان. وكان على البساط زمزميتا شاي وقهوة وبعض المكسرات والحلوى. وبعد أن تأخر مازن في الرد أخذت ألوح بيدي أمام عينيه بطريقة ساخرة وأنا أردد:

- نحنُ هنا، نحنُ هنا! أين ذهبتَ؟!

التفت مازن إليّ وهو يبتسم:

- لقد سرحتُ قليلاً؛ في الواقع كنتُ أفكر بسؤالك...

Twitter: @ketab_n

ومن ثم عاد لينظرَ مجدداً إلى المكان الذي كان ينظر إليه وقد بدا وكأنه قد أحب تحليقه وسفره بناظريه في الأفق، وقد أطلق زفرة عميقة وقال:

- أظنُ بأنّ حكمتي هي بأنّ قيمتنا في الحياة عبارة عن مجموع فضائلنا وإحساننا إلى الآخرين.

وضعتُ كوب القهوة على أرضية الحمام، وانغمستُ بوجهي داخل الماء لأزيد بدموعي المنسكبة منسوب الماء في الحوض.

لم أستيقظ في اليوم التالي إلا قبيل الظهر. وبعد الصلاة، لم تكن لديّ رغبة لتناول أي شيء وقررتُ أن أصنع كوباً من القهوة، واكتفيتُ بالجلوس أمام التلفاز. وبعد مرور بعض الوقت رنَّ هاتفي المحمول ونظرتُ إليه وكان نفس الرقم الذي ظلَّ يتصل في اليومين الماضيين. تجاهلته وأكملتُ مشاهدة التلفاز. لا أدري لماذا لا تنهمر عليك المكالمات إلا حينما ترغب بالابتعاد عن الناس والجلوس مع نفسك! رنَّ الهاتف ثانية، وقد أحسستُ بالغضب في هذه المرة، فمن يظنُ نفسه هذا الذي يُصر على الاتصال مرة بعد أخرى ولا يحترم أو يقدر الآخرين! وبدأتُ أفكر بإغلاق الجوال إلى أجلٍ غير مُسمى! وفي اللحظة التي هممتُ فيها بفعل ذلك هاجمتني لفحة ساخنة من الذكريات المفاجئة.

- أحمد، إلى متى ستظل على هذه الحال؟!

- أي حال؟

Twitter: @ketab_n

- هذه الحال التي أنت عليها! فأنت لا تخرج ولا تعمل ولا تختلط بالناس. لقد انفصلتَ تماماً عن العالم الخارجي!

- لا يُهمني ما يحدث في الخارج. أنا مرتاحٌ وقنوعٌ بما أنا عليه. ولا يحق لك أن تتدخل يامازن!

- بل يحق لي أن أتدخل! أتعلم كم مضى عليك وأنت على هذه الحال؟ لقد مضى ثلاث سنوات! نعم، ثلاث سنوات كاملة! أعلم وأعي بأنّ فقدان الأب والأم أمرٌ صعب ومحزن ومأساوي أيضاً، ولكن الحياة لن تتوقف، ولن تنتهي! لقد فقدتُ أبي أنا أيضاً، وقد عانيتُ وتألمتُ في بادئ الأمر. ولكنني بعد ذلك عُدتُ مجدداً إلى ماكنتُ عليه وتجاوزتُ الأمر. إنّ ذكرى أبي راسخة في مخيلتي ولن تتزحزح! واندماجي في الحياة لن يُدنسها أو يسيء إليها أو يعني بأنني لا أحب والدي أو أنني لستُ حزيناً على فراقه! إنني أذكره كل يوم وأترحم عليه في كل ساعة ولكن عجلة الحياة لا تتوقف يا أحمد. أتظن بأنّ والديك لو اطلعا على حالك هذه وشاهدا ما أنت عليه الآن، هل تظن بأنّه سيسرهما ذلك؟! كلا، بل سيحزنان أشد الحزن، إنّ أمك وأباك يريدانك أن تخرج إلى الحياة مجدداً، أن تعمل وتسير، وتكافح، وتجد، وتجتهد، لا أن تجلس مكتوف اليدين وتضرب أخماساً بأسداس وتتحسر وتبكي على الماضي الذي لن يعود! لقد آن الأوان لكي تنتفض حيّاً من جديد!

رنَّ هاتفي المحمول، وأجبتُ عليه هذه المرة.

- الأستاذ أحمد عبدالرحمن؟

- نعم، يتحدثُ إليك.

Twitter: @ketab_n

- أنا نزار هاشم، المُدير العام في شركة «فلورون». لقد تغيبتَ عن الحضور في اليومين الماضيين في أول أسبوع لك في العمل! وهذه علامة سلبية، وهي مؤشرٌ على أنك لستَ جادّاً بالعَمل!

- بإمكانكم إلغاء العقد وفصلي إن شئتم!

- كلا، كلا، لم أكن أقصد ذلك، ولكنني كنت أتساءل عن السبب الذي يكمن خلف غيابك على الرغم من أنك كنت تبدو في غاية الحماس حينما قابلتك قبل أسبوعين!

- لقد توفي صديقي قبل أيام.

- أوه، أنا آسف، رحمة الله عليه... اممم حسناً هل ستأتي إلى العمل في الغد؟ لم يتبق على نهاية الأسبوع سوى يومين!

- كلا لن آتي لا في الغد ولا في اليوم الذي يليه!

- حسناً، حسناً، لا مشكلة. أصدقك القول يا أحمد بأنني أراهنُ عليك ولديّ إيمانٌ كاملٌ بقدراتك. ومتى ماوجدتَ نفسك قادرا على الحضور فنحن بانتظارك.

شكرته على نبله وتقديره وأنهيتُ المكالمة. وشعرتُ بالارتياح؛ لأنني لم أتوقع أن أجده مرناً إلى هذا الحد لاسيما وأنني لم أقابله إلا مرة واحدة وقد تغيبت بدون إخطار مُسبق في أسبوعي الأول من عملي الجديد.

Twitter: @ketab_n

حقاً من الرائع والجميل أن مثل هذه المشاعر الإنسانية المتفهّمة مازالت موجودة في هذا العالم. نحن بحاجة ماسّة إلى مثل هذا التراحم والتعاطف والتلاحم، وأن نكون كالجسد الواحد وأن نصبح كالبنيان المتماسك لِيغدو المجتمع مجتمعاً صحياً ومثمراً، ولِيَعُم الأمن والرخاء والازدهار أرجاء البلاد.

في مساء ذلك اليوم خرجتُ إلى أحد الأسواق المركزية القريبة واشتريتُ بعض الحاجيات والمستلزمات، ومن ثم عدتُ إلى الشقة وبدأت في نقل المشتريات وتوزيعها، فبعض منها وضعته في الثلاجة والبعض الآخر في الرفوف المناسبة. كنتُ لم أزل لم أصبغ شعري وقد اكتفيتُ عند الخروج بارتداء الطاقية والشماغ اللذين كانا كفيلين بتغطية كل عيب خلقي في الرأس!

لم أتناول أي وجبة دسمة منذ عدة أيام، ومازلتُ إلى الآن فاقداً لشهيتي. غير أنني أرغمتُ نفسي هذه المرة على أن أتناول شطيرة جبن مُحمّصة وكوباً من الشاي. ومن ثم أويتُ إلى فراشي بعد أن فرشتُ أسناني وارتديتُ لباس النوم. وقد أخذت أتقلب فترة طويلة من الوقت قبل أن أنام وهكذا كان دأبي دائماً حينما يكون عقلي مشغولاً وحينما يكون هناك أمرٌ يقلقني أو يحزنني. و لديّ الآن كل الحق في القلق والتوجس من المستقبل؛ فلقد أصبحتُ وحيداً ومنفرداً أقود قاربي الذي تتلاطمه أمواج الحياة العاتية من كل جانب.

كانت الغرفة شديدة الظلمة، فأنا لا أشعر بالراحة في النوم في

Twitter: @ketab_n

غرفة يتسلل إليها الضوء. وبينما أنا كذلك إذْ أضاء نور جوالي الموضوع على المنضدة التي بجانب السرير وبدأ في الرنين وشعرتُ بقشعريرة مفاجئة تسري في جسدي. كانت الساعة حينها الحادية عشرة مساءً وأخذتُ الجوال ونظرتُ بصعوبة وبعينٍ واحدة إلى شاشته التي كانت شديدة السطوع وسط هذا الظلام الدامس. لم أستطع تمييز رقم المُتصل وبدا لي بأنّه يتصل عليّ للمرة الأولى، وقد تعجبت من هذا المتصل وتساءلتُ عن هويته وما الذي يريده في هذا الوقت المتأخر! وقد ترددتُ كثيراً في الإجابة، قبل أن أقرر أخيراً بأن أجيب؛ فالهموم والغموم والأفكار السوداوية لم تكن تنقصني ومافتئت تسيطر علي وتحرمني من النوم ولم أكن بحاجة إلى زيادتها وإلى إضافة همٍ جديد وحيرةٍ أخرى تتمثل بالتفكير في هذا الاتصال!

أجبتُ وجاءني صوتٌ أنثوي، ميّزته من الوهلة الأولى وعرفتُ هوية صاحبه:

- هل أنت بخير يا أحمد؟ لقد قلقتُ عليك!

- نعم أنا بخير. وأنا أتفهم سببَ قلقك تماماً فشخصٌ مجنونٌ مثلي لابُدَّ أن يُسبّب لكِ القلق!

- مجنون؟! من قال إنك مجنون؟! كيف تصف نفسك بذلك؟!

- لم تقوليه أنتِ، ولكن قاله الدواء الذي وصفتِه لي.

صمّتتْ الدكتورة أبرار لفترة من الوقت، حتى ظننتُ بأنّ

Twitter: @ketab_n

الاتصال قد انقطع، قبل أن يأتيني صوتها هادئاً رخيماً:

- لقد فهمتُ الآن سبب تغيبك عن الجلسة الماضية وعدم ردك على اتصالات المركز الطبي.

ومن ثم التقطتْ أنفاسها وأكملت:

- وأنا لا ألومك، ولو كنتُ مكانك لقمتُ بالأمرِ نفسه. لقد أخطأتُ يا أحمد، وأنا أقر بخطأي الآن. وما أريده منك، هو أن تسامحني، وأن تمنحني فرصة ثانية، وأن تفتح معي صفحة جديدة تكون مبنية على الصدق والصراحة. وأعدك بأنني لن أخفي عنكَ شيئاً مرة أخرى.

- أخشى بأنّه قد فات زمن الفرصة الثانية، أنا آسف!

وقالت بانفعالٍ واضح وبتأثر جليّ وقد تغيرت نبرة صوتها وبدت وكأنها تُوشك على البكاء:

- ولكن لماذا؟ كل ما أريده هو فرصة أخرى لكي أصحح خطئي. أنا نادمةٌ أشد الندم. ثِق بي هذه المرة. فقط هذه المرة!

- لا أعتقد بأنني سأكون قادراً على أن أثق بكِ مجدداً؛ فلقد أظهرتِ براعةً فائقةً في التمثيل في المرة الماضية وشعرتُ -لغبائي- بأنكَ تكترثين لأمري وتصدقينني، ولكن كُنت مُخطئاً وأحمقَ حينما ظننتُ ذلك. سامحيني، فأنا لن أثق بكِ ماحييت!

لم تأتني أي إجابة هذه المرة، وبدأتُ أسمع صوتَ بكاءٍ يأتيني

Twitter: @ketab_n

من الطرف الآخر. وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها صوت بكاء امرأة وهي تُكلمني؛ ولم أرَ أو أسمع أي امرأة تبكي من قبل سوى في المسلسلات وبرامج التلفاز! ولن أنكر بأنّ بكاءها قد حرّك مشاعري وأثّر في نفسي. ولم أتكلم واكتفيتُ بالصمت في الوقت الذي كانت تنتحب فيه وهي تحاول جاهدة أن تكتم بكاءها وأن تستجمع أنفاسها! ومن ثم قالت بصوتٍ متهدج:

- أنا أخطأت، وارتكبتُ جرماً كبيراً بحقك، وأنا أتوسلُ إليك بأن تصفح عني وأن تتكرم عليّ بفرصة أستطيع من خلالها تعويض ما اقترفته. وأرجو منك أن لا تحكم عليّ وأن لا تُقصيني قبل أن تأتيني وتسمع مني القصة بالكامل! أرجوك لا تظلمني يا أحمد!

ابتسمتُ ابتسامة سخرية كانت أقرب إلى الضحكة منها إلى الابتسامة وقد وصل صوتها بوضوح إلى الدكتورة أبرار:

- وما يُدريني أن بكاءك الآن ليس تمثيلاً هو الآخر؟!

توقف بكاؤها، وقالت بصوت ينضح بالأسى:

- لم أعد أحتمل إهاناتك المتواصلة! وداعاً.

وأنهت المكالمة. وشعرتُ حينها بأنني شخصٌ وضيعٌ ومُنحط! ولم أستطع النوم، واستمريتُ أتقلب وأفكر وأقلّب الأمور، وتجولتُ بين تلك المشاهد الكثيرة في حياتي والتي جرحتُ فيها بقسوتي وحماقتي شعور غيري وجرّيت عليهم الويلات وجرّعتهم الغُصص و الحسرات بسببِ

Twitter: @ketab_n

وقاحتي وأنانيتي! أذن الفجر وأنا على هذه الحال، وقمتُ وتوضأت وتأملتُ وجهي في المرآة، حيث كان شاحباً منتقع اللون، وهالات سوداء مستديرة تُحيط بعينيّ المُتعبتن.

في عصر ذلك اليوم، ارتديتُ ثوبي وشماغي، وتعطرتُ بعطري المُفضل، واستقللتُ سيارة أجرة باتجاه مركز «زُحل» الطبي. وصلتُ ودخلتُ من الباب الزجاجي المُجاور للصيدلية وكانت أرضية المركز من الرخام الفاخر وفي المقدمة يوجد رُكن الاستقبال، حيث يوجد شابان متأنقان بثوبهما وشماغهما خلف شاشتي حاسوب وعددٌ من الملفات والفواتير منتشرة أمامهما. وكان أحدهما جالساً من دون عمل وقد ظلَّ يُحملق بي منذ اللحظة الأولى التي دخلتُ فيها فيما انشغل صاحبه بخدمة امرأة كانت تقف أمامه. وقد قصدتُ موظف الاستقبال وألقيت عليه السلام وطلبتُ منه أن يُدخلني على الدكتورة أبرار الصافي. وقد سألني عن ما إذا كان لديّ موعدٌ مسبق فأجبتُ بالنفي، ومن ثم أخبرني بأنّها مشغولة هذا اليوم وبأنني لن أستطيع ملاقاتها إلا في الغد. وقد طلبتُ منه أنْ يُبلغها بقدومي فقط، واضطر أمام إلحاحي بأن يرفع سماعة الهاتف حيث أخبرها عن وجودي، وبعد بُرهة وضع السماعة وأبلغني على مضض بأنّها طلبتْ منه أن يدعني أنتظر إلى أن تفرغ من المريضة التي عندها. ومن ثم أشارَ بيده إلى غرفة الانتظار وطلب مني الجلوس بداخلها إلى أن تستدعيني الممرضة.

دخلتُ إلى الغرفة والتي كانت على يسار ركن الاستقبال، وكان يوجد عند بابها من الخارج برادة ماءٍ صغيرة بيضاء اللون وبجانبها

Twitter: @ketab_n

أكوابٌ ورقية قد خرج آخرها من وسط أنبوبة رصاصية اللون. وكانت غرفة الاستقبال غرفةً صغيرة يوجد في منتصفها طاولة خشبية يُحيط بها من الأمام شاشة مُسطحة ضخمة مُثبتة بإحكام على الجدار الأمامي، فيما كان يحيطُ بها من الثلاث جهات المتبقية أريكة سوداء من الجلد الأسود. ألقيتُ السلام وجلست في الأمام حيث كانت عن يساري الشاشة وأمامي الباب المفتوح والذي يُتيح لي النظر بوضوح إلى ركن الاستقبال ومَن حوله.

لم تكن الغرفة مُزدحمة، كما أنها لم تكن فارغة أيضاً، إذْ كان يوجد بها ثلاثة أشخاص بأعمارٍ وهيئاتٍ متفاوتة. وكان يوجدُ على الطاولة الخشبية بضع مجلاتٍ متنوعة، معظمها مجلات طبية وعلمية. وقد أخذتُ ما بدا من غلافه بأنّه أقلُّها مللاً، وبدأتُ في تقليب صفحاته بتضجر. وأسوأ ما في لحظات الانتظار أنك تُصبح في دوامة مريرة من البحث عن أي أمرٍ مثير وتجد بأنك تبدأ في التفاعل –من شدة الرتابة– حتى مع أكثر الأمور إثارة للملل والسأمة! غير أنّي لم أستطع أن أتحمل تقليب صفحات هذه المجلة الطبية التعيسة والتي كانت تتحدث عن أمراض نادرة وعن آخر ما توصل له العلم في ما يختص بأطفال الأنابيب! ورميتُ المجلة بعد أن طفح الكيل، والتفتُّ ناحية شاشة التلفاز وبدأتُ أنظر إليها؛ وكانت موضوعة على قناة إخبارية تعرضُ برنامجاً حوارياً بين مقدم أصلع الرأس وضيف كث الشعر يبدو شبيهاً بمنظر المخترعين والعباقرة، وتعجبت من التناظر والتناقض الكبير بين شخصية المذيع وضيفه. وكان الصوتُ مكتوماً مما زاد الطين بلة وأضاف للملل مللاً جديداً؛ حيث لم يعد أمامك سوى أن تتخيل وأن

Twitter: @ketab_n

تتوقع ما يتحدث عنه هذان الرجلان. وعلى أية حال لم أرَ بأنّ هنالك فرقا كبيرا فيما لو كان الصوت مسموعاً أو مكتوماً؛ ففي كل الأحوال لن أتوقع أن أجد حديثاً شيقاً وحواراً جذاباً.

وعندما لم أجد أي أمر من شأنه أن يزيل هذه الرتابة، بدأتُ أقلب طرفي وأدير عيني بين الجالسين في الغرفة. وكان أقربهم إليّ فتىً مراهقاً يجلس عن يميني. أخذتُ أتأمل في هيئته وأتعجب منها ومن منظره الغريب؛ حيث كان شعره كثيراً ومُجعّدًا وكان يبدو وكأنه مراهق قادم من عصر الثمانينيات حينما كان شعر معظم الشباب في ذلك الجيل شبيهاً بهذه التسريحة. وكان نحيلاً و وسيماً، أبيض البشرة، ودقيق الأنف، وقدّرتُ بأنّه في الخامسة أو السادسة عشرة من عمره. وكان يضع على أذنيه سماعة ضخمة بيضاء اللون وفي منتصفها كُتب الرقم ستة بلون أحمر. وكان يهز رأسه بين الفينة والأخرى وقد استنتجتُ على الفور بأنّه يقتلُ لحظات الانتظار بالاستماع إلى الموسيقى. وكان يرتدي قميصاً أحمر اللون وبنطالاً ضيقاً من (الجينز) أزرق داكن اللون، وينتعلُ حذاءاً رياضياً كبيراً يلفت الأنظار لونه أحمر وعليه خطوط بيضاء. وقد استهجنتُ منظره، وتحسّرت على الأيام الخوالي التي كان من النادر فيها أن ترى صغيراً أو كبيراً يخرج بغير الثوب.

ومن ثم أدرتُ بصري نحو الشخص الثاني في الغرفة، وكان شاباً يجلس في منتصف الغرفة ويعبث في جواله. وكان حنطي اللون، يبدو في منتصف العشرينيات، وسميناً سمنة مفرطة، لا تملك حيالها سوى أن تشعر بالأسى على صاحبها. فلا بد من أنّه يعاني في حياته الأمرّين

Twitter: @ketab_n

بسبب وزنه الزائد، وأظنه لم يأتِ إلى هذا المركز إلا من أجل أن يبحث عن علاج لسمنته. ولكن ما علاقة السمنة بالمركز النفسي! حسناً قد لا تكون السمنة هي السبب في قدومه إلى هنا. ولكن لحظة، قد يكون مُصاباً بعقد نفسية ناجمة عن شعوره بالنقص بسبب السمنة، أو ربما لأنّه يشعر بأنّه محط ازدراء وسخرية من الآخرين ولذلك قصد هذا المركز من أجل أن يتغلب على هذا الشعور السلبي. وابتسمتُ في لحظة رضا عن نفسي وعن التحليل والعلاقة التي ربطت فيها وجوده بوزنه، وشعرتُ بأني وُلدت لأصبح طبيباً نفسياً!

وتوجهتُ بعيني بعد ذلك إلى الشخص الثالث في غرفة الانتظار والذي كان يجلس أمامي مباشرة وبجوار الباب. وكان رجلاً نحيلاً جداً، يبدو في الثلاثينيات من عمره، أسمر البشرة يضع نظارة طبية حول عينيه، ولديه شاربٌ كث يغطي فمه بشكل كامل! وقد تعجبتُ كيف يستطيع الشرب والأكل وهذا الشارب يحرسُ فمه حراسة الجنود المخلصين للكهم المحبوب! وتخيلتُ منظره وهو يشرب كوبًا من اللبن واشمأززت من الفكرة وحاولتُ مباشرة أن أطرد هذه الصورة من رأسي. وحاولتُ أن أنظر إليه نظرة عامة متناسياً فيها الشارب هذه المرة. كان يرتدي ثوباً وغترة صفراء، وراحَ يُقلب بيده اليمنى سبحةً زرقاء اللون، وكان ينظر بشرود نحو شاشة التلفاز. ومع أنني حاولت جاهداً أن أتجاهل الشارب إلا أنني لم أستطع وفكرتُ بأنّه مع نحافته الشديدة هذه ومع هذا الشارب الضخم فلا بد من أنّ نصف وزنه يحتله هذا الشارب وحده!

Twitter: @ketab_n

ولم أستطع أن أمنع نفسي من التبسم على صدى فكرة الشارب ووزنه، والتفتُّ عن يميني وفوجئتُ بأنّ الفتى المراهق كان ينظرُ إليّ باستغراب ويبدو بأنه قد تعجبّ من ابتسامتي المفاجئة. وأغلبُ الظنّ أنه قد بات يعتقد بأنني مجنون ومختل عقلياً؛ فأنْ تبتسم فجأة وبلا سببٍ واضح في غرفة انتظار قبل جلسة لك مع طبيب نفسي فهذا مؤشر لا يبعث على الطمأنينة أبداً. وحاولتُ أن أتدارك الأمر، وابتسمتُ بوجهه، حيث ازدادت عيناه اتساعاً عندها وارتفع حاجباه في دهشة أكثر من ذي قبل، وأحسستُ بأنني قد زدت الطين بلة! وقلتُ على الفور بنبرة تبريرية:

- لقد تذكرتُ أمراً مضحكاً ولهذا ابتسمت.

وخلع مباشرة السماعة ووضعها حول رقبته:

- المعذرة، لم أسمع ماقُلته لي. هل بإمكانك أن تُعيد ما...

وقاطعته:

- لا عليك، هو ليس أمرًا هامًّا على أية حال. لقد قلتُ لك بأنّ سبب ابتسامتي هو تذكري لأمرٍ مضحك بعد أن رأيتك تنظر إليّ بدهشة.

وابتسمتُ. وقد ضحكَ هو بدوره وقال:

- في الواقع لم أكن أنظر إليك! لقد كنتُ أُطالعُ شاشة التلفاز، أنظر.

Twitter: @ketab_n

وأشار بيده إلى الشاشة وأكمل:

- إنهم يعرضون تقريرًا مصورًا عن أطول رجلٍ في العالم.

وأدرتُ رأسي ناحية التلفاز وأنا أشعر بحرج شديد، وأحسستُ بأنني وصلتُ إلى مرحلةٍ من الغباء لم يسبقني إليها أحد! وقد كان يوجد في التلفاز رجلٌ صيني، فارع الطول، ويحمل بيده طفلاً صغيراً بدا أشبه بقطعة حلوى في يدِ طفلة صغيرة.

- أظنُّ بأنّ طوله ثلاثة أمتار. أليس كذلك؟

قالها وهو مايزال مندهشاً. وضحكتُ وقلتُ بعد أن التفتُّ إليه:

- كلا، كلا، ليس إلى هذه الدرجة. لا أظنه يزيد عن المترين ونصف في أسوأ الأحوال!

- أمرٌ غريبٌ حقًا. كيف يقدرُ على العيش وهو على هذه الحال، ومن ثم فكيف سيتزوج وهو بهذا الطول الشاهق؟!

ابتسمتُ لسؤاله؛ إذْ أنّ أكثر مايشغل المراهقين في هذه المرحلة العمرية هو أمر الزواج وما يتعلق به. وتذكرتُ نفسي حينما كنتُ في مثل سنه. وأجبتُ على سؤاله بنبرةٍ ساخرة:

- حسناً، لا تقلق سيتدبر أمره، ثِق بأنّه لن يترك الزواج بسبب طوله حتى لو اضطر إلى أن يقطع نفسه إلى نصفين من أجل أن يتزوج فسوف يفعل ذلك!

Twitter: @ketab_n

وضحكَ وقال:

- ولكن إذا قطع نفسه إلى نصفين فما هو النصف الذي سيُبقيه معه، الأعلى أم الأسفل؟

ونظرتُ إليه نظرة متفحصة؛ لأرى إن كان جادًا في سؤاله هذا أم هازلاً، وقد بدا لي بأنه في غاية الجدية، وأجبت بتهكم:

- أظن بأنّه سيُبقي الأسفل، فبناطيلُ هذه الأيام في غاية الأناقة ولن يقدر على أن يتخلى عنها!

وتحدثَ بنفس النبرة الجادة:

- ولكن هل سيُصلّون صلاة الميت على نصفه الأعلى؟ ومن ثم فهل سيحضر بنصفه الأسفل الصلاة على نصفه الأعلى؟!

وعلمتُ بأنني أخاطب فتىً مختلاً اختلالاً لا يُرجى بُرؤه! وشعرت بالحسرة؛ فالسبب الذي من أجله بدأتُ هذه المحادثة كان لخوفي من أن يظن بأنني مجنون! ولمَّا رآني صامتاً ولا أجيب، انفجر ضاحكًا ووضع يده على كتفي وهو يقول:

- لقد كنتُ أمزح معك. أعلم بأنّك الآن تعتقد بأنني مجنون!

وأيقنتُ هذه المرة بأنني أنا المخلوق الأغبى على الوجود. وقد أكمل حديثه قائلاً وهو يغالب ضحكاته:

Twitter: @ketab_n

- النظرة التي كانت على عينيك حينما ظننتَ بأنني مجنون لا تُقدر بثمن! حقـًا لقد صنعتَ يومي!

وابتسمتُ في وجهه على مضض وأنا أتمنى لو انشقت غرفة الاستقبال وابتلعتني! وقد أنقذني دخول الممرضة وهي تنادي باسمي حيث وقفتُ بعد أن ودعت هذا الفتى غريب الأطوار وتبعتها نحو غرفة الدكتورة أبرار الصافي. وقد قامتْ بطرق الباب قبل أن تفتحه وتدخل وأنا خلفها حيث كانت تجلس أبرار على الكرسي وما إن رأتني حتى وقفت، وأشارت بيدها إلى الكرسي وهي تبتسم وتقول:

- أهلا بمن كان غاضباً علينا!

جلستُ على الكرسي وألقيتُ السلام، وقلتُ مُعلقاً على ملاحظتها:

- ومازلتُ غاضباً إلى الآن!

ضحكت أبرار بطريقة ودودة، وقالت وهي ماتزال واقفة:

- دعنا من هذا كله الآن، قل لي ماذا تشرب؟

- كوبًا من الشاي.

والتفتتْ بدورها إلى الممرضة وأمرتها بأن تُحضر كوبا من الشاي وكأساً من عصير البرتقال. ومن ثم جلست وهي ماتزال مبتسمة وقالت بحيوية وهي تحك راحتي يديها في بعضهما البعض:

Twitter: @ketab_n

- سلني الآن مابدا لك. إنّ هذه الجلسة ستنقلب فيها الآية، فأنت من سيسأل وأنا من سأجيب.

- لدي آلاف الأسئلة.

- أخشى بأنّه لا يوجد وقتٌ كافٍ للإجابة عن جميع تساؤلاتك. فأنتَ كما تعلم بأنّ جميع المواعيد كانت محجوزة اليوم، ولكن بعد أن أبلغني موظف الاستقبال عن حضورك، لم أُرد أن أجعلك تعود خائب الأمل، وعملتُ المستحيل من أجل أن أجد وقتاً بين موعد الجلسة التي انتهت للتو، وموعد الجلسة التي ستبدأ بعد ربع ساعة.

قلت باستغراب وبنبرة مُستاءة:

- أتعنين بأنّه لا يوجد أمامي سوى ربع ساعة فقط؟!

- كلا، بالتأكيد كلا، بإمكاننا أن نجعل الشخص القادم ينتظر عشرين أو ثلاثين دقيقة. لا عليك.

وغمزت بعينها. وشعرتُ بالارتياح لإجابتها، فبعد هذا الانتظار الطويل لم أكن على استعداد بأن أجلس معها لربع ساعة فقط، ومن ثم قلت وأنا أنظر بيعنيّ إلى الأسفل:

- في البداية أريدُ أن أعتذر لك عن مابدر مني بالأمس، لقد كنتُ وقحـًا وفظاً ولذلك أتـ...

وقاطعتني وهي تنظرُ إليّ نظرة مؤنبة:

Twitter: @ketab_n

- لا عليك، لا عليك، لم يحدث أي شيء بالأمس، ولا يوجد داعٍ للاعتذار. كما أنني مستاءة من نفسي لأنني بالغتُ في ردة فعلي، وكنتُ عاطفية إلى حدٍ كبير.

وابتسمتْ غير أنّ عينيها كانتا تنضحان بالأسى وتوحيان بأنّها مازالت حزينة مما حدث. وقلتُ بلهجةٍ مُنكسرة:

- بصراحة لم أستطع النوم البارحة، لقد كنتُ أشعرُ بتأنيب الضمير.

- يبدو بأنّك لم تكن تظن بأنّ الطبيب النفسي قد يُصبح عاطفياً في بعض الأحيان.

قالتها بنبرة تهكمية، وقد أجبتُ على الفور:

- الحقُّ أنني لم أكن أظن ذلك؛ لا سيما وأنّ عملكم يُحتّم عليكم الاستماع والوقوف على كثيرٍ من المشكلات والقضايا المأساوية. غيرَ أنّني كنتُ مخطئًا.

- حسناً لم تكن مُخطئاً إلى تلك الدرجة التي تتصورها؛ فمن المُفترض على الطبيب النفسي أن لا يُظهر مشاعره إطلاقاً وأن يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه، ولا أخفيك بأنّ ما حدث مني بالأمس لم يكن عملاً احترافياً ولو عادَ بي الوقت إلى الأيام التي كنتُ فيها طالبة وكنتُ فيها على مقاعد الدراسة وقُمتُ بنفس التصرف، فلا أظن بأنني سأنجح وسأجتاز المادة!

Twitter: @ketab_n

وضحكتْ، وأردفتْ قائلة:

- على أية حال، دعنا ننسى ما حدث بالأمس، ولنصب تركيزنا عليك؛ فأنا مازلتُ بانتظار أسئلتك.

- حسناً، سأبدأ بالسؤال الأكثر أهمية بالنسبة لي، والذي مافتئ يؤرقني ويقض مضجعي في الأيام الماضية، وهو لماذا تظاهرتِ بتصديقي في الوقت الذي لم تكوني فيه مقتنعة بكلمة واحدة مما أقول؟!

خيّم الصمتُ على المكان بُرهة من الوقت، قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا وتبدأ في الإجابة:

- سأكون في غاية الصراحة والوضوح معك يا أحمد، وسأخبرك بأمور وتفاصيل لا يُفترض بي أن أتشاركها مع مريضي. وسأبدأ معك منذ البداية، لقد وقعتُ في حيرةٍ من أمري، ولقد كان ذهني مشوشاً؛ فعلى الرغم من أنني قضيت معك وقتًا طويلاً في تلك الجلسة إلا أنني لم أتوصل ولم أتعرف على المشكلة التي تعاني منها. قصتك يا أحمد تبدو متماسكة، مليئة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة، ولكنها لا يُمكن أن تكون حقيقية. تبدو من الخارج سليماً مُعافى، وحينما تتحدث وتناقش تبدو مثقفاً وواعياً وشديد الذكاء بالنسبة لشابٍ مراهق في مثل سنك. وخلال ساعتين كاملتين، سعيتُ جاهدة للبحثٍ عن الملاحظات الهامة والتلميحات التي قد تُميط اللثام عن مشكلتك الحقيقة، وكان كلما ظهر عرضٌ يوحي بمرض مُعين، لا أجلس لحظات إلا وتأتي إشارة أخرى منك تنسف التخمين الأوّل.

وتوقفتْ قليلاً لالتقاط أنفاسها قبل أن تُكمل قائلة:

Twitter: @ketab_n

- لقد كنتُ في وضع حرج، ولوهلة ظننتُ بأنني قد فشلت في عملي -وأنا التي كنتُ دائماً ماً أثق في قدراتي وفي براعتي- وهل تعلم يا أحمد بأنّني إبان دراستي وتحضيري لشهادة الدكتوراه في أمريكا قد وصفني المشرف عليّ آنذاك بأنني أبرع وأمهر وأدق من رأى في مجالي، لدرجة أنّهم عرضوا علي وظيفة هناك براتب يبلغ أضعاف ما أتقاضاه الآن بالإضافة إلى منحي الجنسية الأمريكيًة. والآن أقف عاجزة ومكتوفة اليدين أمامٍ حالتك. ومن ثم بدأتُ في البحث عن أقرب ما يُمكن أن تكون مصاباً به ولم أجدى سوى الفصام والاضطراب الوجداني ثنائي القطب، غير أنه كانت هناك إشارات واضحة وجليّة بأنك لا تعاني منه، إلا أنني توقعت ومازلتُ أتوقع بأنني أمام نوع جديد وفريد لم يتوصل له العلم والطب النفسي بعد وتتمثل في حالتكً هذه. ولكي أقطع الشك باليقين كنتُ أريدك أن تتناول تلك الأدوية من دون أن تعلمٍ الغرض التي تُعطى له من أجل أن لا تنفر منها أو تبدو أكثر تحفظاً أو حتى تفقد الثقة بي.

- ولكن كان من السهل عليّ أن أكتشف ذلك بمجرد قراءتي للنشرة الطبية التي تأتي مع الدواء. ألم تفكري في ذلك؟!

- بلى فكرت. ولذلك كنتُ أريدُ منك أن تذهب إلى الصيدلية التي في مركزنا، لأنني نبهتُ على الطبيب أن يضع الأدوية في علبة أخرى لا تحمل أي اسم ومن دون أي نشراتٍ طبية، لكي أرى التغيرات والمستجدات التي ستطرأ عليك وعلى شخصيتك بعد أن تتناول الدواء لأصل إلى...

وقاطعتها باستياء:

Twitter: @ketab_n

- ولكن ألا يُعد هذا انتهاكاً وتعدياً على حقوق المريض؟!

- نعم أنتّ مُحق، لقد أخطأتُ يا أحمد، ولا يوجد من هو معصوم عن الخطأ، ولهذا أرجو منك أن تُسامحني وأن تتناسى ما حدث، وأن نفتح صفحة جديدة مبنية على الثقة والصراحة والوضوح. وأعدك بأن لا أخبئ عنك أي شيء وأن أخبرك مباشرة بما أفكر به وبما يدور في ذهني، ولن أتعامل معك كمريض بل سأتعامل معك كأخٍ لي تماماً.

توقفتْ عن الحديث بانتظار إجابة مني، وفي المقابل لم أتحدث أنا الآخر، واكتفيتُ بالصمت المُطبق. لقد أخطأتْ وسببت بتصرفها الأرعن الأذى لي، ولكنها الآن نادمة ومعترفة وتطلب الصفح والعفو، والأهم من هذا وذاك أنها تعدني بالصراحة والوضوح. بإمكاني أن أقول لها لا، وأن أرفض الاستمرار وأن أنسحب بهدوء، ولكن ما هي الخيارات المطروحة أمامي الآن؟ لا شيء. لم يعد أمامي أي خيارٍ آخر، وأنا الآن بحاجة أكثر من أي وقتٍ مضى إلى الجلوس والحديث مع شخصٍ أستطيع الوثوق به وائتمانه على أمري، لاسيما بعد رحيل من وقف معي وآزرني في السنين الماضية.

أغمضتُ عينيّ وزفرتُ بعمق، ومن ثم ابتسمتُ وقلتُ:

- حسناً، أظن بأننا جميعاً نرتكب الأخطاء، ولكن ما دمنا نتعلم من أخطائنا ونسعى إلى أن نُصلحها وأن نتفادى ارتكابها مرة أخرى فمن الرائع أن نجد من يثق بنا ويمنحنا الفرصة ويأخذ بأيدينا إلى طريقٍ جديد رحب يقودنا نحو الوجهة التي نحلم بها ونسعى للوصول إليها.

Twitter: @ketab_n

صمتتْ الدكتورة أبرار لبعض الوقت وهي تُحدق في بطريقة غريبة ومن دون أن يرمش لها جفن! وقالت وعلامات الدهشة بادية على مُحياها:

- يا إلهي! ما أروع كلامك يا أحمد. أتعلم، يجدر بنا أن نتبادل الأدوار، عليك أن تجلس مكاني وأن أجلس مكانك. وسُحقـًا للشهادات، فحديثك الذي قلته للتو لا يُصدر إلا من طبيبٍ نفسي بارع أفنى سنوات عمره في هذا المجال.

احمرت وجنتاي خجلاً، وضحكتُ وضحكتْ هي بدورها وقالت:

- لن تعلم عن القدر الذي أراحتني به كلماتك هذه يا أحمد. شُكراً جزيلاً لك على منحي ثقتك مجدداً وأعدك بأن لا أجعلك تندم على هذه الخطوة أبداً وأن...

وقطع حديثها رنين الهاتف حيث رفعت السماعة وأخذتْ تتحدث لبعض الوقت: «لا يهم، دعها تنتظر إلى أن أسمحَ لها بالدخول... قُلْ لها بأنّها إذا كانت قد ملّت من الانتظار فعليها أن تعود إلى بيتها!» كانت مُستاءة وتتحدث بنبرة عالية. ومن ثم وضعت سماعة الهاتف ونظرتْ إليّ وابتسمتْ وبادرتها بالقول:

- هل يتوجب عليّ الرحيل الآن؟ لا أريد أن أتسبب بمشكلة.

- كلا، لا عليك. إنّها أمور روتينية دائماً ما تحدث. لا تشغل بالك بها. والآن هل لديك أي سؤال؟

Twitter: @ketab_n

- امم كلا لا أظن بأنّه قد تبقى لديّ أي أسئلة... أوه، لحظة، قبل أن أنسى، هل أنتِ الآن تصدقينني أم مازلتِ تظنين بأن قصتي هي محض أوهام ليس إلا؟

- حسناً، لأني وعدتك بأن لا أخفي عليك أي شيء وأن أكون صريحة معك، فسأخبرك بأنني مازلتُ أعتقد بأنّ قصتك غير صحيحة وبأنها مجرد تخيلات. وأرجو أن لا يكون هذا الكلام جارحاً لك. وما يجب عليك أن تعرفه أنني سأظل معك إلى أن تتخطى هذه الأوهام وتتجاوزها. كما أنني لن أصف لك أي دواء على الإطلاق وسأسعى إلى الوصول إلى هذه الغاية، المتمثلة بتغلبك على أوهامك، من خلال الاستماع والإنصات إلى قصتك والبحث عن أي خلل أو تناقض فيها من شأنه أن يجعلك تقتنع باستحالة صحتها وبأنها لم تحدثْ على أرض الواقع. وتأكد بأنني لن أقلل من مشاعرك ولن أسيء إليك بأي شكل من الأشكال، وسأستمع إليك بإنصات تام، وبتفاعل بالغ، ولك كامل الحرية في الانسحاب متى ما شعرت بأنّه لا جدوى في القدوم إليّ.

لم أتمالك نفسي من الابتسام:

- من الغريب بأن أتحدث مع شخص لا يصدق كلمة مما أقول، وأظل مع ذلك أرغب بالحديث معه!

- إذا كان هذا الشخص لن يُسفّه رأيك أو يُقلل من قدرك أو يُسيء إلى الشخصيات الواردة في قصتك وسيتعاطف ويتفاعل معك فسيكون أفضل بكثير ممن يُصدّق وهو لا يهتم أو يتفاعل، أليس كذلك؟

وقفتُ وأنا أقول:

Twitter: @ketab_n

- أظن أنكِ مُحقة. على أية حال، لا أريد أن أمكث لفترةٍ أطول، لاسيما وأنّ هناك من هو أحق مني بالجلوس هنا. والآن متى ستكون الجلسة القادمة؟

بدأتْ تُقلّب في أوراقٍ كانت موضوعة أمامها على الطاولة ومن ثم قالت وهي ماتزال تبحثُ في الأوراق:

- بعد يومين، وأظنُّ بأننا سنكون بحاجة إلى تكثيف الجلسات خلال الأيام المُقبلة خصوصاً وأنني سأضطر إلى أن أسافر بعد أسبوعين لحضورِ مؤتمرٍ طبي مُقام في مدينة دبي وسيستمر لخمسة أيام.

- حسناً لا مشكلة.

وودعتها وقبل أن أخرج من الباب التفتُّ إليها وقلت بتهكم:

- بالمناسبة لقد استمتعتُ بمذاق الشاي!

- أوه، لحظة، صحيح، نحن لم نتناول الشاي، لم يحضروه لنا! أوه أنا آسفة حقاً.

وغطت وجهها بكلتي يديها وهي تشعر بحرجٍ بالغ. وابتسمتُ وقلت وأنا أفتحُ الباب:

- لقد كنتُ أمزح فقط. في الواقع لم أكن أشعر برغبةٍ في تناول الشاي، ولكن طلبتُ شربه مجاملة لكِ في أول الأمر.

Twitter: @ketab_n

خرجتُ من المركز الطبي ولم أدفع أي شيء هذه المرة؛ لأنّه لم يكن هناك حجزٌ مُسبق، ولأن الدكتورة أبرار أكدت لي بأنّ هذه الجلسة لم تكن رسمية ولا تستحق أن يُدفع مقابلها.

وما إن خرجتُ إلى الشارع من أجل انتظار قدوم سيارة أجرة، حتى رأيتُ ذلك الفتى المزعج الذي كان يجلس في غرفة الانتظار، وكان يتجول في الخارج والسماعات على أذنيه. ولم يكن قد تبقى على أذانِ المغرب وقت طويل، وكانت السيارات تمر بكثرة في الشارع. وكان كل ما أخشاه أن يراني ويتحدث معي، ولذلك وقفتُ بعيدًا عنه وأشحتُ بوجهي وأدرتُ ظهري له ودعوتُ الله بأن يُعمي بصره عني. ولم يكد يَمُر على وقوفي دقيقة واحدة حتى شعرتُ بشخص يُربِّتُ على كتفي، والتفتُّ وإذا بهذا الفتى يقف خلفي وينظرُ إليّ وسماعاته حول رقبته، وقال لي وهو يبتسم:

- كيف كان موعدك؟

أحسستُ بأنّ هذا اليوم سيكونُ طويلاً جداً!

- لم يكن سيئاً.

- وما هي مشكلتك التي أتيت من أجلها؟

تعجبتُ من فضوله الشديد، ومن جرأته البالغة. وبحثتُ عن إجابة مناسبة من الممكن أن أقولها له:

Twitter: @ketab_n

- لا شيء جدي. مُجرد حديث ليس إلا.

- لا تقل لي بأنّ مشكلتك مثل مشكلتي؟

- أنا لا أعرف ما هي مشكلتك أصلاً!

- أعلم ذلك. إنّ مشكلتي تتمثل في عدم قدرتي على التركيز، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أحمل الكتاب المدرسي أكثر من خمس دقائق. وقد قيل لي بأنّ مشكلتي هذه نفسية بالمقام الأول، ولهذا أحضرني والدي إلى هنا.

أخذتُ في تثبيت شماغي من أجل أن لا يتطاير بسبب الريح التي بدأتْ تهب في الشارع؛ لكي لا يُفزع شعري الأبيض هذا الفتى. ومن ثم قلتُ له:

- بمقدورك القول بأنَّ مشكلتي هي شبيهة بمشكلتك.

وتوقعتُ أن ينتهي الحديث عند هذا الحد. وتمنيت أن لا يطول انتظاري هنا، وأن تأتي سيارة الأجرة سريعاً. غير أن توقعي خاب وواصل الفتى حديثه:

- أنا هشام بالمناسبة.

وعلمت بأنني لا بد من أن أعرِّف بنفسي:

- أهلاً هشام. أنا أحمد.

Twitter: @ketab_n

- لابد من أنّك تدرس في الصف الأول ثانوي أليس كذلك؟

تعجبت من تحديده لهذا الصف بالذات واستنتجتُ على الفور بأنّه يدرس في هذه المرحلة.

- تستطيع أن تقول ذلك.

وتهللتُ أسارير وجهه فرحًا:

- وما هي مادتك المُفضلة؟

آه، متى سينتهي هذا الجحيم!

- لا أدري، ولكن بالتأكيد ليست الرياضيات!

- لقد انضممتَ لتوك إلى النادي.

نظرتُ إليه باستغراب:

- النادي؟

- نعم، فأنا مثلك.

- أتقصد بأنّك تكره مادة الرياضيات؟

وبدأ يحك شعره المجعد وهو ينظر إلى السماء ويقول:

- لستُ أكرهها، ولكن لنقل بأنّه لو كانت مادة الرياضيات رجلاً،

Twitter: @ketab_n

وتعرَّض لحادث دهس من قبل حافلة، فسأكون أنا سائقُ تلك الحافلة!

وأخذ يضحك. وتعجبت من أسلوبه الغريب، ومن سخريته اللاذعة. وقد اكتفيت بالتبسم مجاملة له. وغيّرتُ دفة الحديث وبادرته بالسؤال وأنا أشير بإصبعي إلى ساعته:

- بالمناسبة ما المقصود من الرقم ستة؟ ولماذا هذا الرقم بالذات كُتب على ساعتك؟

قال باستغراب:

- أنت تمزح أليس كذلك؟

- كلا، ولماذا أمزح؟!

- هل يوجد على هذا الكون من لا يعرف ساعات «بيتس»؟!

وقلتُ بكل ثقة وبهدوءٍ بالغ:

- أنا لا أعرفها!

- إنّ هذه لا ترمز إلى الرقم ستة -كما تظن- بل هي حرف «بي» بالإنجليزية إشارةً إلى أول حرف من كلمة «بيتس»، وهي العلامة التجارية لهذه الشركة الشهيرة المتخصصة في الإلكترونيات عموماً وفي صناعة الساعات على وجه الخصوص. وساعاتها هي الأشهر والأكثر شعبية حول العالم؛ ولذلك نرى المشاهير من ممثلين ولاعبين

Twitter: @ketab_n

وغيرهم يرتدونها بالذات.

هززتُ رأسي وأنا أتظاهر بالاهتمام، إذ أنّ آخر ماكنتُ أكترث له هو جديد التقنية وما يلبسه ويقتنيه المشاهير! وقد أدرتُ بصري بعيداً عنه نحو الشارع بحثاً عن سيارة الأجرة التي طال انتظارها، وقد عاد ليسألني مجدداً:

- ماذا تنتظر هنا في الشارع؟

أجبتُ بصبر:

- أنتظرُ مرور سيارة أجرة.

- وأين والدك؟

- لا يستطيع القدوم.

- وماذا عن جدك؟

أحسستُ بأنني على وشك الانفجار، و لم أعد أطيق الصبر أكثر وعلمتُ بأنني لا بد لي من أن أكون أنا من يوجه الأسئلة لكي أتفادى فضوله وتساؤلاته التي لا تنتهي.

- أتسمح لي بسؤال ياهشام؟

- تفضل.

Twitter: @ketab_n

- لماذا تنتظر هنا؟ أين والدك؟ أين جدك؟

- لقد خرجتُ للتو، واتصلتُ على أبي ليأتي ويأخذني معه. وهو الآن في طريقه للوصول وأنا أتجول هنا في الخارج لأنني مللتُ من الجلوس بالداخل. وأما جدي فأنا لم أره منذ وُلدت وكذلك والدي ولا ندري أصلاً إذا كان حيـًا أو ميتـًا!

شعرتُ بقشعريرة مفاجئة. وراودتني فكرة جنونية، وكنتُ أعلم استحالتها ولكن من أجل أن أنزعها تماماً من مخيلتي سألته:

- ما اسمُ والدك بالمناسبة؟

- عبدالمحسن.

بدأتُ أشعر بالدوار وبالغثيان. وعلمتُ بأنّ الاحتمالات قد باتت محدودة الآن.

- وهل اسم جدك أحمد؟

- نعم وما أدراك؟!

- وهل اسم جدتك أسماء؟

- صحيح، كيف تعرف كل هذا؟!

- وهل اسم أم جدتك نورة؟

Twitter: @ketab_n

ارتفع حاجباه وأخذ ينظر بتعجبٍ وانبهار:

- هل أنتَ ساحر؟!

كان الموقف والمفاجأة أثقل مما أستطيع احتماله؛ وسقطتُ على الأرض. وأحسستُ بأنني على حافة الجنون. ودفنتُ وجهي بين كفيّ، وأنا لا أكاد أصدق ماحدث. وشعرتُ بأنني في حلم سأستيقظ منه في أي لحظة. كانت مشاعري مضطربة، ولم أعلم أيجدُر بي أن أفرح أم أن أحزن. وتعجبتُ من هذه الصدفة الغريبة ومن هذه الأقدار العجيبة التي جمعت الجد مع حفيده في مكانٍ واحد وزمانٍ واحد..!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لو قصَّ عليك

جدك المسكين،

كم مرةً نامَ على السكين..

كنتَ صرختَ ألمًا،

كنتَ ضَممْتَ جدكَ العجوز،

قلتَ له:

دمعُ الكبارِ لا يجوز..!

«غازي القصيبي»

Twitter: @ketab_n

لم أبرح فراشي، ولم أفارق سريري، واكتفيتُ بالتحديق في الرقم الظاهر على شاشة جوالي. كان رقمًا محفوظاً بلا اسم؛ إذْ أنني لم أعرف بالضبط ما هو الاسم الذي يجدر بي حفظ هذا الرقم به! أيجدر بي أن أسميه بهشام، أم حفيدي هشام، أم فتى العيادة، أم كاره الرياضيات، أم الفتى غريب الأطوار!

كانت تلك المصادفة الغريبة، والمفاجأة العجيبة أمراً لم أتصور قط إمكانية حدوثه. وقد مكثتُ طوال الليلة الماضية في التفكير بهذه الحادثة والتأمل فيها. لقد كان حدثًا فريدًا من نوعه، ونادرة من النوادر؛ فماهي نسبة أن ترى وتقابل حفيدك وسط مدينة يزيد تعداد سكانها على أربعة ملايين نسمة. وما هي نسبة أن تلتقيَ به في عيادة نفسية، وليس هذا فقط بل وتتحدث إليه وتتعرف به وتكتشف بأنه حفيدك ومن لحمك ودمك! أكانت مُصادفة حقًا؟! أم أنها كانت فرصة؛ فرصة لإعادة الوصل ولمّ الشمل، بعد تلك السنين الطوال، وبعد هذا الفراق المُر.

لم ألحظ ذلك منذ البداية، ولكن بالتأكيد كان ذلك الفتى نسخة مُصغّرة مني. وكان هناك رابطٌ واضحٌ بيننا. كنتُ كلما استرجعت المشاهد التي جمعتني به قبل يومين، أجد فيه جوانب جديدة تشبه إلى حدٍ كبير تلك الجوانب والصفات الشخصية التي كانت تبرز جلية واضحةً فيّ حينما كنتُ في سن المراهقة. نعم، تغير الزمان، وتغيرت الاهتمامات، ولكن لم تتغير تلك الروح المتمردة، وتلك النفس الجريئة، وتلك السخرية اللاذعة.

Twitter: @ketab_n

لمَ أخذتُ رقمه؟ حسناً لا أعرف. لقد كنتُ تحت تأثير الصدمة، وكنت لم أزل لم أصحو بعد من هول المفاجأة. ولم أدرِ ماذا أفعل أو أقول وكيف أقدم له نفسي، وهل أخبره عن هويتي وعن من أكون أم أكتفي بالتمثيل وبلعب دور الصبي الذي يدرس في الصف الأول ثانوي. غير أنّ خيار الرحيل والابتعاد لم يكن مطروحاً هذه المرة؛ إذْ أنّ الأمر الوحيد الذي أنا على يقين منه، والشيء الأكيد الذي لا يتسرب إليه شك، هو أنني لن أستطيع أَن أمضي ما تبقى من حياتي بعيداً عن هذا الفتى. ولن أقدر هذه المرة، بعد أن أصبحتُ هرماً، على أن أفارق حفيدي وأن أتخلى عنه كما فعلت مع أبيه من قبل! علمتُ ذلك، منذ اللحظة الأولى ومنذ أول وهلةٍ عرفتُ فيها بأنني أقف مع حفيدي. نعم، لقد وقعتُ في حبه، ولقد شعرت بقلبي ينبض بالحياة مجدداً، و شعرت بالدم يسري في عروقي بعد أن تيبس وتجمد منذ عشرات السنين.

نهضتُ من السرير، وأعددتُ كوباً من القهوة. وجلستُ أمام التلفاز وبدأتُ في تقليب القنوات حتى توقفتُ أخيراً عند قناة إخبارية. كانت الساعة الثانية ظهراً، ولم أكن أشعر بالجوع خصوصاً وأنني لم أفطر إلا قبيل الظهر. وكان لديّ في عصر هذا اليوم موعد مع الدكتورة أبرار وهي الجلسة الأولى من أصل خمس جلسات مُقررة قبل رحلة سفرها إلى دبي. وبعد أن فرغت من تناول القهوة أعدت الكوب ووضعته في المطبخ بجوار المغسلة من دون أن أغسله لكي أدع لنفسي شيئاً أنشغل به حينما أعود من جلستي النفسية.

كنتُ قد قررتُ أن أغير من حلتي وأن أعود إلى سابق عهدي

Twitter: @ketab_n

وأن أضع حداً للشعر الأبيض الطفيلي الذي غزا شعري واستعمره وقبع عليه واستولى على خيراته منذ أكثر من ثلاثين سنة. وبالرغم من أنّه لم يكن قد تبقى على موعدي سوى ساعتين ونصف إلا أنّ الصبغات قد تطورت كثيراً هذه الأيام، وما كان يستغرق عدة ساعات في السابق لم يعد يحتاج لأكثر من ساعة واحدة لكي يؤدي مفعوله ويُحقق المراد منه. وبعد أن فرغت من صباغة شعري ومن الاغتسال، صليتُ العصر وقدتُ، هذه المرة، سيارتي باتجاه مركز زحل الطبي.

ما إن وصلتُ حتى أبلغوني بأنّ الدكتورة أبرار تنتظرني. وحينما دخلتُ الغرفة، كانت الممرضة الفلبينية تتحدث معها وهي تحمل ملفاً مكتظاً بالأوراق الملونة بيدها اليُمنى. وحين رأتني وقفتْ وابتسمتْ وطلبت مني الجلوس بلباقة بعد أن ردت عليّ السلام. وقد بادرتني بالحديث وهي تُشير إلى زمزمية شاي بُنية اللون موضوعة على الطاولة:

- لقد أعددتُ زمزمية الشاي هذه خصيصًا لك؛ لكي أضمن أن لا يتكرر الخطأ الذي حدث في المرة الماضية.

وعلقتُ بتهكم:

- ياتُرى هل لو كنتُ قد طلبت في المرة السابقة عصير برتقال بدلاً من الشاي، هل كنتُ سأجد هذا اليوم شجرة برتقال مزروعة هنا من باب الاحتياط!

- بل ربما ستجد نفسك في إحدى مزارع «الشربتلي»، فأنا أخشى

Twitter: @ketab_n

بأنني سأضطر إلى أن أنقل مكان الجلسات لكي لا أدع مجالاً لحدوث المفاجآت.

وضحكتْ قبل أن تبدأ في صبِّ الشاي في كوبٍ زجاجي، و وضعته أمامي وأكملت قائلة:

- أرجو أن لا تكون ممن لا يحب أن يتناول الشاي بالنعناع؟

وابتسمتُ وقلت:

- كلا، لستُ من أولئك الناس. في الواقع، أجد بأنّ الشاي يكون أفضل حينما يُضاف النعناع إليه.

كانت الدكتور أبرار ترتدي وشاحاً أبيض ومزخرفاً باللون الأزرق يُغطي شعر رأسها وتضع معطفاً طبياً أبيض اللون يصل إلى ساقيها. وقد بدا وجهها ودوداً ومُفعمًا بالحياة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. وقد سألتها وأنا أترشف بضع رشفاتٍ من الشاي الساخن:

- والآن من أي نبدأ؟

أخرجتْ أبرار من أحد الأدراج دفتراً ورديّ اللون، لم أشاهده إلا للمرة الأولى، حيثُ فتحته وأمسكتْ القلمَ بيدها وقالت:

- قلت لي في السابق بأنّ الدكتور مُعتز قد قتلته العصابة بعد أن ساعدك على الهروب، ولكن ألا ترى بأنّه غريب بعض الشيء أن يُقدم رجلٌ كبير السن وذو رتبة ومكانة مرموقة ولديه عائلة وأسرة تعتمد

Twitter: @ketab_n

عليه بعد الله وتنتظر عودته، ومن ثم يتم إغراؤه بالملايين أو بفقدان حياته، ويُفضل الخيار الآخر؟!

- أعتقد بأنّ هذا يدل على أن الدكتور معتز كان رجلاً فريداً من نوعه، وكما أخبرني في ذلك اليوم المشئوم بأنّه يعدني ابناً له. كما أنّني لا أعتقد بأنّه كان يظن بأن فعلته هذه وبأنّ هربي سيودي بحياته، وعلى أية حال، لن أنسى تضحيته تلك ماحييت. ومازلتُ حتى يومنا هذا أدعو له في كل صلاة وأترحم عليه في كل ساعة. فأنا لم أشعر بالمسؤولية، وبأنّ لحياتي قيمة، إلا بعد تضحيته الجسيمة التي قدمها لي. وفي كل مرة تزول فيها الصبغة ويخرجُ الشعر الأبيض أتذكر تفاصيل ذلك اليوم، وأسترجع مشاهد تلك الواقعة، وأتجرع مرارتها وأتلقى سهامها الجارحة...

قاطعتني وهي تكتب في الدفتر من دون أن تنظر إليّ:

- لا شك في أنّها كانت تجربة عصيبة.

- بالتأكيد، وشعري الأبيض شاهدٌ على ذلك. بالمناسبة، لديّ سؤال لطالما حيّرني وأقضّ مضجعي.

توقفتُ قليلاً، ونظرتُ إليها حيث أومأتْ برأسها من دون أن تنظر في إشارةٍ لي لأطرح سؤالي:

- ما هو السبب وراء انقلاب لون شعري فجأة ومن دون مقدمات ومن دون أن تظهر عليّ أي علاماتٍ أخرى من علامات الشيخوخة والتقدم في السن؟

Twitter: @ketab_n

توقفتْ عن الكتابة، ورفعتْ رأسها وأخذتْ تنظرُ إليّ مليّــاً قبل أن تقول:

- لا أعلم على وجه التحديد فهذا الأمر ليس من اختصاصي، فأنا كما تعلم طبيبة نفسية وليس لدي إلمام كامل بجميع التفاصيل الطبية وما يتعلق بالعوامل الوراثية والأمراض الهرمونية. لربما كان خير من يُخبرك عن السبب الدكتور معتز نفسه!

ثم ضحكتْ لوحدها هذه المرة واكتفيتُ أنا بالصمت ولم أستسغ ما ذكرته إذْ لمستُ شيئاً من السخرية في كلامها. وقد أحستْ أبرار بعدم ارتياحي وأردفتْ قائلة على الفور:

- إنْ أردت رأيي الشخصي، وليس الطبي، فأستطيع أن أقول لك بأن وقع المفاجأة وبأن فزعك الشديد وهلعك كانا وراء ذلك. وبالمناسبة، فلقد قرأتُ أثناء دراستي في الولايات المتحدة عن حالة تاريخية مشابهة لحالتك هذه. فإبّان الثورة الفرنسية في أواخر القرنً الثامن عشر والتي انتهت بسقوط الملكية وبمقتل الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري أنطوانيت. يُقال بأنّ الملكة أنطوانيت، والتي كانت بارعة الجمال وكانت في الثامنة والثلاثين من عمرها، والتي اقتيدت إلى مقصلة الإعدام لقطع رأسها، وبدأوا يدورون بها وهي مكبلة اليدين على متن عربة في أرجاء المدينة في الوقت الذي أخذ فيه الناس يقذفون عليها كل ما بأيديهم من أوساخ وأقذار. ويُقال بأنها وقبل أن يُنفذ فيها حكم الإعدام كان قد انقلب شعرها إلى اللون الأبيض تماماً.

Twitter: @ketab_n

- عجيب! لم أسمع عن هذه الحادثة من قبل. أفهم من هذا بأنّ الخوف كان هو السبب فيما حصل لها.

- نعم أنت محق. الفزع والهلع الشديد ولحظات الترقب المرعبة والشد العصبي جميعها تؤدي إلى هذه النتيجة المأساوية. ولعل قصتك أنت احتوت على هذه العناصر جميعاً.

- ولكن إلى الآن لم تخبريني عن أي سببٍ مقنع؛ أقصد بأنّ هذه القصة التي ذكرتِها لا تقدم أي تفسيرٍ منطقي.

- كما أخبرتك مسبقًا لا أستطيع الجزم بالأمر لأن مجالي مختلف تماماً عن هذا المجال. ولكنني أظن بأنّ تلك العناصر التي ذكرتها وفي مقدمتها الخوف والشد العصبي قد تعمل في حالاتٍ ومواقف نادرة على إيقاف نشاط الخلايا الملونة في الشعر مما يؤدي إلى انقلابه إلى اللون الأبيض. وعلى أية حال، فالشعر الأبيض على الرجل يوحي بالوقار ويُضفي مزيداً من الشعور بالهيبة والإكبار، وربما الوسامة أيضاً.

قالتها وهي تضحك، وضحكتُ أنا بدوري وعلقتُ ساخراً:

- على الرجل وليس المراهق. فأن تبدو في سن السادسة عشر، كما يعتقد حفيدي هشام ويكون شعرك أبيض فهذا لن يؤدي إلا إلى إرعاب الناس من حولك. ولا أظن بـ...

وقاطعتني الدكتورة أبرار بجدية:

Twitter: @ketab_n

- حفيدك هشام؟!

أدركتُ حينها بأنها كانت زلة لسان. وعلى الرغم من أنني لم أكن أنوي إخفاء هذا الأمر عنها إلا أنني لم أكن أنوي أن أخبرها عنه للمرة الأولى بهذه الطريقة وبلا تمهيدٍ أو مقدمات. وقد تنهدتُ وأخذتُ نفساً عميقاً ومن ثم قلت:

- لقد صادفته هنا في عيادتكم، وكان يخضع لجلساتٍ مع الدكتور «فادي محامدة» لكونه يعاني من صعوبة في التركيز. لن تصدقي الطريقة التي التقينا بها واكتشفتُ بأنه حفيدي من خلالها.

ارتفع حاجباها في دهشة:

- حفيدك يخضع لجلساتٍ نفسية هنا في مركزنا؟!

- نعم. الجد وحفيده كلاهما يعتادان أطباء نفسيين. صدقي أو لا تصدقي!

قلتها وأنا أضحك في الوقت الذي كانتْ تحاول فيه الدكتورة أبرار أن تهضم هذه المعلومات المفاجئة:

- عفواً ولكن كم عمر ابنك؟

- عبدالمحسن؟ اممم عمره الآن سبع وثلاثون سنة.

- وكم عمر حفيدك؟

Twitter: @ketab_n

- ستة عشر سنة.

- وهذا يعني بأنّ ابنك قد رُزق بحفيدك حينما كان في سن الحادية والعشرين، أليس كذلك؟

- نعم بالتأكيد. وربما يكون قد تزوج قبلها بسنة أو بسنتين أي في سن العشرين أو التاسعة عشرة.

- وخلال هذه السنين الطويلة لم تعلم فيما إذا كان ابنك متزوجاً أم لا وفيما إذا كان لديه أبناء، ولا تعرف كيف يبدو ولو التقيتما فلن تتعرف عليه.

كانت كلماتها هذه تذيقني الألم وتجرعني الغصص الواحدة تلو الأخرى. كانت كلماتها تبدو كما لو كنتُ أنانياً وبلا قلبٍ أو عاطفة، ولكن الحقيقة هي بأنني قدمتُ تضحية لابني وفضلتُ مصلحته على مصلحتي. ولقد ظللتُ أفكر فيه وأتذكر ملامحه حينما رأيته للمرة الأولى والأخيرة في كل يومٍ قضيته بعد أن أعدته إلى والدته.

- لم يكن الأمرُ سهلاً علي، لقد كان ابني عبدالمحسن هو أجمل شيء حصل لي في حياتي، ولكن لم أرد له أن يعيش حياة شاذة غريبة محفوفة بالمخاطر مع والدٍ مزور محتال! لقد أردته أن يحظى بحياة طبيعية آمنة مع أمه الحنونة. وكنت أمام خيارين أحلاهما مر، ولكنني قدمتُ مصلحته وفضلتُ أن أبتعد عنه، وأن أصبح كما لو كنتُ في عداد الأموات بالنسبة له. وفي الواقع، أنا روحٌ ميتة في جسد مراهقٍ حي. هذا كل ما في الأمر. صورنا ومظاهرنا الخارجية تنقل فكرةً خاطئة

Twitter: @ketab_n

عنا أحياناً.

خيّمَ الصمتُ على المكان. واكتفتْ أبرار بتدوين الملاحظات من دون أن تنبس ببنت شفه. هل تعتقد بأنني أتوهم جميع هذه الأمور؟ ربما. ولكنني لم أعد أهتم. في الواقع أجد بأنّ هذا الأمر أفضل بالنسبة لي؛ ففيما لو كانت تصدقني فقد يُعرضني هذا للخطر كما حدث لي مع الدكتور معتز من قبل. أما الآن، فبإمكاني الحديث والنقاش عن حياتي من دون أن أتردد أو أن أخشى شيئًا لأنني أعلم بأنّها تظن بأنّ جميع تلك الأحداث لم تقع إلا في خيالي ولا وجود لها على أرض الواقع.

توقفتْ عن الكتابة وانتقلتْ لتكتب هذه المرة على حاسبها المحمول. وقد كسرتُ حاجز الصمت بسؤالي لها:

- هل تظنين بأنّ لقاءنا وحديثنا كان محض صدفة، أم أنّ هناك تعليلاً نفسياً يكمن وراء انجذاب الجد لحفيده الذي لا يعرفه؟

لم تُجب عليّ، حيث مازالت منشغلة بحاسبها المحمول، وشعرتُ بأنّها لم تسمع سؤالي وأكملتُ قائلاً بصوتٍ خافت وكما لو كنتُ أجيبُ نفسي:

- ربما كان السبب هو التخاطر.

لم أكد أكمل جملتي تلك حتى أغلقت أبرار حاسبها الشخصي ووضعته جانباً وأخذت تنظر إليّ بدهشة وقالت بنبرة منفعلة:

Twitter: @ketab_n

- أقلت التخاطر؟!

أحسستُ بالقلق، وقلت بنبرة اعتذارية كما لو كنت قد ارتكبت جرماً لا يغتفر للتو:

- نعم، التخاطر.

وبدأتْ أبرار تهز رأسها وابتسامة غامضة تلوح في وجهها:

- أمرٌ مثير للاهتمام حقـًا. ولماذا تظن بأنّ للتخاطر علاقة في لقائك مع حفيدك؟

- لا أدري ولكن لم أجد تفسيراً لانجذابه لي ولانجذابي له على الرغم من انزعاجي منه في بادئ الأمر.

- ولكن لماذا التخاطر بالذات. هل من الممكن أن تفسر لي مفهومك عنه؟

شعرتُ بحرج بالغ؛ إذْ أنّه ليس من السهل أن تفسر أمراً كنتَ قد قرأت عنه في مجلةٍ ما منذ عشرات السنين ويقع ضمن اختصاص شخص أنت تتحدث معه. وحاولتُ أن أتحدث بحذر قدر الإمكان لئلا أصبحَ أضحوكة أمامها:

- لقد قرأتُ عن التخاطر منذ فترة طويلة. والحقّ أنني لا أذكر على وجه الدقة التفاصيل المتعلقة به، ولكن ما أذكره هو بأنّ الأفكار قد تنتقل من شخص إلى آخر من دون أن نحتاج للتعبير عنها بالكلام.

Twitter: @ketab_n

- ولكن لا أجدُ أي رابط مقنع بين التخاطر وبين لقائك بحفيدك.

- ألا يكفي بأن ينجذب جد لحفيده وهما لا يعلمان عن وجود صلة قرابة بينهما لكي يكون رابط مقنع بالنسبة لك.

- بالنسبة لمفهوم التخاطر لا أجده رابطاً مقنعاً. وعموماً فإنّ العديد من الدجالين ومدعي العلم في التاريخ قد تطرقوا وتحدثوا عن ظاهرة التخاطر وأكدوا بأنّها حقيقة علمية وفي مقدمتهم «مايرز» و«لوكهرست» ولكن حقيقة الأمر بأنّ كل من يدعي القدرة على التخاطر أو بوجود التخاطر هو شخص واهم، ومهما ذكرت لي من مواقف وحالات عن هذا الأمر فجميعها في الواقع لا تستند إلى أي حقائق علمية، وجميع الدراسات التي عُملت من أجل إثبات وتأكيد هذه الظاهرة قد فشلت في الوصول إلى أي رابط مباشر أو دليل ملموس على فعالية التخاطر أو وجوده أصلاً.

ومن ثم صمتتْ قليلاً لتأخذ نفساً عميقاً، وتكمل قائلة:

- أتدري ما هو الغريب في الأمر؟ الغريب هو بأنّ هناك علاقة مباشرة وارتباطا وثيقا بين انفصام الشخصية والتخاطر، لدرجة أنه يكاد لا يوجد أحدهما بدون الآخر كما يؤكد بعض أساتذة طب النفس غير أنني أظنها مبالغة على أية حال، ولكن يوجد العديد من المصابين بانفصام الشخصية الذين يعتقدون بأنّ أفكارهم وتخيلاتهم قد تم إدخالها وإقحامها رغماً عنهم أو بأنّ هذه الأفكار تُستخرج منهم عنوة، وهو ما يندرج تحت التخاطر الذي ذكرته أنت للتو..!

****

Twitter: @ketab_n

في مساء ذلك اليوم أويتُ إلى الفراش باكراً وما إن وضعتُ رأسي حتى غطتُّ في نوم عميق، ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم التالي. نهضتُ وأخذت حماماً بارداً بعد أدائي للصلاة، ومن ثم قمتُ بإعداد فطورٍ خفيف مؤلف من رغيف خُبز مُسخّن بواسطة الحمّاصة وبيضة مسلوقة وجبنة بيضاء وعسل بالإضافة إلى كوب من الشاي. وتناولت الفطور أمام التلفاز، وبعد أن فرغت أعدتُ الأطباق إلى المطبخ وعدتُ إلى غرفة المعيشة وبدأتُ أتصفحُ جريدة الأمس التي اشتريتها حينما كنتُ في طريق عودتي بعد انتهاء موعدي النفسي.

مرَّ الوقت ثقيلاً عليّ، وأحسستُ بأنني لن أستطيع الاستمرار على هذه الحال طيلة الأسبوع القادم وهممتُ بالاتصال على نزار هاشم من أجل إبلاغه عن أنني سأبدأ العمل انطلاقاً من يوم السبت القادم، بيدَ أنّ أذان الظهر جعلني أؤجل القيام بهذه المهمة إلى ما بعد الصلاة.

بعد أن عدتُ من المسجد بدأتُ في التفكير في هشام. لا بد من أنّه الآن في المدرسة، وأظنه سيغادرها بعد قليل. كم أتوق حقاً إلى اللقاء به وزيارته في مدرسته وسؤال المدرسين عنه وعن تحصيله العلمي، والوقوف عن كثب على أصدقائه والأشخاص الذين يصاحبهم. كنتُ أتمنى لو كنتُ شخصًا طبيعياً قد احدودب ظهره وملأت التجاعيد وجهه لكي أؤدي وظيفة الجد الحنون مع حفيده. لقد مضى على لقائي به ثلاثة أيام وكنت أشعرُ برغبةٍ عارمة في لقائه مرة أخرى، ولكنني لم أعرف كيف أصلُ إلى مبتغاي وكيف أحقق هدفي هذا.

Twitter: @ketab_n

مضى الوقت سريعاً وأنا على هذه الحال ولم أتذكر أنني كنتُ أنوي الاتصال على مدير الشركة إلا بعد أنْ رنّ جوالي وكان المُتصل هو من كنتُ غارقاً في التفكير به وهائماً بخيالي فيه. كان هشام، وقد ازددتُ يقيناً هذه المرة عن أنّ التخاطر هو السبب وراء ذلك شاءتْ أبرار أم أبت! ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام وأنا أجيبُ بصوتٍ حاولتُ قدر الإمكان أن لا يُظهر الحماسة البالغة والفرحة العارمة والنشوة الطاغية التي كنتُ عليها:

- مرحبًا هشام.

وجاءني صوته النابض بالحياة:

- أهلاً أحمد. ظننتُ أنك نسيتني لاسيما بعد أن قمتَ بحركتك المسرحية تلك بعد أن تظاهرتَ بأنّك ساحر وسقطتَ على ركبتيك كما لو كنتَ تختمُ عرضاً لألعاب الخفة والخدع البصرية!

ضحكتُ وعلقتُ قائلاً:

- لا تُنكر بأنك ظننتني ساحراً في البداية!

- في الواقع مازلتُ أظنك ساحراً إلى الآن؛ فحتى لو كنتَ قد اطلعتَ على ملفي الطبي، كما أخبرتني، وقرأتَ اسمي الثلاثي واسم والدتي، فهذا لا يُقدمُ تفسيراً لمعرفتك لاسم جدتي.

- لقد كانت محض صدفة لا أكثر! ومن ثم فإنّ معظم أسماء الجدات هو «نورة». وفيما لو كان الاسمُ غريباً أو مميزاً وقلته بشكل

Twitter: @ketab_n

صحيح فعندها لن يراودني أي شك حيال قدراتي الخارقة للعادة!

ضحك هشام قبل أن يقول بنبرة جادة:

- هل لديك موعدٌ هذا اليوم في المركز الطبي؟

- لماذا تسأل؟

- لأنّ لديّ موعدا عصر هذا اليوم وكنتُ أتمنى أن يكون عندك موعدٌ أيضاً لكي نلتقي مجدداً.

وعلى الرغم من أنّ موعدي كان في اليوم التالي إلا أنني كنتُ على استعدادٍ للقاء به حتى لو لم يكن هناك أي موعد قبل السنة القادمة!

- نعم لدي موعدٌ أنا أيضاً لحسن الحظ.

- رائع، إذاً سألقاك بعد العصر في غرفة الانتظار.

****

Twitter: @ketab_n

دخلتُ غرفة الانتظار وجلستُ بها وكانت خالية على العكس من المرة الماضية. ولم يدم انتظاري طويلاً حتى أطلّ من الباب هشام بابتسامةٍ ساحرة وهو يضع النظارة الشمسية وقد بدا أشبه بنجم هوليوودي يظهر على غلاف إحدى المجلات. وكان يرتدي قميصاً أبيض اللون ومقلماً بخطوط سوداء دقيقة الحجم، وكانت أكمامُ القميص طويلة غير أنّه قد شمّر عن ساعديه وطواها إلى منتصف ذراعيه. وكان يرتدي بنطالاً ضيقاً أسود اللون وحذاءًا رياضياً أبيض. وقد ألقى السلام بحماسة بالغة وصافحني وقفز بجانبي على الأريكة وهو يقول:

- لم أظنك ستصلُ قبلي؛ فلقد اعتدتُ في مواعيدي السابقة أن أكون أنا أول من يدخل إلى غرفة الانتظار.

- ولكن لماذا تأتي قبل موعدك بنصف ساعة!

- لأنّ أبي مرتبطٌ بعملٍ مسائي يبدأ من الساعة الرابعة ولهذا يأتي بي إلى هنا عند الثالثة والنصف عصراً.

- آها فهمت.

- ولكن لماذا جئت أنت باكراً؟

فكرتُ لبعض الوقت قبل أن أقول:

- خشيتُ بأن يمر الوقت من دون أن أجد أي سيارة أجرة، وكما تعلم فسيارات الأجرة لا تجدها حينما ترغب بها وحينما لا تحتاجها

Twitter: @ketab_n

تجدها منتشرة حولك! وأن تأتي مُبكراً بنصف ساعة خيرٌ لك من أن تتأخر دقيقة!

أخرج هشام جواله وقال وهو يعبثُ به:

- في الواقع أفضل أن أتأخر عشر دقائق كاملة عن أن آتي قبل نصف ساعة من الموعد!

وابتسمتُ وعلقتُ قائلاً:

- إذا أردتَ أن تكتشف رقي دولة ما ومدى تقدمها فانظر إلى احترام شعبها للوقت ودقة مواعيدهم. إنّ الوقت في الحقيقة هو أثمن مانملك، واللحظة التي تذهب لا تعود، واليوم الذي ينصرم لا يرجع. وكلما مضى يومٌ من عمرك كلما ذهب بعضك، فأنتَ عبارة عن أيام و...

أخذ في التثاؤب وهو ينحني بظهره على الأريكة حتى كاد أن يستلقي تماماً ونظر إليّ بخمول وردد بتهكم:

- حكيم العبدالله. حكيم العبدالله بشحمه ودمه!

- حكيم العبدالله؟!

- مُرشدنا الطلابي. أنتَ تذكرني به كثيراً.

شعرتُ بالإحباط ولم أقل شيئاً، وأردف هشام قائلاً بعد أن عدّل

Twitter: @ketab_n

فجأة وضعية جلوسه وقفز وعلامات الانتصار والسعادة تتألق فجأة على محياه:

- اسمُ والدك حكيم أليس كذلك؟ ولا بد من أنّ اسم عائلتك العبدالله؟

أحسستُ بأنّه يحاول أن يُعيد الكرّة وأن يكرر ما حدث لي معه في المرة الماضية ولكن بعد أن يأخذ هو دور البطولة، قبل أن أقتل حماسته وسعادته التي هطلت عليه بنبرةٍ ساخرة:

- كنتُ أتمنى ذلك فعلاً يا شارلوك هولمز، لكن أخشى بأنني لم أسمع في حياتي بهذا الاسم من قبل.

وقال بخيبة أمل:

- على أية حال، حديثك وطريقتك قبل قليل كانت نسخة طبق الأصل عن الأستاذ حكيم. وبالمناسبة، أتعلم ماذا نطلق عليه؟

سألتُ ببرود وبلا مبالاة:

- ماذا؟

- نطلق عليه «بالنسبة».

- بالنسبة؟!

- نعم، فهو يردد تلك العبارة في الدقيقة الواحدة أكثر من خمس

Twitter: @ketab_n

مرات.

في تلك الأثناء دخل شابٌّ رياضيّ يبدو في الثلاثين من عمره وجلسَ في منتصف الغرفة وأخذ مجلة وبدأ يُقلب صفحاتها. وبعد دخوله اضطررنا إلى أن نخفض من أصواتنا التي كانت مرتفعة بعض الشيء:

- لدي سؤال يا أحمد.

- سل مابدا لك.

- لماذا ترتدي الثوب والشماغ؟!

- لا يوجد سببٌ محدد. ولكنني أشعر بالراحة أكثر بهذا الزي.

ارتفع حاجباه في دهشة وعاد ليعبث مجدداً بجواله، وشعرتُ بأنّ إجابتي لم تكن مقنعة له. غير أنّه لم يلبث بضع ثوانٍ قبل أن يعود مجدداً ويبادرني بالسؤال قائلاً وعيناه تلمعان:

- سيزورني أصدقائي في المنزل بعد يومين لنشاهد سوياً مباراة فريقي «مانشستر يونايتد» و«ليفربول» هل تود الانضمام إلينا؟

فكرتُ قليلاً، ورأيتُ بأنّه لايوجد ضررٌ من وجودي معهم، على الرغم من فارق السن والاهتمامات:

- يسرني ذلك.

Twitter: @ketab_n

- رائع.

وابتلع ريقه وأكمل:

- وبالتأكيد لن أمانع إطلاقاً أن تحضر معك ما ثقل وزنه ولذ طعمه.

وغمز بعينه وابتسم.

- سأرى ما يمكنني عمله. بالمناسبة، كم هو عدد أصدقائك الذين سيأتون؟

- ثلاثة.

- وماذا عن إخوتك؟

أجاب بلهجةٍ حزينة:

- أنا وحيدُ والديّ للأسف!

وحاولتُ أن أدخل البهجة إلى قلبه حيث ابتسمتُ وقلت:

- إذاً فقد خلا لك الجو وأصبح اهتمامُ والديك ودلالهم مُنصبّاً عليك أنت وحدك من دون أن يقاسمك أو ينافسك أحدٌ عليه!

- ربما. ولكن لو سألتني لتمنيتُ أن يكون لدي أخٌ أو أخت، فأنا دائماً ما أشعر بالوحدة في البيت.

Twitter: @ketab_n

- ولكن يوجد لديك أصدقاء أليس كذلك؟

- نعم، ولكن لا يُغني الأصدقاء عن الإخوة بحالٍ من الأحوال. ولطالما عانيتُ الأمرين من ذلك في السابق، فحتى في أكثر لحظاتي الأسرية سعادة؛ عندما نذهب في رحلة برية أو نسافر مثلاً إلى دولة ما، أجد مرارة وغصة في أعماقي لعدم وجود من يفهمني ومن أتشارك معه لحظات الأنس والسرور.

وصمتَ قليلاً ومن ثم ابتسم وعاد لحماسته السابقة:

- وعلى أية حال، فقد سمحَ لي والدي بأنْ أصطحب معي صديقي المفضل حينما نسافر في الإجازة الصيفية القادمة إلى «هولندا».

- وهل سيكون معكم طيلة الوقت؟

- بالتأكيد. سنكون سوياً وسنذهب معاً وسنلعب ونغامر ونفعل كل مايحلو لنا رفقة بعضنا البعض. وسيتكفل أبي بجميع المصاريف التي يتطلبها الأمر.

انتابني شعورٌ بالحزن فجأة على الرغم من أنني كنتُ سعيداً لسعادته:

- ومن هو هذا الصديق الذي سيذهب معكم؟

- بصراحة لم أفاتح أحداً من أصدقائي بهذا الأمر بعد، ولم أقرر بعد من يرافقني منهم، ولا يزالُ هناك متسعٌ من الوقت؛ فلقد

Twitter: @ketab_n

تبقى على بدء الإجازة الصيفية ثلاثة أشهر.

لم يكد يفرغ من كلامه حتى شعرتُ بأنّ الحزن الذي اعتراني قبل قليل قد زال ورحل وحلّ بدلاً منه شعوراً غريباً لم أفهم كنهه، بيدَ أنّه كان مزيجاً من السعادة والترقب والتفاؤل والمغامرة. لقد علمتُ منذ تلك اللحظة بأنني أنا من يجب أن يكون ذلك الشخص. وأيقنتُ بأنني يجب أن أصبح الصديق المفضل لحفيدي. وأن أجعله يختارني لأكون رفيقًا له في سفره مع أهله. أو لنقل سفره مع أهلي! ستكون رحلة عائلية تجمع الجد بابنه وبحفيده. وسيعود فيها الوصال، وسيجتمع فيها الشمل. وسأكون قادراً أخيراً على الشعور بأنّ لي أسرة هي جزء مني وأنا جزءٌ منها، وعائلة أنتمي إليها وتنتمي إليّ حتى وإن لم يكونوا على علمٍ ودرايةٍ بذلك.

نعم، أدركُ بأنّه لن يكون أمراً هيّناً أن أحظى بثقة وإعجاب حفيدي الذي يصغرني بخمسين سنة، والذي يختلف تماماً في اهتماماته وميوله وتفكيره عني. وأعي بأنني قادمٌ من جيل قديم غابر، يُعد جاهلاً وأمياً في نظر أبناء هذا الجيل الجديد الذي وُلد وترعرع في كنف هذه الثورة التقنية. وأعلم بأنني يجب أن أثير إعجابه وأن أصبح ليس واحداً من أصدقائه فحسب بل وأقربهم إلى قلبه خلال مدةٍ وجيزة. وأدركُ بأنّه ينبغي عليّ أن أختصر ماعمله أصدقاؤه في سنواتٍ لكي يصلوا إلى المنزلة التي وصلوا إليها الآن في فترة لا تتجاوز الشهر.

Twitter: @ketab_n

نعم أعلم كل هذا. وأعلمُ بأنّه تحدٍ صعب. ومهمة شبه مستحيلة. ولكنني عازمٌ على اجتيازها. وسأفعل كلَّ مايتطلبه الأمر من أجل أن أعود إلى أسرتي مُجدداً. وسأعمل أي شيء من شأنه أن يجعلني أصبح ذلك الصديق الذي يرافقهم. نعم، أي شيء...!

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نتوه.. ونشتاقُ، نغدو حيارى

وما زالَ بيتي في مُقلتيك..

ويَمضي بي العمرُ في كل دربٍ

فأنسى همُومي على شاطِئيك..

وإن مزقتنا دروبُ الحياةِ

فما زلتُ أشعرُ أني إليك..

أسافرُ عمري وألقاكَ يوماً

فإني خُلقتُ وقلبِي لديك..

«فاروق جويدة»

Twitter: @ketab_n

- ستزوره في بيته؟

- نعم.

- أمرٌ مثير للاهتمام. جدٌّ يزور حفيده من دون أن يعلم حفيده بذلك.

قالتها الدكتورة أبرار وهي تبتسم وتهز رأسها تعجبًا على طريقة مسلسلات الكارتون ومن ثم رمتْ بدفتر الملاحظات جانباً وأكملت بجدية:

- ولكن لماذا تعوّل آمالاً كبيرة على هذه الزيارة؟ فهي لا تعدو عن كونها اجتماع بين فئة من المراهقين لمشاهدة إحدى المباريات في منزل واحدٍ منهم وعلى مرأى من والديهم؟!

- إنها تعني لي أكثر من ذلك بكثير؛ فأنا سألتقي بحفيدي وسأدخل منزل ابني للمرة الأولى. كما أنني يجب عليّ اختصار الزمن وسباق الوقت لكي أحظى بثقة ومحبة هشام.

- وماعلاقة الزمن والوقت بالموضوع؟!

- لأنّ هشام خلال فترة وجيزة سيقرر هوية الصديق الذي سيرافقهم في رحلتهم الصيفية المُزمعة إلى «هولندا»؛ فلأنه وحيدُ والديه فقد قررا السماحَ له باختيار واحد من أصدقائه لكي يؤنسه ويصاحبه في سفرهم وترحالهم وسيتكفلان بكافة المصاريف التي يتطلبها هذا الأمر.

Twitter: @ketab_n

- وماهو شعورك حيال هذا الأمر برمّته؟ أقصد السفر مع أسرتك؟

أغمضتُ عينيّ وحلّقت بفكري وخيالي بعيداً، ومن ثم أطلقتُ زفرة عميقة:

- لا أدري، بصدق لا أدري؛ فأنا لم أجرب ولم أعش هذا الشعور من قبل ولم أقف على هذه التجربة مُطلقاً. ولم أهنأ ولم أذق طعم الأسرة والأهل، ولستُ واثقاً فيما إذا كنتُ سأبدو متماسكاً صلباً حينها، أم أنني سأنهار وأتداعى حين أتذوق أول رشفة وحين أغترف أول شربة من نهر هذا المنبع الفيّاض.

- ولكن يجب أن لا تنصدم أو تتفاجأ عندما يختار حفيدك صديقاً آخر للذهاب معه، وعليك أن لا تلومه أو تغضب منه أو تتخذ منه موقفاً سلبياً تجاه ذلك. فأنت لم تتعرف عليه إلا منذ...

قاطعتها بنبرةٍ مؤنبة:

- لا أريدُ أن أفكر في اختياره لصديق آخر الآن. أريدُ أن أكون إيجابياً. ألستم تتبجحون وتملأون الدنيا صراخاً وضجيجاً حول التفكير الإيجابي والنظرة المتفائلة. ما الذي حل بكِ الآن؟! وما الذي تغير؟!

ردتْ الدكتورة أبرار بصوتٍ هادئ وبنبرة حانية:

- لم يتغير شيء! ولكن عليك أن لا تنسى بأنّ عمرك خمس وستون

Twitter: @ketab_n

سنة كما تقول! أي أنّ بينك وبين حفيدك قرابة النصف قرن! ولا تنسَ بأنّ ميولك وطريقة تفكيرك وأسلوب حياتك مختلف اختلافاً جذرياً عنه. وهناكَ عالم من الفروقات بين أن تكون حالماً وأن تكون واقعياً!

- أعلم صعوبة المهمة، ولكني على استعداد للقيام بكل ما أستطيع من أجل أن أصل إلى بُغيتي.

- أخشى أن أقول لك بأنّ هذا جيد ولكنه لا يكفي!

وابتلعتْ ريقها وأكملت بحزم:

- ما الذي تعرفه عن المراهقين وعن عالمهم واهتماماتهم؟ منظرك وشكلك لا يكفي وحده ولن يمنحك منفرداً تذكرة الدخول إلى هذا العالم الغامض والمجهول!

كان وقع كلماتها شديداً عليّ. كانت كصفعةٍ قاسية نزلت على خدي. وكانت كصرخة مدويّة أيقظتني من غفلتي وسباتي. نعم، فعلى الرغم من صراحتها البالغة، وربما قسوتها، ولكنّها كانت مُحقة. ما الذي أعرفه عن المراهقين وعن هذا الجيل الجديد؟! لم يسبق لي أن احتككتُ بأيٍ من هذه الفئة منذ أن كنتُ مراهقاً. كانت حياتي روتينية ورتيبة وكانت تتمحور حول سلامتي الشخصية وحول صديق عمري مازن. ما أعرفه عن المراهقين لا يتجاوز كثيراً ما يعرفه الذئب عن النزاهة أو الأرنب عن الشجاعة! وقد أكملتْ أبرار حديثها الصريح الهجومي ولكنّ بلهجة حانية أكثر هذه المرة:

Twitter: @ketab_n

- صدقني يا أحمد بأنّك ستقحم نفسك في معركة غير متكافئة وفي منافسة ظالمة. وستصبح كما لو كنتَ سفينةً تخوض سباقاً في عرض البحرِ مع طائرة نفاثة تُحلق في الجو!

لم أستطع الاحتمال أكثر وقلتُ حانقاً:

- ولكن لماذا تثبطينني بهذا الشكل؟! ولماذا تتحدثين بهذه النبرة التي توحي بأنّ ما أنوي القيام به هو المستحيل بعينه. أنا أعلم صعوبة المهمة -كما ذكرتُ لكِ- ولكنني لن أتوقف ولن أستسلم ولن أتحلى بهذه الروح الانهزامية التي تريدين زرعها في أعماقي! لن أتوقف الآن ولن أتقهقهر ولن أتراجع كما تراجعت كثيراً في حياتي من قبل. هذه أسرتي ومن أبسط حقوقي أن أطمح بأن أشعر بهذا الشعور الشرعي الذي حُرمت منه طوال حياتي! وأنا الآن في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى كل العون والمساعدة بدلاً من أن تزيدي الطين بلة وتعقدي الموضوع أكثر!

لم تُجب الدكتورة أبرار على الفور، واكتفت بالنظر بعيداً باتجاه الباب، قبل أن تعود بنظرها إليّ وتقول بصوتٍ رخيم:

- أنا حقاً أريدُ مساعدتك. ولكنني أريدك أن تضع جميع الاحتمالات في حسبانك.

وابتلعتْ ريقها وأردفت قائلة:

- أنا على استعدادٍ تام لمساعدتك بكل ما تحتاج. فقط أخبرني بالشيء الذي تريده.

Twitter: @ketab_n

قلتُ مُتشككاً:

- حسناً، أريدُ منكِ أولاً أن تخبريني عن كل ما يتعلق بمراهقي هذه الأيام. عن اهتماماتهم وميولهم وأسلوب تعاملهم.

- أحمد، افتح عينيك جيداً. أنا لستُ مراهقة، وأنا وإن كنتُ قد قرأتُ كثيراً واختلطتُ مراراً بالمراهقين غير أنني في منتصف عمري وقد تجاوزت مرحلة المراهقة منذ خمسة عشر عاماً ولن أستطيع أن أخبرك بما تريد على وجه الدقة.

وابتسمتْ قبل أن تردف قائلة:

- ولكن على أية حال، فبإمكاني إن شئتَ أن أطلب من أخي الأصغر أن يلتقي بك ويخبرك هو بنفسه عن كل ما تريد أن تعرفه.

شعرتُ ببارقة أمل تلوحُ أمامي وقلتُ بحماسة:

- رائع! هذا ما أحتاجه فعلاً. ولكن يجب أن ألتقي به اليوم أو غداً على أبعد تقدير؛ فموعد زيارة هشام سيكون بعد الغد.

- سأتصل به الآن وسأحرص على أن يلتقيك في الوقت المناسب.

- ولكن ماذا ستقولين له؟ مراهقٌ في سن الشيخوخة؟!

ضحكت أبرار:

- في الواقع مازلتُ إلى الآن لا أصدق ذلك. لكن لا عليك سأخبره

Twitter: @ketab_n

بالأمر بطريقة طبيعية. ربما سأقول له بأنّ هناك فتى مراهقاً عاش جل حياته مع والديه ولم يلتق أو يحتك مطلقاً بأقرانه ومن هم في سنه وهو الآن عازمٌ على أن يعيش مرحلته السنية وفترته العمرية الطبيعية.

****

Twitter: @ketab_n

في مساءِ ذلك اليوم رنّ هاتفي رنّة واحدة قبل أن ينقطع الاتصال، وكانت تلك هي علامة وصول «سلمان» شقيقُ أبرار إلى شقتي كما اتفقنا في المكالمة التي سبقتها. خرجتُ من المبنى وكانت تقف أمامه سيارة حمراء فارهة من نوع «دوج- تشارجر» كما علمتُ لاحقاً. وقد حجبت التظليلة السوداء رؤية من بداخلها من الخارج. ولم أكد أقترب من السيارة حتى ترجل منها شابٌ يافع يبدو في التاسعة عشرة من عمره، ممتلئ الجسم، حنطي اللون، وطويل الشعر. وكان يضع نظارات طبية كبيرة لها إطارٌ عريض أسود اللون. وقد ارتدى بنطالاً قصيراً رماديّ اللون يصل إلى ركبتيه، وقميصاً أخضر قصير الأكمام. وقد جاءني وصافحني، قبل أن يعود مجدداً إلى السيارة حيث ركبتُ معه وسرنا باتجاه السوق.

في الطريق، لم نتحدث كثيراً، وكنتُ أشعر بالانقباض وعدم الارتياح لاسيما بعد أن رأيتُ الملابس التي يرتديها والتي اعتبرتها تُعبِّر عن عدم احترام وقلة ذوق منه! غير أنّني في خضم هذه الأفكار الحانقة تذكرتُ بأنّه يعتقِد بأنني مراهقٌ مثله؛ ويبدو بأنّ فتيان هذا الجيل لا يرون غضاضة في ارتداء أي نوعٍ من الملابس مع أقرانهم حتى وإن كانوا يلتقون بهم للمرة الأولى! وقد عرض عليّ في بادئ الأمر أن نتوقف عند أحد المحال لكي نشتري بعض المشروبات والمأكولات الخفيفة غير أنني أخبرته عن عدم رغبتي بتناول أي شيء بعد أن شكرته على مجاملته اللطيفة. ومن ثم سألني عدة أسئلة شخصية أجبتُ عنها باقتضاب. وقد طغى الصمتُ على السيارة لعدة دقائق قبل أن يبادرني بالحديث قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- لقد أخبرتني أختي أبرار بأنّك ترغب في اقتناء ملبوساتٍ عصرية وأن تظهر بمظهر الشباب الذين هم في مثل سنك.

- صحيح.

وأكملتُ مُحدِّثًا نفسي «ولكن بالتأكيد لا أريد الظهور بمظهرك!».

- أرجو أن تسمح لي بأن أسألك أولاً عن الميزانية وعن المبلغ الذي أنت على استعداد لصرفه من أجل ذلك؟

- لا أدري على وجه التحديد. ولكن ربما مائتين أو ثلاث مائة.

كنا نسير في طريقٍ فرعي ولم أكد أتم جملتي تلك حتى توقف جانباً فجأة وأخذ يحدقُ بي باستغراب بالغ:

- أأنت جاد؟

نظرتُ إليه بتعجب:

- نعم جاد لماذا؟

- بهذا المبلغ لن تستطيع أن تشتري أي شيء ولا حتى زوجاً من الأحذية. لربما ستستطيع أن تشتري فردة حذاء واحدة!

- فردة واحدة بمائتي ريال! أنت تمزح بالتأكيد!

- كلا لستُ أمزح.

Twitter: @ketab_n

وأكمل حديثه بنبرة جادة وعلامات خيبة الأمل تلوح على محياه:

- لو كنتُ أعلم ذلك لما كلفتُ نفسي عناء القدوم إليك ومرافقتك إلى السوق!

- مهلاً مهلاً، في الحقيقة، ليس لديّ علمٌ عن الأسعار والمبالغ التي يجب عليّ أن أصرفها. وأنا لم أحدد مبلغاً معيناً، بل سأشتري كل ما أحتاج إليه مهما كانت الأسعار.

- أتقصد بأنّك قد جلبتَ مبلغاً كبيراً معك؟

- نعم تستطيع أن تقول ذلك.

- لماذا لم تقل هذا من البداية؟!

وابتسمَ و واصل قيادته باتجاه السوق.

عندما وصلنا كان المكان مكتظاً بالناس ومزدحماً بالسيارات على الرغم من أنّنا كنا في منتصف الأسبوع، وأظن الآن بأنّه قد بات من الصعب أن تجد فرقًا بين يوم الإجازة ويوم العمل في الرياض؛ ففي كلا الحالتين ستكون الشوارع والأسواق عامرة بالناس! وجدنا مكاناً فارغاً بصعوبة، فأوقف سلمان سيارته ونزلنا سائرين باتجاه المدخل الرئيس للمبنى. وقبل أن ندخل أمسك سلمان بيدي وأوقفني وأخذ ينظر إليّ في عينيّ، وكان يقف أمامي مباشرة وخُيل إلي لوهلة بأنّه يؤدي دوراً مسرحياً! وكان يبدو في منتهى الجدية وقال لي بلهجة

Twitter: @ketab_n

حاسمة:

- أحمد، إننا الآن أمام مفترق طرق. وإنك تقف الآن عند نقطة التحول في حياتك.

كان يتحدث بحماسة وباندفاع إلى درجة أنني شعرتُ بأنّه يتهكم أو أنه يريد عمل مقلبٍ ما، بيد أنّ جديته البالغة طردت عني هذه الفكرة. وأكمل قائلاً على نفس الوتيرة وبعد أن وضع يديه الثنتين على كتفيّ:

- أعلم بأنّك قادر على القيام بهذا الأمر، وأثق بأنك ستنجح في هذه المهمة.

كنا تحت محط أنظار المارّة والمتسوقين الداخلين والخارجين والذين راحوا ينظرون إلينا بتعجب واستغراب وكنتُ ألمح الضحكات والابتسامات من هنا وهناك. وشعرتُ بأنّ سلمان يبالغُ كثيراً. وبادرته بالسؤال:

- لم أفهم شيئاً. لماذا تقول لي كل هذا؟! ولماذا نقف هنا أصلا!

- لماذا أقول لك هذا! حسناً؛ لأنك لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرك وترتدي الثوب والشماغ في السوق! لم يتبقَّ سوى أن ترتدي مشلحاً أسود وأن نأتي لك بالبخور وأن نزفك إلى عروسك! أحمد انظر من حولك. لا أحد في سنك يرتدي ثوباً وشماغاً وخصوصاً في مثل هذا المكان!

Twitter: @ketab_n

التفتُّ لا شعوريا ولاحظتُ -للمرة الأولى- بأنّ معظم الشباب كانوا يرتدون ملابس عصرية وبناطيل وقمصاناً زاهية الألوان. ولم يكن يرتدي الثوب والشماغ إلا الرجال الذين كانوا في أواسط عمرهم أو يزيدون. وأجبتُ بخضوع:

- ولذلك أنا هنا الآن. لقد أتيتُ لأغير من مظهري.

- جيد. ولكن عليك أن تطيعني فيما أقول وأن تثق بقراراتي واختياراتي.

- لم آتِ معك إلا من أجل ذلك.

وابتسمتُ ودخلنا سوياً. وبدأنا نتجول في المحلات المختلفة والتي لم تجذبني على الإطلاق، ولم يجذبني في السوق سوى ركنُ ساعات كان يقع في منتصف الممر بين المحلات وركنٌ آخر متخصص في بيع «المعمول». غير أنني لم أكد أتوقف عنده حتى سحبني سلمان بيده وقادني نحو محلٍ خافت الإضاءة من الداخل وكان يوجد في واجهته ألبسة مختلفة تنوعت ما بين البناطيل القصيرة والطويلة وتلك الواسعة والتي تظن حينما تراها أنها مصممة لشخصين اثنين لا لشخصٍ واحد! وأخرى شديدة الضيق يُخيل لك معها أنّه لا يُمكن ارتداؤها إلا عن طريق عملية «قيصرية»! أخذتُ أتأمل في الملبوسات المختلفة باستغراب قبل أن يأتيني سلمان من الخلف ويقول لي وهو يُعطيني بنطالاً من «الجينز» أسود اللون وقميصاً أبيضاً رُسم في مقدمته آلة «غيتار» باللون الأسود:

Twitter: @ketab_n

- خذ جرّب هذا في غرفة التبديل.

أخذتُ الملابس منه وبدأتُ في تأملها بتمعن قبل أن أبتسم وأقول وأنا أعيد إليه البنطال:

- من المُحال أن أرتدي هذا!

كان عاملُ المحل قريباً ولم أكد أتم عبارتي حتى قفز إليّ وقال فوراً:

- لديّ أنواعٌ أخرى بإمكانك أن تلقي نظرة عليها وأن...

وقاطعه سلمان:

- كلا، كلا دع الأمر لي لن يقوم بالنظر إلى أنواعٍ أخرى.

ومن ثم أخذ ينظرُ إلى عامل المحل، حيث فهم فوراً المقصود ومشى بعيداً، ومن ثم عاد بنظره إلي وخاطبني بغضب:

- ألم تقل لي بأنك ستطيعني وتثق بي قبل قليل؟!

- بلى قلتُ ذلك، ولكنني لم أقل بأنني سأرتدي هذا البنطال الضيق! أنا على أتم الاستعداد لشراء بناطيل أنيقة ولكن بشرط أن تكون واسعة، فأنا رجلٌ ولن أرضى بأن أقلل من رجولتي بارتداء هذا النوع من الملبوسات!

- بناطيل واسعة هاه؟! لماذا أردتَ المجيء معي إذاً منذ البداية

Twitter: @ketab_n

إنْ كنتَ ستقوم بالاختيار!

- لأنك أنت من يفهم في أذواق المراهقين وصرعات «الموضة».

ضحك سلمان بسخرية، وأكمل حديثه بتهكم وبنبرة حانقة:

- تقول «الموضة» وأنت تُصر على أخذ بنطالٍ واسع! هذا البنطال الذي بيدي هو جديد «الموضة» وهو ما يرتديه المشاهير والفنانون في كل مكان وهو ما يلبسه المراهقون والشباب في هذه الأيام.

- ولكن ما المشكلة فيما لو أخذتُ بنطالاً واسعاً؟!

- المشكلة باختصارٍ شديد بأنّ هذا النوع من البناطيل قد انقرض وبات يُعرض في المتاحف التاريخية، ولا أبالغ كثيراً إن قلت بأنّ رجل الكهف قد اعتاد ارتداءه إبان العصر الحجري!

ضحكتُ وأنا أشعرُ بالخجل، وأكمل سلمان كلامه:

- إنْ كنت تريد أن لا تظهر بمظهر مثير للشفقة وأن لا تكون أضحوكة عند أصحابك فعليك أن تستمع إلى ما أقول.

سلّمتُ أمري إلى الله وأخذتُ منه القميص والبنطال باتجاه غرفة التبديل. وبعد أن خلعتُ ملابسي وبدأتُ في ارتداء البنطال واجهت صعوبة بالغه في ارتدائه ولم أكد ألبسه حتى أحسستُ بأنّ الدم قد تجمد في عروقي وتعجبتُ كيف يستطيع أحدٌ أن يرتدي هذا البنطال، وهممتُ بخلعه لولا أن سمعتُ طرقاتٍ على الباب حيث جاءني صوت

Twitter: @ketab_n

سلمان «أيستغرق الأمر سنة كاملة لارتداء بنطالٍ وقميص!». وخرجتُ بعد أن ارتديت القميص وما إن رآني سلمان حتى وقف مدهوشاً في مكانه وانفتح فمه عن آخره وأخذ ينظرُ إلي بتعجب ولم يتكلم إطلاقاً. وعلمتُ فوراً بأنها لم تكن لائقة عليّ وبأنها لم تعجبه وأدرتُ ظهري وأنا أقول:

- لقد طفح الكيل، سألبسُ ثوبي وسنبحث عن ملابس أخرى غير هذه.

وأمسك سلمان بيدي:

- ماذا تقول؟! هل أنت جاد؟! لقد أخذت بلب عقلي يارجل!

- ما الذي تعني؟

- أعني بأنّ هذه الملابس جميلة جداً عليك. ولم أدرك بأنّك على هذا القدر الكبير من الوسامة إلا الآن!

نظراً لميل سلمان للمبالغة كثيراً لم أعر إطراءه هذا اهتماماً كبيراً واكتفيت بابتسامة خجولة. وقلتُ بأسى:

- لقد عانيتُ معاناة قاسية من أجل ارتداء هذا البنطال!

- لا عجب في ذلك؛ فأنت قد رفعته إلى سرتك بدل أن تضعه على خصرك! عليك أن تنزله قليلاً إلى الأسفل ، لا أحد يرتديه هكذا!

Twitter: @ketab_n

ورمقني بنظرة عتاب قبل أن نكمل رحلة التسوق الشاقة والتنقل بين المحلات. وبعد أن انتهينا من شراء الملابس انتقلنا إلى قسم الأحذية حيث اختار حذاءً مُسطحاً غريب الشكل لي لكي أرتديه. وبعد أن ارتديته قلتُ بتعجب:

- أتعلم ياسلمان، لو قالوا لي خُذ هذا الحذاء مجاناً لما أخذته!

- مجاناً؟! إنّ قيمته مائة وتسعون ريالاً!

- وهذه هي المصيبة! حينما رأيته للوهلة الأولى ظننتُ بأنّه نفس الحذاء الذي اعتاد جحا أن يرتديه!

- وما أدراك أنت! على أية حال هذا هو الشائع حالياً وهو على العكس من كلامك؛ يبدو أنيقاً جداً.

أخذته على مضض مع حذاءٍ آخر شبيهٍ به ولكن بلونٍ مختلف. وقبل أن نغادر السوق التفتُّ إلى سلمان وقلت له مستدركاً:

- لقد نسينا شيئاً هاماً!

- وما هو؟

- لقد نسينا أن نشتري جوارب.

قلتها وأنا أبتسمُ بزهو، وشعرتُ بأنني أخيراً قد وجدتُ مأخذاً وملحوظة على سلمان، الذي اكتفى بهزّ رأسه وهو يبتسم بسخرية

Twitter: @ketab_n

ويقول:

- وأنا الذي ظننتُ -للمرة الأولى- بأنّك شخصٌ فاهم وبأنّ لديك شيءٌ يستحق الاستماع!

- ولماذا تقول ذلك؟! نحن بالفعل لم نشترها.

- ببساطة لأنّ الحذاءيّن اللذين اشتريناهما يُلبسان من دون جوارب.

- من دون جوارب! كيف؟!

- إنّها «الموضة» ياصديقي. لا أظنك تريدني أن أذكرك بقصة رجل الكهف!

- إنّ هذا الشيء هو أغبى ما سمعته في حياتي. من دون جوارب لن يكون الحذاء مُريحاً على الإطلاق!

- لا عليك الأمر ليس بهذا السوء. ستعتاد عليه بعد فترة وجيزة.

ولم أشأ أن أجادله واكتفيتُ بالسير معه على الرغم من عدم اقتناعي بما قال. فمهما يكن فمن أجل هشام ومن أجل أن لا أبدو غريباً بين أصدقائه وشاذاً عنهم سأقوم بأي شيء!

كان السوق قد بدأ يخلو من المتسوقين. وحينما خرجنا من الباب الرئيس أخرجتُ جوالي لكي أنظر إلى الساعة حيث كانت الحادية

Twitter: @ketab_n

عشرة إلا ربعًا. وقبل أن أعيد جوالي إلى مكانه توقف سلمان عن السير، فالتفتُّ إليه حيث ظل يحملق بي وعلامات خيبة الأمل والذهول مسيطرة عليه وراح يقول بنبرة حزينة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

شعرتُ بالقلق وأخذتُ أنظرُ إليه بتعجب:

- سلمان ماذا حدث؟

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

- ما المشكلة؟ هل حلّت مصيبة ما؟!

- اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن...

وقاطعته بغضب:

- سلمان إنّي أمقتُ هذا الأسلوب. قل ما المشكلة وإلا سأستقل سيارة أجرة وأعود إلى بيتي!

وقال سلمان وهو يشير بإصبعه إلى جوالي:

- ماهذا الذي في يدك؟

- هذا جوالي!

Twitter: @ketab_n

وكرّر مجددًا:

- ماهذا الذي في يدك؟!

- لا أدري. ما رأيك أنت؟!

قلتها بغضب وأنا أشعر بأنّ صبري قد نفذ.

- أتسمي هذا جوالا! وأنا الذي أتعبتُ نفسي معك واخترتُ لك أفضل الملابس وبعد أن ظننتُ أنك أخيراً قد أصبحت تعيش العصر والزمن الذي أنت فيه تفاجئني بهذا الجهاز الأثري!

- ماذا؟! هل ستقول الآن بأنّ رجل الكهف كان معه مثل هذا الجوال؟!

- أتمزح؟! رجل الكهف هذا لا يرضى بأن يقلل من قدره ومن منزلته باقتناء مثل هذا الجوال! بل حتى الديناصورات أظنها كانت تمتلك أجهزة جوال أحدث من هذا الجهاز الذي معك!

- ولكنّني مرتاحٌ معه! وأجده عملياً جداً، فبطاريته على سبيل المثال تمكث أسبوعاً كاملاً من دون أن تحتاج إلى إعادة شحن!

ضحك سلمان بسخرية:

- بالتأكيد ستبقى أسبوعاً كاملاً، بل من المفترض أن تبقى شهراً كاملاً؛ فجهاز لا يستطيع أن يحتفظ بأكثر من ثمانِ رسائل أقل مايستطيع أن يفعله هو أن تكون بطاريته كذلك!

Twitter: @ketab_n

اكتفيتُ بالصمت، وأكمل سلمان حديثه:

- من حسن حظنا أنّه مازال هناك متسعٌ من الوقت وبمقدورنا أن ندرك محلات بيع الجوالات قبل أن تغلق. هل لايزال معك نقود؟

- نعم.

قلتها بنبرة منكسرة وأنا أقسمُ بداخلي على أن لا أدخل أي سوقٍ مرة أخرى!

اتجهنا إلى محلات بيع الجولات واشترينا جهاز «بلاك بيري» حديث الطراز بلغت قيمته ألفين وخمس مائة ريال. ولم أقدم على شرائه إلا بعد إلحاحٍ بالغ من سلمان لم يخلُ من مبالغاته المعتادة. ونحن في طريق عودتنا طلب مني أن نتناول سوياً العشاء في أحد مطاعم الوجبات السريعة غير أنني رفضت رفضاً قاطعاً وتعللتُ بأنّ الوقت قد تأخر وبأنني لا أشعر بالجوع؛ فبعد هذه الرحلة الشاقة وبعد هذه القرارات المتهورة التي اتخذتها بلا اقتناعٍ مني لم أعد أرغب بأي شيء سوى بالاستلقاء والتمدد على أريكتي المريحة وتناول كوبٍ من الشاي.

دخلتُ شقتي بعد أن ودعت سلمان والذي أكد لي وطمأنني بأنني قد غدوت شخصاً جديداً وفتىً عصرياً حينما رأى علامات الندم والحسرة بادية على وجهي. كان إجمالي ماصرفته في هذه الرحلة المؤلمة خمسة آلافٍ ريال؛ تمثلت في هاتف جوالٍ جديد وبنطالين وخمسة

Twitter: @ketab_n

أقمصة وحذاءيْن وملابس أخرى داخلية. رميتُ الأكياس على الطاولة وخلعت ثوبي وشماغي وارتديتُ ملابس النوم واستلقيتُ على السرير وبدأت في التقاط أنفاسي واستعادة توازني بعد هذا الجحيم الذي مررتُ به اليوم. وعلى غير العادة وجدتُ نفسي وقد غططتُ في نومٍ عميق لم أكن أخططُ له!

****

Twitter: @ketab_n

في عصر يوم الأربعاء ارتديتُ الملابس التي اشتريتها والتي كنتُ أنوي الذهاب بها إلى بيتِ هشام. كان موعد اللقاء في الساعة السابعة مساءً بعد صلاة المغرب، وقد أخبرني بأن المباراة ستبدأ عند الساعة التاسعة وسيكون من الأفضل أن نلتقي قبل موعد بدئها بفترة كافية. وكنتُ قبل العصر قد توجهت إلى أحد محلات بيع المعجنات والفطائر واشتريتُ منه مُعجنات متنوعة في تحفة بُنية اللون على شكلِ نافورة كنتُ قد تلقيتها مُسبقاً هدية من مازن -رحمه الله- حينما عاد من إحدى سفرياته مع أسرته. وقد رأيتُ بأنّ منظر الفطائر سيبدو أجمل حينما تكون هذه التحفة مملوءة بها. وقد تنوعت الفطائر بين «البيتزا» و معجنات «الجبن» و «الزعتر» و «التونة» و «اللبنة». وكان وزنها قرابة الثلاثة كيلوغرامات وقد كلفتني مبلغاً يقارب المائة ريال. وقد وضعتها بجانب باب الشقة على الطاولة ودخلتُ إلى غرفة النوم وبدأتُ في ارتداء اللباس الذي سأذهب به إلى الموعد المنتظر.

كان البنطال أزرق داكناً وضيقاً بشكل بارز من الأسفل إلى درجة أنه كان يُظهر حجم ساقيّ بدقة متناهية. وقد وضعتُ الحزام حوالي خصري وأسفل سرتي كما أخبرني بذلك سلمان وأنّ هذه هي الطريقة التي يُفترض أن يُوضع بها. وارتديتُ قميصاً أخضر اللون وقد امتلأ من الأمام بالكتابات الإنجليزية المختلفة والتي لم أفهم منها كلمةً واحدة! وارتديتُ حذاءً من دون جوارب أبيض اللون مقلّمًا بألوان مختلفة تنوعت بين الأخضر والأزرق والأسود. نظرتُ إلى نفسي في المرآة وللمرة الأولى في حياتي شعرتُ بأنني أجهل هوية هذا الشخص الذي يقف أمامي. وأحسستُ بأنني أنظرُ إلى شخصٍ غريب لا أعرفه

Twitter: @ketab_n

إطلاقاً. وقد استهجنتُ منظر هذا الشخص واستأتُ منه وكرهته تماماً. هذا ليس أنا! وهذا ما لا يجب أن أكونَ عليه يوماً! نعم، أريدُ أن أكون قريباً من هشام وأريد أن لا أبدو مختلفاً عن أبناء هذا الجيل ولكن هذا لا يعني بأن أتنازل عن قيمي وأن أتخلى عن مبادئي في سبيل ذلك! لماذا أنا من يجب عليه أن أتغير؟! لماذا لا أكون أنا مُنطلق التغيير وأن أكون أنا من يؤثر في مَن حولي، وأن أجعل حفيدي وأصدقاءه يعودون مرة أخرى إلى قيمهم الأصيلة وأن يفتخروا بتراثهم وبزيهم الوطني؟!

هَمَمْتُ بنزع الملابس وبارتداء الثوب وقبل أن أقوم بذلك رنَّ هاتفي الجوال وكان المُتصل شخصاً غير متوقع؛ إذْ كانت الدكتورة أبرار. أجبتُ على الاتصال وجاءني صوتها العذب وكنتُ كأني أستمع إليه للمرة الأولى وشعرتُ بشعورٍ غريب لم يساورني من قبل:

- مرحباً يا أبي.

- أبي؟! هل أخطأتِ في الاتصال؟!

ضحكت أبرار وقالت:

- كلا لم أخطئ؛ في الواقع أنتَ في سنِّ والدي كما تقول لي. لماذا تتعجب الآن؟!

- آه فهمت.

- أفترض بأنّك ستذهب بعد قليل إلى بيتِ حفيدك أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم، بعد صلاة المغرب.

- جميل. وما هو شعورك حيال هذه الزيارة؟

- لا أدري، ولكن أشعرُ بشيء من الانقباض والتوتر.

- من الطبيعي أن يساورك هذا الشعور. فقبل كل زيارة أولى؛ نشعرُ بالقلق وتراودنا المخاوف والتي سُرعان ماتزول وتتلاشى بعد مرور بعض الوقت على وجودنا في ذلك المكان.

ومن ثم صمتت قليلاً، قبل أن تواصل حديثها:

- لقد حدثني أخي «سلمان» عنك، وأخبرني عن رحلتكم بالتفصيل الممل. وقال لي عن مقاومتك الشرسة تجاه التغيير.

ومن ثم ضحكتْ ولم أضحك أنا بدوري واكتفيتُ بالتعليق:

- في الواقع مازلتُ إلى الآن أقاوم هذا التغيير. ولابد لي من أن أقاومه فهو تغيير إلى الأسوأ وأنا لا أرضى ولا يسرني أن أشاهد حفيدي وهو يرتدي هذه الملابس الغريبة والخادشة للحياء فكيف بأنْ أسمح لنفسي بأن أرتديها، وهذا تحت مُبرر التقرّب منه وكسر الحواجز!

وجاءني صوتُ أبرار بنبرة جادة هذه المرة:

- اسمع يا أحمد. ماعليك أن تعيه وتدركه جيداً هو بأنّ كل أمرٍ لم نعتد عليه ولم نألفه فسنستنكره وسنستهجنه في البداية. إنّ الناسَ يا أحمد لا تقاوم فقط التغيير الضار بها، بل وتقاوم حتى التغيير

Twitter: @ketab_n

الإيجابي والنافع لها. إنّ التخلي عن عاداتنا السابقة وتركنا لها يُعد أمرًا بالغ الصعوبة فهذه العادات في النهاية هي ما تُشكل شخصيتنا وتُكوّن هويتنا. إنْ كنتَ تريدُ حقاً أن تشعر بطعم الأسرة وأن تكون ذلك الصديق فعليك أن تتقرب من ابنك وأن لا تُصبح صديقاً له فقط بل وأن تكون ذلك الصديق الأقرب له. ولكي تصل إلى ذلك وتحقق مرادك فعليك بأن تظهر بمظهر يألفه ويُفضله، فلطالما كان الصاحب مرآة لصاحبه يرى فيها انعكاسَ صورته. ولن تستطيع الاقتراب منه حقاً طالما كنتَ تبدو مختلفاً عنه لاسيما في بداية مشوارك معه.

- ولكن لماذا لا أكون أنا من أغيره بدلاً من أن يُغيرني هو؟!

- نعم لا مانع من ذلك، ولكن ليس الآن. تستطيع أن تُغيّره وأن تجعله يحاكيك ويرتدي الزي الذي تحبه أنت ولكن بعد أن تقوى علاقتك به وبعد أن يثق بك وينظرُ إليك كما لو كنتَ بمثابة الأخ بالنسبة له. ومن المُحال أن يقبل المراهق التغيير من شخص علاقته سطحية به، وقد يؤثر هذا في منزلة هذا الشخص ويجعله ينفِر منه وينأى عنه. عليك أن تكون حذراً في تعاملك معه. وعليك أن تبدو تماماً كواحد من أصدقائه الاعتياديين حتى ولو اضطررت إلى تقديم بعض التنازلات والتضحيات في سبيل هذا الهدف.

استمرّت المكالمة بضع دقائق قبل أن تودعني الدكتورة أبرار وهي تتمنى لي التوفيق في هذه «المهمة» كما أسمتها، وأخبرتني بأنّها ستنتظر مني تفاصيل هذه الزيارة في الغد عندما يحل موعد جلستي النفسية الجديدة معها. حمدتُ الله كثيراً وشعرتُ بالارتياح والاسترخاء وسرّني أنّ أبرار قد اتصلت بي وأنها كانت تُفكر بي وتكترث لأمري. لقد بدأتُ

Twitter: @ketab_n

في التلكؤ والتردد، إلى أن جاءت مكالمة أبرار لتقدم لي العون والدفعة المعنوية التي كنتُ في أمس الحاجة إليها.

كنتُ قد عرفتُ موقع ووصف منزل هشام حينما كلمته في وقت سابق من هذا اليوم. وما إنْ صليتُ المغرب حتى أخذتُ تُحفة المعجنات معي وتوجهتُ إلى منزلِ هشام. حينما وصلتُ إلى المنزل الذي لم يكن بعيداً عني؛ إذْ أنني لم أستغرق سوى عشرين دقيقة للوصول، كانت تقف عند بيته ثلاث سيارات إحداها سيارة «جمس» كبيرة من نوع «يوكن» وأخريان صغيرتان. ولم أجد مكاناً متاحاً عند منزله فاضطررتُ للوقوف عند المنزلِ المجاور لبيته والذي كان خالياً من السيارات. نزلتُ من السيارة واتصلت بهشام وأبلغته بأنني قد وصلتُ، ولم يستغرق طويلاً حتى خرج من الباب وهو يُرحب ويُهلل بصوت عالٍ وبابتسامة عريضة. ولم تكد عيناه تقع عليّ حتى ارتفع حاجباه وأخذ ينظر بدهشة بالغة وراح يردد بعدمِ تصديق:

- لا لا. أمتأكدٌ أنّ هذا أنت؟!

- نعم ما الغريب؟

- الغريب قولك لي بأنّك لا تشعر بالراحة إلا حينما ترتدي الثوب والشماغ!

- لم أكن جاداً في ذلك.

قلتها وأنا أبتسم، في الوقت الذي كانت ماتزال فيه علامات

Twitter: @ketab_n

الدهشة والاستغراب بادية على هشام:

- تبدو شخصاً آخر بهذه الملابس يا أحمد. لم أعرفك من الوهلة الأولى!

وأكملَ قائلاً:

- من أين اشتريت هذا القميص؟

- لماذا؟ هل أعجبك؟

- بالتأكيد، إنّه أنيق للغاية. أريدُ أن أشتري واحداً مثله.

دخلنا إلى المنزل بعد أن سبقني في الدخول إليه. لم يكن المنزل كبيراً جداً، وقدرتُ بأنّ مساحته لا تتجاوز الخمس مائة متر. ولم يكن الفناء الخارجي كبيراً وكان يوجد على اليسار سيارة سوداء مركونة من نوع «لكزس» وخمنتُ بأنّها سيارة «عبدالمحسن». وفي المنتصف بين السيارة المركونة وبين مُلحق البيت الخارجي كان يفصل بين الجزءين حديقة صغيرة احتوت على شجيرات مُشذبة بعناية وأزهار و ورود مختلفة الأشكال والألوان بدت في غاية الأناقة والجاذبية وقد أضفت على المكان رونقاً رائعاً ورائحة بريّة عذبة. وعلى اليمين كان يوجد غرفة مبنية من الخارج على طرازٍ تراثي بُنية اللون وتبدو كما لو كانت غرفة قد بُنيت في أوائل هذا القرن، غير أنّها كانت حديثة البناء وتشبعت بعبق الماضي الزاخر. وخارج الملحق عند الباب اكتظت أحذية مختلفة الهيئات والأشكال وكان أحدها شبيهًا بحذائي الذي أرتديه،

Twitter: @ketab_n

وبنظرةٍ خاطفة عليها علمتُ بأنّ من كان يوجد في الداخل لن يقلوا بحالٍ من الأحوال عن ثلاثةِ أشخاص. وقبل أن أدخل أعطيت هشام تحفة الفطائر، حيث راح يحملق بها بدهشة مرة أخرى قبل أن يقول: «هذا كثيرٌ جداً! شكراً لك يا أحمد، من الآن وصاعداً ستكون أنت أول من أدعوه إلى بيتنا!» وأتبعها بضحكة جميلة ارتسمتْ على وجهه.

دخلتُ الملحق، ومن النظرة الأولى كان جميع مَن في الملحق يرتدون البناطيل والقمصان العصرية، وتخيلتُ نفسي وأنا أجلسُ شاذاً بينهم بثوبي الأبيض الذي لطالما لازمني في حلي وترحالي. كان اثنان منهم يجلسان على مقربة من التلفاز ويمسكان بأيديهما بجهازين أسودين –علمتُ لاحقاً- بأنّهما أداتا التحكم في جهاز ألعاب يُسمى بالـ«بلاي ستيشن»! فيما كان الآخر يجلسُ بعيداً عنهم ويُمسك بين يديه بجهاز «آيباد». حين دخلت وقفوا جميعاً وسلمتُ على الأول منهم حيث قال هشام على الفور وهو يشيرُ إلى صديقه: «أحمد، هذا صديقي بدر». وقد صافحني بدر وهو يبتسم. كان بدر يبدو نسخة مطابقة لحفيدي هشام؛ بشعره الكثير المجعد وبهيئته الخارجية التي تشابهه إلى حد كبير. ومن ثم سلمتُ على الآخر وهو «خالد» والذي كان فتىً سميناً يميلُ إلى السمرة، قصير الشعر، وملامحه طفولية. وانتقلتُ أخيراً لمصافحة فتى «الآيباد» عبدالعزيز والذي كان نحيل الجسم، أبيض اللون، شعره طويل وناعم –خلافاً لهشام وبدر- وكان هو الأكثر طولاً بينهم. وشعرتُ براحةٍ غريبة حينما سلمتُ عليه وقد ابتسم وهو يصافحني ابتسامة آسرة.

Twitter: @ketab_n

خرج هشام من الملحق، وجلستُ أنا بدوري في الخلف على مقربةٍ من عبدالعزيز، في الوقت الذي راحَ فيه خالد وبدر يواصلان اللعب على «البلاي ستيشن». كان الملحق من الداخل انعكاساً لهيئته من الخارج؛ حيث كانت الأدوات والأواني والرموز التاريخية التراثية تنتشر في المكان. ففي المقدمة كان يحيط بشاشة التلفاز الكبيرة المسطحة مجموعة من التحف الأثرية وفوقه تماماً كان يوجدُ سيفٌ ذهبي كبير وبُندقية قديمة. وتساءلتُ فيما لو دخل لصٌ إلى هذا المنزل فهل سيكون من المفيد الاستعانة بهذه البندقية أم أنّ صاحبها سيكون مثيراً للشفقة وسيظهر بمظهرٍ مضحك، وعلى أية حال فلا أستبعد أن تؤدي الغرض فقد يصل الضحك باللص إلى درجة لا يستطيع معها السيطرة على نفسه ومن ثم ينقض عليه أفراد البيت ويكبلونه وهو في غمرة ضحكه الشديد. وابتسمتُ وأنا أتخيل هذا المنظر، قبل أن أطوف بنظري مجدداً حول الملحق. كانت الجلسة أرضية، وقد أحاط بالجدران الثلاثة وسائد قديمة الطراز حمراء مزخرفة باللون الأصفر، بينما غطت الأرضية سجادة وثيرة فاخرة ذاتُ لون أحمر داكن.

وقد عاد هشام بعد فترة وجيزة وهو يحمل إناءً كبيراً فيه زمزمية شاي وحوله أكواب زجاجية وصحون صغيرة مستديرة مُلئت بالمكسرات. وقد وضع الإناء بجانب تحفة المعجنات التي أحضرتها معي، وبدأ يسكب الشاي ويملأ الأكواب ويعطيها لمن حوله. ومن ثم بعد أن فرغ من ذلك جلس بجانبي وأخذ كوباً من الشاي وبدأ يقضم قطعة من الفطائر وهو يقول:

Twitter: @ketab_n

- كيف حالك يا أحمد؟ كيف حال دراستك؟

قلتُ وأنا أرتشفُ الشاي:

- الحمد لله أنا بخير. ودراستي على مايرام.

- رائع. بالمناسبة في أي مدرسة تدرس؟

كنتُ قد توقعتُ أن أُسأل مُسبقاً هذا السؤال وقد أعددتُ إجابة مناسبة:

- أدرس في مدرسة «الحكماء» وهي مدرسة تقع في حي الزهور في شرق الرياض.

- ولكن هذه المدرسة بعيدةً تماماً عن حينا هذا، وحتى عن الحي الذي تسكنُ أنت فيه!

كنتُ قد اخترتُ عمداً هذه المدرسة بالذات لأنها بعيدة؛ من أجل أن أكون متيقناً من عدم وجود أحد من أصدقائه يدرس فيها.

- أعلمُ ذلك؛ ولكنّ أبي يعملُ قريباً منها ولذلك فضل أن يُدخلني هذه المدرسة تحديدًا من أجل أن يذهب بي إليها في الصباح وهو في طريقه إلى مكان عمله.

- ولكن ماذا عن سيارة «الكابرس» التي أتيتَ بها اليوم؟

- أبي لا يسمحُ لي بقيادتها إلا عند نهاية الأسبوع وفي الإجازات.

Twitter: @ketab_n

تدخل في هذه اللحظة عبدالعزيز بعد أن وضع جهاز «الآيباد» جانباً:

- مثلُ والدي تماماً؛ فهو يرفض أن يجعلني أقودَ سيارة العائلة ويُفضل السائق الأجنبي عليّ، إلا في يومي الأربعاء والخميس!

وقال هشام بحسرة:

- عليكما أن تحمدا الله على ذلك! فأنا لا يسمح لي والدي حتى بقيادة دراجة فضلاً عن أن أقود سيارة.

وفي داخلي حمدتُ الله كثيراً على ذلك وسرّني تصرف ولدي عبدالمحسن؛ فلو كان لي من الأمر شيء لما سمحتُ لهشام بالقيادة إطلاقاً قبل السن القانونية. وقد علق بدر من الخلف وهو يواصل اللعب مع خالد ونحن لا نرى إلا ظهره:

- على الأقل يوجد لديك شريط السيارات «نيد فور سبيد» و شريط «غراند توريزمو» وتستطيع أن تلعب متى يحلو لك.

وأخذ يضحك، في الوقت الذي غيّر فيه هشام دفة الحديث وهو يقول:

- في الواقع لقد ظهر شريطٌ جديد يُعد ثورة في عالم ألعاب الفيديو وفي ألعاب السيارات تحديداً إنه شريط «ديرت» الثالث، والذي يتميز بسهولة التحكم و بدقة التصوير و بسلاسة واحترافية التحكم ومحاكاته للواقع بدرجة كبيرة و...

Twitter: @ketab_n

وراح يتحدث هشام بإسهاب عن مميزات اللعبة قبل أن يتدخل بدر وخالد بعد ذلك ومن ثم عبدالعزيز في الوقت الذي اكتفيتُ فيه بالصمتِ وشعرتُ بأنني كائن غريب ومخلوقٌ دخيل. لم أكن أفهم كثيرا من الكلام الذي راحوا يتحدثون فيه ولم أكن أستوعب المصطلحات والجمل التي يطلقونها ولم أكن أدرك المعاني ومغزى النكات التي انفجروا ضاحكين عليها. كان شكلي ومظهري لا يختلف عنهم. وكنت أبدو مثلهم تماماً. لكن حقيقة الأمر أنّ حجم الفارق الذي بيننا كان كحجم الفارق بين السماء والأرض!

وشعرتُ بالملل وبالإحباط وأيقنتُ حينها استحالة استمراري على هذا الحال، واستحالة دخولي هذا العالم الغامض المجهول الذي لا أعرف شيئاً فيه. كنتُ الصامت الوحيد، وبدوتُ أشبه برجلٍ أجنبي غريب لا يفقه حرفاً واحداً من اللغة العربية وقد دخل برنامجاً للشعر العربي وليس هذا فقط بل وينوي الفوز في هذه المسابقة!

وقد دخل هشام وخالد في نقاشٍ حادّ عن اللعبة الأفضل حيث كان يؤكد خالد بأنّ الشريط الذي ذكره يتفوق على الشريط الذي ذكره هشام في حين أن الأخير كان يرى العكس تماماً. وقد تحول هشام ببصره إليّ وقال:

- دعونا نسأل أحمد فأنا متأكد بأنّه سيخبرنا عن اللعبة الأفضل.

لم أكن أفهم ولم أعرف الأسماء والمصطلحات التي أطلقها ولم أرد أن أقول بأنني لا أفقه شيئاً حول هذه الألعاب ومعرفتي لا تكاد

Twitter: @ketab_n

تتجاوز الألعاب الشعبية القديمة التي كنا نلعبها حينما كنا صغاراً والتي اندثرت الآن ولم يعد لها وجود على أرض الواقع. صمتٌّ قليلاً وشعرتُ بالعرق يتصبب من جبيني ودعوت الله أن لا أصبح أضحوكة أمامهم وأخذتُ نفساً عميقاً وقلت متظاهرًا بالثقة:

- على الرغم من أن لعبة خالد تبدو جيدة وممتعة ولا يستهان بها في حقيقة الأمر، إلا أنّ لعبة هشام تبدو عملية أكثر وعلى درجة كبيرة من الإتقان ولا يمكن أن يتسلل الملل إليك وأنت تلعبها.

ولم أكد أكمل حديثي حتى تهلل وجه هشام فرحاً وقال مُعلقاً على كلامي وهو يربت على كتفي:

- كم يلومونني فيك يا أحمد! كنتُ أعلم منذ اللحظة الأولى بأنك عبقري ومتميز!

وسألني عبدالعزيز:

- ولكن مارأيك بلعبة «.........»؟

إنا لله وإنا إليه راجعون! والآن ماذا؟ هل سيعينوني مرجعاً لهم حول الألعاب! وتنحنحتُ قليلاً وقلت:

- بصراحة هي لعبة مميزة، وتستحق أن يشتريها المرء من دون تفكير!

سُرَّ عبدالعزيز لكلامي قبل أن يسألني مجدداً:

Twitter: @ketab_n

- ولكن هل ختمت اللعبة؟ وما هي المرحلة التي واجهتك صعوبة فيها؟ وكيف استطعت أن تتجاوز وحش الـ......

والحق أنني لم أفهم كلمةً واحدة مما يقول، وعلمت حينها بأنّ الكلمات العامة لن تكون كفيلة بنجاتي من هذه الهجمة الشرسة ومن وابل الأسئلة المدرار. وتمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني. وحاولت أن أبدو واثقاً ومتماسكاً قدر الإمكان:

- أما عن ختم اللعبة فأنا لم أستطع ذلك؛ ليس لعجزي أو لقلة حيلتي ولكن لأنني شعرتُ بالملل وانشغلتُ بأمور أخرى. وأمَّا عن الصعوبات فهي لم تكن كثيرة وقد تمكنتُ من تجاوز المرحلة التي تسأل عنها عن طريق التركيز والمحاولة مرة تلو الأخرى حتى اجتزتها في نهاية الأمر.

وابتسم قبل أن يسألني عن نوع هاتفي الجوال ويطلب مني رؤيته وقد سألني:

- كم رقم جهازك الشخصي «البلاك بيري»؟

وأخذت أسرد عليه رقم جوالي قبل أن يتدارك عبدالعزيز الأمر وهو يقول:

- كلا، كلا، أقصد رقم الجهاز؛ لكي أضيفك في المجموعة لدي ولنستقبل ونتبادل الرسائل.

- لا أحفظ الرقم الآن.

Twitter: @ketab_n

- يبدو لي بأنّك لم تفعل الخدمة بعد.

قالها وهو يعبث بجهازي الجديد. وقلتُ مُستدركاً على الفور:

- كلما هممتُ بتفعيلها جاءني ارتباطٌ معين وأنساني فعل ذلك.

- في الواقع فإنّ الجهاز عديم الجدوى من دون تفعيل الخدمة. إنّ الأمر سهلٌ جداً ولن يأخذ منك سوى دقائق معدودة. هل تريدني أن أفعّل الخدمة لك؟

شكرته على عرضه وكرمه واعتذرتُ منه بلباقة. ولم نمكث طويلاً حتى بدأت المباراة وتسمّروا جميعاً أمام الشاشة وأخذوا يشجعون ويصرخون ويهتفون بحماسة شديدة. في الوقت الذي كنت أتظاهر فيه بالاهتمام الشديد، وأتفاعل معهم وأهز رأسي موافقًا لكلامهم حينما يسألونني عن أحداث المباراة وأنا في حقيقة الأمر لستُ بأفضل حالا هذه المرة عن حالي مع الألعاب الألكترونية؛ فعلاقتي مع كرة القدم هي علاقة كراهية وعداء منذ طفولتي وحتى اليوم. ولا أنظر إليها سوى على أنها جلدٌ منفوخ يتقاتل عليه اثنان وعشرون لاعباً بحثاً عن لقمة العيش.

وقد ظلوا على هذه الحال حتى سجل فريق «مانشستر» هدف في مرمى الفريق الآخر «ليفربول» وقد قفز هشام وخالد فرحاً بالهدف في حين أنّ بدر غضب واستاء كثيراً وراح يكيل سيلاً من الشتائم على حكم المباراة وعلى فريق «مانشستر» ووصفه بأنّه مدعومٌ من طرف

Twitter: @ketab_n

الحكام. في الوقت الذي كان فيه عبدالعزيز هادئاً ومكتفياً بالتبسم؛ وخمنتُ بأنه إمّا يكره الكرة أو أنّه يشجع فريقاً آخر. وقد اشتد الجدال بين هشام وخالد من جهة وبدر من جهة أخرى حول صحة الهدف من عدمه وكانوا جميعاً واقفين وكاد أن يصل الأمر بهم إلى الاشتباك بالأيدي والعراك! وقد حدث ماكنتُ أخشاه وتوجهوا بأعينهم نحوي وقرروا أن يحتكموا إليّ مرة أخرى! حيث تعلقت أعينهم بي في الوقت الذي قال فيها هشام مخاطباً إياي وهو ينظرُ إليّ نظرة رجاءٍ وأمل:

- أحمد، أريدك أن تكون صريحاً ومنصفاً، لقد شاهدتَ الهدف وشاهدتَ الإعادة عدة مرات. هل الهدف تسلل أم لا؟!

نظرتُ إلى هشام وخالد، ومن ثم توجهتُ بنظري ألى بدر. كنتُ جالساً على الأرض وكانوا واقفين ومتحلقين حولي، وعلقوا آمالهم عليّ، وكلٌّ منهم راح ينظر إليّ نظرة استعطاف لكي أرجح الرأي الذي يتبناه. وقد ابتلعتُ ريقي قبل أن أقول:

- يبدو الهدف من الوهلة الأولى بأنّه تسلل...

وقد قاطعني بدر وهو يصرخ في هشام وخالد اللذين طغت عليهما الحسرة وخيبة الأمل:

- ألم أقل لكم بأنّه كذلك؟!

واستدركتُ قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- من الوهلة الأولى هو تسلل، ولكن عندما نتأمل الإعادة ملياً نجد بأنّ الهدف صحيح من دون أدنى شك!

ولم أكد أكمل جملتي حتى قفز خالد فرحاً و تهلل وجه هشام سعادةً و عانقني وهو يضحك:

- لن أشاهد أي مباراة بعد اليوم إلا وأنت بجانبي!

وما لم يعرفه هشام ولا خالد ولا بدر ولا عبدالعزيز هو بأنني لم أشاهد الإعادة ولم أشاهد الهدف نفسه! ولا أعرف الفرق بين التسلل وبين رمية التماس! غير أنني أحسستُ بسعادةٍ كبيرة لسعادة حفيدي وشعرت بالرضا عن نفسي وعن إجاباتي.

قبل نهاية المباراة فُتح باب الملحق ودخل منه رجلٌ يبدو في منتصف عمره. كان هذا الرجل هو ابني عبدالمحسن. وشعرتُ بقلبي يخفق بشدة وأحسستُ بأنني لم أعد أقوى على التماسك ولم أستطع إخفاء دهشتي وسعادتي البالغة. كان يرتدي ثوباً وغترة بيضاء ورائحة دهن العود تفوح منه. وقد قام الجميع على الفور وسلموا عليه وحينما جاء إليّ ليُسلم عليّ أخذتُ أنظر إليه عن كثب وأطالعه بتمعن. كان يُشبه والدي إلى حدٍ كبير، وأحسستُ بأنني على وشك البكاء، وشعرتُ برغبةٍ عارمة في ضمه إلى صدري والنحيب على كتفه. وقد أخذ يحملق بي هو الآخر في الوقت الذي تولى فيه هشام مسؤولية التعريف:

- أبي، هذا هو صديقي أحمد. أحمد، هذا هو أبي.

Twitter: @ketab_n

صافحته بيدي، حيث ابتسم بدوره قبل أن يجلس بجانبي ويبادرني بالسؤال:

- هل تدرسُ مع ابني هشام؟

- كلا، أدرسُ في مدرسةٍ أخرى.

وقد تدخل هشام ليقول:

- لقد التقيته في مركز «زحل» الطبي. إنه هو الشاب الذي حدثتك عنه.

هزَّ عبدالمحسن رأسه متفهماً قبل أن يقول:

- إذاً أنت الفتى الذي يعاني من نفس المشكلة التي يعاني منها ابني.

أومأتُ برأسي بالإيجاب قبل أن يسألني مجدداً:

- وهل تشعر بأنّك تحسنت الآن؟ هل تلاحظ أية تطورات؟

- نعم بدأتُ ألمس التحسن في قدرتي على التركيز.

سكتَ عبدالمحسن واكتفى بالنظر إلى شاشة التلفاز حيث كان قد عاد هشام وأصدقاؤه إلى اللعب بجهاز «البلاي ستيشن» في الوقت الذي شعرتُ فيه بالحرج من القيام والانضمام إليهم في ظل جلوس

Twitter: @ketab_n

ابني عبدالمحسن بجانبي. وحقيقة الأمر أنني لم أكن أريد النهوض، وكنتُ أريد أن أجلس لأقصى فترةٍ ممكنة بجوار فلذة كبدي وأن أهنأ بالقرب منه بعد أن فرقتنا السنون وبعد أن أبعدتنا الأقدار.

كانت مشاعري مضطربة، وأحاسيسي متداخلة. كان جزءٌ مني يشعر بالسعادة وبالسرور وبالحب البالغ وبالعاطفة الجياشة تجاه ابني، في حين أن جزءًا آخر كان يُحس بتأنيب الضمير وبالندم على حرماني لابني من حقه في أن ينعم في حياته ويهنأ في عيشه بوجود والدٍ محبٍ حانٍ يضمه كل يوم ويناديه بـ«أبي». لم أكن أظن ولم يخطر على بالي بأنّ الزمان سيدور وبأنّ السنوات ستتوالى حتى يأتي يومٌ أجتمع فيه وألتقي به في وقتٍ واحد ومجلسٍ واحد مع ابني وحفيدي سويةً.

لم أتمالك نفسي ولم أستطع أن أمنع الدموع من الانسكاب والانحدار من عينيّ وأنا أتأمل حفيدي وأصدقاءه وهم يلعبون ويتحدثون بسعادة وحيوية. ولم أدرك ولم ألاحظ بأنّ عبدالمحسن كان يراقبني ببصره طوال الوقت، ولم أنتبه لذلك إلا بعد أنّ بدأت دموعي بالانهمار، وما إن نظرتُ إليه حتى أطلق الكلمات التي لم أحسِب حساباً لها والتي نزلت عليّ كالصاعقة؛ حيث قال بجديةٍ وبذهولٍ بالغ وهو يحملق بي:

- وجهك مألوف لدي؛ أنا واثقٌ من أنني قد رأيتُك مُسبقًا..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إنها لحظة إدراكٍ لضعفي

وبقايا خنجر بين ضلوعي..

إنها أنتِ سلبتيني حياتي

وتركتيني غريقاً في دموعي..

لا أناديكِ ولكنّي أنادي

فيكِ أحلامي وأوهامي ولوعي..

«عبدالواسع السقاف»

Twitter: @ketab_n

- ولم يتمكن من التعرف عليك؟

- لحسن الحظ لا.

قلتها وأنا أبتسم ابتسامةً كانت مزيجاً من الحزن والارتياح قد اندمجا معاً بطريقة غامضة! وقد علقت أبرار:

- لو استطاع تذكرك لأصبح موقفك حرجاً للغاية. كان من المفترض عليك أن تُهيئ نفسك لمثل هذا الموقف.

- ولكن هل من الممكن أن يتذكر طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره شخصاً رآه لمرة واحدة بعد أربع وثلاثين سنة؟!

- من الناحية العملية يبدو هذا أمراً مستبعد الحدوث. لكن تأكد بأنّ العقل الباطن يحتفظ بداخله بجميع الصور والمواقف والأحداث التي مرّت بك في حياتك. ولا تخرج هذه الذكريات وتذهب إلى العقل الواعي إلا عندما تمر بمشاعر أو أحاسيس مُعينة كنت قد عايشتها ومرّت بك حينما واجهتَ ذلك الموقف.

ومن ثم توقفتْ الدكتورة أبرار لالتقاط أنفاسها قبل أن تكمل:

- ولذلك حينما تشم على سبيل المثال رائحة مُعينة فإنّ ذاكرتك مباشرة تعودُ بك إلى المكان الذي شممتَ فيه هذه الرائحة لأول مرة حتى ولو كان قد مضى على هذه الحادثة عشرات السنين. إذاً فالذكريات موجودة ولكن يتبقى عملية استدعائها هو الأمر المعقد في الموضوع.

Twitter: @ketab_n

- لم أفهم إلى حد الآن؛ هل ينبغي عليّ أن أشعر بالخوف أم بالثقة؟ أقصد هل من المحتمل أن يتذكرني؟

- لا أستطيع أن أعطيك إجابة شافية. ولكن إنْ أردتَ رأيي فأنا أستبعد ذلك ولا أظنه سيستطيع أن يتذكرك حتى وإن بدا وجهك مألوفاً لديه؛ فهذا الشعور الداخلي لا يكفي وحده. ومن ثم فلا تنسَ بأنّه حتى وإنْ استطاع أن يتذكرك فسيلجأ مباشرة للتبرير لعدم منطقية هذه الفكرة، فمن المستحيل أن يتواجد نفس الشخص الذي رآه في طفولته الآن بعد أن أصبح في منتصف عمره ومن دون أن يتغير ذلك الشخص. ولن يتبادر إلى ذهنه سوى بأنها صدفة عابرة وبأنك شبيهٌ به ليس إلا.

شعرتُ بالارتياح وأيقنتُ بأنّ مخاوفي كان مبالغًا فيها. وقد بادرتني أبرار بالسؤال قائلة:

- ألم يسألك ابنك عبد المحسن عن سرّ دموعك التي ذرفتها من دون سبب واضح؟

- نعم سألني، وأخبرته بأنني أعاني من حساسية وتهيج يؤديان بي إلى أن أذرف الدموع لا إرادياً.

- سببٌ مقنع.

قالتها أبرار وهي تبتسم قبل أن تواصل حديثها:

- لقد أعجبني تماسكك ورباطة جأشك؛ فليس من الهيّن أبداً أن تبدو كذلك وأنت ترى ابنك للمرة الأولى بعد هذه الفترة الطويلة،

Twitter: @ketab_n

وليس من السهل أن تجتمع بابنك وبحفيدك في مكانٍ واحد وهما لا يعرفان حقيقة أمرك ومع ذلك تظلُ مسيطراً على مشاعرك.

أضفتُ بحسرة:

- ولا تنسي أيضاً بأنني لم أعلم عن وفاة زوجتي السابقة وجدة هشام إلا بالأمس.

- نعم وهذا سببٌ آخر يزيد من إعجابي بك.

وصمتتْ قليلاً قبل أن تسألني:

- ولكنك لم تخبرني عن شعورك حينما كنتَ جالساً بين حفيدك وأصدقائه؟

- بصراحة، لم يكن هو ذلك الشعور الذي ظننتُ بأنني سأعايشه. لقد كنتُ أشعر بالغربة وعدم الانتماء. كانت أحاديثهم أشبه بطلاسم ساحر أو بتعويذات مُشعوذ؛ كانتْ مُبهمة وغير مفهومة، وكلما حاولتُ أن أنضم إليهم وأن أشاركهم أجد بأنني كما لو كنتُ قد دخلتُ متاهة متشابكة أو غابة غامضة. بصدق، لم أعِ ولم أدرك قيمة حديثك وتنبيهك لي إلا بالأمس. مظهري وحده لم يكنَ كافياً ليمنحني تذكرة الدخول إلى هذا العالم المجهول. أعترفُ لكِ بصحة كل كلمةٍ قلتِها.

- أوه لا تقل ذلك. لقد قمتَ بعملٍ رائع. وأنا أؤكد لك بأنّ الانطباع الذي خلفته لدى حفيدك بالأمس كانً مُبهرًا. ويكفي بأنّه طلب منك

Twitter: @ketab_n

القدوم إلى منزله مرة أخرى. وهذا بحد ذاته يكفي ليؤكد لك بأنّه مُعجبٌ بك وبات يعدك أحد أصدقائه المقربين. المهم هو أن لا تشعر باليأس الآن، وأن تواصل القيام بما يتوجب عليك فعله، وتأكد بأنّك أنت من سترافقهم في رحلة سفرهم عند نهاية المطاف.

لم أتحدث واكتفيتُ بالصمت. لم أكن واثقاً حقاً مما قالته وشعرتُ بأنّها تحاول أن ترفع معنوياتي وأن تشجعني لمواصلة القتال في معركةٍ خاسرة! ولمّا رأتني أبرار على هذه الحال قالتْ بنبرة مؤنبة:

- صدقني يا أحمد بأنّك أنت من سيذهب معهم إلى هولندا وحتى ولو لم يصطحبوك فسآخذك أنا بنفسي إليها!

ومن ثم ضحكتْ وأضافت:

- والآن دع عنك الحزن والتجهم وانظر إلى الحياة بتفاؤل. أين ذهبتْ تلك المشاعر الإيجابية التي لمتني بسببها قبل أيام؟!

ابتسمتُ رغماً عني، وشعرتُ بالحياة والحيوية تدب في جسدي شيئاً فشيئًا، وشعرتُ مجدداً بنفس ذلك الشعور الذي أحسستُ به حينما اتصلتْ عليّ أبرار قبل زيارتي لهشام بالأمس. وقد خيّم الصمتُ على المكان لعدة دقائق قبل أن تبادرني بالسؤال:

- أتعلم ما هو الشيء الذي يُعجبني فيك يا أحمد؟

هززتُ رأسي بالنفي وأردفتْ قائلة:

Twitter: @ketab_n

- يُعجبني فيك عاطفتك الجيّاشة ومشاعرك الصادقة. أنت من أولئك القلائل الذين هم على استعداد لمنح حبهم واهتمامهم بالشخص طيلة عمرهم من دون أن يُفكروا ولو للحظة واحدة بالتوقف عن ذلك أو بالالتفات إلى شخص آخر. ولذلك احتفظتَ بصديق واحد طيلة عمرك. ولنفسِ السبب لمْ تتزوج مُطلقاً بعد زواجك الأول. ومنْ أجل ذلك لا تتردد في سكب العبرات وفي ذرف الدموع متى ما تعرضت لموقفٍ عصيب أو حدثٍ مؤلم...

أحسستُ بالخجل وقاطعتُها قائلاً:

- ولكن أليس كل الرجال كذلك؟

- كلا، كلا. ليسوا كذلك! نعمٍ يبكي الرجال ولكن في مواقف محدودة ومعيّنة. يبكي الرجال فرحاً عندما ينتصر فريقهم المفضل مثلاً أو عند ولادة مولودهم الأول، وبكاء الرجال يرتبط في الغالب بمشاعر الفخر أو الشجاعة أو الانتصار أو الهزيمة أو عند فقدهم لأحد المقربين منهم. ولكنّهم لا يبكون مُطلقاً -إلا فيما ندر- بسبب الشعور بالضعف على عكس المرأة التي تبكي في معظم الوقت جراء هذا الشعور. فعند حدوث صراع ما أو شجار بين رجل وامرأة يكون من الصعب للغاية بالنسبة للمرأة أن تتحكم بأعصابها وأن لا تنفجر باكية، في حين أنّ الرجل لا يُعبّر عن مشاعر الضعف بدموعه ولكن عن طريق تصرفات مختلفة كـ إغلاق الباب بعنف أو عن طريق الغضب والصراخ وكيل الشتائم واللعنات.

- شُكراً لكِ. لم أكن أعلم بأنّ بكائي الدائم ودموعي السيّالة

Twitter: @ketab_n

أمراً يثير الإعجاب!

قلتها وأنا ابتسم وقد احمَرّ وجهي خجلاً، وعلقتْ أبرار:

- هي كذلك بالفعل؛ لا سيما في ظل ثقافتنا المحلية. فنحن نشأنا وفي اعتقادنا بأنّ بكاء الرجل يُعد منقصة له وبأنّ تأثره وعاطفته يجب أن يتحكم جيداً بهما. ولكن لو كنتَ يابانياً مثلاً لما هزّ بكاؤك شعرةً واحدةً فيَّ.

ضحكتْ أبرار وقد تساءلتُ بدوري:

- ولكن لماذا اليابانيون بالذات؟

- لأنّ اليابانيين ينظرون إلى الشخص العاطفي والذي يبكي على العلن على أنّه شخصٌ صادق ومتفهم ومخلص. والأمثلة على ذلك كثيرة، فالرئيس السابق لشركة «يامايتشي» «شوهي نوزاوا» انفجر باكياً في مؤتمرٍ صحافيٍ في عام 1997 عندما أعلن عن إفلاسِ شركته. ولقد لاقى بكاؤه قبولاً واسعاً وأثنت عليه الصحف بدلَ أن تصّب جام غضبها عليه وعلى إدارته. وفي المقابل نجد بأنّ من يبكي علناً لدينا يُصبح مادة للتندر ويُوصف بكاءهُ بأنه زائف ودموعهُ دموع تماسيح!

طغى الصمتُ على المكان لعدة دقائق، وقد بدا بأنّ الدكتورة أبرار سرحتْ بعيداً بخيالها وبأفكارها، وشعرتُ بأنّها قد نسيتْ وجودي عندها، وتملكتني رغبة عارمة في معرفة ماكانت تُفكر فيه وما كان يشغلُ بالها. وقد استجمعتُ قواي وكسرتُ حاجز الصمت بطلبٍ جريء:

Twitter: @ketab_n

- أتسمحين لي بأنّ أسألكِ سؤالاً شخصياً؟

قلتها بنبرة منخفضة وتمنيتُ بأنّها لم تسمعني لكي لا أضطر إلى طرح السؤال، غير أنّها عادت من رحلة خيالها وأخذتْ تنظرُ إليّ باستغرابٍ، ومن ثم ابتسمتْ وقالتْ باهتمام:

- تفضل، سَل ما تريد.

ترددتُ قليلاً قبل أن تشجعني بإيماءة منها:

- هل أنتِ متزوجة؟

ابتسمتْ أبرار وقالت:

- كلا.

- ألم يسبق لكِ الزواج أبداً؟

- على حد علمي لا.

قالتها وهي تضحك وعيناها تنضحان بحزنٍ حاولتْ ضحكتها عبثًا إخفاءه. وتساءلتُ بحيرة:

- ولكن لماذا؟

زفرت زفرة عميقة وأغمضت عينيها وأجابت بصوتٍ خافت:

Twitter: @ketab_n

- تلك قصة طويلة.

عادَ الصمتُ ليُخيم مجددًا على المكان قبل أن أقول مُعتذراً:

- اعذريني على تطفلي وعلى اقتحامي لخصوصياتك. وأنا أحترم رغبتك بعدم الحديث.

- كلا، كلا، ليس الأمر هكذا. في الواقع أنا أنظرُ إليك كما أنظرُ إلى أخي سلمان تماماً، ولا أجدُ حرجاً من إخبارك بالأمر. ولكنّني سرحتُ بفكري بعيداً ومرّت أمامي بعض الذكريات المؤلمة، هذا كل ما في الأمر.

ومن ثم التقطتْ أنفاسها وأردفتْ قائلة:

- في الواقع لم أفكر بالزواج لاسيما بعد وفاة والدي قبيل تخرجي بفترة وجيزة. ولم أكد أستيقظ من هول هذه المصيبة حتى فُجعت بمصيبةٍ لا تقل وقعًا وألمًا عنها تمثلت بوفاة والدتي وأخي الأكبر معًا في حادث سيارة...

قاطعتها مُتعاطفًا:

- أنا آسف حقًا. رحمهم الله جميعًا وجمعكِ بهم في مُستقر رحمته.

أومأت برأسها وهي تبتسم بتحسر، وسألتُها:

- ولكن متى وقع هذا الحادث؟

Twitter: @ketab_n

- قبل خمسِ سنوات. وعلى أية حال لم يكن هذا هو العائق الوحيد والسببِ الرئيس الكامن خلف عدم زواجي، ولكن كان هناك سببٌ آخر أيضاً وهو أنني كنتُ بالكاد أجد وقتَ فراغ؛ فوقتي كان مُوزعًا بين الاستذكار وقراءة المصادر والمراجع المتنوعة وإعداد البحوث. لقد صببتُ جام تركيزي على دراستي وكرّستُ نفسي لها ولم أعبأ بأي شيء آخر إلى أن عدتُ من أمريكا قبل ثلاث سنوات. ومنذ ذلك الوقت لم يتقدم لي أي أحدٍ جادّ! وبصراحة لا أنظرُ إلى الزواج نظرة هوس، ولن أجعل هذا الأمر عائقًا لي فعدم الزواج لا يعني نهاية العالم، وهناكَ أمورٌ أخرى أهم في حياتنا.

- إذاً فأنتِ لا تنوين الزواج أبداً؟

ضحكتْ الدكتورة أبرار وقالت بنبرةٍ ساخرة:

- إنْ كنتَ تعرفُ رجلاً مناسباً فلن أقول لا!

****

Twitter: @ketab_n

في صباحِ يوم السبت لبستُ أجمل ثيابي ولبستُ غترةً بيضاء وتعطرتُ بدهن عودٍ وتبخرتُ ببخور زكي الرائحة قبل أن أركب سيارتي وأتوجه إلى مقر عملي الجديد. ركنتُ السيارة في الخارج، ودخلتُ إلى مبنى الشركة وقصدتُ مكتب المدير العام نزار هاشم. وقد طلبَ مني السكرتير الانتظار في الخارج ريثما يدخل إلى مكتبه ويُبلغه عن حضوري. ولم يمكث طويلاً قبل أن يعود إليّ ويطلب مني الدخول. ولم أكد أدخل حتى وقف الأستاذ نزار وراحَ يرحب ويهلل وقد علت وجهه ابتسامة واسعة، وقد لاحظتُ بأنّه بات أسمن هذه المرة من آخر مرةٍ رأيتهُ فيها. وما إن صافحته حتى طلبَ مني الجلوس، وأخذ يسأل عن حالي وعن أخباري، وواساني في مصيبتي وعبّرَ عن حزنه البالغ وتألمه لوفاة صديقي. وقد شكرته على مشاعره وعاطفته وثمّنتُ له تفهمه ومرونته معي.

وقد دخل المدير العام في حديثٍ مطوّل عن الشركة وإنجازاتها وأهدافها، وعن طبيعة العمَل الذي يُنتَظر مني القيام به وعن ثقته بي وإيمانه بقدراتي وبأنني سأشكل إضافة قويةً للشركة. ومن ثم راح يتحدث عن حياته الشخصية وعن سفراته ورحلاته حول العالم وعن العجائب التي مرّت به وعن النوادر والغرائب التي صادفها. وقد مضى الوقتُ بطيئاً ونحن على هذه الحال حتى بدأتُ بالتململ على الكرسي وهو مايزال يتحدث عن نفسه بتفاخر! وبعد مرورِ ساعةٍ كاملة نهض أخيراً من مكانه وطلب مني أن أتبعه، حيث قادني إلى مكتبي الذي سأعمل فيه والذي كان يقع في الدور السفلي.

Twitter: @ketab_n

كان مكتبي يقع ضمن مجموعة كبيرة من المكاتب المتجاورة المنفصلة والتي يحتفظ كلٌّ فرد يعمل في الشركة بمفتاح مكتبه الخاص معه؛ فيُقفله عند خروجه ويفتحهُ عند قدومه. كان المكتبُ صغيراً جداً ولا يوجدُ به أي نوافذ أو فتحات تهوية و بالكاد يتسع لشخصين أو ثلاثة! وكان عبارة عن طاولة خشبية صغيرة عليها هاتف أبيض اللون، وخلف الطاولة يوجد كُرسي من الجلد أسود اللون وأمامها كرسيّ واحد يبدو متهالكاً. وكان الجو العام للغرفة كئيبـاً ولا يُشجعُ على العمل مُطلقـًا!

وقد ابتسم الأستاذ نزار وقال وهو ينظرُ إليّ:

- أعلمُ بأنّ المكتب لا يرقى إلى مقامكم ولكن أنا واثقٌ من أنه سيغدو أفضل حالاً ببعض الإضافات البسيطة.

ومن ثم أشار بإصبعه إلى الجدار:

- فلو وضعتَ لوحة هنا لمنظرٍ طبيعيٍ، ولوحة أخرى هناك، واممم وربما لو وضعتَ وروداً طبيعيةً، وتقويماً وصورة تذكارية لك على الطاولة و...

وعاد للثرثرة مجدداً وهو يقترحُ عليّ ما يجدرُ بي أن أفعله وقد جاهدتُ من أجل أن أحتفظ بابتسامتي على وجهي طيلة حديثه. وقد صمتَ أخيراً وودعني ورحل بعد أن أبلغني عن رقم تحويلة مكتبه وعن رقم هاتفي الذي على الطاولة، وبعد أن طلبَ منّي أن لا أتردد في المرور إليه وزيارته متى ما أردتُ أي شيء أو واجهتُ مشكلةً ما.

Twitter: @ketab_n

خرجتُ عند الساعة الرابعة عصراً وأنا أشعرُ بالتعب والإنهاك؛ فبعدَ عدة سنواتٍ من الكسل والجلوس في الشقة باتَ العملُ أمراً شاقاً عليّ. إلا أنني وعلى الرغم من الإرهاق الذي شعرتُ به والإعياء الذي بلغ مني كل مبلغ فلقد ارتسمتْ على شفتي ابتسامة زاهية، وأحسستُ بلذة غريبة. فهناك سعادة غامضة تكمن خلف شعورنا الداخلي بأنّ لنا هدفاً و مهمةً يجب علينا أداؤها، وبأنّنا نكسبُ قُوتنا ومعاشنا من خلال عملنا الدؤوب وكفاحنا المستمر.

****

Twitter: @ketab_n

مرَّت الأيام سريعاً ولم أشعرْ بأننا وصلنا إلى يوم الثلاثاء وبأنّ غداً سيكون هو اليوم الأخير في أسبوع العمل الأول لي في الشركة. وفي سنوات عمري الماضية كانت الأيام تنقضي وتتصرم ببطء شديد وبرتابةٍ قاتلة.

كانَ مديرُ الشركة الأستاذ نزار ودوداً جداً معي، ولم يكلفني بأعمالٍ كثيرة أو بمهامٍ مُتعبة. وكان يُعرّج على مكتبي في كل يوم ويجلس بعضاً من الوقت يشرَحُ فيه طبيعة العمل ويتحدثُ عن كيفية التقدم والتطور في الهرم الوظيفي. وكان يؤكد لي بأنّ لديّ فرصة كبيرة في أن أضاعف راتبي وأحصل على مركزٍ أفضل في الشركة بشيءٍ من الجد والاجتهاد والتضحية والعرق. وكان يُصر على أنّه لا يجدر بي التعامل معه برسمية وعلى أنني يجب أن لا أضع أي حواجز بيني وبينه.

بدأتُ أشعرُ بأنّه أخٌ أصغر لي بناءً على سنّه، وكان يُشعرني بأنّه أبٌ لي بناءً على مظهري. في يومي الثالث أخطأتُ في أداء مهمة إدارية؛ حيث دونتُ المعلومات بشكل خاطئ على أحد الطلبات وأرسلتها إلى القسم التنفيذي في الشركة ليتولى العمل عليها وطلبها من الشركة الأجنبية الأم. وعلى الرغم من أنّ مديري المباشر استاء بشكل كبير ووصف خطئي بأنه فادح ولا يُغتفر، غير أنّ الأستاذ نزار حينما علمَ بالأمر قلل من حجمه وراح يُهدئ من روعي ويُخبرني عن أنّ حدوث مثل هذه الأخطاء يُعد أمراً طبيعياً ومُتوقعا، وراحَ يحدثني عن خطأً ارتكبه في أول أيام عمله وعن ردة الفعل التي واجهها وعن أحاسيسه ومشاعره التي صاحبت هذه المشكلة، وكيف أنّ هذا الموقف جعله أقوى

Twitter: @ketab_n

وأكثر مهنية ومهارة.

وفي هذا الأسبوع أيضاً اتصلتُ على حفيدي هشام مرتين، استفسرتُ فيها عن حاله وحال أهله وفي المقابل فقد اتصلَ عليّ أيضاً ثلاث أو أربع مرات، وقد أخذنا نتحدث في هذه المكالمات عن مواضيع عديدة من بينها أحوال الدراسة والمواد والصعوبات التي يتعرض لها هشام في المدرسة مع بعض المعلمين، كما أننا تحدثنا عن مواضيع عامة وعن بعض الأمور والاهتمامات التي يميل إليها، و لم يخلُ الحديث من مواقف شبيهة بتلك المواقف التي تعرضتُ لها أثناء زيارتي له، بيد أنني كنتُ أكتفي بالحديث العام ومتى ماشعرتُ بأنني في وضعٍ صعب ولم تعد هذه الحيلة تفي بالغرض كنتُ ألجأ فوراً إلى تغيير مجرى الحديث وجعله ينصب على موضوعٍ آخر وعلى أمرٍ أعرفهُ جيداً وأجيد التحدث عنه.

وقد عرضَ هشام عليّ القدوم ودعاني لمشاركتهم لعب كرة القدم في أحد الملاعب القريبة التي حجزها أصحابه من أجل ممارسة هذه الرياضة فيها. وأخبرني عن أنّ فريقه سيواجه فريقاً آخر قوياً يوم الخميس القادم وبأنّه قد جرى بينهم تحدٍ خاص وقد تراهن الطرفان على قدرة كلٍ واحدٍ منهما على الإطاحة بالفريق الآخر. كان يتحدثُ بحماسة وقد سألني فيما إذا كنتُ أجيد لعب كرة القدم، وقد علمتُ بأنّ هذه فرصة ذهبية لا يجدر بي التفريط فيها -مثلها مثل أي فرصةٍ أخرى- ففي هذا الوقت القصير لابُد لي من استغلال كل الفرص المتاحة للوصول إلى قلبه وللفوز بثقته وبحبه. عدتُ بذاكرتي

Twitter: @ketab_n

إلى الوراء وتذكرتُ إخفاقاتي المتكررة في طفولتي كلما أُجبرتُ على لعب كرة القدم. كنتُ بالكاد أستطيع تمرير الكرة والمحافظة على اتزاني، وكنتُ لا أجيد السيطرة على الكرة أبداً؛ فهي قد اعتادت على الهرب من أمامي وعلى الابتعاد عني كلما حاولتُ عبثاً الاقتراب منها والتودد إليها. كان يُطلق عليّ طلاب الفصل لقب «النكبة» فقد كنتُ نكبةً و وبالاً عليهم، وجسر مرور لخصومهم كلما لعبنا كرة القدم. وفي حصة الرياضة كان يخرجُ أمهر لاعبين في الفصل ويبدؤون في اختيار أفراد فريقيهما، وفي كل مرةٍ كنتُ آخرَ من يتبقى من الطلاب إلى أن يأخذني تعيس الحظ الذي جاء دوره في الاختيار ولم يجد أحداً غيري أمامه! مرّت هذه المواقف والذكريات سريعةً أمامي عندما سألني هشام عن مقدرتي على اللعب، غير أنني جازفتُ –كما فعلتُ مراراً من قبل– وأخبرته عن أنني ماهر وعن أننا سنفوز وسنسحق الفريق المقابل من دون رحمة!

وفي نفس الأسبوع تواصلت الجلسات مع الدكتورة أبرار، غير أنّه لم يعد من الدقة أن تُوصف بأنّها جلسات نفسية بل باتت جلسات نقاشية وجدلية يُظللها جوّ من التفاهم والراحة. كنا نتحدث عن أي شيء وعن كل شيء، تحدثنا عن الأوضاع السياسية وتناقشنا حولها مطوّلاً، كما تحدثنا عن الأوضاع الاجتماعية والحراك الثقافي الذي يشهده البلد، وتحدثنا أيضاً عن أمورٍ شخصية أكثر؛ عن الميول والهوايات وعن الأكلات المفضلة وعن البلدان الجميلة حول العالم. كانت أبرار تتعجب من عدم سفري مُطلقاً خارج الحدود السعودية، وكانت تؤكد لي بأنني سأتعرض لصدمةٍ حضارية حينما أرافق حفيدي

Twitter: @ketab_n

هشام في رحلتهم إلى «هولندا»!

بات يطغى على الجلسات طابع العفوية والبساطة، فلم يعد للتكلف والرسميات وجود بيننا. ولم تعد الدكتورة أبرار توجه لي الأسئلة حول الشخصيات والأحداث التي تزعمُ بأنّ مُخيلتي هي من اختلقتها، بل باتت تسألني عن آرائي وعن مشاعري و توجهاتي. وقد حدثتني عن أعجبِ ما مرّت به في أثناء دراستها في أمريكا وعن النوادر والطرائف التي صادفتها وعن المواقف العصيبة التي واجهتها. كانت تضحكُ تارة وتتألمُ أخرى؛ بحسب الموقف والحدث الذي ترويه. وكنتُ بدوري أطرح رأيي وأعلقُ وأقيّم ردة فعلها وطريقة تصرفها في المواقف التي تتعرض لها، وربما استذكرتُ في بعض الأحيان حوادث مشابهة وقعت لي. وكانت تناقشني وتوافقني الرأي في مرّاتٍ وتخالفني في أخرى. كنتُ أدخلُ وشعورٌ بالانبساط والفرح يغمرني، حيث يمضي الوقتُ سريعاً كما لو كنتُ في حلم عابر لا أفيقُ ولا أنتبهُ منه إلا عندما يأتي وقت الانتهاء وتحين ساعةُ الرحيل، فأخرجُ وغصة تخنقني وألمٌ يؤرقني.

ولم يكن الحديثُ مختلفاً عن المرات السابقة في آخرِ جلسة قبل موعد سفر أبرار إلى مدينة «دبي» لحضور المؤتمر الطبي. كنتُ أشعر براحةٍ بالغة وبأنس كبير وبفرحة عارمة بمجرد الحديثِ وتبادل وجهات النظرِ. وقد حدثتها كيف أنّ الأسبوع مرّ بسرعة كبيرة لم أشعر بها على غير العادة. وقد ابتسمتْ أبرار ابتسامتها الجميلة التي تبعث على التفاؤل والتي كانت كفيلة بتهدئة وبث الارتياح حتى لدى أكثر الناس فزعاً وهلعاً، وعلقتْ قائلة:

Twitter: @ketab_n

- نحن لا نشعرُ بمرور الوقت في حالتين: الأولى، عندما نكون سعداء ومستمتعين بأوقاتنا والثانية، عندما نكون مشغولين جداً وبالكاد نجد وقتَ راحةٍ وفراغ. وما تشعرُ به هو أمرٌ شائع جداً، فعندما تضع جل تركيزك علىً أمرٍ ما فإنك لن تلهى بالنظر إلى الوقت ولن تنشغل بترقب مروره وانتظاًر انقضائه. وصدقني ليست المشكلة الوحيدة النابعة من الفراغ هي الملل والشعور ببطء مرور الوقت؛ بل إنّ هناك مشكلات أكبر من ذلك بكثير وبحكم عملي هنا في العيادة فقد مرّت علي العديد من الحالات لأشخاص كان السبب الرئيس في الوضع الذي أصبحوا عليه هو شعورهم بالفراغً وبالعزلة في أول الأمر. ويُذكرني هذا بـ«هنري كسنجر» وزير الخارجية الأمريكي السابق حينما قال: «لايمكن أن تحدث أي كوارث في الأسبوع القادم. إن جدول أعمالي ممتلئ!».

- أفهم من هذا بأنّه لن تقع أي كوارث لي في الأيام القادمة.

- بناءً على ماقاله «كسنجر» لا أتوقع ذلك. وفيما لو حدث العكس فبإمكانك أنٍ ترفع دعوى عليه وتخرج من ورائها بعدة ملايين تبقيك معززاً مكرماً طيلة عمرك.

قالتها وهي تضحك، قبل أن أعلق قائلاً:

- الغريب هو بأنني شعرتُ في الوقتِ نفسه بكثرة الأحداث وتنوعها، ولدي إحساس متداخل وشعور متناقض في أعماقي؛ فالأسبوع مرَّ بسرعة من جهة ومن جهة أخرى كانت الأحداث كثيرة ومليئة بالمواقف التي يطول الحديث عنها. وأظن على أية حال بأنّ الزمن بات يمضي سريعاً هذه الأيام عنه في أيام طفولتي وشبابي.

Twitter: @ketab_n

ابتسمتْ الدكتورة أبرار ابتسامة حانية قبل أن تقول:

- أتعلمُ سرَّ إحساسك المتناقض؛ إنّ السبب يكمن في عيشك لنوعين من الأحداث المتناقضة في نفس الوقت. فأنتَ من جهة تعرفتَ على حفيدك وذقت طعم الأسرة والجلوس مع أبنائك ولو بشكل جزئي، وهو أمرٌ جديد عليك لم تجربه ولم تقف عليه من قبل. ومن جهة أخرى بدأت العمل في وظيفتك الجديدة في الشركة، وهو أمرٌ أنتَ معتادٌ عليه -كما تقول- نظراً لأنك عملت في العديد من الشركات وتقلدت عدداً كبيراً من الوظائف في حياتك. أليس كذلك؟

قالتها بنبرة متشككة وعيناها تلمعان، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام وأنا أومئ برأسي موافقاً، حيث أردفتْ أبرار قائلة:

- ولذلك تشعرُ بالوقت يمضي سريعاً لأنّ ذاكرتك اعتادت على بيئة العمل وأجواء الوظيفة. على العكس من الوظيفة الأولى لك - مثلاً- فأنا واثقة بأنك تحتفظ بذكريات كثيرة عنها وتشعرُ بأنّها دامت لفترة أطول وكان الوقتُ فيها أكثر بُطئاً لأنها كانت مليئة بالإنجازات والمواقف والذكريات لاسيما في الأشهر الأولى من الوظيفة قبل أن تتحول بعد ذلك إلى روتين بالنسبة لك. وسأعطيك أمثلة أخرى، فأول عيد لك ليس كالأعياد التي تلته. والحب الجديد، تشعر فيه بأنّ وقت الانتظار بين المكالمتين الهاتفيتين كما لو كانت سنيناً بحد ذاتها، ولكنك لا تكاد تغمضُ عينيك وتفتحهما حتى تجد نفسك تحتفل بذكرى زواجك العاشر. وكذلك المكان الذي تزوره للمرة الأولى والبلد الذي تسافرُ إليه لأول مرة وعلى هذا فقِس.

Twitter: @ketab_n

- هذا يُذكرني بالحديث النبوي القائل: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان» وأظنّ بأنّه في هذه الأيام بالذات أصبحت الأعوام تمرُّ علينا كلمحِ البصر، حتى ليُخيل إليّ بأنّ بعض الذكريات التي كانت قبل عشراتِ السنين لم تقع إلا قبل فترة وجيزة. وأنا أتساءل هل تطرق الأطباء النفسيون إلى هذه النقطة بالذات وهل بحثوا عن حلولٍ من منظورهم من شأنها أن تحد من سرعة مرور الوقت؟!

- بلى يوجد. لقد تم تأليف العديد من الكتب التي تناقش هذه الظاهرة بالذات. خذ مثلاً، كتاب «تناقض الوقت» والذي ألفه كل من «زيمباردو» و«بويد» أو كتاب «لماذا تمر الحياة بسرعة كلما نتقدم في السن» لمؤلفه «درايسما». ومُختصر الموضوع هو بأنّك تستطيع أن تتجاوز هذه المشكلة وأن تجعل الوقت يمر بشكل أبطأ من خلال تقنية بسيطة؛ تتمثل في قيامك بتجارب جديدة وبخوضك لمغامرات مغايرة عن الذي اعتدتَ عليه، لأننا عندما نذهب إلى نفس الأماكن ونقوم بنفس الأمور التي ألفناها فإننا لا نخلق ذكريات جديدة متميزة عن ماسبقها ولذلك يمرِ الوقتُ سريعاً علينا.

ترددتُ قليلاً قبل أن أقول:

- وما هو نوع الذكريات التي يتوجب عليّ خلقها لكي أبطئ من سرعة انقضاء وقتُ هذه الجلسات؟!

ابتسمتْ أبرار ولم تنبس ببنت شفه.

****

Twitter: @ketab_n

لم يُخيِّب سلمان ظني هذه المرة أيضـًا ورافقني إلى أحد المحلات المتخصصة في بيع الملابس الرياضية، حيث اشتريتُ -بمساعدته- قميص فريق «مانشستر يونايتد»، النادي الذي يُفضله ويؤازره هشام، وبنطالاً قطنياً طويلاً ذا لونٍ رمادي، على الرغم من أنّ سلمان حاول جاهداً أن يُقنعني بشراء بنطالٍ قصيرٍ بالكاد يُغطي الركبتين غير أنّ رفضي القاطع أرضخه لرغبتي في نهاية المطاف. واشترينا كذلك حذاءً رياضياً أزرق اللون وتتخلله خطوطٌ بيضاء وسوداء، وقد أخبرني سلمان بأنّ الشركة المُصنعة له هي شركة ألمانية شهيرة وتتميز في هذا المجال.

وبعد خروجنا من المحل توجهنا إلى أحد المقاهي، وجلسنا على إحدى الطاولات، حيث طلبتُ كوباً من الشاي فيما طلب سلمان شراباً بارداً من «الموكا». ودخل سلمان في حديث مطوّل عن فريق «مانشستر» مدعومٌ بالصور ومقاطع «الفديو» عن طريق جهازه «الآيباد». وراحَ يتحدث عن أبرز اللاعبين وعن مُدرب الفريق وإنجازات النادي ومكانته العالمية. وحاولتُ جاهداً أن أخرجَ بأكبر قدرٍ ممكن من المعلومات التي من شأنها أن تجعلني قادراً على فهم واستيعاب الحوارات التي يطرحها عليّ هشام كلما حادثني؛ فولعه الشديد بالكرة يُحتّم عليّ أن أتبحر أكثر وأن أتعرف على أسرار هذه الرياضة.

كانت المعلومات كثيرة جداً ومتداخلة، وكانت الأسماء غريبة ومُنكرة. وعلى الرغم من أنني بذلتُ ما بوسعي من أجل أن أحفظ وأستوعب أكبر قدرٍ ممكن، إلا أنّني شعرتُ بصعوبة بالغة، وانتابني

Twitter: @ketab_n

شعورٌ بالصداع والغثيان في آنٍ واحد، وطلبتُ من سلمان أن يُعيدني إلى البيت بعد أن مكثنا قرابة الساعتين في المقهى. وفي هذه المرة أصرَّ سلمان على أن نتعشى سوياً في أحد المطاعم، ونظراً لعونه لي وكرمه معي شعرتُ بحرج بالغ في أن أرده خائباً، غير أنني أبيتُ -في المقابل- أن نشتري عشاءنًا من مطاعم الوجبات السريعة:

- قد تكون هذه المطاعم لذيذة الطعم، ومُغرية الشكل، ورخيصة السعر، ولكن تأكد بأنّ أضرارها كثيرة ومساوئها عديدة؛ فهي مليئة بالدهون وتُعد سبباً رئيساً في الإصابة بالسمنة وكذلك ارتفاع نسبة الكوليسترول. كما أنّ مقليات هذه المطاعم قد تؤدي إلى الإصابة بمرض السرطان نظرًا لأنّ الزيت الذي يستخدمونه في قلي الدجاج والبطاطس وغيرهما هو من أكثر الأنواع رداءة ولا يجددونه إلا في اليوم التالي وبعد أنْ أدخلوا وأخرجوا منه آلاف الأصناف وانقلب لونه إلى الأسود وبادَ بعد أن ساد!

ردَّ سلمان بتهكم:

- وماذا تريد منا أن نأكلَ إذاً؟! خيارةً وبرتقالة وكأساً من الحليب؟!

- لم أقل ذلك، ولكن هناك أصناف أخرى أكثر فائدة، أو لِنقل أقل ضررًا من تلكم الوجبات.

- مثل؟

- «كبسة» أرز مع الدجاج خيرٌ من مطاعم الوجبات السريعة

Twitter: @ketab_n

ومافيها!

- أرز ودجاج الآن! في الساعة الحادية عشرة مساءً! إنا لله وإنا إليه راجعون!

- على الأقل هو أكثر فائدة لجسمك.

- حسناً ومارأيك أيضاً أن نتناول معه لبن إبل فقد تبادرَ إلى مسامعي بأنّه مفيد أيضاً وربما نتناول حبة سوداء كذلك، وزنجبيل، ويُفضَّل أن نختم بشيء من «الحلتيتة»!

وفي الوقت الذي كان يرددُ فيه أسماء تلك الأصناف التفَّ بسيارته وركنها بجوار مطعم «ماكدونالدز»! وقد أكلتُ –مُكرهاً وقلبي مُطمئن بالإيمان– وجبةً نصحني سلمان بها وقد ظللتُ أتقلبُ في فراشي طيلة تلك الليلة من جرّائها!

****

Twitter: @ketab_n

أقللت هشام معي في سيارتي، بعد أن كانَ ينوي صديقه عبدالعزيز أن يَمر عليه، إلا أنني عللتُ رغبتي في أن آتي أنا بهشام بذريعة تعاطفٍ مُصطنعة تتحججُ بعدم الرغبة في إلقاء عبءٍ أكبر على عبدالعزيز الذي سيجيء معه ببدر و بخالد. ومثلما توقعتُ، أو لنقل مثلما توقعَ سلمان، كان هشام يرتدي قميص «مانشستر يونايتد» وقد سُرَّ كثيراً بلباسي وراح يرددُ بسعادة:

- لم تقل لي من قبل بأنه هو أيضًا فريقك المفضل؟!

- صدقني ياهشام يوجد هناك الكثير من الأمور التي لم أقل لك عنها.

قلتها وأنا أبتسم وعلق هشام بإعجابٍ وهو يهزُّ كتفي الأيمن بيده مداعباً إياي:

- أنتَ مليء بالمفاجآت يا أحمد! لن أتعجبَ كثيراً لو قلتُ لي بأنّك مُتزوج ولديك أبناء!

أحسَسْتُ بقشعريرة تسري جسدي، وقد ضحكَ هشام بدوره غير أنّني ظللتُ أفكر كثيراً بهذه الكلمة. وشعرتُ برغبة عارمة في أنْ أسأله عن سبب ذكره للزواج والأبناء تحديداً، غير أنّني رأيتُ بأنّ السؤال سيبدو غريباً بعض الشيء وسيكون شكًا وريبة لا مُبرر لها مني!

وصلنا إلى المكان المقصود، وكان عبارة عن أرضٍ واسعة قُسّمت إلى ثلاث ملاعبٍ متجاورة. وكانت هذه الملاعب مزروعة بعشبٍ أخضر

Twitter: @ketab_n

مُهذبٍ بعناية وعليها خطوط بيضاء ترسم حدود كل ملعبٍ منها بالإضافة إلى وجود ستة مرامٍ توزعت عليها. وقد أبلغني هشام بأنّ قيمة حجز الملعب تصل إلى أربعِ مائة ريال وبأنّ على كل لاعب أن يُدلي بدلوه وأن يدفع حصته من المبلغ وهي ثلاثون ريالاً. وقد أصررتُ على أن أدفع عني وعن هشام برغم تأكيد الأخير لي بأنّ والده قد أعطاه ما يكفي من المال، إلا أنه رضخ نتيجة إلحاحي وشكرني على كرمي. وفي الواقع لم يكن كرمًا بقدر ماكان حقـًا من حقوقه عليّ؛ فمهما يكن لن أرضى بحالٍ من الأحوال بأن أبقى مكتوف الأيدي وأنا أشاهد حفيدي يُعطي من ماله المحدود الذي معه والذي من الممكن أن يستفيد منه في شراء شيء آخر يُحبه ويرغب به.

لم يكن العدد قد اكتمل وبقينا ننتظر وصول البقية، وفي هذه الأوقات اكتفيتُ بالجلوس على أحد الكراسي القريبة والتي خُصصت لمن أراد أن يتفرج ويشاهد مَن في الملعب أو لأولئك الذين هم في الاحتياط من لاعبي الفريقين. وقد بدأ هشام وأصدقاؤه يتبادلون الكرات فيما بينهم، فتارة يمررون، وأخرى يسددون، وفي بعض المرات يعرضون مهاراتهم المختلفة في لعب الكرة والسيطرة عليها. وقد دعوني للانضمام إليهم إلا أنني اعتذرت بلباقة وتعللتُ بأنني أوفر لياقتي ومهاراتي لبداية المباراة.

اكتمل الفريقان واصطف الطرفان بعد أن وُزعت القُمصان المُوحدة باللونين الأحمرْ والأزرق، حيث كان فريقنا قد اختار اللون الأول في حين أن الخصم ارتدى اللباس الأزرق. كان لاعبوا الفريق

Twitter: @ketab_n

الآخر ضخام الأجساد، طوال القامة، قد أخذوا ينظرون والشرر يتطاير من أعينهم، وابتسامات صفراء قد اعتلت وجوههم. ولم أتمالك نفسي وبدأت بالارتجاف وعلمتُ بأنّ فضولي واستسهالي للأمر سيوردني المهالك. وأيقنتُ بأنني إن خيبتُ ظنّ هشام ورفاقه الذين يعتقدون بأني ماهرٌ ومُتقن للكرة ويرونني طوق النجاة ومفتاح فوزهم في المباراة، فسيبغضونني وسينبذونني إلى الأبد! أخذت ألتفت وأقلب بصري من حولي، كان الكل قد أخذ مكانه وتوقف في المركز الذي يُجيد اللعب فيه. كنت واقفاً في المقدمة وكان هشام يقف من خلفي، بعد أن أخبرتهم بأنني مُهاجمٌ لا يُشق له غبار!

انطلقتْ صافرة البداية وبدأ الهجوم الشرس من قبل الفريق الآخر، وأخذوا يتناقلون الكرات بكل مهارةٍ وإتقان، إلى أن وصلت إلى لاعب وسطٍ هو الأقصر بينهم حيث انطلق بالكرة وأخذ يتجاوز اللاعبين الواحد تلو الآخر إلى أن مررها إلى صاحبه الذي سددها بدوره قوية في أقصى الزاوية اليُمنى من مرمانا لتعلن الهدف الأول –وربما الأسرع في تاريخ هذا الملعب– وليبدؤوا بعدها في الاحتفال والتضاحك سخريةً من مستوى الفريق المقابل، في حين أنّ هشام ورفاقه بدأوا يتلاومون ويتبادلون التهم في الوقت الذي اكتفيت فيه بالوقوف بعيداً في منطقة الهجوم من الملعب وقدماي مازالتا ترتجفان.

عادت الكرة من جديد إلى منتصف الملعب، وبدأ فريقنا هذه المرة يتناقل الكرات، وحين وصلت الكرة إلى هشام رفع رأسه ورآني قريبًا منه، وقد حاولتُ على الفور الاختباء خلف لاعبي الخصم غير

Twitter: @ketab_n

أنّ هشام سبقني ومرر كرة مُتقنة إلي لم يدع لي مجالاً في الابتعادِ عنها. أخذتُ أتنفس بعمق، وبدأتُ في ترديد تلك العبارات التي لطالما رددها على مسامعنا الأطباء النفسيون؛ أنا أستطيع، أنا أستطيع! ظللتُ أرددها إلى أن وصلتني الكرة وأوقفتها بقدمي. ولم أكد أوقفها حتى انقض عليّ لاعبان ضخما القامة خُيّل إليّ مع شدتهما وعنفهما بأنهما شابان موتوران يطلبان ثأراً لطالما لهثا وراءه! لم أهنأ بالكرة إلا ثوانيَ معدودة قبل أن تُنتزع مني وأهوي على الأرض. وقد أيقنت بأنّ هذه فرصة ذهبية قد ساقها الله لي؛ فبدأتُ على الفور بالتقلب والتلوّي والتمايل على الأرض وأنا أمسك بقدمي وأتظاهر بالألم. وهرع فوراً لاعبو فريقي وفي مقدمتهم هشام وبدر للاطمئنان عليّ والوقوف على سلامتي. وقد كان تمثيلي محكماً لدرجة أنّ عرض عليّ عبدالعزيز أن يذهب بي إلى المستشفى غير أنّي أكدتُ له بأنّ الراحة والجلوس على الكرسي سيكونان كافيَين بالنسبة لي. وهكذا خرجتُ من الملعب بأقل الخسائر ودخل شقيق خالد الأصغر وهو فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره وكان يجلس على كراسي الاحتياط. ولم أستطع منعَ نفسي من الابتسام وأنا أشاهد الفريقين وهما يتقاتلان على أرض الملعب!

****

Twitter: @ketab_n

شعرتُ بفراغٍ كبير، وبجزءٍ خالٍ، وبفجوة واسعة في أعماقي. لقد مضى على سفرِ أبرار إلى دبي يومانِ وكانت آخر مرة رأيتها فيها قبل ثلاثة أيام، إلا أنني ظننتها –من طولها وبُطئ لحظاتها- كدهرٍ طويل لا ينقضي أو كزمن سرمدي لا يفنى. لقد افتقدتها واشتقت لطلتها البهية ولابتسامتها الجميلة ولصوتها العذب. اشتقت إلى أحاديثنا الكثيرة، وإلى نقاشاتنا المتنوعة، وإلى حواراتنا المختلفة، وإلى اختلافاتنا المتفقة. كنا نختلف ونتفق، ولم أعِ وأقف على المعنى الحقيقة للعبارة الشهيرة «الخلاف، لا يُفسد للود قضية» إلا بعد أن التقيتُ بأبرار وعرفتها.

لم أستطع منع نفسي من التفكير، ولم أقدر على كبح جماح نفسي من الانطلاق خلف هذه الذكريات. كانت كل لحظةٍ ضاحكة، وكل عبارة ساخرة، وكل نظرة حانية، وكل إيماءة ساخطة تتقافز إلى مُخيلتي وتتسابق إليّ كما لو كان قد خُصص مكافأة مُجزية لمن يصل أولاً ويبلغ المرحلة النهائية قبل الآخرين.

في هذه الأيام عفتُ الكرى، وألفتُ السُهاد، وأبى النومُ أن يزورني، ورفض الهجوع أن ينزل عليّ. ومهما حاولتُ أن أتوقف عن التفكير بأبرار ومهما جاهدتُ للامتناع عن تذكرها والاستمتاع بكل لحظةٍ من اللحظات التي قضيتها معها، أجد بأنني عاجز تماماً وبلا حولٍ ولا قوة.

لم يسبق لي من قبل أن عايشتُ مشاعرَ مشابهة لهذه المشاعر

Twitter: @ketab_n

الغريبة، ولم يمر بي قط يوم عجزتُ فيه عن النوم بسبب التفكير الحالم والذكريات الهائمة بشخص آخر. وحتى في زواجي الوحيد، لم أكن أحملُ قط أي نوعٍ من المودة لأسماء، وكنتُ كلما تقربتُ منها تنفر مني، وكلما بادرتُ نحوها نأتْ عني، وكلما سعيتُ إليها فرتْ مني. ولم يخطر لي ببال، ولم أتصور ولو لوهلةٍ واحدة؛ بأنني سأشعر بهذه المشاعر المتوقدة، والعواطف الجياشة لفتاةٍ أخرى وبعد أن بلغتُ من الكِبَر عتيا!

نعم، أظنني بتُّ أهيم حباً بها، وأتوه عشقاً لها. أصبحتُ ذلك الفتى المراهق المتيّم الذي يحمل روحاً هرمة، ونفساً طاعنة في السن، لم تعترف بعمرها، ولم تحترم شيخوختها، ولم توقر شعرها الأبيض. هل الحب يعترف بعمرٍ أو بمكانة أو بحال؟ ألم يقولوا بأنّ الحب قد يأتي للمرء من حيث لا يحتسب! أوليس الحب يأتي فجأة ويهاجمك على حين غرة حتى من أكثر الأبواب التي تأمنها والنوافذ التي لا تخشى ضرراً آتياً منها. ولو لم يكن الحب كذلك لما كانت له مزيّة ولما أصبح له وقعٌ خاص في النفس ومذاقٌ عذب يستسيغه اللسان. ولو لم يكن كذلك، لما أصبحنا نهنأ به ونتنعم بذكراه ونأنس بحلوله حتى وهو يسقينا النزر القليل من طعمه الحلو ويُجرّعنا ويُمطر علينا المُرَّ والعلقم من كل حدبٍ وصوب.

لماذا أحببتها؟ ولماذا عشقتها هي بالذات؟ ولماذا انقلب النفور إلى هيام، وتحول التوجس إلى اندفاع، وبات القلق راحة وسرورًا؟ لا أدري، ولا أريدُ أن أدري؛ فأنا لا أحفلُ بالتفاصيل ولا تعني لي أي

Twitter: @ketab_n

شيء، ويكفيني أن أدري بأنني مُحب وأن أعلم بأنني مُغرم. لماذا أرتبط بامرأة في سن الخامسة والثلاثين لا تتميز بجمالٍ ولا حتى بأدنى جاذبية ظاهرية سوى روحها النقية وعقلها النبيه وأخلاقها النبيلة؟! لماذا أحب امرأةً أعلمُ يقيناً بأنها لن تبادلني هذا الحب ولن تحمل لي نفس المشاعر؛ فهي تنظرُ إليّ كفتىً مراهق وربما كمختلٍ لا يُرجى برؤه ولا يُؤمل صلاحه؟! لماذا أعلقُ آمالي وأحلامي على سرابٍ مستحيل وغاية لا تُدرك وخاتمة سعيدة لا تحدث إلا في الروايات الخيالية؟! سأكررها مرة ثانية وثالثة وسأظل أكررها إلى أبد الدهر؛ لستُ أدري وما أنا أعرفه يقيناً وعلى درايةٍ به جزماً هو أنني هائمٌ بها وبأنني لن أقوى على العيش بعيداً عنها.

كانت الساعة الواحدة ليلاً، ومازال الكرى مُجافياً لي، ومازال النعاس مُعادياً لي. فقررتُ أن أعقد هدنة، وأن أقيم صلحاً بيننا. وبلا وعيٍ مني، وبلا إدراكٍ ولا نظرٍ للعواقب، أخذتُ هاتفي الجوال واتصلتُ على من أقعدني عن النوم، وعلى من حرمني الراحة، وجعلني أتقلب شوقاً وألماً وسعادةً وتعاسةً في فراشي. اتصلتُ على أبرار في وقتٍ مُتأخر، وكنتُ أدركُ بأنّها حماقة لا تبدُر إلا من شاب يافع، ونزوة لا تصدر إلا من مراهق، ولكن أظنُّنا –جميعاً– مع الحب نتحول كذلك شئنا أم أبينا. رنَّ الهاتف ثلاث مرات قبل أن يأتيني صوتها الجميل الذي جعل الحياة تدب مجدداً في جسدي الميّت:

- مرحبًا أحمد.

- أهلاً أبرار. كيف حالك؟ كيف حال المؤتمر؟

Twitter: @ketab_n

- الحمدلله، لقد سار كل شيءٌ كما كنتُ أرجوه وأخطط له. ولكن أخبرني، كيف حالك أنت؟ هل أنت على مايرام؟ ليس من المعتاد أن تتصل بي في هذا الوقت المتأخر!

- أنا بخير لا تقلقي علي. ولكن كنتُ أفكرُ فيكِ وشعرتُ برغبةٍ في سماع صوتك. هذا كل ما في الموضوع.

صمتتْ أبرار لبعض الوقت، قبل أن تضحك وتقول:

- غريب! لقد كنتُ أفكرُ فيكَ أنا أيضــاً. وكنتُ على شوقٍ لمعرفةِ ماذا حصل معك ومع هشام وأصحابه.

أحسستُ بسعادةٍ غامرة، فمن الرائع أن يذكرك من أقضَّ مضجعك وحرمك من النوم، وقلتُ بسعادة:

- يُسعدني كثيراً أنكِ كنتِ تفكرين بي. أنا فخورٌ بذلك.

- لا داعي لذلك. أنا دائماً ما أفكر بمرضاي؛ هذا واجبي.

شعرتُ بخيبة أملٍ بعض الشيء واكتفيت بالصمتْ، وسألتني بدورها:

- حدثني عن رحلتك الجديدة مع سلمان، لقد أخبرني عنها، ولكنّي أريدُ أنْ أسمع تفاصيلها منك أنت.

دخلتُ في حديثٍ مطوّل عنها وتشعب الموضوع وتنوّع النقاش،

Twitter: @ketab_n

تماماً كما يحدث معنا في الجلسات المعتادة. وقد استمرّت المكالمة قرابة الساعة؛ تحدثنا فيها حول أمورٍ كثيرة. كنتُ أتحدث عن نفسي وعن ما مرَّ بي وأقود دفة الحديث بعض الوقت قبل أن تتحول القيادة إلى أبرار وتتحدث هي وتُخبرني عن ما صادفته في رحلتها هذه. وكنا نضحك تارة ونُبدي الشفقة والتعاطف الصادق في أخرى. ولم أصدق أننا مكثنا ساعة كاملة؛ إذْ كنتُ لا أظن بأنّها تزيدُ عن الخمس أو العشر دقائق. وحينما ودعنا بعضنا البعض وأنهينا المكالمة شعرتُ براحة كبيرة وبسعادة بالغة، وأحسستُ بنشاطٍ لا مثيل له وبنشوةٍ لا تفسير لها. ولم أجد في نفسي –هذه المرة– رغبةً في النوم، وقضيتُ الليل بطوله في التفكير بالمكالمة السابقة وبتحليل كل كلمة وعبارةٍ تفوهت بها أبرار، وبتفسير كل إشارةٍ وضحكةٍ خرجت منها.

مكثتُ على هذه الحال إلى أن عادتْ أبرار من رحلتها الطبية. وخلال هذه الفترة كنتُ أتصل عليها بصفة يومية، وكانت المكالمات تستمر لفترةٍ لا تقل عن الساعة. وكنتُ ألمسُ من أبرار سعادتها وارتياحها المماثل لي وأنها تُسر وتأنس بي كما آنسُ بها. ولم أشعر ولو لحظة واحدة بأنّ مكالماتي كانت ثقيلةً عليها أو أنها كانت مُعكّرةً لصفو راحتها لاسيما وأنّها بالكاد تجد وقت راحة بين الندوات والمؤتمرات. غير أنني لم أكن واثقاً فيما إذا كانت تُكنّ لي نفس المشاعر وتبادلني هذا الود غريب المنبع، والذي وُلد فجأة بين ليلة وضحاها بعد أن عايش مخاضًا خفيًّا لم أنتبه له ولم ألقِ بالاً لوجوده إلى أن رأيتهُ قابعاً أمامي يُبصر النور.

Twitter: @ketab_n

كنتُ قد أخبرتُ أبرار بأنني سأزورها في العيادة في اليوم التالي لعودتها إلى الرياض. وكنتُ قد عزمتُ على مفاتحتها بالموضوع وعلى أن أبوح وأفشي لها عن حقيقة مشاعري، فأنا لم يغمض لي جفن ولم أنعم بنوم منذ خمسة أيام، وأيقنتُ بأنّه من المُحال أن يستمر الوضع هكذا. لا بد لي من وضع حد لهذا الأمر ولا بد لي من أن أكون واضحاً وصريحاً وأن لا أحاول أن أكتم حُباً قد برى جسدي! وأنا أعلمُ بأنها مجازفة وأدركُ بأنها مخاطرة قد لا تكون محمودة العواقب، ولكن إن كانتْ تحملُ شيئاً من المودة لي فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لم يُر للمتحابين مثل النكاح»، وإنْ كان تعاطفها واهتمامها الكبير بي نابعًا من مهنيتها العالية وحرصها على أداء عملها على أكمل وجه وأنها لا تحملُ أي عاطفة تجاهي ولا تراني نداً لها ولا رجلاً كفئاً ليقترن بها فعلى الأقل سأجدُ شيئاً أعللُ به نفسي وأنهرها به حينما تبدأ في التفكير في أبرار؛ فهي رفضتني وأبتْ قربي، وبات لزاماً عليّ نسيانها والمضي قدماً.

دخلتُ غرفتها وألقيتُ السلام وجلستُ على الكرسي. وبعد بضع عباراتٍ ترحيبية قلتُ لها وأنا مُطأطئ الرأس والعرق يتصببُ من جبيني ووجهي قد احمرّ خجلاً وأنفاسي قد تسارعت:

- أريدُ أن أصارحكِ بأمرٍ قد أثقل كاهلي.

كان وجه أبرار متألقاً أكثر من أي مرةٍ عهدته فيها، وقد ابتسمتْ قبل أن تقول بنبرةٍ جادة:

Twitter: @ketab_n

- ما الأمر يا أحمد؟ تستطيع أن تخبرني بكل ماتريد.

- في الحقيقة لا أدري بماذا أبدأ وكيف سأمضي في الحديث وإلى أي نهاية سيؤول إليها كلامي. لقد ظللتُ أسخرُ دائماً من قصص الحب، ولطالما ضحكتُ ممن يدعي العشق. كنت لا أرى هنالك حباً صادقاً وحقيقياً سوى حب الآباء والأمهات لأبنائهم وبناتهم أو حب الإخوة لإخوتهم أكانت أخوة دم أو أخوة صُحبة. وقد رسّخت تجاربي ووطدت مواقفي في سنيني الماضية لديّ هذا الرأي وأصبحتُ على قناعة تامة به. إلى أن دارَ بي الزمان دورته، وجرت بي المقادير حتى وجدتُ نفسي تعاف السهاد وتُفضل الأرق واليقظة. لا أخفيكِ سرّاً بأنني لم أستطع النوم ولو للحظة واحدة طيلة الأيام الخمسة الماضية. لقد انقلب لوني إلى الأصفر، وأحاطت الهالات السوداء بعينيّ، وعلاني الشحوب، وأصبحتُ كشبح استوطن جسد آدمي. وقد أيقنتُ بأنّني إن بقيتُ على هذه الحال فسينتهي بي المطاف مجنوناً أو هالكاً لا محالة.

ومن ثم توقفتُ قليلاً لالتقاط أنفاسي، قبل أن أكمل قائلاً:

- لقد أحاطت المشاعر الجياشة بقلبي، وبدأ ينبض بالحب، وأصبحتُ الدنيا ملونة في عينيّ بعد أن اكتست حلة رمّادية. لقد شعرتُ بأنني شابٌ يافع، وفتى محبٌ للحياة مقبل عليها ما إن التقيتك وأنستُ بقربك. حُبي هذا الذي أحمله في صدري والذي استوطن جوفي ليسَ حب فتى مراهق، ولا حب شاب طائش، لقد أفنيت قرابة نصف قرنٍ لم أعايش خلالها ولم أقف فيها ولم أصبح يوماً طيلة أيامها على مثلٍ ما أنا عليه الآن. أحببتُ في غمرة إحباطي، ومع شدة قنوطي، ومع تمكن يأسي. إنّه حبٌّ داهمني فجأة، وهاجمني بغتة، ومع ذلك فهو حبٌّ

Twitter: @ketab_n

ناضج نبع من قلب شيخ يبدو غِرّاً لم يزل في صباه، وخرج من أعماق مراهقٍ ضاق ذرعاً بشيخوخة روحه.

سادَ الصمتُ على المكان، ولم أزل مُطأطئَ الرأس، وقد استجمعتُ قواي وأخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ بعدما لم يعد هناك مجال للتراجع:

- أرجو أن توافقي وأن تقبلي طلبي بالزواج منك وبالارتباط بكِ.

رفعتُ رأسي وتوجهتُ ببصري نحوها. كانت تبدو مشدوهة مما سمعت وقد عقدت المفاجأة لسانها، وبدتْ شاحبة ومصدومة وهيَ لا تكاد تصدق ما قلته للتو. وقد استمر الصمتُ مُخيّماً على المكان لعدة دقائق، كانت أشبه بساعاتٍ عليّ. وهيأتُ نفسي لردها المُتوقع، حيث زفرتْ الدكتورة أبرار بحسرةٍ وقالت:

- أنا مصدومة حقـًا يا أحمد، لم أتوقع أنك كنتَ تنظرُ إليّ هذه النظرة مُطلقـًا!

ثم ابتلعتْ ريقها وقالت كلماتها الأخيرة التي قضتْ على آخر نبضِ حياةٍ في قلبي:

- أخشى بأنّ هذا سيكون آخر لقاءٍ نفسي لنا! فبعد حديثك وإفصاحك عن مشاعرك الخفيّة، أصبح من المستحيل أن نستمر في جلساتنا النفسية؛ فعندما يُكنُّ أحد الطرفين مشاعر تجاه الآخر يجب أن تنتهي فوراً العلاقة الطبية التي تجمع بينهما مهما كانت الأسباب..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قفي! فالكونُ لولا الحُب قبرٌ

و إن لم يسّمعوا صَوت النـواحِ..

قفي! فالحسنُ لولا الحُب قبحٌ

و إن نظموا القصـائدَ في الملاحِ..

قفي! فالمجدُ لولا الحُب وهمٌ

وإنّ سـارُوا إليهِ على الرماحِ..

«غازي القصيبي»

Twitter: @ketab_n

في حقيقة الأمر لم أعوّل كثيراً على وعدها لي. ولم تجعلني كلماتها الاستداركية أكثر تطلعاً وتفاؤلاً. فهي لم تغيّر من واقع الحال مُطلقاً؛ إذْ مازلتُ واثقاً من أنّ ما قالته لي كان من قبيل تقليل الصدمة وليسهل عليّ تقبل رفضها الزواج بي.

ولماذا أغضب أو أحزن؟! فهل كنتُ أتوقع من امرأةٍ مُثقفة وناجحة، أفنتْ حياتها في طلبِ العلم أن ترضى الارتباط بفتى مراهق مُختل العقل أو لأجعلها أخف وقعاً ووطأة؛ فتىً تُساوره الأوهام ويعيش مع شخصيات من صُنع خياله لا وجود لها على أرض الواقع! وحتى وإن كنتُ قد رُقتُ لها فالبون الشاسع بيننا في المظهر وفي المضمون يجعل مثل هذه الزيجة ضرباً من ضروب المستحيل!

عدتُ لاستذكار ماحدث لي قبل يومين معها، حينما هممتُ بالخروج والانصراف فور سماعي كلماتها التي أوحتْ لي عن رفضها القاطع وعن استيائها مما قلت، قبل أن تستدرك قائلة «لم أقل بأنني أرفض هذا الأمر، ولكن ما قلته هو بأنّ علاقتنا الطبية يجب أن تنتهي حالاً!» وقد تجمدت يدي في الهواء وهي في طريقها لفتح مقبض باب الغرفة، حيث أدرتُ رأسي نحوها ونظرتُ إليها وأنا أشعر بأنّني قد عدتُ إلى الحياة من جديد بعد أن شارفتُ على الهلاك وكما لو كنتُ سمكةً قد أُعيدت إلى البحر بعد أن اُنتزعت منه. «أتعنين بأنكِ لا تمانعين الزواج بي؟» كانت كلمات يشوبها الأمل واليأس، والفأل والقنوط، والتصديق والتكذيب؛ حيث جمعت مقولتي تلك كل هذه المتناقضات معاً كما لو كانوا إخواناً وأحباباً لا يُمكن أن يفترقوا أبداً! «لم أقل ذلك،

Twitter: @ketab_n

ولكنني بحاجة إلى التفكير ملياً بالموضوع، فكما تعلم قرارٌ مصيري كهذا لا يُمكن أن يُتخذ بين غمضة عين وأنتباهتها! دعني أفكر وانتظر رداً مني في الأيام المُقبلة.»

كنتُ أشعرُ بتعاسةٍ بالغة في اليومين الماضيين، لدرجةِ أنني تغيبتُ عن الذهابِ إلى الشركة، ولم أجب على اتصالات المدير المتكررة. كنتُ أعلم علمَ اليقين بأنّ أبرار سترفضني، هذا إن لم تكن قد بيّتت نية الرفض منذ اللحظة الأولى التي بُحت فيها بالأمر. لم أكن أنتظرُ إجابةً منها سوى هذه الإجابة، غير أنني كنت –مع ذلك- أشعرُ برغبة عارمة في سماع هذا الرد منها شخصياً. كنتُ أقطع الشقة جيئة وذهاباً، وكلما حاولتُ الانشغال بشيءٍ ما أجدني عاجزاً عن منع نفسي من التفكير في أبرار ومكالمتها المُرتقبة. كانت لحظاتُ الانتظار قاتلة، فأسوأ من الخسارة نفسها انتظار الخسارة! وأسوأ من الرفض نفسه انتظار الرفض! وأسوأ من الموت انتظار الموت!

طالَ انتظاري، وبدأ يساورني قلق بالغ وشعورٌ غريب بأنّ أبرار قد نسيت بأنني أنتظرُ منها ردها الذي أخبرتني بأنها ستبلغني به. ولم أقفْ عند هذا الحد فقط، بل وبت أخشى من أنها لا تنوي الاتصال بي مُطلقًا وأنها ستجعل الوقت كفيلاً بإعلامي عن رفضها من دون أن تبوحَ لي بذلك.

كانت الأفكار التشاؤمية، والنظرة السوداوية، والخيالات الكئيبة هي عنوانُ هذين اليومين. كنتُ كذلك، ومازلتُ على هذه الحال إلى أنْ

Twitter: @ketab_n

رنّ هاتفي -أخيراً- وجاء الرقم الذي كنتُ أنتظره منذ اللحظة الأولى التي خرجتُ فيها من غرفة الدكتورة أبرار. لم أجب من الرنة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة؛ كنتُ أتلذذ بلحظات الترقب، وأرى فيها نعيماً سأفتقده كثيراً بعد الرد؛ نعيماً يتمثل في أنّ جميع الاحتمالات مُمكنة الحدوث، ونعيماً يتمثل في احتفاظي ببصيص الأمل وما أضيق العيش لولا هذه الفُسحة اليسيرة التي يَمُدنا الأمل بها!

أجبتُ على الهاتف بعدَ أنْ استلقيتُ على السرير؛ ليقيني بأنّه المكان الوحيد الذي سيحتويني بعد أن أتلقى الصدمة المُنتظرة والرفضَ المُرتقب:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- هل أنتَ بخير يا أحمد؟

- نعم الحمدلله. ماذا عنكِ؟

- أنا على مايرام. أردتُ فقط أن أبلغك بأنّه قد سرني لقاؤك وأعجبتني أخلاقك وراقت لي آراؤك ونظرتك إلى الحياة. وأتمنى أن تكون قد شعرتَ بتحسنٍ بعد هذه الجلسات النفسية التي أرجو أن تكون قد حققت الهدف الذي كنتَ تصبو إليه. وسأعتبر هذه الجلسات قد أدت الغرض وبأنني نجحتُ في عملي متى ما كنتَ قد خرجتَ منها مُختلفاً عنك حين دخلتها أول مرة...

Twitter: @ketab_n

لهجتها الرسمية وكلماتها هذه لم تزدني إلا يقيناً بأنّها تُمهد لرفضها لي. تمنيتُ لو أنّها قالتها مباشرة، ولم تجعلني أنتظرُ هذه الكلمات الطويلة المُبهمة، وهذه المقدمة المُنمقة الغامضة. وقد علّمتني حياتي التي تجاوزت النصف قرن، بأنّ وراء كل كلماتِ مديح هجاءً قادما، وخلف كل ثناء نقدًا عارمًا، وبأنّ من سيُحقق لك ماتريد لن يلجأ إلى التمهيد بل سيقفز مباشرة إلى الخبر الذي تنتظره. كنتُ أستمعُ إلى أبرار وهي تتحدث عن الجلسات النفسية والأثر الذي نتج عنها، وابتسامة يأسٍ ارتسمت على شفتي، في الوقت الذي كانت ماتزال فيه أبرار مسترسلةً في حديثها:

- وبعد أنْ أبلغتني عن رغبتك بالزواج، لا أخفيك سراً بأنني لم أتوقع ذلك منك، وبأنني في بداية الأمر لم يساورني شك حول رفضي لهذه الفكرة جُملةً وتفصيلاً، ولكن بعد أن جلستُ مع نفسي في اليومين الماضيين، وبعد تفكير مطول، وبعد أن درستُ الموضوع من كافة الجوانب، ولأنني أعلم جيداً بأنّك رجلٌ يُعتمد عليه حتى وإن كُنتَ لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعلى يقينٍ من أنّ الخيالاتِ التي تعتريك لم تؤثر عليك في حياتك، ولم تعِقك عنٍ العمل، ولم تمنعكَ من أن تكون على هذا القدر الكبير من الثقافة وعلى هذه الدرجة العالية من الوعي والنضج. وقد قررتُ بعد أن صليتُ صلاة الاستخارة أن أوافق على الارتباطِ بك شريطة أن لا يُعلن هذا الزواج وأن لا يعرف عنه إلا المقرّبون جداً مِن حولنا.

لم أصدق ما سمعته، وظننتُ بأنني واهم أو أنّ هناك مشكلة في سمعي، ومنعتُ نفسي من أنْ أدعها تشعر بأي شيء قبل أن أتأكد مما

Twitter: @ketab_n

فهمته:

- أتعنين بأنّكِ تقبلين بي زوجاً لكِ..؟!

صمتتْ قليلاً، وبدا لي بأنّه صمتُ حياء أكثر منه صمتُ تردد:

- نعم، أقبلُ بك.

قفزتُ من على السرير، وشعرتُ برغبةٍ عارمة في الجري والاحتفال. كانت السعادة لا تسعني وكنتُ على وشكٍ الصراخ. حقاً ما أصغر هذه الدنيا؛ فكلمةٌ واحدة كفيلة بجعلك تشعر بأنّك قد ملكتها عن بكرةِ أبيها وبأنّها قد حيزت لك بحذافيرها، وكلمةٌ واحدة كفيلة هي الأخرى بجعلك في عدادِ الموتى! أحسستُ بأنّ قلبي يرقص طرباً، وبأنّ السعادة لم تزره ولم تدخله إلا في تلك اللحظة. أحسستُ بحب الحياة، وبأنّني لم أولد إلا حين سمعتُ هذه الكلمة. شعرتُ بأنني شخص آخر، وبأنّ حياتي الحقيقية قد بدأت الآن، وبأنّ المستقبل يحمل في طياته ابتسامةً لطالما انتظرتها ويئست من إدراكها!

****

Twitter: @ketab_n

كان كُل ما أرتديه في ذلك اليوم جديداً؛ ثوبٌ ناصع البياض، وغترةٌ بيضاء لامعة، وحذاءٌ جلدي هو الآخر أبيض اللون. كانَ كل ما فيّ في ذلك اليوم يعكس البياض. كان ذلك الفصل من حياتي هو فصلُ الأمل الأبيض، وجزء السعادة البيضاء. كانَ برفقتي إمامُ مسجدُ الحيّ الذي أسكنُ فيه الشيخ أبوحسّان، وكانَ معه ابنه الذي يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، والذي أحضره برفقته ليكون شاهداً على هذه الزيجة وليحثه على أن يحذو حذوي وأن يُبكر هو بزواجه أيضاً تطبيقـًا للسنة النبوية. وقد قال لي الإمام، حينما تظاهرتُ بالخجل أمامه عندما فاتحته بالموضوع، بأنّ فارق السنّ لا يُعد أمراً معيباً أو مدعاة للتنقص والازدراء؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة رضي الله عنها وهي تكبره بخمسة عشر عاماً.

طرقتُ الباب، وخرج لي سلمان وهو يرتدي ثوباً وشماغاً، حيث سلمتُ عليه وصافحته وعرّفته بالإمام وابنه. وقد دعانا إلى الدخول إلى الشقة التي كانتَ تُقيمُ فيها أخته أبرار. دخلنا وجلسنا في «المجلس» الذي كان مُؤثثاً بعناية، وكان لون كراسي الجلوس الحمراء الجلدية الفاخرة، ولون الستائر العنابية، وسجادة الأرض الوردية، والتُحف المتنوعة واللوحات المُعلقة الجميلة، كانت جميعها تنم عن ذوقٍ عالٍ وعن حسٍّ فني رفيع.

كان الشيخ أبوحسّان يَحملُ معه حقيبةً بُنية اللون، وبعدَ أنْ جلسنا وضعها على حجزه، وفتحها وأخرجَ منها ملفاً كبيراً وأسنده على الطاولة. وقد خرجَ سلمان وعاد بعد هُنيهة وهو يحملُ بين يديه

Twitter: @ketab_n

إناءً عليه إبريق شاي وأكواب زجاجية. وبعد أنْ قدّم لكلٍ منا كوب شاي جلس على بُعد كرسيين من الشيخ أبو حسان الذي كان يجلس عن يميني. وقد دخل الشيخ بدوره في حديثٍ مُطوّل عن فضل الزواج وعن أهمية الزواج المُبكر وعن أنّ المحك الحقيقي هو العقل والنضج والقدرة على تحمّل المسؤولية وأنّ جميعها أمورٌ لا علاقة للسنّ بها؛ فكم من كبيرٍ صغير العقل أخرق! وكم من صغيرٍ عقله يسعُ بلداً بأكمله! كما تحدَّثَ أيضاً عن فارق السن، وبأنّه لا يعني أيّ شيءٍ طالما كان الزوجان متفاهمين ويعلم كلٌّ منهما ما يريدُه وما ينتظره الآخر منه. وقد بدا حديث الشيخ مُقنعاً ومُدعماً بالحجج والبراهين المنطقية والعقلانية. وشعرتُ بامتنانٍ كبيرٍ له؛ لاسيما وأنّ سلمان كان يبدو في باديء الأمر نافراً وكارهاً لهذه الزيجة -كما بيّنت نظراته- غير أنّه بدا الآن أكثر ارتياحاً وتقبلاً للفكرة.

بدأ الشيخ أبوحسّان في كتابة عقدِ النكاح، وبعد أن فرغ من كتابته وأصبح العقد مُكتملاً، ابتسمَ وقال:

- أُعلنكما الآن زوجاً وزوجة، وفقكما الله، وجمعَ بينكما بخير.

ومن ثم قام وعانقني وهنأني، وأشارَ لابنه الذي قام بدوره وصافحني هو الآخر، في حين أنّ سلمان اكتفى بمصافحة الشيخ الذي ودعنا ورحل.

كنا نجلسُ سوياً لوحدنا أنا وسلمان الذي كان ينظرُ إليّ بتوجس وريبة من دون أن يتحدث. وشعرتُ بعدم الارتياح ولم أدرِ ما إذا كان

Twitter: @ketab_n

يجدرُ بي البقاء أو الانصراف. وقد كسرَ سلمان حاجز الصمت بحديثٍ مفاجئ:

- كيف فعلتَ ذلك؟

- كيف فعلتُ ماذا؟!

- كيف استطعتَ التغرير بأختي وجعلها تقبل الزواج من طفلٍ مثلك؟!

- إنّ أبرار امرأةٌ عاقلة وهي لا تُقدمُ على أي خطوةٍ قبل أن تدرسها دراسةً متأنية، وليس بوسع أيٍ كان أن يُغرر بها فهي ليست طفلة صغيرة!

- وهذا ما سيدفعني للجنون! كيف استطعتَ ذلك؟! امرأة في سنّ الخامسة والثلاثين تتزوج من طفلٍ في عُمر ابنها! امرأة حاصلة على أرفع الشهادات وأعلى الدرجات في الطب النفسي تتزوج بطفلٍ لم يحصل على شهادة الثانوية بعد!

لم أجب عليه واكتفيتُ بالصمتِ جواباً، واقترب سلمان برأسهِ مني وسألني بصوتٍ خافت:

- هل سحرتها؟!

لم أستطع تحمّلْ هذه الوقاحة، وهذا التدخل السافر في الخصوصيات، وقلتُ بنبرةٍ غاضبة:

Twitter: @ketab_n

- أنا أرفض هذا الأسلوب، وليس لك الحق في أن تتكلم وأن تعطي رأيك في اختيارات أختك. هي وحدها من يحق لها أن تقرر مصيرها، وما دمتَ رافضاً لهذه الزيجة فلماذا قبلتَ بها قبل قليل؟!

أجابَ بنبرةٍ لا مبالية وهو يعبثُ بجواله:

- لم أقبل بها من أجلِ سوادِ عينيك! بل لأنّ أبرار وعدتني بشراءِ شاشة تلفاز ثلاثية الأبعاد يتجاوز ثمنها عشرة آلاف ريال!

قالها وقامَ من مكانه وخرجَ من الشقة وهو يُتمتمُ بعباراتٍ غير مفهومة، أيقنتُ بأنها شتائمُ ولعنات بعد أن أغلق الباب بقوةٍ بالغة وبهمجيةٍ لا تصدرُ إلا من شخصٍ بلغ به الغضب كُل مبلغ. وقد هَمَمْتُ بالخروجِ أيضاً وشعرتُ بأنّ عدمَ قدوم أبرار إلى هذه اللحظة يوحي بأنّها لم تكن تنوي ملاقاتي اليوم. وقد كنتُ أنوي سؤال سلمان عن هذا الأمر غيرَ أنّ نبرة حديثه غير الوديّة وتمعّر وجهه ثنياني عن ذلك. وقبل أن أخرج اقتربتُ من باب غرفة المعيشة المُغلق الذي يفصل بين المجلس وبين بقية الغُرف وقلتُ بصوتٍ عالٍ:

- سأغادر الآن، وداعاً.

وجاءني صوتٌ من الداخل:

- انتظرْ قليلاً أرجوك.

وابتسمتُ وعدتُ من جديد إلى المجلس ودقاتُ قلبي تتسارع،

Twitter: @ketab_n

وشوقي يزداد لحظةً بعد الأخرى. ولم أكد أمكث بضع دقائق حتى سمعتُ صوتَ فتح الباب، وسمعتُ صوت خطوات أبرار وهي في طريقها إلى المجلس. وهذه المرة شعرتُ بأنّ قلبي يُوشك على الخروج من مكانه، وأحسستُ بأنّ روحي تأبى أن تبقى أسيرةً لهذا الجسد، وقد بدأ العرق يتصبب من جبيني، وانتابتني مشاعرُ كانت مزيجاً من الخوف والخجل، كما لو كنتُ امرأة عذراء تدخل على خطيبها للمرة الأولى!

دخلتْ أبرار، وما إنْ وقعتْ عيني عليها حتى سلبت عقلي وأخذتْ بلبّي. وأحسستُ بأنني أراها للمرة الأولى، وبأنّها لم تكن كما كنتُ أتصوّرها من قبل –امرأة متوسطة الجمال– فقد بدتْ هذه المرة امرأةً بارعة الجمال؛ بفستانها الأبيض الفاتن، وبجسدها النحيل الجذاب، وبشعرها الطويل الأسود المُنسدل على كتفيها. ولم أدْرك كم كنتُ رجلاً محظوظـًا إلا في تلك اللحظة.

جلستْ أبرار بجانبي وهي مُطأطئة الرأس، ومكتفيةً بالنظرِ إلى الأرض من دون أن تنبس ببنت شفه. وقد طغى على المكان صمتٌ مغايرٌ عن أي لحظاتِ صمتٍ عشتها من قبل. كان هذا الصمت هو الأكثر إثارة وجمالاً، وكان ضيفاً محبوباً على العكس من أقرانه! جلستْ أبرار وشعرتُ بأنّ دقاتُ قلبي بدأت تعودُ كما كانت عليه، وبت أكثر ارتياحاً وهدوءً.

عرضتُ على أبرار أن نذهب سوياً للعشاء في أحدِ المطاعم الراقية، وقد قبلتْ بدورها غيرَ أنّها رأتْ بأنّه سيكون من الصعب أن

Twitter: @ketab_n

تخرج معي وهي ترتدي هذا الفستان المنفوش! ولذلك سيكونُ لزاماً عليها أن تُبدّل ملابسها. ولأنني لم أشأ أن أحرم عينيّ من جمالها الذي باتَ أكثر إبهاراً وسط هذا الفستان الخلاب، اقترحتُ أن نتصل على أحد المطاعم التي توفر خدمة إيصال الطلبات بدلاً من الخروج. ولكي ننعم وحدنا بكل الوقت وبكل الخصوصية من دونِ إزعاجٍ أو تطفل من أحد.

أمضيتُ تلك الليلة في شقتها. ولم ننم حتى طلع الصباح بعد أن تناولنا كوبين من القهوة على غرار ما اعتاد كلٌّ منا عليه؛ ولم أعلم بأنّ بيننا كثيرا من المتشابهات والاتفاقات إلا في ذلك اليوم. كانت تلك الساعات هي أجمَلَ ساعات قضيتها في حياتي، وهي أيضاً الساعات الأجمل في حياة أبرار أيضاً كما همستُ بحبٍ وبعذوبةٍ في أذني مُصارحةً لي بذلك. وقد أدركتُ حينها بأنّ الحُب هو وحده الذي يستطيع أن ينتشلك من براثن الخيبة والقنوط، وهو وحده الذي يستطيع أن يُعيدك شاباً من جديد؛ فبالحب أنت لستَ بحاجةٍ إلى خللٍ هرموني يُديم شبابك، أو إلى مصلٍ –لا وجود له- لكي تعود يافعًا من جديد! وللمرة الأولى في حياتي، علمتُ بأنّني لم أعد غريباً في هذه الدنيا.

****

Twitter: @ketab_n

لم أذهب إلى الشركة في ذلك الأسبوع، واكتفيتُ بالجلوس رفقة زوجتي أبرار التي أخذتْ بدورها إجازة من العيادة وقررت أن لا تعاود العمل حتى مطلع الأسبوع المُقبل. وبدوري قمتُ بالاتصال على المدير العام نزار هاشم وأخبرته عن عدم استطاعتي القدوم للشركة طيلة الأسبوع، وعلى العكس مما توقعت فقد أبدى تفهماً كبيراً، وأكد لي بأنّه سينتظر قدومي يوم السبت.

في صباحِ السبت، ارتديتُ ثوبي وشماغي وما إنْ خرجتُ من غرفة النوم حتى لفعتني نفحة زكية الرائحة، كانت مزيجاً من رائحة الشاي والبيض الطازج. ووجدتُ في غرفة المعيشة سُفرة عامرة بشتى الأصناف الشهية. وبينا أنا واقفٌ أمام السفرة أتأمل فيها باستحسان، فاجأتني أبرار من الخلف وقد طوقتني بيديها وهي تقول:

- يجبُ أن لا أدع حبيبي يُهمل أهم وجبة في اليوم. كان يجب أن تأخذ في حسبانك بأنّ ارتباطك بطبيبة يعني أنك ستتخلى –طوعاً أو كرهاً– عن جميع عاداتك الخاطئة!

ضحكتُ وقلت:

- في الواقع هذا ما كنتُ أبحثُ عنه، واسألي سلمان عن حديثنا الذي دار قبل أيام عن مطاعم الوجبات السريعة.

- لقد أخبرني عن ذلك بالفعل.

قالتها وهي تبتسم. وبينا نحن نتناولُ الفطور، كنتُ تارة أضع

Twitter: @ketab_n

اللقمة في فم أبرار وكانت تارة أخرى هي من يقوم بهذا الدور، وكنا نتضاحك ونَتمازح، إلى أن تذكرتُ ردة فعل سلمان والتي فضلتُ أن لا أطرحها في الأسبوع الماضي لكي لا أعكّر صفو تلك الأيام الذهبية:

- ماذا كان موقف سلمان حين أبلغته عن نيتكِ الزواج بي؟

- لماذا؟ هل بدرَ منه أي تصرف شائن تجاهك؟!

- كلا، أبداً. ولكنّي أحسستُ بأنّه متضايق بعض الشيء، وقد أخبرني بأنّك ستشترين له شاشة تلفاز.

- حسناً، ما أستطيع قولهُ هو بأنّه لم يكن من كبار المؤيدين لهذا الزواج. ولكنّني تمكنتُ من إقناعه بطريقتي الخاصة، وشاشة التلفاز كانت مُجرد حافزٍ إضافي ليس إلا.

وغمزتْ لي بعينها.

أكملتُ فطوري بسرعة، وخرجتُ بعد أن ودّعتُ أبرار وداعاً حاراً، وأنا أعد اللحظات والدقائق التي تفصل عن رؤيتي لها من جديد. كنتُ أشعر بالشوقِ إليها حتى وهي تجلسُ بجانبي!؛ كان شوقًا نابعًا من معرفتي بأنني سأضطر إلى أن أفارقها مؤقتاً قبل أن أعود للقائها. وفي الأسبوع الماضي، كان حجمُ حبي، ومقدار عشقي، وكمية هيامي، تزداد يوماً بعد يوم، إلى أن وصلتُ إلى مرحلةٍ بت فيها لا أقوى على فراقها، ولا أملُّ من المكوث بجانبها، وباتَ تعلقي بها أشبه بتعلق الطفل الصغير بأمه الحانية. وكانت أبرار هي الأخرى ستعود إلى العمل في

Twitter: @ketab_n

العيادة في هذا اليوم، وكان عملها يبدأ من الساعة الواحدة ظهراً وحتى الثامنة مساءً. وهذا يعني بأنّني سأعودُ إلى الشقة قبل أن تعود هي بأربع ساعات؛ مما سيتيحُ لي المجال بأن أقوم ببعض الترتيبات وإعداد بعض المفاجآت قبل عودتها. وكنت قد نقلتُ –في وقتٍ سابق– معظم حاجياتي من شقتي إلى شقة أبرار؛ إذْ أنّ عقدي ينتهي مطلع الشهر المقبل وبإلحاحٍ من أبرار، قررتُ الانتقال نهائياً إلى مسكنها.

دخلتُ إلى الشركة، وبعد أن قمتُ بتوقيعِ حضوري توجهتُ إلى مكتبِ «نزار» كما طلبَ مني. وطرقتُ الباب ودخلتَ بعد أن وجدتُ مكتب السكرتير الخارجي خالياً. وقد رحّب بي وقام من مكتبه وعانقني عناقاً حاراً، كما لو كنا صديقين قد افترقا لسنوات. وقبل أن أجلس سألني إنْ كنتُ قد تناولتُ فطوري، وأصّر على أن أرافقه إلى أحد المقاهي القريبة لنتناول القهوة –على الأقل– بعدَ أن أبلغته بأنني قد أفطرتُ في بيتي:

- ولكن أخشى أن يلومني رئيسي المباشر إذا ما علمَ عن خروجي من الشركة فورَ قدومي لها؟

- كلا لا تقلق؛ فطالما أنا موجودٌ معك لا تخف ولا تخشَ حدوث أي شيء.

قالها بابتسامة عريضة، وهو يُمسك بيدي ونحن في طريقنا إلى سيارته المركونة بجوار الشركة. وقد قصد أحد المقاهي القريبة، وطلبَ بدوره فطيرة جبنة بيضاء، وكوبَ قهوةٍ بالحليب. في حين أنني اكتفيتُ بكوبٍ من الشاي، طلبته مجاملة له؛ فبعد الشاي الذي أعدَّته أبرار لم

Twitter: @ketab_n

أعد أشتهي أي شايٍ آخر!

تحدث نزار كثيراً عن حياته الشخصية، وفي هذه المرة بدأ يتوسع شيئاً ما، وأخذ يتطرق إلى بعض التفاصيل الخاصة؛ عن مغامراته مع النساء، وعن سهراته ونزواته. وقد استأتُ كثيراً فالخطأ أمرٌ والتبجح به أمرٌ آخر!

- أرجو منك يا أستاذ نزار أن تُغير الموضوع؛ فأنا لا أشعرُ بالارتياح في الحديث حول هذه الأمور.

- ولماذا؟ أنا أعُدك صاحباً مقرباً لي؛ ولذلك لا أجد حرجاً من أن أبلغك عن أدق خصوصياتي، تماماً كما يفعل الأصحاب بعضهم مع بعض.

- أشكرُ لك ثقتك الكبيرة بي، وأنا فخورٌ بأنّك تنظرُ إليّ كصاحب مُقربٍ لك. ولكن، حتى وإنْ كنتُ كذلك، فهذا لا يمنحك المُبرر بأنً تُجاهرً بمعاصيك التي سترها الله عليك، وفي الحديث «كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين»!

بدا بأنَ حديثي لم يَرُق له، حيث أخذ ينهم الفطيرة بكل شراسة، ومن دون أن يتحدث. قبل أن يقول وهو يشرب كوب القهوة:

- حسناً، لن أتحدث عن نفسي. أريدُ منك أنت أن تحدثني عن حياتك، وعن علاقاتك؟

تعجبتُ من سؤاله، وشعرتُ بأنّه لم يفهم جيداً ماقلته له عن

Twitter: @ketab_n

المجاهرة قبل قليل. وعلى الرغم من أنّه لم يكن لديّ ما أخفيه إلا أنني لم أكن أنوي إخباره عن أمر زواجي لاسيما وأنّه سيفتح بابًا سيصعب إغلاقه، وقد أجبته باقتضاب ومراعياً السنّ التي كنتُ أبدو عليها:

- ليس هنالك الكثير لأخبرك عنه. تخرجتُ حديثاً وأنا الآن أسعى إلى الادخار من مرتّبي لكي أكون قادراً على تحقيق أحلامي وطموحاتي.

ارتفعَ حاجباه بتعجبٍ، وقال باندهاش:

- غريب! حينما كنتُ في سنك كنتُ على علاقةٍ بـ...

ورفعتُ يدي على الفور في إشارةٍ له للتوقف:

- لو سمحتَ توقف عند هذا الحد!

- أوه تذكرت. هذا النوع من الحديث يُضايقك.

اكتفيتُ بالصمت، وقد أردف قائلاً:

- على أية حال، سأساعدك في تحقيق ما تصبو إليه. أعلمُ بأنّ مرتبك الحالي لا يكفي للوصول إلى المبلغ الذي يحتاج إليه الشخص للزواج إلا بعد سنوات طوال، ولهذا أنوي أن أعيّنك مُديراً لمكتبي، وستستلم ضعف راتبك الحالي.

تذكرتُ على الفور سببَ خلو مكتب السكرتير:

Twitter: @ketab_n

- ألهذا السبب كان مكتب سكرتيرك خالياً اليوم؟

- نعم لقد سرّحته من العمل يوم الأربعاء الماضي. وأنا أفضلُ أن أطلق عليه اسم مُدير مكتبي، بدلاً من اسم السكرتير.

كانت مفاجأة غير متوقعة. وشعرتُ بسعادةٍ بالغة؛ إذْ لم يسبق لي أن حصلتُ على ترقيةٍ بهذه السرعة من قبل:

- شكراً جزيلاً لك، وفي الواقع تعجز كلمات الشكر عن أن تفي بحقك.

- لا داعي لشكري. أنت صديقي المُقرّب، ولا يُساورني أي شك حول أحقيتك لهذا المنصب.

- ومتى سأباشر العمل في وظيفتي الجديدة؟

- منذ اليوم! عندَ عودتنا إلى الشركة ابدأ بنقلِ ما في مكتبك القديم المتهالك، إلى هذا المكتب الجديد الفسيح. مِن الآن فصاعداً أنت ساعدي الأول!

****

Twitter: @ketab_n

كانَ كل شيء مُرتباً ومُعداً تماماً كما كنتُ أرسم في مُخيّلتي. فالعشاء جاهزٌ وموضوع على السُفرة، والشموع مرصوفة؛ أولها عند باب الشقة وآخرها عند غرفة النوم وقد صُفت على الجانبين لتكون أشبه بممر وطريق، وقد نُثرت الورود عليه ولم يتبقّ سوى أن تأتي الملكة التي يُنتظر أن تقطع هذا الطريق وتمشي من خلاله.

كنتُ أرتدي لباس النوم القطني المُقلم باللونين الأزرق والأسود. وكنتُ أترقب وصول أبرار على أحرّ من الجمر. وما إنْ سمعتُ صوت مفتاح الباب حتى قفزت من مكاني فوراً وأغلقتُ الإنارة ولم يعد هنالك من نورٍ في الشقة سوى ذلك القادم من تلك الشمعات. فتحتْ أبرار الباب وراحتْ تنظرُ بدهشةٍ بالغة نحو الشقة، وبعد أن أغلقتْ الباب، مشت مستنيرة بضوء الشمع المتلألئ إلى أنْ وصلت غرفة المعيشة، حيث خلعت عباءتها وانضمَّت إلى فتاها المُتيم اللهفان، فكانت كغيثٍ انهمر على أرضٍ جدباء فسقاها وبث الحياة في أرجائها.

****

Twitter: @ketab_n

انقلبتُ بجسمي وتوجهتُ به ناحية أبرار، وهمستُ برقة وأنا أداعب خصلات شعرها:

- هل أنتِ نائمة؟

أجابت بصوتٍ خافت:

- ليسَ بعد.

اقتربتُ منها أكثر وسألتها:

- لماذا قبلتِ الزواج بي، مع أنّكِ تعتقدين بأنني مصابٌ بالفصام، وأنني فتى مراهق مازال في مقتبل عمره. وفي الغالب لن يكون مثل هذا الشخص كفئاً للزواج، فهو من جهة ليس بحالةٍ عقلية سليمة، ومن جهة أخرى يصغرك بأكثر من عشر سنوات.

كان الظلامُ دامساً، ومع ذلك فقد استطعتُ رؤية أبرار وهي تبتسم بعد أن لمعتْ أسنانها الصغيرة البيضاء وسط هذه العتمة:

- لقد أُعجبتُ بشخصيتك؛ فأخلاقك السامية، وثقافتك العالية، وتوجهاتك النبيلة كفيلة بجعل أي امرأة في الوجود تقع في حبك. أمّا بالنسبة للفصام، فأنا أنظرُ إليه كحافز إضافي؛ فهو سيُتيح لي المجال أكثر لكي أتفحصه عن قرب، وأنْ أكونَ قادرة على تحديد نوعه بدقة أكبر. وعلى أية حال، كما أخبرتك، ما جذبني في المقام الأول، هو طريقة تفكيرك الناضجة والتي لا تتوفر في كثيرٍ من شباب هذا الجيل.

Twitter: @ketab_n

وسكتتْ قليلاً قبل أن تقولَ ضاحكة:

- وربما وسامتك أيضاً!

وقد ضحكتُ أنا بدوري قبل أن أسألها:

- ولكنْ ألم يسبق لكِ أن صارحكِ أحدٌ من مرضاك بحبه لكِ؟

- لقد حدث هذا، ولكنّي كنت أتجاهل مثل هذه التلميحات والإشارات، وكنتُ أبيّن فوراً للمريض بأنّ الاهتمام لا يعني الحب، وبأنّ واجب الطبيب أن يعتني بمريضه لا أن يقع في حبه. وهذا بالمناسبة يُعد أمراً مرفوضاً ومنافياً لأخلاقيات الطبيب، بل إنّ بعض الولايات في أمريكا تسحبُ الرخصة الطبية من الطبيب الذي يرتبط بعلاقة مع أحد مرضاه.

- كم كانَ عددهم؟

- من تقصد؟

- الذين صارحوكِ بحبهم؟

- لماذا هل بدأتَ تشعرُ بالغيرة؟

وابتسمتْ ومن ثم أردفتْ قائلة:

- لم يكونوا كثيرين. وعلى أية حال، كنتُ أقوم بقطع كافة العلاقات فور علمي بوجود مشاعر عاطفية لدى مريضي. وأنتَ الوحيد

Twitter: @ketab_n

الذي شذذتَ عن هذه القاعدة؛ فحقيقة الأمر أنني أحببتك قبل أن تُبلغني عن رغبتك بالزواج بي بفترةٍ طويلة. وكنتُ أجاهدُ نفسي على إخفاء حقيقة مشاعري وطيّها في صدري.

- إذاً لابُدَّ من أنكِ كنت سعيدة جداً حينما تقدمتُ لكِ في الوقتِ الذي اكتفيتِ فيه بالتظاهر بالحزن والصدمة!

قلتها بنبرةٍ استفزازية، واكتفتْ أبرار بالضحك.

****

Twitter: @ketab_n

استدعاني «نزار» فدخلتُ مكتبه، وراح يتحدثُ عن مهامّي الجديدة والأعمال التي يجب عليّ إنجازها، وعن كيفية تنسيق مواعيده، ونوعية العملاء بتصنيفاتهم المختلفة، ومن ثم عدتُ مرة أخرى إلى مكتبي الجديد، وبدأتُ العمل. وكان في هذه المرة أكثر إمتاعاً وإثارةً لاسيما وأنّه لم يسبق لي أن شغلتُ وظيفةً مُشابهةً. وقُبيل الظهر تفاجأتُ بمجيء عاملِ توصيل يتبع لأحدِ المطاعم الشهيرة، وهو يحملُ في يده ثلاث علبٍ من «البيتزا» كبيرة الحجم، وفي يده الأخرى عدة مشروباتٍ غازية. وقد وضعها عندي ورحل بعد أن أخبرني بأنّ الأستاذ نزار طلبَ منه إيصالها إليّ. وقمتُ بدوري بحملها وإدخالها إليه، وعندما وضعتها على طاولته وهممتُ بالمغادرة ناداني وأصرَّ على أن أشاركه الغداء، وأكدَّ لي بأنّه لم يطلب ثلاث علبٍ إلا وهو عاقدٌ العزم ومُبيت لنيّة أنْ أتناول الطعام معه.

أخرج نزار سُفرة من أحد الدروج، وقام ببسطها على الأرض ووضع عليها العلب والمشروبات وخلع شماغه ووضعه على الطاولة، وشمّر عن ساعديه بعد أنْ جلس على الأرض. ولمّا رآني أنوي الأكل من دون أن أخلع شماغي، استنكر هذا المنظر، وألّح عليّ من أجل طرحِ الشماغ جانباً لكي لا يكونَ عبئاً علي، ولأنه لا يُريد أن يكون بيننا أيَ حواجز! وقد استجبتُ لطلبه، مَع أنني كنتُ لا أشعرُ بالارتياح بنزع الشماغ في الأماكن الرسمية، ولكن على أية حال، لم أجد سبباً يدفعني إلى التشبث بموقفي هذا!

بعد أن فرغنا من تناول الغداء، استلقى نزار على ظهره، وأخذ

Twitter: @ketab_n

يُردد قائلاً:

- ما أنا بحاجة ماسّة إليه الآن هو مُدلك ماهر. حتى ولو تطلّب الأمر أن أعطيه ألف ريال مقابل تدليكٍ لا يتجاوز الثلاثين دقيقة فلن أتردد في ذلك!

- هل تريدُ منّي الاتصال على أحد الأندية الصحيّة وأن أطلبَ منهم إحضار أخصائي علاج طبيعي؟

- أوه كلا كلا، لا داعي لذلك.

وسكتَ قليلاً قبل أن يُردف قائلاً:

- أريدُ منكَ فقط أن تُدلك كتفيّ وظهري إنْ لم يكن لديك مانع.

شعرتُ بالغضب والاستياء؛ فكوني سكرتيراً له لا يعني مُطلقاً أنني بِتُّ خادماً لديه! ولمّا رأى تمعّر وجهي استدرك قائلاً:

- إنني أعاملك كابنٍ لي تماماً، وهذا ما اعتدتُ طلبه من ابني، وصدقني لن يزيد الأمر عن دقيقتين أو ثلاث. وسأتيحُ لك أن تغادر الشركة قبل الموعد المُفترض بساعتين جزاءً لك.

لم أشأ أن أتسبب بمشاكل بيني وبينه، وفضلتُ الانصياع لرغبته؛ فعلى أية حال هو يراني كابنه تماماً كما أنه غمرني بإحسانه منذ أن التقيتُ به، فوافقتُ على مضض. وقد انقلبَ على بطنه وأصبحَ ظهره مواجهاً لي. وبدأتُ بدعكِ وتدليكِ أرطال الشحوم المتدلية من كتفيه

Twitter: @ketab_n

وظهره وأنا أشعر بالاشمئزاز، وإحساسٌ بالندم يخالطني بأنْ قبلتُ أن أصبح مُديراً لمكتبه! وبعد دقيقة واحدة بدأ يُطلقُ الآهات، فتوقفتُ على الفور بعد أن رأيتُ بأنّه بات يُبالغُ كثيراً. ولم أكد أنْ أتوقف حتى التفت بوجهه إليّ واقتربَ مني وبدأ يتلمس جسدي بطريقةٍ مُنحرفة فانتفضتُ واقفاً ونظرتُ إليه باستنكارٍ بالغ وخرجتُ من مكتبه على الفور من دون أن أتكلم!

كنتُ أشعر بالإهانة الكبيرة، وبأنّ كرامتي ورجولتي بدأ يُدنسّها هذا المُنحرف. وبدأتْ الصورة تتضح أمامي؛ فكرمه البالغ، ولطفه الجم، وتساهله مع غيابي كانت تقف خلفه رغباته الدنيئة وشهوته المُنحطة. وشعرتُ بأنني كنتُ غبياً وبليداً حينَ قبلتً هذه الترقية التي جعلته يتمادى في أفعاله ويتجاوز كل الخطوط الحمراء. لقد بلغ السيلُ الزُبى، ولقد آنَ الأوان لأنْ أضع حداً لهذه المهزلة. لن أستمر في وظيفة أهين فيها نفسي، ولن أسمحَ لأيّ كان بأنّ يمس رجولتي وأن يُدنّس شرفي.

عدتُ إلى مكتبه وفتحتُ الباب من دونِ أن أطرقه هذه المرة. وكان قد عاد للجلوس على كُرسيه وأخذ ينظرُ إليّ بجمودٍ بالغ. وانفجرتُ في وجهه قائلاً:

- لن تراني بعد اليوم، ها أنا ذا أقدم استقالتي من هذه الوظيفة النتنة، وأسألُ الله أن يحمي من سيخلفني فيها من شرك وشذوذك!

ابتسمَ بطريقةٍ مُخيفة وقالَ بصوتٍ هادئ:

Twitter: @ketab_n

- إنْ فكرتَ أن تغادر هذه الشركة فسوف تندم طيلة عمرك!

أحسستُ بقشعريرة تسري في جسدي:

- ما الذي تقصد؟!

- ما أقصده هو بأنّني أخشى بأنّه لم يعد أمامك خياراتٌ كثيرة.

ومن ثم وقف وأكمل حديثه بنبرةٍ تهديدية:

- إنْ غادرتَ شركتي فلن تغادرها إلا إلى السجن! أتظنُ بأنني مغفل وأحمق! لقد تحريّت وتقصيت عنك، وبحثت في مستنداتك وفي أرشيفك. كل أوراقك مزوّرة، ولا يوجدُ منها أي شيء صحيح، ولديّ ملفٌ كاملٌ عنك سأرسله إلى الشرطة في اللحظةِ التي تُفكر فيها بترك الشركة!

شعرتُ بأنني وسط حلم مخيف، وكابوسٍ مُرعب. وأدركتُ بأنّ موقفي باتَ ضعيفاً جداً، ولم أعد أستطيع التماسك أكثر، وقلتُ بنبرةٍ استعطافية مُنكسرة:

- ولكن لماذا تُرغمني على البقاءِ في الشركة طالما أنني لا أريدُ ذلك؟ ماذا ستستفيد؟!

ابتسم بخبث:

- هل تظن بأنني أغدقتُ عليك كرمي الوفير هكذا بلا مقابل؟!

Twitter: @ketab_n

كل ما منحته إياك يجبُ عليك أن تكافئني عليه وأن ترد جمائلي كلها. ومن ثم سكت قليلاً وبدأ يُقلّب عينيه و يُطالعني من رأسي إلى أخمص قدمي:

- لن تكونَ مهمتك صعبة؛ كل ماعليك هو أن تأتي إلى مكتبي حينما أطلبك، وأن تنفذ كل ما أريده، أو لنقل أن لا تعترض على ماسوف أفعله، لأنّني بصراحة لا أحتاج منك في الوقتِ الراهن إلا إلى ذلك!

شعرتُ بأنّ قدميَّ لم تعودا قادرتين على حملي، وبأنني أوشكُ على الانهيار. كان شعوري مزيجاً من الضعف والصدمة والخوف والذل. وأكملَ حديثه قائلاً:

- إمّا السجن؛ لأنّك مجرمٌ ومُزوّر. وإمّا أن تعيش حياةً راقيةً هنا بهذا الراتب الكبير الذي تستلمه وتحت هذه الأعطيات التي لا أبخل عليكَ بها. والثمن الذي ستضطر إلى أنْ تدفعه بالمقابل لا يُعد شيئاً كبيراً. أليس كذلك؟

اسوّدت الدنيا في عينيّ، وفقدتُ الرغبة في الحياة. كنتُ أنظر إليه باشمئزازٍ واحتقار. فهو قد بدأ يساومني على شرفي. فإمّا حريّتي وسُمعتي؛ والتي سيترتب عليها حرماني من زوجتي وابني وحفيدي. وإمّا ديني وأخلاقي وشرفي.

خرجتُ من مكتبه من دونِ أن أقولَ كلمة واحدة، وقبل أن أغلق الباب صرخَ بصوتٍ عالي:

Twitter: @ketab_n

- سأعطيكَ مهلة إلى يوم الأربعاء لتفكر بالأمر. إمّا السجن واما أن نستمتع سوياً!

دخلتُ شقة أبرار، ورميتُ بنفسي على السرير، وانفجرتُ باكياً.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قد كان لي قلبٌ يعيشُ الحب طفلاً

مثله مثل البشر..!

قد كان لي أملٌ تبعثرَ في الليالي

و انـدثـــــر..!

قـد كان لي عمـرٌ ككل الـناسِ

ثم مضى العمر..!

«فاروق جويدة»

Twitter: @ketab_n

- لقد صنعتُ لك كأساً من عصير الليمون، لا تقل لي بأنّك ترفضُ شربه أيضاً!

قالتها أبرار وهي تُزيح غطاء السرير الذي كنتُ مُتخفيّاً تحته. ومن ثم ناولتني كأسِ العصير، وجلستْ بجانبي. بدأتُ في شربه على مضض؛ إذْ أنني لم أكن أشتهي تناول أي شيء وكل ماكنتُ أريده هو بعض الوقت من الانفراد والخلوة مع نفسي. كنتُ في حاجة ماسّة إلى التفكير بهذه الطامة التي نزلت بي وهذه الكارثة التي حلّت عليّ من دون أنْ أحتسب! لم يكن يخطر لي ببال بأنني سأعيش وسيمتد بي العمر إلى أن أرى رجلاً، مثلي، يُراودني عن نفسي. ولم أكن أتخيل مُطلقاً بأنّه سيمُر عليّ زمان أخشى فيه على نفسي من الوحوش التي تجردت من أخلاقها وتعرّت من قيمها وماتت ضمائرها وباتت تركض لاهفة لإشباع غرائزها الشاذة ونزواتها المُنحرفة.

حقًا، لم أكن أرقبُ زماناً يُصبح فيه الذكر مُتوجساً من أقرانه الذكور، يظن فيهم شتى الظنون كما لو كان فتاةً عذراء مُخبّأة! ولم يكن ألمي الغائر نتاجَ وقوفي على هذه الحقيقة فقط، بل وكان أيضاً لإداركي -المتأخر- للحقيقة الكامنة وللأجندة الخفيّة التي كانت تقف خلف كرم نزار المنهمر ولطفه الجم؛ والذي ظننته -بسذاجة مني- نابعا من حب أخوي أصيل، لم يعد له وجودٌ في زمننا هذا! لم يُخبرني أحدٌ من قبلٍ بأن لا أثق في مَن يُحسن إليّ! ولم يُبلغني شخص أبداً بأن أبقى مُتيقظاً وحذراً ومُرتاباً في كل من يمد لي يد العون، وفي كل من يغمرني بإحسانه! كنتُ أظنّ أنّ في الناس مَن هُم مثل مازن؛ على استعدادٍ تام

Twitter: @ketab_n

للوقوف بجانبك وإعانتك وتقديم المنح والهبات بدون مقابل، وحسْبُهم في ذلك، تلك الأخوة الصافية وذلك الحب الطاهر والصداقة الوفيّة. ولكنّني كنتُ واهماً وساذجًا، ومِن مَأمَني لُدغت!

لهانتْ هذه المحنة لو كانت عابرة، ولأصبح الوقتُ وحده كفيلاً بإزالة الشوائب التي علقت فيَّ مِن إثرها. ولكنّها كانت مُستمّرةً باقية، خُيّرت فيها بين عارين وفضيحتين. الأولى، السجن وهتك الأستار وكشف أرشيف الماضي المُعقد المُخزي مُضافاً إليه التخلي والابتعاد، إلى وقتٍ غير معلوم، عن تلك الإنسانة الوحيدة التي أحببتها وأحبتني، وقبلتْ بي على علاتي، ورضيتْ بي على عيوبي، ووفرت لي ذلك الحضن الدافئ، وقدّمت لي نبع حنانها الذي لا ينضب. ولن تكون هي الوحيدة التي سأخذلها وأتركها ورائي بل وكذلك ابني عبدالمحسن وحفيدي هشام، اللذيْن رأيتُهما وبِتُّ قريباً منهما بعد أن ظننتُ كل الظنّ أن لا تلاقيا!

والخيار الآخر، والفضيحة الثانية، ليست بأقل شدة وأخف وطأة من أختها إنْ لم تكن أدهى وأمرّ! فحينما أقبلُ التخلي عن رجولتي وأرضى بتدنيس شرفي وتلطيخ سمعتي فلن أكونُ قد أفسدتُ دنياي فحسب بل وديني أيضاً! رضوخي لتهديده وابتزازه سيعني بأنّني قد سقطتُ في وحلٍ سأعلقُ فيه أبداً، وحتى وإنْ نجحتُ -بطريقة ما- في التحرر منه، فبالتأكيد لن أخرج بمثلِ الحال التي كنتُ عليها قبل الدخول. وسأظلُ دوماً كسيراً حسيراً، حاضر الجسد غائب الروح، يعيشُ رهينة لتلكم اللحظات المُذلة، يسترجع تفاصيلها الأليمة مع كل

Twitter: @ketab_n

ابتسامة عابرة، ومع كل ضحكة غادية، كما لو كان يُعاقب نفسه على شعورها بنزرٍ يسيرٍ من السعادة الناقصة والفرحة الواهية بعد أن رضيتْ بالانحطاط وبعد أن قبِلتْ بالمهانة.

في مثل سني هذا أنا أحوجُ ما أكون إلى التقدير والاحترام. هذا النوع من الإجلال والهيبة الذي ظللتُ مُفتقداً له طيلة حياتي. مَن يكترث لفتىً مُراهق؟ ومن يعبأ بشابٍ يافع؟ ومن يحفل بأمر غلامٍ غِرٍ؟ لقد يئست من أن أحظى يوماً بمثل الاحترام الذي ينعمُ به مَن هُم في عُمري. ولقد فقدتُ الأمل في أن أهنأ بالتقدير الذي يلمسهُ كبار السن أمثالي. لقد اعتدتُ على تلك الحال وألفتها ولم تعد تزعجني كثيراً كما في السابق. لكن مالم أره قادماً، ومالم أظن أني ألاقيه هو استغلالي وابتزازي ومحاولة ليّ ذراعي من أجل ولوج هذا العالم المُنحط بعد أن بلغتُ من الكِبر عتيّا! فالمرء يصعبُ عليه أن يحتمل طعنات الأعداء على كبر! ويشق عليه أن يشفى ويَبِلَّ منها بعد أن بات هرماً طاعناً.

لم تكن أبرار تعلمُ عن ما حصل لي في هذا اليوم، ولم أكن أنوي إخبارها؛ فأنا لم أتزوجها لأكون الطرف الأضعف والحلقة الأوهى، ولا أريدُ لرجولتي أن تُنتقص أمامها ولا لصورتي أن تهتز لديها. وعلى الرغم من أنني سعيتُ جاهداً لكي أبدو على طبيعتي إلا أنّها شعرتْ بحدوث خطبٍ ما. وقد تعللتُ، بعد أن سألتني، بأنني أشعرُ بصداعٍ خفيفٍ وبخمولٍ وخدر وبأنّها قد تكون بوادر حُمى أو عدوى التقطتهاً من هنا أو هناك. وهكذا بقيتُ في فراشي وأبيتُ أن أتناول العشاء تحت ذريعة فقداني للشهية، واكتفيتُ أخيراً بكأس العصير من دونِ

Twitter: @ketab_n

أن أغادر السرير.

وقد طلبتْ مني أبرار أن نذهب سوياً إلى المستشفى، وأكدتْ لي بأنّ القضاء على المرض دائماً يكونُ أسهل حينما نُسارع في المبادرة بعلاجه. وقد عرضتْ عليّ، بعد أن أخبرتها بأنّ ما أحتاجه فعلاً هو الراحة فقط، أن تمكث معي ولا تبارح خطوة واحدة بعيداً عني وأنْ تتغيب عن الذهاب إلى العيادة. وقد رفضتُ عرضها هذا، فوجودها سيكون عبئاً عليّ، وآخر ما أحتاجه الآن هو أن تنهمر عليّ بالأسئلة وتكتشف بأنّ المشكلة أكبر وأكثر تعقيداً من أن تكون مُجرد وعكةٍ صحيةٍ عابرة.

لم يغمض لي جفنٌ، ولم يهنأ لي بال، وظللتُ أتقلبُ على الفراش وأقلبُ الأمر وأضربُ أخماساً بأسداس. كنتُ مُغمض العينين، مُتظاهراً بالنوم، في وقتٍ كان أبعد مايكون عني؛ فكيف لي أن أنام وحياتي باتت على المحك، فإمّا الحريّة وإما العِرض! كانت أبرار ترقدُ بجانبي على السرير وعلى الرغم من ادّعائي وتظاهري بالنوم فقدْ ساورني شعورٌ بأنّها تعلمُ بأنّي مازلتُ واعياً وبأنّ هناك أمرا وشاغلا سهّدني وحرمني لذيذ الكرى.

غادرتْ أبرار في اليوم التالي للعيادة وهي مترددة ومُتشككة بعد أن رضخت لضغوطي واستجابتْ لإلحاحي. فقد أعدتُ التأكيد لها بأنّ بقاءها لن يصنع أي فارق، كما أعلمتها بأنني أشعرُ بأنني أفضل حالاً عن اليوم السابق. وقبل أن تخرج طلبتْ مني أن أتصل عليها فوراً عند

Twitter: @ketab_n

حدوثِ أي طارئ ما، وأبلغتني بأنّها ستتصل عليّ كل ساعة للتأكد من صحتي وللاطمئنان على حالي.

- كلّ ساعة! ألا تشعرين بأنّكِ تبالغين بعض الشيء؟!

قلتها لأبرار وأنا أهم بإغلاقِ باب الشقة قبل أن ترمقني بنظرة لومٍ وعتاب:

- في الواقع أشعر بتأنيب الضمير لأنني سأتركك وأنت على هذه الحال! وأقل ما أفعله هو الاتصال بك.

اكتفيتُ بابتسامةٍ زائفة كانتْ تُخفي وراءها تعاسةً بالغة. وأردفتْ أبرار قائلة بنبرة تهديدٍ ووعيد:

- وفيما لو لم تردَّ على اتصالاتي فسوف أغادر العيادة وأعود لك مباشرة وسأظل جاثمة على صدرك إلى أن تعودُ إلى ماكنتَ عليه!

وابتسمتْ ورحلتْ، ولم ترحل غمامة الهمّ والغمّ، ولم تجاوزني قيد أنملة!

****

Twitter: @ketab_n

كان رأسي يُوشك على الانفجار، وكان جسمي على شفير الانهيار. لم يبقَ حلٌّ من الحلولِ لم أطرقه، ولا مخرجٌ من المخارج لم أطرحه، ولا بابٌ من الأبواب لم أفتحه. ولكن كانت جميع الحلول عاجزة وكل المخارج مُغلقة وشتى الأبواب موصدة. كانت هذه المصيبة قد أنشبت أظفارها فيّ كما يُنشب الوحش أنيابه ومخالبه بفريسته التي لا حول لها ولا قوة. وكنتُ عالقاً في وحلها وغريقاً في بحرها أبحث عن عُودٍ أو حتى قشةٍ قد يجلبها الموج لأتشبث بها بكل ما أوتيتُ من قوة.

حينَ بدأتُ أتذوق السعادة وأخذتُ أرتشفُ منها، ارتشاف الهائم التائه الظمآن الذي أوشك على الهلاك، لم أكد أدخل النزر القليل منها في جوفي حتى رفضتْ معدتي أن تقبل هذا الكائن الغريب وهذا الزائر المُنكر الذي لم تعتده ولم تألفه وأبتْ إلا أن تُخرجه من جوفها وأن تلفظه بعيداً عنها. في غمرة سروري وحبوري، وبعد أن ظننتُ بأنّ لا شيء في الدنيا قد يُعكّر عليّ صفو حياتي، أو يُعيد إليّ دوامة الهم والحزن، إذا بي أُفجع بمحنة أيقظتني من غفلتي وأخذتني من سُباتي وأعادتني إلى حالي التي لم آلفْ حالاً غيرها!

تذكرتُ في هذه اللحظات رفيق دربي مازن. كانت مشكلاتي أسهل بكثير ومهما صعبت تبدو هيّنة في وجوده. كان جبلاً أتكئ عليه كلما ادلهمَ الظلام واشتدّ السواد. كان عوني وملاذي بعد الله. كان مَن يُخفف عني، ويلازمني، ويدافع عني، ويحميني –حتى من نفسي– ! كان لا يدعني أسيرُ وحدي في الطريق، ولا يرضى بأنْ يراني حائراً هزيلاً لا حول له ولا قوة. ماذا كنتَ ستفعل لو أنك حيٌّ يامازن؟

Twitter: @ketab_n

أخي مازن، لم أعدّ أقوى أن أشق دربي وسط هذه الغابة المتشابكة، ولم أعد أستطيع أن أذلل عقبات هذه الطريق الوعرة. لقد بِتُّ معدوم الخيارات يامازن، ولم تعد أمامي أي حلول، وأوشكت قواي على الخور، وقاربت همّتي على الوفاة، وثار جسمي على عقلي، وطالبتْني أعضائي بالإذعان والاستسلام!

****

Twitter: @ketab_n

مضى يومان لم أزلّ أتظاهر فيهما بالمرض، وأدّعي السقم لكي أتجنب أسئلة أبرار وأنجو من شكوكها وأسلم من ارتيابها. ماذنبُ هذه المسكينة؟ وما هو جرمها كي أقحمها في مشكلاتي وأجر عليها مصائبي؟ ألم يكف ماسببّته من آلام لغيري، وما خلفّته من ويلات عليهم؟! لقد قطعتُ عهداً على نفسي بأنّ أتولى أنا حلَّ هذه المشكلة وأن لا أجعلَ أبرار تعلم بها لا من قريبٍ ولا من بعيد.

كنا نجلس أمام التلفاز بعد أن فرغنا من تناول العشاء، حيثُ أجبرت نفسي وأكرهتها على أن تأخذ لقيماتٍ يُقمن الصلب، وتجعل من أبرار تغض الطرفَ قليلاً عن هذه الحالً التي أمسيتُ عليها بين غمضة عينٍ وانتباهاتها. قامتْ بسكب الشاي من الإبريق، و أعطتني الكوب وهي تقول:

- شُرب الشاي سيكون أنفع لك الآن من أخذ العقاقير الطبية.

تذكرتُ على الفور مقولة مازن لي «الشاي كفيلٌ بحل أي مشكلةً تواجهها» وتمنيتُ لو أنّ مقولته هذه كانت صحيحة؛ فحينها لن يُعكّر صفو حياتنا ولن يقض مضاجعنا أي هم أو غم. ابتسمتُ بحسرةٍ على أنغام هذه الذكرى في الوقت الذي لم ألاحظ فيه بأنّ أبرار كانت تتحدثُ معي. وحينَ انتبهتً وجدتُها تنظرُ إليّ بخيبة أمل:

- طبعاً لم تسمع كلمة واحدة مما أقول؟!

- أنا آسف ولكنني...

Twitter: @ketab_n

وقاطعتني أبرار بنبرةٍ غاضبة:

- ما الذي دهاكَ يا أحمد؟! منذ يومين وأنا أشعرُ بأنني مع إنسانٍ آخر تماماً! إنَّ الأمر لا يتعلق بك أنت وحدك، بل هو يتعلقُ بيَ أيضاً. إنني أحترق من الداخل، وأتجرع الغصص والآهات وأنا أراكَ وأنتَ على هذه الحال!

كنتُ أنظرُ إلى الأرض من دونِ أنْ أتكلم، وأكملتْ أبرار حديثها ولكن بنبرةٍ حانيةٍ أكثر هذه المرة:

- بإمكانك أن تُخبرني بالحقيقة، وأنْ تبوحَ لي بالقلق الذي يساورك. فأنا لستُ طبيبةً نفسيةً فحسب بل وزوجتك أيضاً!

كان حديثها مؤلماً لي؛ فهي مُحقةٌ فيما تقول. وأنا لا ألومها؛ فهي لم تكد تهنأ بهذا الزواج وتسعدُ به حتى وجدتني مُنغلقاً ومنزوياً على نفسي بعد مرورٍ أسبوع واحد فقط! ولابُد من أنها الآن تظنُّ بأنّها قد تسرعت في الزواج بمراهقٍ ذي مزاجٍ مُتقلب وفي حالةٍ عقلية مُشوّشة! كان لابُد لي من تهدئتها وطمأنتها وإيصالِ إجابةٍ مُقنعةٍ لها:

- لقد تواصلتُ منذُ فترة مع المقرّبين من المزوّر السابق الذي كنتُ أعرفه. وقد تمكنت، بعد عملية شاقة من البحث والتقصي، من الوصول إلى مزوّرٍ مُحترف يُجيد عملَ الجوازات المُزيّفة بإتقانٍ شديد يكاد يكونُ من المُحال معه اكتشاف عدم صحتها.

كانتْ أبرار تستمعُ باهتمامٍ شديد وقد تهللتُ أساريرُ وجهها

Twitter: @ketab_n

فرحاً:

- أمرٌ رائع، من الجيّد أنّك بحثت موضوع الجواز قبل وقت كافٍ، فحتى ولو لم يخترك هشام فكما وعدتُك سنذهب سوياً إلى هولندا.

وابتسمتْ، قبل أن تستدرك بنبرةٍ جادة:

- ولكن ماهي المشكلة الآن؟!

- المُشكلة هي بأنّني مازلتُ أنتظر منذُ أسبوعين، وقد وعدني المُزوّر بأنّ إنجاز الجواز لن يستغرق أكثر من عشرةِ أيام، ولهذا بدأ ينتابني القلق وبِتُّ أخشى من كوني قد وقعتُ ضحية احتيال!

- هل دفعتَ له مُقدماً؟

- نعم.

- أرجو أن لا يكون المبلغُ كبيراً..!

- عشرة آلافِ ريال، وتبقى مثلها عندما أتسلّمه!

ارتفع حاجبا أبرار في دهشة، واتسعت عيناها، وراحت تنظرُ باستغرابٍ بالغ:

- عشرون ألف ريال من أجل جوازٍ واحد!

- أعلمُ بأنّه مبلغٌ كبير؛ ولكن خبرتي الطويلة في هذا المجال

Twitter: @ketab_n

تجعلني لا أكترث للتكلفة عندما يكون التزويرُ مُتقناً بدرجةٍ كبيرة. فالمزورون الهواة والذين يرضون بمبالغ أقل هم كُثر.

هزّت أبرار رأسها وبدأتْ بالنظر –بحركةٍ لا إرادية– إلى أصابع يديها كما لو كانت تتفقدهم خشيةً من هروبِ أحدٍ منهم، ومن ثم قالتْ:

- هل يوجد معك رقمُ المزوّر؟ هل حاولتَ الاتصال به؟

- نعم، لقد اتصلتُ به. ولقد أبلغني بأنّ هناك بعض المشكلات التي واجهته والتي أخرّت إنجازه للعمل في الوقت المُحدد.

- ألم يُخبرك متى سيفرغُ منه إذاً؟

- بلى، لقد أكد لي بأنّه خلال يومين كحدٍ أقصى سيكون جاهزاً للاستلام.

وفي الواقع لم أختلق هذا الأمر، فقد كانت تلك حقيقةٌ محضة. غير أنني لم أكن دقيقاً جداً في سردها؛ فالمزوّر قد أبلغني عن أنّه أتم صنع الجواز، وأنا مَن قال بأنني سآخذه منه خلال يومين. وبطبيعة الحال، لم تكن هذه هي القضية التي تشغلني على الإطلاق!

****

Twitter: @ketab_n

كانتْ أبرار قد ذهبت إلى العيادة منذ ساعتين. وكنتُ أجلسُ وحيداً في الشقة، وقد أخذتْ بي الأفكار كل مأخذ، وذهبتْ بي الوساوس كل مذهب. وعلى الرغم من عجزي عن النوم، إلا أنني كنتُ أقضي وقتاً طويلاً مُستلقياً على السرير ومتشبثاً بالغطاء والوسادة، كما لو كانا سيمنعان المتربصين مني، وكما لو كانا جنديين مخلصين سيذودان عني حتى الموت! كان اليوم هو الثلاثاء، وكنتُ أزدادُ ضعفاً وهوناً وشحوباً يوماً بعد يوم. وقد قطع خيالي وكسر حاجز السكون رنين جوالي، ولولا أنْ كان المُتصل هو حفيدي المُدلل والذي ليس بمقدوري أن أرفض له طلبا لما رددتُ أبداً. وقد حيّاني بحرارة بصوته المُفعم بالحيوية قبل أن يتساءل باستغراب:

- لم أعد أراك في العيادة منذ أسبوعين تقريباً! هل حدثت لك مُشكلة؟!

- كلا، أبداً. ولكنني تحسنتُ كثيراً ولم أعد بحاجةٍ إلى زيارة الطبيب.

- رائع! أنا أيضاً أصبحت حالي أفضل من ذي قبل، وقد تطورت قدرتي على التركيز كثيراً.

- أخبارٌ سارة.

قلتها بابتسامةٍ سعيدة، رغم كل شيء! ففي شاطئ الحزن، لا يجدر بك منع الابتسامة من الرسو بين وجنتيك. وقد صمتَ هشام لبعض الوقت قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- هل أستطيع أن أراك اليوم يا أحمد؟

- أتمنى ذلك فعلاً، ولكن أخشى بأنني لا أستطيع في الوقت الراهن.

- ولكن أرجوك، إنّه أمرٌ هام ولا يقبل التأخير.

لم أكن أشعرُ برغبة في أن أبرح من السرير فضلاً عن أن أغادر الشقة، ولكن وبعد أن لمستُ الجدية من حفيدي وبعد استجدائه لي، فمن العارِ أنْ أرده خائباً:

- حسناً لا مُشكلة. ولكن متى؟

- كنتُ أعلم ذلك! شكراً جزيلاً لك ياصديقي.

- لقد نسيتَ أن تخبرني متى؟!

- أوه صحيح! حسناً الساعة الآن الرابعة عصراً، إذا استطعتَ أن تأتيني قبل الخامسة فافعل، ليكون لدينا مُتسع من الوقت قبل الساعة السابعة؛ وهو الوقت الذي يجب أن أكونَ فيه في المنزل.

خرجتُ من الشقة وركبتُ سيارتي وتوجهتُ إلى بيت هشام. كنتُ قد اتصلتُ على أبرار وأخبرتها بأنّني خرجت لملاقاته وبأنّني لن أتأخر. وفي هذه المرة لم أحاول محاكاة هشام وأصدقائه واكتفيتُ بارتداء ثوبي المعتاد؛ فحالتي النفسية لم تكن تسمح لي بالاستمرار في تأدية هذا الدور. وحين وصلتُ كان هشام بانتظاري؛ حيث خرج

Twitter: @ketab_n

فورَ أن اتصلتُ عليه. وشعرتُ بأنّ هناك شيئًا قد اختلف فيه، ولم يكد يفتح الباب ويجلس بجانبي حتى علمتُ فوراً بأنّه قد قصّ شعره؛ إذْ أنّه كان قصيراً جداً وقد بات الآن شبيهاً بشعري، ولم أميّز ملامح وجهه بوضوح إلا الآن. كان يبدو أصغر سناً، وأكثر براءةً، وقد أضاء وجهه بطريقة لم أعهدها من قبل، وكما لو كان شمسًا تضيء الكون، أو قمرًا يُنير العُتمة.

أخذنا نتجول بالسيارة قليلاً، قبل أن نتوقف عند أحد الأرصفة ونبدأ في شرب عُلبتيّ العصير اللتيْن اشتريناهما للتو. كان هشام يشربُ عصير الفواكه المشكلة وهو يتحدث بحماسةٍ كبيرة عن مباراة كرة القدم التي لعبها فصله ضد فصلٍ آخر يكبرهم سناً في دوري المدرسة. وراحَ يُحدثني عن تفاصيلها وعن كونهم قد لقنوا فريق هذا الفصل درساً لن ينسوه في فنون الكرة. وفي غمرة اندفاعه وكلامه قاطعته بنبرةٍ هادئة:

- هشام اسمعني جيداً.

توقف عن الحديث وأخذ ينظرُ إليّ بذهول وهو مُتعجبٌ من انقلابي المفاجئ ومن نبرتي الجادة. وواصلتُ قائلاً:

- قد يُصادفك يوماً شخصٌ يُكرمك ويُحسن إليك بلا حساب. وقد يُلاقيك شخصٌ يبتسم إليك ويضحك معك بلا كُلفة. عليك أن تكونَ حذراً و واعياً وأن لا تدع أي إنسان يستغفلك ويستدرجك. لا تكن ساذجاً يا هشام، لا تدعهم يخدعونك، ولا تسمح لهم بأن ينالوا منك

Twitter: @ketab_n

على حين غرة. لا تأمن هؤلاء ولا تركن لهم، وأبقِ عينيك مفتوحتين، ولا تغفُ ولو للحظةٍ واحدة! لا تدعهم يخدعونك، لا تدعهم يخدعونك...

لم أستطع منع نفسي من ذرف الدموع، ولم أتمالك نفسي من أن أبكي بكاءَ الأطفال، في الوقتِ الذي أخذَ ينظرُ فيه هشام إليّ بدهشةٍ كبيرة، وبتعاطفٍ وتأثر. خيّم الصمتُ على السيارة، وكان هشام ينظر من نافذة الراكب اليُمنى بوجوم. أنا واثقٌ من أنّه لم يعرف مقصودي وبأنّه لم يفهم بُغيتي، ولكن حسبي أنّه سيعلم يوماً ما كنتُ أعنيه، وسيدرك حيناً ما كنتُ أشيرُ إليه.

كنتُ واقفاً أمام بيتهم وقبل أن ينزل هشام من السيارّة قال من دونِ أن ينظر إليّ؛ إذْ أنّه بدا خجلاً مني بعد أنْ بكيتُ أمامه كما لو كان هو المُتسبب في ذلك:

- ما أردتُ أن أقوله لك اليوم، هو بأنّه قد سمح لي والداي بإحضارِ صديقٍ معي في رحلة سفرنا. ولأنني أشعرُ براحةٍ كبيرة وبسعادةٍ عارمةٍ حينما أكون برفقتك؛ فسيسرني كثيراً أن توافق على مُصاحبتي إلى هولندا..

لم أصدق ما سمعتُ، وشعرتُ بأنني في حلم جميل لا أريد الاستيقاظ منه. وأحسستُ أخيراً بأنني تمكنتُ من تحقيق طموحاتي ومن بلوغ أمنياتي. نعم، لقد أنجزتُ المهمة المستحيلة، ولقد حققت الغاية البعيدة. وسأنعم أخيراً بالقرب من أسرتي وأبنائي. وسأصبحُ فرداً منهم، و جزءاً لا يتجزأ من كيانهم، ولو لفترةٍ وجيزة. كان هذا

Twitter: @ketab_n

الخبرُ المفاجئ الذي زفه إليّ حفيدي العزيز بمثابة الماء البارد الذي غسل أدران وأحزان قلبي وروحي. وكانت هذه الكلمات الرحبة أشبه بوابلٍ من مطر أحيا الأرض بعد موتها وأعاد لها خضرتها ورونقها. ولم أتمالك نفسي وترجلتُ من السيارة وعانقته عناقاً حارّاً.

عدتُ إلى الشقة وما إنْ فتحتُ الباب حتى وجدتُ أبرار أمامي وهي تنظر بارتياحٍ بالغ وقالت وهي تتنفس الصعداء:

- حمداً لله؛ لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟! لقد كنتُ قلقةً جداً عليك!

كانت الساعة هي العاشرة مساءً وعلى الرغم من أنّني اتصلتُ على أبرار وأبلغتها عن تأخري إلا أنها لم تستطع أن تطرد مشاعر الخوف والقلق بعيداً عنها. وقد يكونُ سبب ذلك هو أنني لم أبح لها بحقيقة الأمر؛ حيث أنني أردتها أن تكون مفاجأة لها. وكنتُ أحملُ في يدي مظروفاً بُنيّ اللون وحين جلستُ في غرفة المعيشة فتحته وأخرجتُ منه جوازاً أخضر اللون وأعطيته لأبرار التي أخذتْ تنظرُ إليه نظرةً كانت مزيجاً من الفرح والاستغراب. وقبل أن تتحدثْ قلتُ فوراً:

- لقد طلبَ مني هشام اليوم أن أرافقهم في رحلة سفرهم إلى هولندا.

كان وجهي يتهللُ فرحاً، وكانت السعادةُ تلقي بظلالها عليّ، فما أجمل أن تجد أخيراً نتيجة تعبك وأن تأنس بتحقيق ما كافحت من

Twitter: @ketab_n

أجله، وأن تنعم برؤية الحصاد الذي عانيت في زرعه. وقد بدتْ أبرار في غاية السرور والحبور بعدَ أنْ سمعتْ هذا الخبر، حيث قفزت في الهواء وراحت تُردد:

- لقد علمتُ ذلك، لقد علمتُ ذلك... رائع، رائع... أنت تستحقُ ذلك يا أحمد.

وللمرة الأولى، لمحتُ جانباً من شخصية أبرار لم أقف عليه من قبل. لقد رأيتُ ذلك الوجه الطفولي البريء وتلك الفرحة الصبيانية التلقائية. وراحتْ أبرار تقول بحماسةٍ شديدة وعيناها تلمعان، والابتسامة لا تفارق طلعتها:

- علينا أن نحتفل سوياً اليوم بهذه المناسبة السعيدة!

قضينا ليلة سعيدة، وأمضينا وقتاً رائعاً حميمياً. وكان ذلك اليوم هو اليوم الأجمل في حياتي. وشعرتُ فيه بفرحةٍ عارمة لم أذقها ولم أعايشها من قبل. كانتْ ليلة خاليةً من كل تكدير ولم يُعكّر صفوها شيء أو هكذا ظننتْ إلى أن جاءتني رسالة نصية على جوالي في الساعة الثالثة فجراً:

«إنْ لم تأتِ إلى مكتبي اليوم فسأبلغ الشرطة عنك!»

****

Twitter: @ketab_n

كنتُ أقدمُ قدماً وأؤخرُ أختها، وكنتُ أتشجع تارة وأتقهقهر أخرى. لم أكن واثقًا حيال خطوتي هذه، ولم أكن مُتأكداً من جدواها. ولكن ما كنتُ موقنًا به هو بأنّ عليّ المحاولة، وعليّ كشف جميع الأوراق. ولا يوجد ما أخسره؛ ففي كل الأحوال لم تعد لدي خيارات وحلول بديلة تُذكر.

طرقتُ الباب ودخلتُ بعد أن أُذن لي، وعندما رآني المدير «نزار هاشم» انفرجت أسارير وجهه ونهض من على كرسيه وقال مُرحّباً وبنبرةٍ لا تخلو من سخرية:

- أهلاً وسهلاً بحبيبي! لقد كنتُ أعلمُ بأنّك ستتخذ القرار الصائب!

تجاهلتُ مقولته تلك وتقدمتُ قليلاً إلى أن أصبحتُ أمام طاولته تماماً، وقلتُ له:

- لقد جئتُك اليوم لأبوح لك بقصتي، ولأخبرك عن حقيقتي.

رمقني بنظرة شك، ومن ثم جلسَ على كرسيّه وأشار لي بالجلوس وقال بنبرةٍ لا مبالية:

- حسناً ماذا الآن؟

لم أجلسْ وقلتُ وأنا لا أزالُ واقفاً في مكاني بعد أن تنفستُ بعمق:

- أنا لستُ كما أبدو عليه! أعلمُ بأنّك تظن بأنّني تخرجتُ للتو من

Twitter: @ketab_n

الجامعة، وبأنني لم أزل في مُقتبل عمري. ولكن حقيقة الأمر، هي بأنّني لستُ في الثانية والعشرين من عمري، ولا في الثامنة عشرة، ولا حتى السادسة عشرة. أنا في الخامسة والستين؛ أي في سنّ والدك! وبسبب خللٍ هرموني توقف نموي عند هذه السن وعلى هذه الهيئة التي أبدو عليها. وتزويري للأوراق والمستندات؛ سببه أنّ هناك عصابة إجرامية لاحقتني قبل ثلاثين سنة وكادتْ أن تنالَ مني وأوشكتْ أن تظفر بي. وقد اضطررتُ إلى التخفي وتزوير الوثائق لتبدو ملائمة لمظهري لكيلا ألفتَ أنظارَ الناس من حولي. وأصبحتُ أتنقل بين الوظائف بشكلٍ مُستمر، وأتحولُ من مسكن إلى مسكن ومن حي إلى حي لذات السبب. هذه هي حقيقتي؛ أنا شيخٌ مُسن في جسد مراهقٍ يافع. إنّ ابني الآن هو في سنّ السابعة والثلاثين وحفيدي في السادسة عشرة من عمره، ونحن نزمع السفر سوياً هذا الصيف. وقد تزوجت حديثاً طبيبةً في الخامسة والثلاثين من عمرها وتصغرني بثلاثين عاماً.

صمتُّ قليلاً، ثم أغمضتُ عينيّ بعد أن استندت بيديّ على الطاولة وأنا مُطأطئ الرأس، وصوتي بدأ يتهدج وعيناي بدأتا تذرفان:

- أرجوك يا أستاذ نزار. أنا أثق في نبلك وفضيلتك، وأعلمُ بأنّك لن تحرمني من هؤلاء جميعاً. لقد عانيتُ في حياتي كثيراً ولقد قاسيتُ محناً لا حصر لها. والآن بدأت تلوح لي السعادة من بعيد. إنّ كل ما أرجوه منك يا ابني نزار هو أن تسمح لي بأنّ أستقيل وأترك الشركة. وأعاهدك بأنّني لن أعمل في أي مكانٍ آخر ولن أستخدمَ الوثائق المزوّرة أبداً!

كانت ملامحُ وجهِ «نزار» جامدة، وقد صمتَ لبعضِ الوقت قبل

Twitter: @ketab_n

أن يقول:

- تقول لي بأنّ عمرك خمس وستون سنة، أليس كذلك؟

- بلى، أنت مُحق يابُني.

- حسناً بما أننا الآن بدأنا جلسة المصارحة هذه، دعني أخبرك بحقيقتي أنا أيضاً.

- كلي آذان صاغية.

قلتها وأنا أشعرُ بأنّ هذه الخطوة قد آتت أكلها وبأنني لم أخطئ حينما قررتُ الاعتراف له. وقد زفر «نزار» زفرةً خِلتُ معها بأنّه سيُفشي سراً لم يزل مُترسباً في أحشائه منذ عشرات السنين!:

- أنا يا أحمد لستُ كما أبدو عليه! أنا لستُ في الثانية والأربعين من عمري. حقيقتي أنني قد بلغتُ القرن السابع الآن. عمري بالضبط سبع مائة وست وخمسون عاماً! لقد جئتُ من عصر الأندلس. نعم الأندلس وما أدراك ما الأندلس؟! أنا في غاية الشوقِ إليها. الأنهار الجارية والحدائق الغناء، والجواري. آهٍ ما أروع الجواري!

ومن ثم انفجرَ ضاحكاً، قبل أن يتجهم فجأة ويبدأ الشررُ في التطاير من عينيه ويصرخُ بغضب:

- أتظنني أبله أو معتوهاً حتى أصدق هذه القصة المُضحكة؟! ألم تستطع الإتيان بشيء أفضل من هذا؟! أتريدُ أن تُمرر حيلك وألاعيبك

Twitter: @ketab_n

القذرة عليّ؟! عليّ أنا؟!

ونهض وجاء ناحيتي بسرعةٍ كبيرة لم أظنه سيقدر عليها مع أرطال الشحوم التي تعلو جسمه، وانقض عليّ انقاضة النسر على فريسته. تجمدتُ في مكاني من الخوف ولم أعرف ماذا يجدرُ بي أنْ أفعل، ولم أكن أدري ماذا ينوي هو أن يفعل! وقف أمامي مُباشرة وراح ينظر باشمئزاز قبل أن يقول:

- أكنت تعتقد بأنّ مجرماً تافهاً مثلك سيخدع رجلاً عظيماً مثلي؟!

وأردف جملته تلك بصفعةٍ عنيفةٍ على خدي كدتُ معها أن أسقط أرضاً، ومن ثم أخذ بتلابيبي ورفعني حتى أصبحتُ موازياً له في طوله وقدماي تبعدان عن الأرض مسافةً ليست بالقصيرة. كان يُمسكني بإحكام، وكنتُ أوشك على الاختناق. وقال بحنقٍ بعد أن قرّب وجهي من وجهه:

- وتجرؤ أيضاً أن تناديني بلفظ «ابني»!

وأفلتني من يده حيث سقطتُ على الأرض، وأنا لا أكاد أقوى على الحركة. وذهبَ صوب الباب وأقفلهُ، ولم يُمهلني طويلاً، فعادَ على الفور وهوى بجسده الضخم عليّ. ولمّا أنْ حاولتُ إبعاده عني وجّه لي لكمةً خاطفة أسالت الدم من أنفي. خارت قواي، وانهارت مقاومتي. كان الألمُ لا يُحتمل، وكان ثقله الجاثم على صدري لا يُطاق. كنتُ

Twitter: @ketab_n

أتنفس بصعوبة، وكنتُ أشعر بالدوار و بالكاد أستطيع رؤيته. ولم يكن الألم الجسدي أخف وطأة من الألم النفسي؛ كنت أشعر بالذلة والمهانة وبالضعف والهوان، وكنتُ أتمنى لو أنني مِت قبل هذا وأصبحتُ في طيّ النسيان.

لم يؤثر بكائي ولا استعطافي ولا توسلي ولا حتى دمي السائل أي رحمةٍ ولم تُحرك أي مشاعر لدى هذا الوحش الهائج! كان مُندفعاً كالأعمى تماماً. قلبني على صدري، وهمَّ برفع ثوبي. وفي الوقت الذي بدأ فيه بإزاحة الثوب، لاح لي من الأسفل قلمٌ برز لي من فوق الطاولة. وقد تمكنتُ بجهدٍ جهيد من أخذه من دونِ أن يُلاحظ في غمرة انهماكه بإبعاد ثوبي. فنزعتُ غطاء القلم واستطعتُ الالتفات وسددتُ له ضربةً بُكل ما أوتيته من قوة بوجه القلم في جانب رقبته الأيسر. فأصابته الضربة في مقتل؛ حيث تفجر الدم بغزارة ووضع يده على رقبته من أجل إيقاف نزيف الدم الذي لم يزل ينهمر بشدة، وسقط على الأرض وهو يتخبط في دمه. كنتُ مصعوقاً مماحدث، وكنتُ مذهولاً مما أصابه. لم يكن يخطر لي ببال بأنّ ضربتي بدل أن تُبعده عني ستسبّبُ له جرحاً غائراً يشخب دماً مدراراً يقذفُ به إلى شفير الموت!

حاولتُ عبثاً ربط الجرح بالشماغ، وحاولتُ إسعافه بشتى الطرق من دون جدوى. بدأ يُغرغر ويتفوه بعبارات غير مفهومة، وقد قررتُ حينها الاتصال بالإسعاف وقبل أن أضغط زر الاتصال، سكنتْ حركته تماماً وتوقف عن الحركة، وأيقنتُ بأنّه قد فارق الحياة!

Twitter: @ketab_n

كان ساقطاً على ظهره على الأرض بلاحراك. وكنتُ جاثماً بجواره على ركبتيّ وأنا لا أكاد أصدق ما حدث! لم يكن هذا ما أريده، ولم تكن هذه نيتي، ولم أكن أريدُ أن أرتكب جريمةً بيديّ! لم أعد مزوّراً فحسب بل وأصبحتُ قاتلاً أيضاً! اسودّت الدنيا في ناظريّ وأيقنتُ بأنّي هالكٌ لا محالة، وبأنّ حياتي الفعلية قد انتهت منذ تلك اللحظة. سقطتُ بجانبه على الأرض والدمعُ قد تحجّر في عينيّ.

****

Twitter: @ketab_n

دخلتُ شقة أبرار وأنا في حالة صدمة وذهول. لم أكن مستوعبا لما حصل، ولم أكن مُدركاً لما جنته يداي! كنتُ أنوي تسليم نفسي للشرطة، ولكنّي فضلتُ أولاً أن أذهب إلى أبرار وأن أخبرها بالأمر وأودعها وداعاً لا لقاء بعده! كان منظري مُزرياً؛ فالخد مُتورم، والأنف مكسور، والدمُ يُغطي ثوبي. كنتُ أترنح في مشيتي؛ فالدوارُ والآلام قد نالتا مني.

كانت الساعة العاشرة صباحاً، وعملُ أبرار اليومي يبدأ في الواحدة ظهراً. وحين دخلتُ لم أجدها لا في غرفة المعيشة ولا في المطبخ، وأيقنتُ بأنّها في غرفة النوم. فتحتُ الباب وكما توقعت وجدتها مُستلقيةً على السرير وقد انتبهتْ واستيقظتْ فور دخولي، وراحتْ تنظر إليّ بدهشةٍ كبيرة قبل أن تقول:

- لماذا عُدتَ باكراً يا أحمد؟

لم أُجب عليها واكتفيتُ بالوقوف أمام الباب، فنهضتْ أبرار من السرير، ولما اقتربتْ مني أخذت تتمعن في وجهي، ولاحظت الدم الذي تلطخ به ثوبي وقالت باستغرابٍ كبير وبنبرةٍ حانية مُتعاطفة:

- ماذا حدثَ لك؟! أخبرني يا أحمد!

وحينما هممتُ بالكلام عجزتُ عن ذلك، وكانت دموعي أسرع وأبلغ. فانفجرتُ باكياً في حجرها. وراحتْ تُهدئ من روعي، وتُخفف من جزعي، وأكدّت لي بأنّها معي تسندني وبأنه لا وجود الآن لأي شيء

Twitter: @ketab_n

أخافُ منه. وبعدَ أن بدأتُ أستجمع قواي وألتقط أنفاسي، طلبتْ مني برفق أن أخبرها بما حدث. فأعلمتها بالقصة منذ البداية؛ منذ اللحظة الأولى لتهديد «نزار» إلى اللحظة الأخيرة التي انتهت بمقتله! ولم تكنْ صدمة أبرار أقل من صدمتي، غير أنّها حاولتْ أن تتماسك وأن لا تنهار وهي تُشاهد زوجها الذي لم لم يمضِ على زواجها به أسبوعان وقد ارتكب جريمة قتلٍ ستزج به في غياهب الضياع. وسألتني مُتعجبة:

- بعدَ أن خرجتَ وأقفلتَ باب مكتبه بالمفتاح ألم يُشاهدك أحدٌ وأنتَ على هذه الحال المُريبة؟!

- كلا، لم يرني أحد. ومن ثم فقد غطّيت الدمَ بشماغي، وسرتُ بسرعةٍ شديدة وأنا مُطأطئ الرأس، ولحسن الحظ لم لم يلاقني أي شخصٍ في طريقِ خروجي.

ومن ثم صمتُّ بحسرةٍ وأنا أهزُّ رأسي في حالةٍ من عدم التصديق:

- على أية حال الأمر سيّان لديّ الآن؛ فأنا سأسلمُ نفسي إلى الشرطة، آملاً أن تُعتبر القضية دفاعاً عن النفس.

- لا تفكر في هذا يا أحمد الآن! هذا ليس حلاً لحالتك أنت!

كنا جالسين على طرف السرير، وقد وقفتْ أبرار وطوقت بيديها وجهي وأخذت تنظرُ إليّ في عينيّ وقالت بنبرةٍ حاسمة:

- من ناحيةٍ دينية، فمعلومٌ أنّ من ماتَ دون عرضه فهو شهيد.

Twitter: @ketab_n

ومافعلته أنت كان دفاعاً عن شرفك وعن نفسك. ولذلك لا تلُم نفسك على ماحصل، كما أنّك في المقام الأول لم تكن تنوي قتله. وتبقى مُشكلة إثبات الحادثة هي الأمر الأصعب إن لم يكن مستحيلاً في حالتك هذه؛ فالحقيقة الوحيدة المُتيقن منها هي بأنّك قد قتلته، وبالنظر إلى سجلك الطويل في التزوير فإنّ موقفك سيكون ضعيفاً جداً.

- ولكن ماذا عساي أن أفعل؟! لم يعد هناكَ مناص ولا مفر من أنْ أسلم نفسي.

- حسنًا دع هذا الأمر عليّ. والآن لا تُضِع الوقت؛ اغتسل وغيّر ثيابك، وأعدَّ حقيبة سفرك وخُذ أهم الأشياء التي تحتاجُ إليها.

- ما الذي تخططين له؟

- لن أدعك تسلم نفسك، هذا الخيار غير مطروح أبداً؛ تسليمُ نفسك يعني تقديم رقبتك إلى مقصلة الإعدام! سأحجُزُ لك أقرب رحلةٍ متوفرة لدولةٍ بعيدة تستطيع الاختباء بها والعيش فيها.

ضحكتُ بيأس وبرود:

- هذا إنْ استطعتُ أصلاً ركوب الطائرة!

- تستطيع ذلك، ولكن بعد أن تعبر الحدود بالسيارة مُتجهاً إلى أبوظبي. فحتى وإن عُمِّمت صورتك وأوصافك فهي ستكون في بداية الأمر هنا في السعودية. ولن يدري أحدٌ بأنّك لستَ متواجداً في هذا البلد أصلاً!

Twitter: @ketab_n

- ولكنْ كيفَ سأتمكنُ من تجاوز الحدود وأنا لا أحمل رخصة قيادة؟!

صَمتتْ أبرار قليلاً، وبدتْ في حيرةٍ شديدة، وأيقنتُ بأنّها لم تحسب أي حسابٍ لهذا الأمر. قبل أن تقول بشكل سريع:

- لا عليك سأتدبرُ الأمر، سأطلبُ من سلمان أن يذهبَ بك إلى الإمارات، ولن أخبره بالحقيقة.

- ولكنْ كيف ستقدرين على إقناعه! إنّنا نتحدث عن حوالي ألف كيلو مترٍ! وليستْ مجرد رحلةٍ عابرةٍ أو نزهة إلى السوق!

- سأقنعه بطريقتي الخاصة. لا تُضِع الوقت في الجدال! سأتصلُ الآن على بسلمان.

لم أكنْ واثقًا من نجاح الخطة، ولكنْ لم يكن أمامي خيارٌ آخر. اغتسلتُ على عجلٍ وبدأتُ ألملمُ أغراضي، وبينا أنا كذلك تذكرتُ أبرار فخرجتُ من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة حيث كانت تعملُ على جهاز حاسبها المحمول. وما إنْ رأتني حتى قالت وهي تبتسم ابتسامة تفاؤلٍ منزوعة الأمل:

- إنّ سلمان سيصلُ إلى هنا في أي لحظة، كما أنني قد حجزتُ لك تذكرةً لرحلة غير مباشرة ستنتهي أخيراً في دولة «هاييتي». وهذا البلد لا يشترط تأشيرة دخول في أول تسعين يوماً، وهذه فترة كافية للملمة الأوراق. ومن حُسن حظك فإنّ الرحلة ستكونُ عصر الغد، وقد

Twitter: @ketab_n

وجدتُ عليها مقاعد شاغرة.

قلتُ مُستدركاً:

- ولكن لحظة هل قُـلتِ تذكرة لي؟

- نعم.

- ألا تنوين الذهابَ معي؟!

أطرقتْ أبرار لبعض الوقت قبل أنْ تقول بنبرةٍ اعتذارية:

- أحمد، أنتَ تعلمُ علمَ اليقين بأنني أحبك حُبا جماً، وبأنني لن أتخلى عنك أبداً. ولكنّي لا أستطيعُ الذهابَ الآن؛ لديّ حياةٌ ووظيفةٌ هنا ولا أستطيع أن أرحل بعيداً عنهما وأن أضحي بهما بسهولة. الأمرُ أعقدُ كثيراً مما تظن!

- إذاً لن أذهب! سيكونُ سفري وحيداً أمراً لا مغزى له ولا فائدة تُرجى من ورائه!

- لا تكن سخيفاً! أنا لم أقل بأني سأتركك! بل على العكسِ تماماً؛ سأصبحُ أزورك هناك بشكلٍ دائم وسأمكث عندك عدة أيامٍ شهرياً. وسأبقى على تواصل مستمرٍ بك! ولكن يجبُ عليّ البقاء هنا أولاً فهناك العديد من الأمور الّتي لابُدَّ لي من إنهائها وإنجازها.

كانت خيبةُ أملٍ كبيرة بالنسبة لي، ولكن كانتْ أبرار مُحقة؛ فمن الأنانية أن أطلبَ منها أن تترك كل ماسعتْ له وعملتْ من أجله وراء

Twitter: @ketab_n

ظهرها وأن تأتي معي إلى آخرِ أصقاع الأرض!

أكملتُ حزمَ حقيبتي بسرعة وبدأتُ أسحبها باتجاه الباب. كانتْ أبرار واقفة في غرفة المعيشة، وقد أخذتْ تنظر إليّ نظرةً تنضح بالأسى والقلق. وبعد أنْ اتّصلَ سلمان وأبلغنا عن وصوله وانتظاره لي في الأسفل، اتجهتُ صوب الباب وقبل أن أخرج، عانقتني أبرار عناق الوداع ولم تستطع أن تمنع عبراتها من الانسكاب والانهمارِ على وجنتيها. كانتْ تراقب خطواتي بحسرة بالغة وبألم لم تقدر على إخفائه، وبدا لي بأنّها تعيشُ صراعاً داخلياً مُحتدماً، وقد أغمضتْ عينيها عندما فتحتُ الباب وأخرجتُ حقيبتي، وقبل أن أغلق الباب خلفي أتاني صوتُ أبرار المُتهدج:

- لن أقوى على فراقك يا أحمد! انتظرني في السيارة. سأرافقك! لن أدعك ترحلُ وحدك!

بكيتُ فرحاً هذه المرة! واندفعتُ داخل الشقة مجدداً وأخذتها بالأحضان.

****

Twitter: @ketab_n

كانَت الساعة الواحدة ظُهراً وكان مايزالُ أمامنا طريقٌ طويل قبل الوصول إلى الحدودِ الإماراتية. لم يكنْ سلمان قد تفقد إطارات سيارته، وكان مُتعجباً من سرعتنا البالغة، ومن تعجلنا الواضح. وقد أكدتْ له أبرار بأنّنا كنا ننوي السفر بسيارتي لولا أنني لا أحملُ رخصة تخولني الدخول إلى الإمارات. وبأنّ رحلة سفرنا –السياحية- ستكون في الغد انطلاقاً من مدينة أبوظبي. وقد سألها سلمان عن صحة عرضها الذي وعدته به؛ وعلمتُ –لاحقاً- بأنّ أبرار قد وعدتْ بإعطائه مبلغ عشرة آلاف ريال إنْ أقلنا بسيارته، وهو العرض الذي سال له لعابه ولم يستطع مقاومته. وقد طمأنته بدورها بأنّها ستحولُ المبلغ إلى حسابه فور الوصول إلى الإمارات.

كان قد مضى على سيرنا قرابة الست ساعات. ولم نتوقف أبداً سوى مرة واحدةٍ للتزود بالوقود ولصلاة العصر عند إحدى المحطات. كانت الشمس قدْ قاربت على المغيب، وكنا على وشك الوصول إلى المنفذ الحدودي. وكان الصمتُ مُخيّماً على السيارة مُعظم الطريق؛ فسلمان قد اكتفى بوضع السماعاتِ على أذنيه، وأبرار كانت تنظرُ إلى الأفق من دونِ أن تتحدث. كان يبدو عليها القلق الكبير والتوتر البالغ والترقب الممتزج بالخوفِ والأمل. ولم يكن حالي في الخلف بأفضل منها؛ فأنا لم أتوقف عن فرك يديّ إحداهما بالأخرى منذ أن غادرنا الشقة. كان يراودني شعورٌ غريب، وإحساسٌ غامض بأنّني لن أتمكن من عبور الحدود. كنتُ أتعرق بغزارة على الرغم من برودة المكان، وكانت دقاتُ قلبي مُتسارعة كما لو كانتْ ترفض الهروب وتشجب الفرار!

Twitter: @ketab_n

هل يا تُرى اكتشفوا جثة نزار؟ وهل علموا بما حلّ به؟ وإنْ كانوا توصلوا إلى ذلك فمتى حدث هذا الأمر؟ كانت الدقيقة الواحدة تعني الكثير؛ فكلما تأخروا في اقتحام مكتب نزار كلما كانت حظوظي وفرصي أكبر في عبور الحدود. ولم تكَن هذه هي المشكلة الوحيدة، ولم يكن هذا هو الهاجس الأوحد، ولكن كانت أيضاً قضية الجواز المزوّر وفيما إذا كانَ سينطلي عليهم أم لا. فعلى الرغم من إتقانه الكبير إلا أنّ أمرَ اكتشافه يُعد ممكناً وغير مُستبعد الحدوث.

كنتُ على وشك الانهيار. وكنتُ على مشارف جرفٍ هارٍ، وعلى شفى شفيرٍ سحيق. وتمنيتُ لو أنني سلمتُ نفسي من البداية؛ فلو قُبض عليّ عند الحدود فسأكون حينها مُتلبساً بالجريمة، ولن يكون لحججي و اعتذاراتي قيمة!

وصلنا إلى الحدود قُبيل المغرب، ولم يكن هناك الكثير من السيارات المُصطفة. مكثنا عدة دقائق على هذه الحال، حتى وصلنا إلى مقصورة موظف الجمارك، والذي طلب بدوره جوازاتنا. وقد أعطيتُ أبرار جوازي والذي وضعته هي -عن عمدٍ- أسفل جوازها قبل أن تعطيها لأخيها الذي أضاف عليهما جوازه الشخصي وسلمهم جميعاً للموظف. كانت تلك اللحظات التي بدأ ينظرُ فيها الموظف ويتفحصُ الجوازات أشبه بالدهر. وعلى الرغم من أنني حاولتُ جاهداً أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان إلا أنّني لم أستطع أن أوقف القشعريرة والخفقان اللذان أحكما خناقهما عليّ. قامَ الموظف من مكانه وتحدثَ قليلاً مع رجلٍ عسكري مُسلّح، ومن ثم عادَ بعد دقائق وسأل:

Twitter: @ketab_n

- أين أحمد؟

فتحتُ النافذة الخلفية وقلتُ بارتباك:

- نعم، هذا أنا.

عندها قال بنبرةٍ حازمة:

- أرجو أن تترجل من السيارة!

وعلمتُ حينها بأنّ هذه المغامرة الجسورة قد فشلت فشلاً ذريعاً. وارتسمتْ على وجهي ابتسامة الموت، ونزلتُ بهدوء..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أواه يا قلبي أضعت العمر محترق الجراح

وأخذت تحلم كل يوم.. بالصباح

فتركت أيامي تضيع مع الرياض

يوما إلى الأحزان تأخذنا وآخر.. للجراح

الآن أرحل عنك بالأمل الجريح

قد أستريح من الأسى قد أستريح

كم عشت أحلم يا رفيقي بالضياء..

و رأيت أحلامي تلاشت في الفضاء

«فاروق جويدة»

Twitter: @ketab_n

راحَ الموظفُ يتأملُ في قسماتِ وجهي باهتمام بالغ، وكان يحمل بيده جوازي؛ تارةً ينظر إليه وتارةً إليّ قبل أن يقولَ بنبرةٍ مُرتابة:

- مُدونٌ هنا في الجواز بأنّ عمرك اثنين وعشرين سنة، في حين لا يبدو عليك بأنك تتجاوز الستة عشر عاماً بحالٍ من الأحوال!

شعرتُ بقليلٍ من الارتياح؛ فكل شيء يهون طالما أنّه لا يتعلق بقضية مقتل نزار. وقد أكدتُ له بلهجةٍ حاسمة:

- ما كُتب في الجواز صحيحٌ من دون أدنى شك!

- ولكن هل هذا معقول؟ ألا يوجدُ خطأ ما؟!

في هذه اللحظة نزلتْ أبرار من السيارة وسألتْ الموظف:

- هل هناك مشكلة؟

- كلا على الإطلاق. كل ما في الأمر أنني مُتعجب كيف أنّ مظهر أحمد ومنظره يبدو أصغر بستِ سنوات من عمره الحقيقي.

ابتسمتُ، وابتسمتْ أبرار بدورها، ومن ثم أردف الموظف مُتسائلاً وهو ينظرُ إليها:

- هو صديقُ أخيكِ سلمان، أليس كذلك؟

- نعم هو صديقه المفضل.

Twitter: @ketab_n

- هل تشاطرينني الرأي بأنّه يبدو أصغر من عمره بكثير؟

لم تُجب أبرار على سؤاله، وتدخلتُ قائلاً:

- في الواقع، لطالما عانيتُ من هذه المشكلة؛ المُتمثلة في أنّ مظهري لا يعكس عمري الحقيقي. وصدقني بأنّك لستَ الوحيد الذي يُصيبه الاندهاش جرّاء هذا الأمر.

- أظنُّ بأنّ شباب هذه الأيام لم يعودوا كما في السابق؛ ففي زماني مَن كانَ في العشرين يبدو كأنه في الثلاثين بالنسبة لهذا الجيل!

قالها الموظفُ وهو يضحك قبل أن يُعيدَ لي الجواز ويتمنى لنا رحلة موفقة، ولم أشعر بالارتياح وأتنفس الصعداء -ولو مؤقتاً- إلا بعد أن تجاوزنا محطة الجمارك الإماراتية، وبعد أن أصبحنا نسير في طريقنا نحو مدينة أبوظبي.

وصلنا إلى أبوظبي بعد ثلاث ساعات، وأقمنا في أحد الفنادق القريبة من المطار، حيث خلدنا جميعنا إلى الراحة بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة. وكانت الغرفة التي حجزناها واحدة فقط وتحتوي على ثلاثة أسرّة بالإضافةِ إلى حمام صغير. وقد استلقيتُ على السرير الذي يقع في المنتصف في حين أنّ سلمان كان عن يساري وأبرار عن يميني. أطفأنا الإضاءة عند الساعة التاسعة، ولم تمضِ ثوانٍ معدودة حتى سمعتُ صوتَ شخير سلمان يدوّي في المكان. وعلى الرغم من الإعياء الشديد والإرهاق إلا أنّني لم أستطع النوم، واكتفيتُ بتذكر لحظات هذا اليوم الرهيب. كانتْ المواقفُ كثيرةً جداً في اليومين

Twitter: @ketab_n

الماضيين، ولم أعش مثل هذه الأحداث المتسارعة من قبل. كنتُ أشعرُ بأنّني وسطَ كابوسٍ مُزعج سأصحو منه في أي لحظة.

مضى وقتٌ طويل وأنا أتقلبُ على الفراش. كنتُ مستلقياً على جنبي الأيسر، ورحتُ أنظر إلى سلمان الذي كان يغط في نوم عميق. كان يبدو مُرتاح الضمير، هانئ البال، لا يُكدّر صفو راحته شيءٌ، ولم تُظلل سماءهُ الهموم والغموم وتطردُ الكرى عنه. انقلبتُ على جنبي الأيمن، ودُهشتُ حين رأيتُ أبرار فاتحةً عينيها، وتساءلتُ بصوتٍ خافت:

- ألم تنامي بعد؟!

- كلا، لم أستطع النوم. أشعرُ بأرقٍ فظيع!

- وأنا كذلك. أتصدقين بأنني لم أنَم جيداً منذ خمسة أيام! أظنُّ بأنني بت قريباً من مرحلة الانهيار.

وابتسمتْ أبرار وقالتْ بلهجةٍ واثقة:

- لا تقل ذلك يا أحمد! أؤكدُ لك بأنّك بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الآن ستكون نائماً مِلء جفونك!

في صباح اليوم التالي ذهبتْ أبرار مع أخيها سلمانْ إلى المصرف، وقد بقيتُ وحدي أنتظر في الفندق. وبعد قرابة الساعتين عادتْ ولكن وحدها هذه المرة من دون سلمان الذي قفل عائداً إلى

Twitter: @ketab_n

الرياض. كانت أبرار قد اشترت فطوراً وجلبته معها و بعد أن تناولناه سوياً سألتها:

- متى يجدر بنا الذهاب إلى المطار؟

- سنغادرُ الفندق عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، وكما تعلم فإنّ موعدُ الإقلاع سيكون عند الرابعة عصراً، وحريّ بنا التبكير بالقدوم كي لا نضع أنفسنا في موقفٍ حرج.

وصلنا إلى المطار قبل موعد رحلتنا بثلاث ساعاتٍ ونصف. كان مُكتظاً بالبشر وعامراً بأصناف مختلفةٍ من الناس؛ المغادرين منهم والقادمين وأولئك المُستقبلين والمُودعين. وقد وقفنا في صف المسافرين الذين ينتظرون إتمام ختم تذاكر سفرهم وجوازاتهم. كنتُ متوتراً جداً؛ فهذه اللحظة بالذات هي الحاسمة وهي التي ستُحدد فيما إذا كان أمري سيُفتضح أو أنني سأنجح في اجتيازِ هذا المطب العسِر وهذا الحاجز الصعب. كنتُ أقف بجوارِ أبرار التي كانت ترتدي عباءتها وحجابها المُغطي لشعرها كالمعتاد، وقد ارتديتُ بدوري -بناءً على نصيحةٍ من زوجتي- بنطال جنزٍ أسود اللون وقميصاً أبيضاً طويلُ الأكمامِ، وقد وضعتُ مُستحضر تثبيت الشعر «الجل» على شعري، ووضعتُ سماعة على أذنيّ شبيهة بتلك السماعة التي رأيتُ هشام يضعها وكانت قد اشترتها لي أبرار في صباح هذا اليوم عندما خرجتْ مع سلمان. كان من يُشاهدني مع أبرار لا يتبادرُ إلى ذهنه سوى أنّ هذا فتىً مُراهق يقف رفقة أمه في انتظار دورهما. وعلى الرغم من أنّ السماعات لم تكنْ موصولة بأي جهازٍ آخر إلا أنها ساعدتني كثيراً؛

Twitter: @ketab_n

فمع اقتراب موعد تفحص أوراقنا وهوّياتنا كانت دقات قلبي تزداد والعرق يتصبب مني والوساوس السوداوية تُقلبني ذات اليمين وذات الشمال ورجفةٌ ملحوظة قد أحكمتْ سيطرتها على جسدي، إلا أنه مع هذه السماعة ومع هزّي لرأسي بين الفينة والأخرى كان من يراني يظنّ أنني مندمجٌ مع إيقاع أغنية غربية ليس إلا.

كان سيرُ رحلتنا يبدأ من مطارِ أبوظبي، ويمر عبر مدينة «ميامي» الأمريكية التي سننطلقُ من مطارها إلى مطارِ مدينة «بورت» عاصمة هاييتي. وقد قامت أبرار بسحبِ مائة ألف ريال من حسابها -هذا الصباح- وحولتها إلى الدولار الأمريكي ووضعتها في حقيبتها الصغيرة التي لا تفارق يدها. وعلى الرغم من أنّ أبرار بدتْ متجلدة وواثقة إلا أنّ من يعرفها جيداً يعلم بأنّ التوتر والقلق قد بلغا منها مبلغاً كبيراً.

كنتُ أعلم أنّ تلك هي ساعة الحقيقة ولحظة الصفر، فإمّا أن أكون أو لا أكون. لم يعد هناك حل حل وسط، ولا خيار بين ذلك، فإمّا حياة تسر الصديق وإمّا فشلٌ لا أراه يقودُ إلا للموت! وصلَ دورنا فأغمضتُ عينيّ وتقدمتُ خلفَ أبرار التي أمسكت بيدي وشدتها وأصبحنا نقف جنباً إلى جنب أمام الموظفة التي بدأتْ تتفحص أوراقنا. كانت تنظرُ في جوازاتنا وتنقر بيديها على لوحة المفاتيح في الحاسب الآلي، وكانت تُدخل المعلومات تارة وتنظرُ إلى الشاشة تارة أخرى. مرّت عليّ هذه اللحظات العصيبة مرور الدهر، وأحسستُ بأنّ الموظفة قد استغرقت وقتاً أطول مما استغرقته مع من سبقونا، وقد قالت مُخاطبة أبرار:

Twitter: @ketab_n

- هل أنتما الاثنان معاً؟

- نعم إنّه معي؛ إنه صديقُ أخي الصغير وأنا بمثابة الأم بالنسبة له.

نظرت إليّ أبرار بابتسامةٍ حنونة، وكنتُ ما أزال أضعُ السماعات، قبل أن تسحبها برفق بكلتا يديها وتقول وهي تنظرُ إليّ نظرة تأنيب:

- ليس من اللائق أن تبقي السماعة على أذنيك وهناك شخصٌ يُكلمك!

ومن ثم أدارتْ بصرها باتجاه الموظفة وقالت معتذرة:

- آهٍ من مراهقي هذه الأيام! التعاملُ معهم صعبٌ للغاية!

ضحكتْ الموظفة وقالت:

- صدقيني بأنّه سيكون ملاكاً مقارنةً مع أخي الأصغر المتمرد؛ فهو شوكة في حلوقنا بكل ما تحمله الكلمة من معنى!

وأردفتْ قائلة وهي تنظرُ إلينا باندهاش:

- يتضح لي بأنّ حجزكما قد تمَّ بالأمس، لقد كنتما محظوظين جداً؛ فهذه الرحلة بالذات كانت مُمتلئة بالكامل منذ أسابيع، قبل أن تقوم أسرة كبيرة مكونة مِن ستة أفراد بإلغاء حجزها قبل يومين.

أخذتُ أتبادل نظرات التعجب مع أبرار التي التفتتْ إلى الموظفة

Twitter: @ketab_n

وقالت ضاحكة:

- مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ!

وضحكتْ الموظفة بدورها ومن ثم ناولتْ أبرار التذاكر وبطاقتي الصعود وتمنتْ لنا رحلة موفقة ووصولاً سالماً. وقد شعرتُ بأنّ جبلاً قد انزاح عن كاهلي. وفي طريقنا إلى القاعة الداخلية رمقتُ أبرار رمقة عتاب وقلتُ مُتهكماً:

- إذاً أنتِ بمثابة والدةٍ لي! ألم تجدي تفسيراً أفضل من ذلك؟!

- أخشى بأنني لم أجد غيره، وهو أفضلُ بطبيعة الحال من أن أقول إنك واحدٌ من مرضاي في العيادة النفسية!

وأخرجتْ لسانها بطريقةٍ مُستفزة، ولم أتمالك نفسي من الضحك على الرغم من كل الصعوبات والعقبات التي تجاوزتُ بعضها وما يزالُ البعض الآخر منها يعترض طريقي المُظلم الذي تكتنفه الضبابية والغموض.

أعلنَ قائدُ الطائرة عن ضرورة ربطِ الأحزمة استعداداً للإقلاع، وأخذتْ الطائرة في الدوران والتحرك ببطئ، قبلَ أن تتزايد سرعتها بشكلٍ ملحوظ ومن ثم تبدأ في الإقلاع وثني عجلاتها في الهواء. كانت تلك هي المرة الأولى التي أركبُ فيها طائرة منذ أكثر من ثلاثين سنة. وقد أخذتُ أنظرُ من النافذة إلى البلدة التي أصبحتْ تبدو صغيرة جداً من تحتنا، ومن ثم أخذتُ أنظر إلى السماء الزرقاء المُشمسة،

Twitter: @ketab_n

وإلى الغيوم القليلة البيضاء التي كانت تتناثر حولها من هنا وهناك. لم أغادر هذه المدينة فحسب، ولم أغادر هذه الدولة فقط، بل كنتُ في طريقي للنزوح عن الأرض التي ضمتني ردحاً من الزمن؛ الأرض التي احتضنت ذكرياتي واحتوت لحظات فرحي وترحي وضمّت فوق ثراها وتحته الأشخاص الذين أحببتهم وآخيتهم حيناً من الدهر!

كنتُ أشعرُ بأنّ من ماتَ ممن عرفتهم كان يقف عند ردهة المطار يرمقني بعينه والطائرة تصعدُ وترتفعُ في السماء بعيداً عن المدرج؛ أبي وأمي، ومازن، والدكتور معتز، وأسماء، وخالتي نورة وكأنّهم قد اصطفوا جميعاً وأخذوا يلوّحون بأيديهم، ووجوههم خالية من التعابير، وقلوبهم جامدة لا تضخ الدم. إنّهم أشباحٌ جاءوا في موكب واحد لإلقاء النظرة الأخيرة على ذلك العجوز الهرم الذي لم يزَل مُتشبثاً بالحياة رغم الجروح التي أصابته والضربات التي أعيته والطعنات التي أدمته. ها هو يأبى التوقف والاستسلام، ويمضي بعيداً عن أرض مولده وصباه، وفتوته وشبابه، وكهولته وشيخوخته.

تلك الأرض التي لم يسبق لي أن فارقتها قط، وتلك الجزيرة التي لم أنأَ عنها قيد أنملة، وها أنا ذا أجدُ نفسي مُرغماً على النزوح منها وعلى هجران أحبابي الذين عليها. لم يُمهلني الزمانَ لحظة وداع أخيرة، ولم يمنحني فرصة اجتماع ولمِّ شملٍ ختامية؛ أسكبُ فيها العبرات وأبوح فيها بكلمات الحب، وأُصدحُ فيها بعبارات العشق، وأرحلُ بعد أن أستودعَ فؤادي رهينةً عند ابني وحفيدي، آخذاً جسمي معي ومسافراً ببدني وحده من دون أن أضم روحي إليه. إنّ روحي لن

Twitter: @ketab_n

تفارق أحبابها، ولن تهجرهم كما هجرهم –مُكرهاً- صاحبُ البدن ومالكُ الجسم، بعدَ أن خلّف روحه وقلبه وراءه!

سأدعُ روحي وفؤادي يأنسان بأحبابهما وينعمانِ بأجواء الأسرة ويسعدانِ بمتعة النظرِ إلى الأبناء. كنتُ قريباً جداً من تلك اللحظة التي طالما حلمتُ بها، لقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الانضمام لهم وأن أصبح واحداً منهم. كانتْ مهمتي مُستحيلة، وكانتْ غايتي لاَ تُدرك، ولكن بالعزيمة العالية، وبالنفس الكبيرة، وبالعرق والتضحيات الجسيمة، استوليتُ على قلبِ حفيدي كما استولى هو –منذ أن عرفته- على كل جوارحي، ونلتُ ثقته وأصبحتُ أخاً له لا صاحباً فحسب، حتى دعاني للانضمام إليهم في لحظات سفرهم وطلب مني مشاركتهم في أوقاتِ سعادتهم. أنجزتُ المهمة وأخفقت فيها! أتممتُ الغاية وأفسدتها! نلتُ الأمنية وتخليتُ عنها!

كنتُ أنظرُ إلى الأفق بألم وحسرة، وأتأملُ في السحاب الذي بات أسفل منا بندم وغصة. وقدْ انهمرتْ على خديّ الدموع المُتدفقة، وانسكبتْ العبرات المدرارة، ورحتُ أبكي في صمت وأنتحبُ بلا صوت؛ أبكي حياتي الماضية ودُنياي الفائتة، وروحي التي تُـركت، وفؤادي الذي نُـسـي. كانتْ نفسي تبكي على نفسي، وكانت روحي ترثي روحي، وكان قلبي يُقيم مأتماً على قلبي! ولم أشعرْ إلا بأبرار تربت بيدها على يدي، وكأنها قد علمتْ بما يدور في خلدي أو أنّ دموعي المُتفجّرة قد أفشتْ لها حقيقة مشاعري الكامنة!

Twitter: @ketab_n

وصلنا مُنهكين إلى «ميامي» بعد أن أمضينا قرابة تسعة عشر ساعة مُعلقين بين السماء والأرض. وعلى الرغم من أنني حاولتُ النوم إلا أنّني لم أقدر على ذلك ولم يكن نصيبي منه سوى بضع غفواتٍ بسيطة لا تغني ولا تسمن من جوع! ولم تكن هذه المحطة لتكفل لي تحقيق بُغيتي فأستريح فيها وألتقط الأنفاس بعد أن بلغ الإعياء مني كُل مبلغ؛ إذْ أنّه كان علينا الانتظار خمسة عشر ساعة قبل موعدِ الرحلة القادمة إلى «بورت»». وبما أنّنا لم نكن نحمل تأشيرةً تخوّلنا دخول «ميامي» كان لزاماً علينا البقاء والانتظار لحين حلول وقت طائرة هاييتي!

وقد أخذتْ أبرار تتحدثُ بطلاقةٍ مع موظفي المطار ومسئولي الجمارك الأمريكيين، وكنتُ أكتفي بتقليب بصري بينهم من دون أن أفهم شيئاً أو أن أعي الموضوع الذي يتحدثون فيه. وقد أحسستُ بشعورٍ داخلي بالزهو والفخر وأنا أنظرُ إلى زوجتي الوفيّة وهي تتواصل معهم بثقةٍ عالية وبفصاحةٍ آسرة وبثقافةٍ كبيرة. وبعد أن فرغتْ وانتهت من حديثها معهم وانتهينا من الإجراءات القانونية وخلافها أشارتْ إليَّ بأنْ أتبعها إلى أحد المطاعم وقالتْ لي وهي تبتسم:

- هل ترغب بتناول بعض «البيتزا» بعد هذه الرحلة الطويلة؟

- كأنّك تقرئين أفكاري؛ ففي الحقيقة أنا أشعرُ بالجوع بنفس القدر الذي أشعرُ فيه بالإعياء!

- وأنا أيضاً مثلك تماماً؛ أتضور جوعاً ومُتعبة في الوقت نفسه. وعلى أية حال، أعدك بأنّك لن تشعر بمرور الوقت، فساعات الانتظار

Twitter: @ketab_n

هذه ستكون ممتعة ومريحة؛ فمطارُ «ميامي» يُعد من أجمل مطارات العالم ويحتوي على العديد من المطاعم والمقاهي والمحّال المُختلفة.

كان المطعمُ مُزدحماً بالناس ولم نجد طاولة شاغرة إلا بصعوبة بعد أن انتظرنا عدة دقائق وبعدَ خدمةٍ جليلة من إحدى نادلات المطعم؛ وكانت هذه النادلة فتاة حسناء شقراء الشعر تبدو في العشرين من عمرها ولم تكن تتوقف عن التبسم كلما التقتْ عيناها بعينيّ أحدٍ ما. جلسنا وتولّت أبرار أمر الطلب حيث أخبرت النادلة بكل التفاصيل المطلوبة في الوقت الذي أخذتُ فيه أنظرُ إلى الغادين والرائحين؛ كان معظمهم من المسافرين، وكانت الحركة الدؤوبة هي العنوان الذي يُمكن أن يُطلق على منظرهم. كانوا يبدون في جديةٍ كبيرة؛ يُسارعون الخُطى ويعلو ملامحهم التجهم، على العكس من الأطفال والصبية الذين بدوا أكثر سعادة وانشراحاً. ولعل السر الكامن خلف هذا هو أنّ الصغار لا يكترثون للتفاصيل ولا يُهمهم التفكير بالمستقبل الغامض ولا بالقادم المجهول، هم يعيشون لحظتهم، ويُفكرون بحاضرهم، ولا تشغلهم الاحتمالات ولا تُحبطهم التوقعات. وفي المقابل كان آباؤهم يحثونهم على الإسراع وينهرونهم ويؤنبونهم على تباطئهم واستهتارهم. من هو المحق منهم؟ ومن هو الذي على خطأ؟ بصراحة لا أعلم، ولكن ما أنا على يقينٍ منه هو أنّ الأطفال هم أقرب للفطرة والطبيعة التي يجب أن يكون عليها الإنسان والتي تُجبره العوامل الخارجية على تغييرها والتخلي عنها...

قطعتْ أبرار تفكيري وهي تُحرك يديها أمام عينيّ وتبتسم:

Twitter: @ketab_n

- أينَ وصلتَ بتفكيرك؟ أظنك مازلتَ في الرياض؟!

- في الواقع كنتُ أفكر في أنّ الصغار يبدون أكثر سعادةً من الكبار، وهذا ما يُمكنكِ أن تستنتجيه بقليلٍ من التأمل والملاحظة.

أدارتْ أبرار رأسها مباشرة وبدأتْ تُقلب ناظريها في مَن حولها ومن ثم عادتْ ببصرها إليّ:

- حسناً، إنّ هذا يعتمدُ على نظرتك أنت للأمور.

كنتُ بالكادُ أسمعُ صوتَ أبرار في ظل الصخب الشديد الذي كنا في معمعته، واقتربتُ منها أكثر حين أردفتْ قائلة:

- في الغالب ينظرُ الشخص البالغ إلى حياة الطفل على أنّها حياة خالية من الأعمال والمسؤوليات وعلى أنّ كل ما يكترث له الطفل هو اللعب طوال اليوم من دون قلق أو تحمّل أعباء مالية. في حين أن الطفل، في حقيقة الأمر، يشعرُ بالضغط ويُصيبه القلق ويتألم مثل البالغين تماماً حتى وإن اختلفت المُسببّات.

- ولكنهم في الحقيقة أكثر سعادة وراحة؛ فهم لا يتعاملون مع المُشكلات بنفس الطريقة وبنفس العقلية التي يتعامل الكبار بها. كما أنّهم لا يتخوفون ولا يتهيبون مما قد يحمله لهم المستقبل ومما قد تحتويه الأيام. وقد قرأت إحصائية تشير إلى أنّ ما نسبته ثلاث وتسعون بالمائة من مخاوفنا لا تقع على أرض الواقع. ولذلك أستطيع أن أقول وبناءً على الدراسة السابقة إنّ الأطفال أكثر سعادة من الكبار بنفس تلك النسبة؛ لأنّهم لا يقلقون ولا يخشون مما لم يقع، وكما قال

Twitter: @ketab_n

أبوالطيب:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقله وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ!

توقفتُ عن الكلام عندما قدِمتْ النادلة ووضعت على الطاولة إناءً عليه سلطة خضرواتٍ متنوعة وعلبتي ماء مع كأسين زجاجين، وشوكتين، ومحارم ورقيةً. وقد أخذت أبرار الشوكة بيدها اليُمنى وقالت وهي تضع في فمها قطعة من الخس:

- أعجبني ربطك للإحصائية السابقة بمعدل الفارق في السعادة بين الأطفال والبالغين. ولكن ومع تحفظي على الإحصائية التي ذكرتها والنسبة التي توصلت إليها هذه الدراسة، إلا أنني مازلتُ أقول إنّ الأمر نسبي ويعتمد على نظرة الشخص لمفهوم السعادة. لكن دعني أبدأ فيما أتفق به معك، فالأطفال يستمتعون بوقتهم بشكل أكبر من البالغين في نهاية الأمر. ويعودُ سببُ ذلك جُزئياً إلى كون يوم الشخص البالغ في الغالب مليئًا بالمسؤوليات والسعي المحموم حول الكسب المادي وجني القوت اليومي، في حين أنّ الأطفال يتمحور يومهم حول اللعب والترفيه أو الذهاب إلى المدرسة والتي صُممت وأُعدت لتجمع بين العلم واللعب، فالدروسُ تقدم بطريقة مُمتعة وشيقة. ناهيك عن أنّ المدارس -لا سيما في الدول المُتقدمة- تراعي احتياج الطفل للعب وتُخصص وقتاً يومياً لذلك.

Twitter: @ketab_n

قاطعتها قائلاً وأنا أبتسم بسخرية:

- بينما في بلادنا يُنظر إلى اللعب على أنّه رفاهية لا داعي لها وخصوصاً للشخص البالغ!

- نعم، وهذا هو لُبّ المشكلة للأسف الشديد. وعلى أية حال، فالسعادة بشكلٍ عام، كما قلتُ لك، لا تختلف باختلاف السّن وهي تتمحور لدى الصغير والكبير حول ثلاثة عوامل: أولها العامل الوراثي؛ فالبعض يُولد ولديه ميل للحزن والاكتئاب وشخصيته مزاجية ومُتقلبة، والعامل الثاني هو الإحساسُ بالرضا بما يمتلكه الشخص والشعور بالامتنان لكل ماهو إيجابي في حياته، والعامل الثالث هو العلاقة الاجتماعية الجيدة سواءً مع الأسرة أو الأصدقاء. وجميع تلك العوامل يشترك فيها الطفل والبالغ.

ابتسمتُ بحزن ثم قلت:

- أظنُّ بأنني إذاً لولا العامل الثاني لأصبحتُ أتعس إنسانٍ على وجه الأرض!

****

Twitter: @ketab_n

كانت الساعة هي الرابعة عصراً بتوقيت «ميامي» وكنا نُحلق في الجو مُتجهين إلى «هاييتي»، وقد كانتْ أبرار مُنهمكة في كتابة رسالة نصية في جوالها في الوقت الذي كنتُ أقرأ فيه كتاباً أدبياً اشتريتُه من مطار الإمارات. ومثلما قالت أبرار تماماً؛ لم أشعر بمرور الوقت أثناء انتظارنا لرحلتنا ولطائرتنا التي نحن عليها الآن، فبعد أن فرغنا من تناول الغداء، أخذنا نتجول في المحّال الموجودة في المطار، وقد اشترينا بعض الحاجيات المتنوعة كالمظلات الواقية من المطر، وبعض الأدوات الطبية، وأحذية متينة، ومأكولات ومشروبات متنوّعة وبعض الحلوى والشكولاته التي أصرّت أبرار على شرائها. كما أنّها أيضاً أجرت بعض المكالمات المتنوعة ولم أسألها عنها لكنني أظنُّ أن معظمها كان يتعلق بالعيادة ورؤساء عملها.

التفتتْ أبرار إليّ وأخذتْ تتأملُ في وجهي بصمت وأنا أقرأ الكتاب، والتفتُّ بدوري إليها بعد هُنيهة وسألتها مُتعجباً من تحديقها بي:

- ما الأمر؟!

ابتسمت أبرار وقالت:

- لا شيء، تبدو في غاية البراءة وأنتَ تقرأ.

- صدقيني أنا أبعدُ ما أكون عن البراءة. أنا على أعتاب السبعين

Twitter: @ketab_n

الآن أنسيتِ ذلك؟

- هذا ماتقوله أنت! مازلتُ أظنك فتىً مُراهقاً في الثامنة عشرة من عمره.

- وهذا ما يُثير استغرابي. لا أعلمُ سبب تضحيتك هذه وإقحامك لنفسك وحياتك المثالية بمشكلاتِ مراهقٍ مُصاب بالفصام!

- لا تشغل نفسك بالتعجب والاستغراب، تذكر بأنني أحبك فقط. ومع الحب، تنتفي كل الأمور المنطقية والعقلانية وتزولُ شتى الفروقات والتناقضات، عليك أن لا تنسى بأنّ الحبّ أعمى البصر!

- والبصيرة أيضاً!

قلتها وأنا أضحك، وقد ضحكت أبرار بدورها قبل أن تقول بإعجاب:

- في الحقيقة، لقد ظننتُ بأنّك ستتعرض لصدمة حضارية وثقافية حينما تطأ قدماك للمرة الأولى هذه البلدان الأجنبية. غيرَ أنّك تبدو وكأنّك فتى متمرس قد جاب أقاصي الأرض ولم تتبقَ دولة لم يزرها!

- صحيحٌ أنني لم أتعرض لمثل هذه الصدمة التي ذكرتها إلا أنّه لم ترق لي ولم أستسغ مناظر العريّ والانحلال الخُلقي الذي أشاهدهُ من حولي كما أنني تقززتُ من إبداء المشاعر والعواطف أمام العلن وبشكل خادشٍ للحياء! والشيء بالشيء يُذكر وإحقاقاً للحق فقد أعجبني

Twitter: @ketab_n

التنظيم الكبير والتعامل المُحترم والبشاشة والتلطف الذي لمسته من العاملين والموظفين وعدم تفريقهم أو تمييزهم لطائفة بمعاملة معينة أو تخصيص مجموعةٍ بحظوةٍ لا ينالها غيرهم؛ إنّ الجميع هنا كأسنان المشط!

ابتسمتْ أبرار وعلقت:

- حسناً هذه هي الصدمة الحضارية التي كنتُ أقصدها بالضبط!

هبطت الطائرة في مطار «بورت» في الساعة الخامسة مساءً بتوقيت «ميامي» وهو نفس التوقيت في مدينة «هاييتي»، وقد استغرقتْ الرحلة قرابة ساعة ونصف، وكانت السماء غائمة والجو رطبًا ونزلنا من سُلم الطائرة إلى المدرج ومشينا على الأقدام نحو مبنى المطار. وبعد أن ختمَ الموظف جوازاتنا ومنحنا تأشيرة الدخول التي تخول لنا البقاء فترة تسعين يوماً، توجهنا إلى قاعة القدوم وبدأنا ننتظر خروج حقائبنا مع بقية المسافرين الذين كانوا على متن الطائرة.

كان يجب أن ندفع دولاراً مقابل الحصول على عربة الحقائب، وهو ما حصل حيث وضعنا حقائبنا وبدأتُ أدفع العربة إلى خارج المطار. لفت نظري خلو القاعة الخارجية والمواجهة للشارعِ الخارجي من الناس بشكل غريب، وقد كان مُعظم المسافرين والأشخاص الذين رأيتهم من ذوي البشرة السوداء، وكنتُ أظن بأنّ مُعظم سكان هذا البلد سيكونون من ذوي البشرة البيضاء أو البُنية –مثل كثيرٍ من

Twitter: @ketab_n

شعوب أمريكا الجنوبية- غير أنني كنتُ مُخطئاً في ظني هذا.

في الخارج اندفعَ الناسُ أمامنا وبدأ بعضهم يُلوّح بيده ويصرخ بكلمة «تاكسي»! لم أرَ إلا قلة قليلة تبحث عن سيارات الأجرة، وخمنتُ بأنّ معظم القادمين لديهم أشخاص يستقبلونهم من معارفهم. واستقللنا أول سيارة أجرة كانتْ تقف في صف السيارات حيث قام السائق، والذي كان رجلاً طويلاً أسود البشرة ويبدو في منتصف عمره، بوضع الحقائب في صندوق السيارة ومن ثم طلبتْ منه أبرار أن يتجه إلى فندقٍ كانت قد أخذت اسمه من أحد موظفي المطار.

كانَ الطريق وعراً جداً، مليئاً بالحفر، وقد تطاير الغبار وانتشر. وقد تشبثنا بأيدينا في أماكن وضع اليدين في السيارة لئلا نقفز ونهبط مع نزول السيارة وارتفاعها المُستمر، حتى ليُخيّل إليك أنّك على متنِ سفينة يتقاذفها الموج في عرض البحر. وقد كانت الطرقات ضيقة ومعظمها ترابية والبيوت والمحّال قديمة متهالكة، ومن النادر أن ترى سيارة حديثة الطراز. وقد لاحَ لي في بعض المرات أطفالٌ عليهم ملابس رثة يلعبون هنا وهناك.

وصلنا أخيراً إلى الفندق بعد عناءٍ ومشقة، وكان عدادٌ سيارة الأجرة يُشير إلى رقم أربعين، حيث طلب السائق أن ندفع له أربعين دولاراً أمريكياً، وقد تكفلت أبرار بدفعها. كان الفندق يبدو جيداً بالنظر إلى المباني والبيوت التي مررنا بها في طريقنا من المطار إلى الفندق، وكان يتألفُ من طابقين وحين دخلناه توجهنا إلى مكتب

Twitter: @ketab_n

الاستقبال الذي كان يقف خلفه شابٌ شديد السمرة في مقتبل العمر، وقد ابتسم ورحّب بنا حين وقفنا عنده، حيث أكملنا إجراءات النزول في إحدى الغرف والتي كانت تكلفتها تسعون دولاراً في اليوم.

كانت الغرفة فسيحة، ومكوّنة من صالة معيشة بها تلفاز وغرفة نومٍ بها سريرٌ كبير مع حمام أنيق. وفور دخولنا وضعتُ الحقائب ورميت بنفسي على السرير الذي راح يهتز فور هبوطي عليه. وقد مددتُ أطرافي بتكاسل وقلتُ مُبتسماً:

- أخيراً سريرٌ مريح! سأنام لمدة ثلاثة أيامٍ متواصلة!

كانت أبرار منهمكة في فتح حقيبتها وإخراجِ حاجياتها منها وقد ضحكت عند سماع مقولتي تلك وعلقتْ قائلة:

- أما أنا فسأغطس في حوض الماء لمدة أسبوعٍ كامل!

****

Twitter: @ketab_n

أمضينا أسبوعين كاملين في هذا الفندق، وخلال هذه الفترة كنا نبحث عن من يدلنا على مكانٍ منزوٍ وبعيد عن مركز المدينة ولا يوجد أناسٌ كثر يعيشون بالقربِ منه، وكان سببٌ هذه الرغبة تحديداً أن إقامتنا النظامية تُتيح لنا البقاء لمدة ثلاثة أشهر فقط وعندما تنتهي تلك المدة سيكون لزاماً علينا إما طلب التمديد -وهو ما قد يُقابل بالرفض- أو أن نختفي ونتوارى عن الأنظار في هجرة غير شرعية. وقد فضلنا الخيار الثاني لأنه أكثر أمناً وأقل مجازفة بالنسبة لنا. غير أننا واجهنا العديد من المعوقات والعقبات أثناء عملية البحث؛ فمن جهة يجد الناس نفوراً منا لأننا أناس غرباء ودخلاء في نظرهم، ومن جهةٍ أخرى لم نكن نريد أن نتسرع حيث لزمنا التأني والحذر لئلا نلفتَ الأنظار ونثير الشبهات. وكنا نحملُ آلات التصوير ونرتدي لباس السيّاح ونتظاهر بالضحك ونشتري ما نحتاجه وما لا نحتاجه زيادةً في الحيطة وتوخياً للحذر.

طال بحثنا دون جدوى إلى أنّ استطعنا أثناء تجولنا في سوق المدينة المتواضع أن نجد شخصاً أبدى استعداده الكامل لمدّ يد العون لنا. كان شاباً نحيل الجسم أسود البشرة مثله مثل بقية أبناء جلدته وكانت ثيابه -بالمقارنة مع أقرانه- توحي بأنّه ميسور الحال، كما أنّه كان يُجيد التحدث باللغة الإنجليزية على عكس غالبية شعب «هاييتي» ولذلك تمكنت أبرار من التحدث والتواصل معه بشكلٍ مفهوم، وقد بيّنتْ له وأخبرته عن رغبتنا بأنْ نعيش عيشة المغامرين وأن ننقطع وننعزل في مكانٍ بعيد وأن نُصبح كما لو كنا نحيا في حقبةٍ زمنيةٍ غابرة. وقد أومأ هذا الشاب برأسه وأكّد بأنّه يعرف العديد منَ الأماكن المُناسبة،

Twitter: @ketab_n

ومن ثم أخذ ينظر من حواليه كما لو كان خائفاً من شيءٍ ما، قبل أن يسألنا عن مقر سكننا ويطلب منا أن نقابله في صباحِ الغد عند الفندق.

في الصباح توقف أمام فندقنا بسيارته الصغيرة والتي تُعد حديثة الطراز نسبياً، وطلبَ منا أن نركب معه، وفور ركوبنا بدأ يتجوّل بالقرب من الفندق وأخذ يتحدث مع أبرار عن الأماكن التي قد تكون مناسبة لنا. لم أكنْ أفهمُ كلمة واحدة مما يقولون غيرَ أنه بعد فترةٍ من الحديث وبعد أخذٍ وجذب نظرتْ إليّ أبرار وقالتْ: «أعتقدُ بأننا وجدنا أخيراً المكان الأمثل لنا!».

****

Twitter: @ketab_n

كنا نمشي في طريقٍ وعرة، وكنا نقطع صحراء جرداء قاحلة، وسط سيارة نقلٍ صغيرة يقودها «هنتار» ذلك الشاب الذي تعرفنا عليه وعرض علينا المكان الذي ظللنا نبحث عنه منذ وصولنا إلى المدينة. وقد أخبرتني أبرار عن ظنها وشكها في أنّ هذا الشاب يرتابُ في أمرنا ولم تنطلِ عليه حكايتنا المُختلقة ورغبتنا المزعومة في الانعزال عن العالم والعيش كما كان يعيشُ الأجداد، إلا أنه بدا مُتمرساً في عمله ومُحترفاً فيه لدرجةٍ لم يعد يكترث معها حول السبب الحقيقي الذي من أجله نريد الفرارً والهروب، وأنّ ما يُهمه حقاً هو أن يحصل على أكبر قدر ممكن من المال فحسب، وهو الأمر الذي كان محل أخذٍ ورد في اليومين الماضيين، ولم يرضَ بأن يقودنا إلى المكان ويبيعنا هذا الكوخ بكامل حاجياته ومستلزامته بالإضافة إلى قاربٍ قريب مُعد للصيد وبه كل مايحتاجُ إليه الصياد، إلا بعد أَن ندفع له مبلغاً قريباً من عشرين ألف دولار! وعلى الرغم من أنّ هذه القيمة هي ضعف الثمن الحقيقي لهذا المكان إلا أنّنا رضينا بأن نبتاعه، وقد قمتُ بإعطائه نصف المبلغ على أن أعطيه الباقي بعد أن نصل إلى المكان. وكانتْ قيمة هذا الكوخ قد قضت على كل مدخراتي التي أحضرتها معي ولم يتبقَّ معي إلا القليلُ منها. وقد أرادتْ أبرار في بادئ الأمر أن تقومَ هي بدفع القيمة، وأمام إصراري حاولتْ أن تُشاركني قيمته، غير أنّني رفضتُ رفضاً مُطلقاً وأبيتُ إلا أنْ أكونَ أنا من يدفع التكلفة كاملة!

كنا قد لملمنا أغراضنا وحزمنا حقائبنا وغادرنا الفندق بعد أن دفعنا كامل مستحقاته، واستقلينا سيارة «هنتار» الذي ظلَّ يسيرُ بنا قرابة يومين كاملين دونِ أن نصل إلى بُغيتنا وإلى هدفنا المنشود. وخلال

Twitter: @ketab_n

المسيرة مررنا بعدة نقاط تفتيش وكان «هنتار» يتكفل بها ويتحدث مع الجندي المسئول لبعض الوقت قبل أن يلوّح هذا الأخير بيده ويسمح بمرورنا. وتجاوزنا عدداً من القرى والبلدات الصغيرة والتي زادتنا قناعة بأنّ هذا البلد يعيشُ تخلفاً حضارياً ويرزح تحت وطأةٍ من الفقر لا مثيل لها. وبعد أن طالت المسيرة، وتأخرَّ الوصول أخذت الظنون تذهبُ بي كل مذهب وأصبحتُ أخشى من أنّنا سنتعرض لخديعة أو مكيدة. كنا نجلسُ في الخلف وكان «هنتار» يقود بنا إلى حيث لا نعلم في الأرض التي يعلمها هو جيداً، ولطالما قتلتْ أرضٌ جاهلها! وضعتْ أبرار يدها على يدي من دونِ أن تتكلم أو تنظر إليّ وقد أيقنتُ حينها بأنّها باتت أشد قلقاً مني.

وخلال يومين ونصف من السير المتواصل الذي لم يقطعه سوى راحة بسيطة كل عدة ساعات لأداء الصلاة وتناول شيء من الطعام وربما أخذ قيلولة بسيطة لساعة أو ساعتين، سرنا في طريقٍ ترابية شديدة الوعورة، كنا نتقافز في الخلف في تناغم عجيب مع حركة السيارة التي تعلو تارة وتهبط أخرى. كان يبرز عن يميننا وعن شمالنا غاباتٌ تبدو مُوحشة وغير مأهولة بالسكان قبل أن يركن «هنتار» سيارته على الجانب الأيسر ويطلب منا النزول، فترجلنا من السيارة وحملنا حقائبنا وتبعناه حيث أخذ ينسل بين الأشجار والحشائش والأعشاب المرتفعة والتي كانت تحجب الرؤية بشكلٍ كامل. ولم يكن السيرُ هذه المرة على الأقدام بأهون من سابقه على السيارة، فجذوع الشجر والأشواك كانتا تتطلبان حذراً بالغاً وانتباهاً كبيراً، وما زاد الطين بلة أننا نجر خلفنا حقائب ثقيلة وضخمة. وبعد مسافة سيرٍ

Twitter: @ketab_n

ليست بالقصيرة وبعد أن تجاوزنا عدداً كبيراً من النباتات والأشجار الضخمة، وجدنا أمامنا كوخاً خشبياً، مُغطى سقفه بالخيزران، يقف وحيداً فريداً وسط هذه الغابة التي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم.

سبقنا «هنتار» بالدخول إلى الكوخ، وكانت فيه بعض القدور متنوعة الأحجام وعدد من السكاكين وأدوات الطبخ، بالإضافة إلى موقدٍ يعملُ بالخشب، وسرير خشبي، وخزانة ملابسٍ صغيرة. لم يكن الكوخ صغيراً جداً، كما أنّه لم يكن كبيراً أيضاً، كانت مساحته ملائمة لشخصين فقط، وعلى الرغم من أنني تصورته سيبدو بحال أفضل – نظراً للمبلغ الذي دُفع فيه- إلا أنّ أبرار ابتسمتْ وقالت لي بأنّه أفضلُ مما كانت هي تتوقع، ولستُ أعلم ما إذا كانت قد عنتْ هذا فعلاً أم أنّها كانت مجاملة منها ليس إلا، سيما وأنه لم يعد لدينا أي خيار آخر.

خرج «هنتار» وطلب منا أن نتبعه مجدداً، حيث سرنا وراءه وكانت الأرض المليئة بالأشجار تزداد انحداراً كلما تقدمنا، وبعد أن قطعنا قرابة مئتي متر وجدنا أمامنا منحدراً صخرياً وقد توقفنا على حافته وبدأنا ننظرُ من فوقه. كان في الأسفل مستنقع مُظلم تجمّعت فيه المياه بين الصخور التي أحاطت به وطوّقته وباتَ أشبه بدائرة يصل قطرها إلى ثلاثة أمتار، وكان هذا المستنقع المائي يتصل بالبحر ويفصله عنه مضيق صغير. وقد بدا هذا المكان مثالياً جداً ومخبأً ممتازاً لمن أراد أن يتوارى عن الأنظار. وحقيقة الأمر بأنّ الشاطئ والبحر برمّته في هذه المنطقة كان غير مأهولٍ ويبدو كما لو كان قد حلّ وباء فيه قضى على آخر آدمي وطئت قدماه هذا المكان. وكان يوجد عند هذا المنحدر

Twitter: @ketab_n

سلمٌ خشبي ينزلُ إلى المستنقع المائي الذي كان قد رُبط بأحد الصخور الناتئة منه قاربٌ خشبي متوسط الحجم يتسع لأربعة أشخاص تقريباً.

عُدنا إلى الكوخ وأعطيته بقية المبلغ المُتفق عليه بعد أن وقع «هنتار» على وثيقة تؤكد نقل الملكية ومن ثم رحل بعد أن تمنى لنا حظاً سعيداً وإقامة مريحة. كنا مُتعبين جداً وفي غاية الإنهاك بعد هذه الرحلة الشاقة، فبدأنا فوراً بتفريغ الحقائب ووضع الوسائد والملاءات القطنية، ومن ثم تناولنا عشاءً خفيفاً من بعض المعلبات التي جلبناها معنا وأوينا إلى الفراش وأغمضنا أعيننا للمرة الأولى في هذا الصقع المعزول وفي هذه البقعة المُوحشة من العالم بعد أن ساقتنا الأقدار إليها. كنتُ أنظرُ إلى أبرار نظرة حزينة قد أضناها التعب وأرقها القلق، وحين رأتني على هذه الحال أحسّت بي فوراً وقالت ضاحكة: «ابتسم يا أحمد، فنحن في هذا المكان سنعيشُ كالملكين تماماً، فلا يوجدٌ على هذا الشاطئ... أحدٌ سوانا، وأعدك أن لا تراني مُعظم الوقت إلا بلباس البحر!»

****

Twitter: @ketab_n

كنا مستلقيين على الشاطئ في منتصف الليل، وقد جمعنا خشباً وأشعلنا ناراً أخذنا نتدفأ بجانبها؛ إذ أنّ الجو كان يميلُ إلى البرودة. كان قد مضى على وجودنا في هذا المكان شهرٌ كامل عانينا خلاله الأمرين؛ حيث كنا مرغمين على تغيير الكثير من العادات التي ألفناها والتي عشنا عليها. لم يكن هناك كهرباء، ولا أجهزة تلفاز، ولا شبكة «إنترنت»، ولا يوجدُ تغطية نستطيع من خلالها الاتصال بهواتفنا الجوّالة، ناهيك عن أنني كنتُ قد تخلصتُ أصلاً من جوالي حينما كنتُ في الرياض ورميته في إحدى سلات المهملات خشية أن يتعقبوني من خلاله. لم يكن من السهل الحصول على الطعام والشراب؛ فكنتُ مضطراً للخروج من الصباح الباكر بالقارب الخشبي والذهاب إلى الصيد حيث أنتظرُ بالساعات قبل أن تغمز أخيراً سمكة في الصنارة، فأعودُ فرحاً بها، في الوقت الذي تكونُ فيه أبرار قد جلبت الخشب و الماء من إحدى الآبار غير القريبة، كي نبدأ في إشعال النار وشواء ما استطعتُ صيده ليكون طعاماً لنا.

كنتُ أتظاهر بالسعادة، وأدعي الأنس والسرور، إلا أنني في حقيقة الأمرُ كنتُ أشعر بالحزن والتعاسة في أعماقي، ولم يكن سببُ هذا الشعور أنني اضطررت للتخلي عن حياتي السابقة وأصبحتُ في هذه المكان المُوحش، ولكن لأنني أجبرت شابة لم تزل في مقتبل عمرها على أن تترك حياتها الناجحة وأن تهجر مهنتها المرموقة التي أفنت حياتها حتى وصلت إليها، وأن تتخلى عن العادات التي شكلت شخصيتها وباتتْ جزءًا لا يتجزأ منها وأن تعيش في هذا البقعة المعزولة عن الحضارة والبشرية.

Twitter: @ketab_n

- بصراحة يا أبرار، هل تشتاقين إلى الرياض؟ وهل تفتقدين العيادة؟

قلتها وأنا مستلقٍ على ظهري أنظرُ إلى النجومُ التي غطت السماء السوداء من فوقنا، وهديرُ الموج قد أضفى طابعاً من السكينة والشاعرية على المكان.

- ليس تماماً، في الواقع أنا لا أشتاق لأحدٍ آخر سواك، ووجودي معك هنا يُغنيني عن كل شيء.

وابتسمتْ ابتسامة مكلومة قبل أن تنقلب على جنبها الأيمن وتقول بحماسةٍ مفاجئة وهي تنظرُ إليّ:

- أتعلمُ يا أحمد، لقد كنتُ أفكر جدياً في الأيام الماضية، وقد توصلتُ إلى نتيجة حاسمة.

ومن ثم صمتت قليلاً قبل أن تُكمل:

- أريدُ أن ألدَ طفلاً منك. أشعرُ برغبةٍ عارمة في أن أمسك بطفلٍ بين يديّ، وأن أجده يلعب ويقفز بحيويةٍ ونشاط من حولنا، وأن يزعجنا بمشاكساته، وأن يضحكنا ببراءته، هذا ما أحلمُ به الآن.

لم أتوقع ذلك في حقيقة الأمر، وعلى الرغم من أنني شعرتُ بالسعادة والحماسة للموضوع إلا أنني بعد قليلٍ من التفكير بدأتُ أتردد:

Twitter: @ketab_n

- وأنا أيضاً أتمنى ذلك يا أبرار، ولكن ألم تفكري في حياة هذا الطفل وسط هذا المكان المعزول. كيف سنُوفر له الرعاية الطبية اللازمة؟! وكيف سنؤمِّن له التعليم المناسب؟! علينا أن ننظر إلى الصورة الكاملة وأن لا نكتفي بمشاهدة الجزء الإيجابي منها فقط.

- لقد فكرتُ بهذا وأخذتُ كل ذلك بالحسبان؛ أعدك بأننا سنؤمنُ له أفضل تعليم، وسنُوفرُ له أفضل حياة ممكنة.

- ولكن كيف؟ هل سنقوم بتعليمه في هذا المكان؟! ومن ثم فنحن بالكاد نجد الوقت الكافي لتوفير لقمة العيش لنا حتى نتمكن من استقطاعٍ جزء كبير منه من أجل تعليم طفلنا.

- كلا لم أكن أقصد ذلك.

صمتتْ أبرار لبعض الوقت قبل أن تقول بلهجةٍ جادة:

- اسمع يا أحمد، من الصعب أن نستمر بقية عمرنا في العيش هكذا! لقد كنتُ أفكر بأنّ الأمرَ هيّن وبأننا من الممكنُ أن نظل على هذه الحال طيلة عمرنا. ولكن أيقنتُ منذ الأسبوع الأول باستحالة حصول ذلك.

ومن ثم جلست بعد أن كانت مُستلقية وأردفت تقول بحماسةٍ كبيرة:

- لقد فكرتُ كثيراً بالأمر؛ بما أنه يُمكنني السفر والتنقل من دونِ مشاكل قانونية فسأحاولُ التواصل مع الأساتذة الجامعيين الأمريكيين

Twitter: @ketab_n

الذين درّسوني الماجستير والدكتوراه وأشرفوا علي وسأتصل كذلك بالجهة التي عرضت عليّ الوظيفة والجنسية إبان دراستي، وسأبلغهم عن استعدادي الكامل للانضمام إليهم. وهكذا سأعملُ في أمريكا وسأحصلُ على الجنسية الأمريكية، حيث سيسهل عليّ معها القيام بالكثير من الأمور.

قلتُ بنبرةٍ متوجسة وبحزنٍ لم يبدده شعوري بالسعادة من أجلها:

- وماذا عني أنا؟

- بالتأكيد لم أفكر بأي شيء من دون أن أضعك في حساباتي. أنوي في الفترة التي سأعمل خلالها في أمريكا أن أقوم بزيارتك بين الفينة والأخرى هنا في «هاييتي» إلى أن تهدأ الأمور وأشعر بأنّ الوقت أصبح مُلائماً لأن تتزوجني.

- ولكن أنا زوجك فعلاً!

ضحكت أبرار وأكدت:

- أعلمُ ذلك، ولكن أقصد حينما تأتي إلى أمريكا وتتزوجني هناك فستُصبح مواطناً أمريكياً أنت أيضاً لأنك تزوجت...

وقاطعتها:

- مواطنة أمريكية!

Twitter: @ketab_n

- بالضبط. وهكذا ستحظى بحياةٍ جديدة، وسينعمُ ابننا ببيئة مثالية يعيشُ فيها.

- إنّ كيدكن عظيم!

قلتها وأنا أضحك، وقد شعرتُ أخيراً بومضة أملٍ تلوح في الأفق.

****

Twitter: @ketab_n

كانَ هذا هو اليوم الأخير الذي ستقضيه أبرار هنا قبل أن تعود إلى العاصمة وتذهب إلى الولايات المُتحدة وتلاقي مسئولي الجامعة والأشخاص الذين كانت تعرفهم إبّان دراستها هناك. لم تكن قد اتصلت بهم بعد -لعدم وجود إرسالٍ أو تغطية- ولذلك فضلت أن تقابلهم شخصياً. وقد وعدتُها بأنّ هذه الليلة ستكون مُختلفة عن الليالي السابقة وبأنني سأصطاد سمكة هي الأضخم من بين جميع ما اصطدته من قبل.

خرجتُ منذ الصباح الباكر، وجلبتُ معي طُعماً مُختلفاً هذه المرة، حيث كانت قطعة لحم صغيرة أخذتها من عصفورٍ وجدته ميتاً قبل يومين وقد أضفت عليه توابل من النوع الذي يُحبه السمك كما لاحظتُ في الأسابيع الماضية. ولم يخب ظني فبعد انتظارِ عدة ساعات عُدتُ ومعي سمكتان كانت إحداهما متوسطة الحجم والأخرى كبيرة على الرغم من أنني سبق لي أن اصطدتُ أكبر منها إلا أنها بدت معقولة وحققت الحد الأدنى من الطموحات التي كانت تتملكني ذلك الصباح.

ركنتُ القارب في مكانه المعهود وتسلقتُ السلم الخشبي المعلق، وعدتُ إلى الكوخ وفتحتُ الباب وقلتُ بصوت عالٍ: «لقد عدت!» ولكن لم أجد أحداً في المكان. وضعتُ السمكتين وسط جذعٍ خشبي له غطاء في الخارج قد أعددناه خصيصاً لأجل هذا الغرض، وعدتُ من جديد إلى الكوخ وجلستُ أنتظر عودة أبرار التي لابد من أنّها مازالت لم تفرغ بعد من جلب الماء والحطب. مرَّ وقتٌ طويل وأنا على تلك الحال، وبدأ يُساورني القلق؛ فليس من عادة أبرار أن تستغرق كل هذه المدة لكي

Twitter: @ketab_n

تعود بالماء والحطب!

خرجتُ من الكوخ وبدأتُ أبحث من حولي وأنادي أبرار بصوتٍ عالٍ دون جدوى. أخذتُ أنقب المكان، وقصدتُ الجهات التي اعتادت أن تذهب إليها؛ فوصلتُ البئر وناديتها، وأماكن الاحتطاب وهتفتُ باسمها، ولكن لم ألقَ رداً ولم أسمع جواباً. تملكني الشعور بالخوف، وسيطرت عليّ الأفكار السوداوية؛ هل تعرضت أبرار لأمرٍ طارئ منعها من القدوم؟! وما قد يكون هذا الشيء؟! هل أصابها مكروه يا ترى؟! كنتُ أوشك على البكاء، وقد يئستُ من الإجابة، وقد نالني التعب من كثرة المشي، وأوشك صوتي أن يُبح من كثرة الصراخ، إلا أنني لم ألقِ بالاً لهذا وواصلتُ سيري وبحثي وهتافاتي.

وصلتُ إلى تلٍ منخفضة تملؤها الحشائش وتغطيها الشجيرات الصغيرة، وحين صرخت هذه المرة باسم أبرار تبادر إلى مسامعي صوتٌ مكتوم قادم من وسط تلك الشجيرات. اقتربتُ من مصدر الصوت وبدأت في تمييزه؛ كان صوت أنينٍ مكلوم. هرعتُ له فوراً وصُعقت حين رأيتُ أبرار ساقطة على الأرض وهي تُمسك بقدمها، فجثوت فوراً على ركبتيّ ووضعتُ يدي تحت رأسها ورفعته:

- هل أنتِ بخير يا أبرار؟ ماذا حدث لكِ؟!

كانتْ أبرار مُغمضة عينيها، حيث فتحتهما ببطء شديد، ومن ثم حانت ابتسامة حانية منها وقالت وهي تُشير إلى قدمها:

Twitter: @ketab_n

- أظن أنني تعرضتُ للدغة عقربٍ بينما كنتُ أجمع الحطب.

نظرتُ إلى قدمها وكانت متورّمة وقد انقلب لونها إلى الأزرق، وأحسستُ بأنّ صاعقة قد نزلتْ عليّ وحاولت تمالك نفسي وقلتُ وأنا أهم بالنهوض:

- سأذهبُ إلى الطريق الرئيس، سأبحثُ عن أحدٍ يوصلنا إلى أقرب مُستشفى.

أمسكتْ أبرار بيدي قبل أن أستوي قائماً ورددتْ بنبرةٍ أقرب إلى الهمس:

- لقد فاتَ أوانُ ذلك يا أحمد.. لقد فات أوان ذلك!

لم أستطع منع نفسي من البكاء:

- ما هذا الذي تقولينه يا أبرار! لن أسمح لكِ ولو لوهلة واحدة بأن تفكري بمثل هذا الأمر. نحنُ سنعيشُ معاً وسَنظل سوياً طيلة عمرنا.

كنتُ أبكي بحرارة، وقد بدأت الدموع بالنزول من عينيّ أبرار وهي طريحة الأرض وقد طوقتها يداي وقالت وهي تبتسمُ بحسرة:

- كم كنتُ أتمنى ذلك!

- ليستْ أمنية فقط! بل هو واقع، نعم واقع يا أبرار. ألم تقولي

Twitter: @ketab_n

إننا سنذهب إلى أمريكا وسنعيشُ عيشة هانئة لا يكدر صفوها شيء؟! ألم تكوني تنوين إنجاب طفلٍ يملأ حياتنا ويزيدُ سعادتنا سعادة! لماذا بدأتِ تستسلمين الآن ونحن في منتصف الرحلة! لماذا تريدين التوقف ونحن لم نبلغ الغاية! لماذا تسقطين ونحن لم نصل إلى نهاية سلم أحلامنا وطموحاتنا!

كنتُ أبكي بكاء الطفلِ الصغير، في الوقت الذي كانت أبرار تتنفسُ فيه بصعوبة وتبكي بصوتٍ مكتوم قد كبّله السم الذي انتشر في جسدها وكبح جماحه:

- هناك سِرٌّ أريدُ البوح به لك قبل فواتِ الأوان.

كانت تتحدث بصعوبةٍ بالغة وتجاهدُ نفسها من أجل أن يكون صوتها مسموعاً:

- لقد علمتُ من الوهلةِ الأولى يا أحمد بأنّك لست مُصاباً بالفصام وبأنّ عُمرك الحقيقيَ هو ما ذكرته لي بالضبط، نعم كنتُ أعلم ذلك ولكنني لم أرد أن أخبرك لكي لا تشعر بالارتياب أو الخوف، ولكي لا تكون هناك ثمة حواجز تمنعك من التصرف على طبيعتك. لقد أردتك يا أحمد أنْ تشعر بالأمن والأمان ولو لفترةٍ وجيزة من عُمرك! سامحني لأنني ظللتُ أخبرك عن اعتقادي بأنك متوهم ومريض.

قلتُ بصوتٍ متهدج وأنا أجاهد شهقاتي وأقاوم زفراتي:

- أنا من عليه أن يطلب الصفح والغفران! وأنا من يجب عليه أن يسألك أن تسامحيه! ما كان عليّ أن آتي بك إلى هذا المكان المُوحش.

Twitter: @ketab_n

وما كان عليّ أن أحرمكِ حياتك العلمية الناجحة وأجعلك تتخلين عن كل أحلامك وطموحاتك وتأتين معي إلى هذه الأرض النائية! لقد دمرّت حياتك وجررتُ عليك الويلات بسبب أنانيتي. ما كان عليّ أن آتي بك إلى هنا بل كان يجب أن تبقي هناك وأنْ تواصلي حياتك المثالية وأن أواجه أنا –وحدي- عاقبة الأخطاء التي ارتكبتها! سامحيني يا أبرار، سامحيني أرجوكِ!

كانتْ أبرار قد أغمضت عينيها في الوقت الذي كان الدمع لا يزال ينهمر منهما، وقد ازداد نفسها صعوبة هذه المرة، وشعرتُ بأنّها لم تعد تسمعني، وقبل أن أنادي باسمها فتحتْ عينيها وأمسكتْ يدي بكلتي يديها وشعرتُ بأنّها تستجمع قواها الأخيرة لتقول شيئاً ما:

- لستَ بحاجةٍ إلى طلب السماح يا أحمد. لقد عشتُ أجمل فتراتِ حياتي معكٍ، ولستُ نادمة على زواجي بك ومرافقتي لك، بل لو عادَ بي الوقت لاتخذتُ نفس القرار مرة أخرى. سأظل دائما فخورة وممتنة بأنني عرفتك وكنتُ قريبة منك.

حينها ابتسمتْ أبرار، وأنا بدوري غرقتُ في بكائي ونحيبي على صدرها، وبدأتُ أشعرُ بقبضتها ترتخي شيئاً فشيئاً إلى أن سقطت يداها على الأرض ونظرتُ إليها فوجدتُ عينيها شاخصتين إلى السماء.

Twitter: @ketab_n

الفصل الأخيـــر

لا أعلمُ على وجه الدقة كم مرّ عليّ من السنين، ولستُ أدري على وجه اليقين كم مضى عليّ من الأعوام. لقد أصبحتُ جسداً بلا روح، و بِتُّ أشبه بصحراء جرداء لا نبع فيها ولا ماء. كانت الأيام تمرُّ عليّ بطيئة جداً؛ الدقائق فيها أشبه بالساعات، والساعاتُ أشبه بالأيام، والأيام كالشهور، والشهور كالأعوام. أصبحتْ حياتي مجرد ترقب وانتظار لتلك اللحظة التي سألفظُ فيها آخر أنفاسٍ لي. أعلم أنني لن أخلّد على الأرض، وأنا موقن بأنّني سألقى الأجلَ المحتوم؛ وآمل أن يكون ذلك عاجلاً غير آجل، فأنا أتشوق حرقة للّحظة التي يأتي فيها الموت ويستلّ الحياة من جسدي بعد أن فقدتْ روحي حياتها منذُ أمدٍ بعيد!

لم أعد أعلمُ تاريخ الأيام والمناسبات، بل ولا أدري كم بلغتُ من العمر الآن؛ أظنني أصبحتُ على أعتاب الثمانين، من يدري؟! على أية حال، لم يعد أمري خافياً هنا وصرتُ معروفاً لدى القرويين الذين كانوا يلمحونني أحياناً منطوياً منزوياً على نفسي بعيداً عن الناس، حتى بِت ألاحظ مَن يأتي منهم مع مجموعةٍ من السياح، يُشير ناحيتي فينظرون إليّ من بعيد بتعجب وانبهار ويُتمتمون فيما بينهم. لربما كانت عُزلتي وغرابة أطواري وشعري الطويل الأبيض وهيأتي الرثة سبباً كافياً في

Twitter: @ketab_n

جعلي محل استغراب الأهالي وحيرتهم، ولربما صرتُ فيهم مع الأيام أسطورة تُروى للأجيال.

إن أتى الموتُ واستل روحي من جسدها فهذا ما أنتظره وقد نلتُ بُغيتي أخيراً، وإن لم يأتِ وقُدِّر لكم أن تزوروا «هاييتي» يوماً، فاسألوا عن أسطورةِ الفتى الغريب، الشاب العجوز، ذي الشعر الأبيض!

تمت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثمانون عاماً في انتظار الموت!

أحمد، رجلٌ مُسِن بلغ الخامسة والستين من عمره، ولكن وبسبب خللٍ جيني توقف نموه عند سنّ الثامنة عشرة، فأصبح من يراه يظنه فتىً يافعاً لايزال في مُقتبل عمره وفي أوج مراهقته. ولم يكتشف أحمد هذه المشكلة و يلحظ هذا الخلل إلا بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره. وقد قرر بعد إلحاح متواصل من رفيق دربه مازن بأن يزور طبيباً متخصصاً يكشف الداء ويصفُ الدواء.

زيارة الدكتور معتز أسهمتْ في إيقاظ أحمد من سباته و تنبيههِ من غفلته، بعد أن أبلغه الدكتور عن مدى جدية الموضوع وعن حجم خطورة حالته؛ فقد يكون أحمد هو المفتاح الذي يؤدي إلى إيجاد مصلٍ ودواءٍ من شأنه أن يكفل بقاء الشباب وأن يحفظ للمرء فتوته وقوته، وتكمن الخطورة في أن الأمر قد يتطلب إجراء بعض الفحوصات العميقة والتي لا يُمكن التوصل إليها إلا عن طريق تشريح جثة أحمد!

يجدُ أحمد نفسه بعد ذلك مُجبرًا على دخول عالم الجريمة، بعونٍ من الدكتور معتز، من خلال لجوئه إلى تزوير هويته والوثائق الأخرى ذات الصلة؛ ليبدو عُمره موافقًا لمظهره الخارجي لئلا يلفت أنظار من حوله، لاسيما بعد أن سرّبت إحدى الممرضات خبره إلى عصابة أجنبية. كما أنه يضطر إلى تغيير عاداته وروتينه بشكل كامل وإلى تقديم العديد من التضحيات الجسيمة من أجلِ سلامته وسلامة من حوله.

ISBN 978-9948-425-28-1

9 789948 425281

Madarek مدارك
Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر